الإيهام

قراءة في منهجية (الأغاني) و(مروج الذهب)

تأليف
أ. م. د. يوسف طارق السامرائي





قراءة في

منهجية (الأغاني) و(مروج الذهب)

تأليف

أ. م. د. يوسف طارق السامرائي





قراءة في

منهجية (الأغاني) و(مروج الذهب)

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/٩/٣٢٦٧)

نسخة / مركز الإيداع ٢٤٥

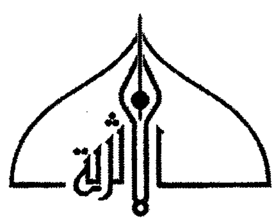
السامرائي، يوسف طارق
الأبهام قراءة في منهجية الاغاني ومروج الذهب / يوسف طارق السامرائي .- عمان:الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٢

( ) ص .
ر. إ. : ٢٠١٢/٩/٣٢٦٧
الواصفات : /الاسلام//الدفاع//التاريخ العربي الاسلامي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

-الطبعة الأولى-

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م



للطباعة والنشر والتوزيع
Telfax: +962 6 5658045
Mob. : +962 79 5943456
P.O.Box: 925595 Amman - Joordan
E-mail: alatharya1423@yahoo.com

الإهداء

- إلى نجمة في سمائي غابت
- بلا وداع رحلت
- بهدوء الأنبياء
- لم تترك خلفها من وصية
- وأنا امتهن الغربة الشقية
- إلى روح أمي أهدي كتابي هذا

... يوسف



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي المنن، رافع السماء بلا عمد ، سابغ النعم ، مَنَحَنَا عقلاً سَوِيًّا، وهدانا صراطاً قويماً ، ووَهَبَنا نَبِيًّا أَميناً .

بنورِه هدانا ، ومِن الغفلة نجّانا ، ونُصلِّي ونُسلِّم على سيِّدنا محمدٍ ما قام مُصَلٍّ، وما رَفَعَ مُؤَذِّنٌ أذاناً .

إنَّ مَن يقرأ في كتب تاريخ الأدب ، يتعثَّر بأكوامٍ مِن روايات لو اختلطت بمياه البحار جميعها لأسن؛ لِـمَا تحملُه من زيف وتشويه وخرافة وغرابة ومبالغة فقد غدا التاريخ عند بعض رواة الأدب خاصة متحفاً لصنوف الإيهام.

ومِن بين تلك الكُتب اخترنا كتابين لشهرتهما أولاً ، ولكثرة مافيهما من إيهام، فقد اخترنا كتابَي «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني، و«مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي، فهذا الأخير قد صَدَمَتْنا رواياتُه ونحن في بواكير التعلُّم الأولى ، ومنها روايته في أسباب انهيار سد مأرب فقد أرجعها إلى جرذان بحجم الخراف ، وكانت تحرك صخوراً لا يقدر على تحريكها خمسون رجلاً، وتوالت الأخبار والروايات في الكتاب وكذا الاغاني ، وكلها تستهزئ بعقل ومشاعر المتلقي .

وقد تنبه القدماء إلى ذلك ، ومنهم ابن خلدون في مقدمته إذ أشار بدقة وحصافة إلى مواطن الخلل تلك، ورد عليها ردوداً تنم عن حرص على الدين، وعلى فَهمٍ واعٍ بحقائق الأعداد .

وأما الإمام الذهبي فيقول في كتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»:

«إن الأصفهاني متهم في أمانته الأدبية والتاريخية؛ لأن الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب يحدثنا ويخبرنا ، فمن يقرأ الأغاني يرى حياة العباسيِّين حياة لهوٍ ومُجون وغناء كلها، وهذا يناسب المؤلف وخياله وحياته من حوله».

وقد تابع بعض المحدثين ابن خلدون والذهبي ، إشارة كما في كتاب د.شوقي ضيف «العصر العباسي الأول» إذ يقول:

«ومن يقرأ الأغاني لأبي الفرج يخيل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورَّطوا في إثمها تورطاً ، حقًّا إن أبا الفرج حاطب ليل لا يَسلَم منه شريف ولا وضيع».

أو توضحيًّا وتفصيلاً كما في كتاب «السيف اليماني في نحر الأصفهاني» للشاعر المرحوم وليد الأعظمي .

أما في كتابنا هذا فقد قسمناه إلى بابين، الباب الأول انشغل بعنوان الطعن في العرب والمسلمين ، لما وجدناه في الكتابين من روايات وأخبار تشير بدقة إلى ذلك، فخصص الفصل الأول للبحث في الطعن في الإسلام والمسلمين في

الكتابين وقد اشتمل على مباحث بدأناها بالطعن في الإسلام عامة ، ثم الطعن في عمودَي الإسلام الأنصار وقريش ، والطعن في آل البيت ، والطعن في الصحابة وأبنائهم ، ثم الطعن في أصحاب المذاهب والعلماء .

أما الفصل الثاني فكان مخصصاً لما أورداه من طعن في العرب والعروبة، وفي هذا الفصل أوضحنا دوافع ذاك الطعن قبل الإسلام وبعده ، واشتمل على مباحث أخرى مثل الطعن في القبائل ، وما أظهراه من عصية قبلية ، وماذكراه من أيام العرب ، ومثالبهم ، وما يحط من شأنهم ، وما ذكراه من شخصيات كانت تختار ما يُسيئ إلى العرب والعروبة ، وإذا ما اختارَا رموزاً شَوَّها تلك الرموز ، في مقابل ذلك خصَّصنا مبحثاً لمدح البرامكة وهو مظهر المدح الأوحد، وكان للطعن في النساء عامة والشريفات منهن خاصة.

أما الباب الثاني فقد خصصناه لما أسميناه الاغراب ، وقد انشغل هذا الباب بثلاثة فصول ، أولها التناقض ، وفيه التناقض في ذكر الأسماء ، والتناقض في رسم الشخصيات ، والتناقض المنطقي والتناقض في ذكر الاحداث ، ومن بعد كان التناقض في ذكر الأعداد والتواريخ .

أما الفصل الثاني منها ، فقد خُصِّص للمبالغة في الكتابين ، ومِن مباحثه المبالغة في أموال العطاء، والمبالغة في ذِكر الأعداد، وفيه مبحث قد خصَّصناه للإيغال في المبالغة ، وآخَر للبعد عن المألوف، ثم ما وقعَا فيه من أغلاط علمية، ومن خرافات متعددة، ومن الخرافات ما كان في علاقة الإنسان بالحيوان أو علاقته بالجن .

وكان الفصل الأخير قد خُصِّص لتوافق المبالغة مع كتاب «ألف ليلة وليلة» وأهم ما جاء بين هذه الكتب الثلاثة من موافقات في مظاهر، مثل: الإغماء، والموت المفاجئ، أو السقوط بسبب السُّكْر، أو مدح البرامكة، أو التطيُّر، أو الترف والبذخ، فالبناء الدرامي.

نسأل الله -تعالى- أن يجعل أعمالنا في ميزان حسناتنا، وأن يتقبَّله خالصاً لوجهه، وما أصبنا فيه فهو بفضل الله وبفضل من علّمنا، وما كان فيه من خلل أو نقص فهذا هو ديدن الإنسان.

أدعو من الله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المؤلف

٣٠/١٢/٢٠١١

التمهيد

سيرة أبي الفرج الأصفهاني والمسعودي

لا بُدّ لنا ونحن نبدأ خطواتنا في هذا المؤلَّف أن نطَّلع على سيرة هذَيْن المؤلِّفَيْن، حتى ننطلق من أساسٍ راسخ نحو سَبْر أغوار كتابَيهِما؛ فأولهما هو:

☐ أبو الفرج الأصفهاني:

هو: «علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن .. ، صاحب كتاب «الأغاني» وكتاب «أيام العرب»، ذكر فيه ألفاً وسبع مئة يوم من أيامهم، وكان شاعراً أديبًّا كاتباً، عالماً بأخبار الناس وأيامهم»[1] .

«كان يحفظ الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المُسنَدة والأدب والنسب، ولمْ أرَ قَطّ مَن يحفظ مثله، ويحفظ دون ذلك من علوم أُخرَى منها اللغة والنحو والسِّيَر والمغازي .

ويقال أنه جمع كتاب «الأغاني» في خمسين سنة، وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه»[2] .

---

(١) «البداية والنهاية» ابن كثير، ، ٦/ ٢٨٠ ، وينظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي،٣/ ١٣٥ .

(٢) «شذرات الذهب» أبو الفلاح ابن العماد الحنبلي، ٣ / ١٩، وينظر تاريخ ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر الكندي، تحقيق علي شيري ،١/ ٢٨٤ .

وقال عنه الذهبي : «صاحب «الأغاني» كان بصيراً بالأنساب وأيام العرب، جيد الشعر ، وقال عنه أبو علي التنوخي كان أبو الفرج يحفظ من الشعر والأخبار والأغاني والمسندات والنسب ما لمْ أرَ قط من يحفظ مثله ، ويحفظ اللغة والنحو والمغازي» [1].

«كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار ، وأيام الناس ، والشعر ، والغناء ، والمحاضرات ، يأتي بأعاجيب (بحدثنا وأخبرنا)، وكان طلبه في حدود الثلاث مئة ، فكتب ما لا يوصف كثرة ، حتى لقد اتُّهِم ، والظاهر أنه صدوق .

وقال أبو الفتح بن أبي الفوارس : خلط قبل موته ، ومات سنة ست وخمسون وثلاث مئة في ذي الحجة ، قال : ومولده سنة أربع وثمانين ومئتين» [2].

«وكان قد وُلد في أصبهان ، ونشأ وتوفي ببغداد» [3] .

«وقال ابن أبي الفوارس: خلط قبل موته» [4].

وهو غزير الانتاج ، وقد تنوَّعَت مؤلَّفاته ، فكانت بعلوم شتى ، فمِن مؤلفاته: الأغاني ، ومقاتل الطالبين، والقيان ، والإماء الشواعر ، والديارات ، والحانات ، ومآثر العرب ومثالبها ، والخمارون والخمارات » [5] .

---

(١) «سير أعلام النبلاء » الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ١٦/ ٢٠١ .

(٢) «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»الذهبي ٤ / ١٣٥، وينظر «البداية والنهاية» ٦/ ٢٨٠ .

(٣) ينظر «الأعلام» الزركلي ،٤/ ٢٧٧ .

(٤) «سير أعلام النبلاء » الذهبي ، ١٦/ ٢٠١ .

(٥) «سير أعلام النبلاء » الذهبي ، ١٦/ ٢٠١ ، «إنباه الرواه»، القفطي ، تحقيق محمد أبو الفضل، ٢/ ٢٥١ .

«وحصل له ببلاد الأندلس كتُب قد صنفها لبني أمية وسيَّرها إليهم سرًّا وجاء إنعامهم وعطاؤهم، منها: نسب بني عبد شمس، وكتاب أيام العرب»[1].

فنلحظ فيما يأتي من هذا الإنتاج نوعية مؤلفاته، فقد تنوَّعَت بعدة محاور نجملها بـ:

١- مقاتل الطالبين، وأيام العرب.

٢- كُتُب عن القيان والجواري والإماء، والحانات والخماريين والخمارات، وهذه الكتب توضح مسار حياته وانخراطه في حياة اللهو والعبث.

٣- كُتُب في مثالب العرب، ونزعم أن كتاب الأغاني يقع ضمن هذا النوع من الكتب وإن كان لم يصرِّح بذلك في كتابه غير أن مجموع ما أورده وما أوضحناه يُدلِّل بلا شك على ذلك وقد انتبه القدماء إلى ذلك.

«قال ابن الجوزي: ومثله لا يوثق به، فانه يصرح في كتبه بما يوجب العشق ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى فيه كل قبيح ومنكر»[2].

إن ابن الجوزي[3] هنا يطعن في الأصفهاني، وكذلك في كتابه الأغاني طعناً

---

(١) ينظر المصدر نفسه ١٥/ ٥٦٩، وينظر «يتيمة الدهر»، الثعالبي، ٣/ ٦٠٦.

(٢) «البداية والنهاية» ابن كثير، ٦/ ٢٨٠.

(٣) ابن الجوزي الإمام الحافظ المفسر، شيخ الاسلام، مفخر العراق، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي التيمي البكري البغدادي الحنبلي، له نحو ثلاث مئة مصنف في=

صريحاً لا لبس فيه ، وابن الجوزي لا يخفى علمه ومنزلته ، وقال عنه أبو علي النوبختي نقلاً عن الخطيب البغدادي إذ يقول : « حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن القاسم بن طباطبا العلوي ، قال : سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختي ، يقول : كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها»[1].

ويؤكد هذا الكلام ، الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال ، عن الطريق نفسه فيقول « قال الخطيب : حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوي ، سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختي ، كان يقول : كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس ؛ كان يشتري شيئاً كثيراً من الصحف ، ثم تكون رواياته كلها منها » [2] .

وتحدث القدماء عن أخلاقه وسلوكه وهيئته ، قال الذهبي : « كان وسخاً زريًّا يتَّقون هجاءه » [3] ، ويقول شهاب الدين ياقوت الحموي : « وكان وسخاً

=علوم كثيرة ، كتب منها مئتين بيده ، كان حسن السيرة فقيهاً علياً بالإجماع والاختلاف ، وفي السير والتاريخ فقيهاً ، (٥٩٧هـ) ، ينظر «سير أعلام النبلاء»، الذهبي ، ٢١/ ٣٦٧، و«البداية والنهاية»، ابن كثير ، ١٣/ ٢٨ ، «الأعلام»، الزركلي ، ٣/ ٣١٦ .

(١) «تاريخ مدينة السلام » الخطيب البغدادي ، ١٣/ ٣٣٧-٣٣٨ ، وينظر «إنباه الرواة على أنباء النحاة»، القفطي ، ٢/ ٢٥١ .

(٢) «ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ٣/ ١٣٥-١٣٦ .

(٣) «سير أعلام النبلاء » ١٢/ ٢٥٦ .

قذراً لم يغسل ثوباً منذ فصَّله إلى أن قطعه ، وقال عن المهلّبي وهو من وزراء البُويهيِّين ، أنه كان وسخاً في نفسه ، ثم في ثوبه ونعله ، حتى أنه لم يكن ينزع دراعة إلّا بعد إبلائها وتقطيعها ولا يعرف لشيءٍ مِن ثيابه غسلاً »[1] .

ويروي الحموي أيضاً رواية تدلل على ضعة نفسه وعلى قذارة يده ويقول «قال ابن الصابئ : وحدثني جدي أيضاً قال : قصدت أنا وأبو علي الأنباري وأبو العلاء صاعد دار أبي الفرج لقضاء حقه وتعرف خبره من شيء وجده ، وموقعها على دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي ، وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا ، فدق الباب دقًّا عنيفاً حتى ضجر من الدق وضجرنا من الصبر ، قال : وكان له سنور أبيض يسمِّيه يققا ، ومن رسمه إذا قرع الباب قارع أن يخرج ويصيح إلى أن يتبعه غلام أبي الفرج لفتح الباب أو هو نفسه ، فلمْ نرَ السنور في ذلك اليوم ، فأنكرنا الأمر وازددنا شوقاً إلى معرفة الخبر ، فلما كان بعد أمد طويل صاح صائح أن « نعم » ، ثم خرج أبو الفرج ويده متلوثة بما ظنناه شيئاً كان يأكله فقلنا له : عقبقناك بأن قطعناك عمّا كان أهم من قصدنا إياك .

فقال : لا والله يا سادتي ، ما كنت على ما تظنون ، وإنما لحق يققا يعني سنورة قولنج ، فاحتجت إلى حقنه فأنا مشغول بذلك ، فلما سمعنا قوله ورأينا الفعل في يده ورد علينا أعظم مورد من أمره لتناهيه في القذارة إلى ما لا غاية

(١) «معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » شهاب الدين ياقوت الحموي، تحقيق عمر فاروق الطباع ،٥/ ٥٩ .

بعده وقلنا : ما يجوز أن نصعد إلى عندك فنعوقك عن استتمام ما أنت فيه ، وإنما جئناك لنعرف خبرك ، وقد بلغنا ما أردناه وانصرفنا »[1] .

وتابع المحدِّثون القدماء في رأيهم في الأصفهاني ، وعياً منهم بخطورة طرحه وانحراف منهجيته ، يقول د .شوقي ضيف : « ومن يقرأ الأغاني لأبي الفرج يخيل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورطوا في إثمها تورطاً ، حقًّا إن أبا الفرج حاطب ليل لا يسلم منه شريف ولا وضيع »[2] .

وقد انشغل الشاعر المرحوم (وليد الاعظمي) بهذا الهمّ فألَّف كتابه «السيف اليماني في نحر الأصفهاني» ليوضع مسائل تبيّن افتراءاته وجرأته على الدِّين .

□ **المسعودي :**

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي [3] .

«ذكره محمد بن إسحاق النديم فقال هو من أهل المغرب ، مات فيها بلغني آخر سنة ست وأربعين وثلاث مئة بمصر .

وقال مؤلف الكتاب : وقول محمد بن إسحاق : أنه من أهل المغرب غلط

---

(١) «معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ٥/ ٦٤– ٦٥ .

(٢) «العصر العباسي الأول » ص٥٧ .

(٣) ينظر «سير أعلام النبلاء »، الذهبي ، ١٢/ ٦١، و«الأعلام»، الزركلي ، ٧/ ٢٢١ .

لأن المسعودي ذكر في السفر الثاني من كتابه المعروف بـ«مروج الذهب» وقد عدّد فضائل الأقاليم، ووصف هواها واعتدالها ثم قال: « وأوسط الأقاليم إقليم بابل الذي مولدنا به، وإن كانت ريب الأيام أنأت بيننا وبينه »[١].

«توفي سنة خمس وأربعين وثلاث مئة »[٢].

قال فيه الذهبي « كان إخباريًّا صاحب ملح وغرائب وعجائب وفنون، وكان معتزليًّا، أخذ عن أبي خليفة الجمحي، ونفطويه »[٣].

وقال فيه ابن عماد الحنبلي « رحل وطوف في البلاد وحقق من التاريخ ما لم يحققه غيره وصنف في أصول الدين »[٤].

من مؤلفاته « مروج الذهب، وأخبار الخوارج، وأخبار الأمم من العرب والعجم، وفي أسماء الأئمة والاستبصار في الإمامة، وأسماء القرابات، وذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور، وكتاب الاستذكار لما مر من سالف الأعصار، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وهو غير المسعودي الفقيه الشافعي »[٥].

---

(١) «معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ياقوت الحموي ٥/ ٥٧. وينظر «الفهرست» ابن النديم، ص٢٤٨.

(٢) «سير أعلام النبلاء »، الذهبي، ١٢ / ٦١، وينظر «الأعلام»، الزركلي، ٧/ ٢٢١

(٣) المصدر نفسه ١٥ / ٥٦٩ .

(٤) «شذرات الذهب » ٢ / ٣٧١ .

(٥) ينظر «الفهرست » ابن النديم، ص ٢٤٨، «الأعلام»، الزركلي، ٤ / ٢٧٧ .

يقول فيه محقق كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»:

« وتُجمع المصادر على أن المسعودي كان من كبار المؤرِّخين المسلمين الذين جابوا الأقطار وتحملوا مشاق الأسفار بحثاً وراء المعرفة والحقيقة ، وهذا البحث نلمح فيه اقتفاءً لرجال الحديث واللغة الذين تكبّدوا كثيراً من المشقة والعناء في سبيل جمع الحديث ضمن منهج وصفي واضح يرتكز على الواقعية والتقريرية ، ويعتمد الرحلة والمشاهدة والمشافهة وصولاً إلى الغاية التي فيها صحة المصدر وسلامة النقل ، ولذا نرى المسعودي يجوب الأقطار وينتقل في الأقاليم المتفرقة ، ويقضي فترة طويلة من عمره في حل وترحال متجاوزاً حدود الدولة الإسلامية وأقاليمها إلى غيرها من الأمصار البعيدة تحقيقاً لقفزة نوعية في كتابة التاريخ تعتمد على معاينة الحقائق وتسجيل المَشاهِد والتقرّي المباشر ، وتأنف من الخط التقليدي في كتابة التاريخ ، ذلك الخط المرتكز على النقل من بطون الكتب والاكتفاء بالتصنيف والترتيب المملين »[1] .

يبدو أن المحقق لم يطلع على آراء ابن خلدون ومن قبله الذهبي حينما قال «كان إخباريًّا صاحب غرائب وعجائب »[2] .

وقال فيه ابن خلدون وفي غيره من الإخباريِّين « اعلم أن فنَّ التاريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ١ / ج ١

(٢) ينظر «سير أعلام النبلاء » ١٢ / ٦١ .

الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك ودولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتفاء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبُّت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ؛ لأن الأخبار إذا اعتُمِد فيها على مجرد النقل ولم تُحكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قِيسَ الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمَن فيها من العثور ومزلّة القدم والحياد عن جادة الصدق.

وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادها فيها على مجرد النقل غثًّا أوسميناً لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها في معايير الحكمة والوقف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلُّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، سيّما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد مِن ردّها إلى الأصول وعرضها على القواعد .

وهذا كما نقل المسعودي وكثيرٌ من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التِّيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ست مئة ألف أو يزيدون ، ويذهب في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك

حصة من الحامية تتسع لهم وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها، تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة .

ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يَبعُد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيقِ ساحة الأرض عنها وبُعدِها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاث أو أزيد ، فكيف يَقتَتِل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جانبه لا يشعر بالجانب الآخر، والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء .

ولقد كان مُلْك الفرس ودولتهم أعظم من مُلْك بني إسرائيل بكثير ... وكانت ممالكهم بالعراق وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه .

وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مئة وعشرين ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف »[1] .

هكذا هو وعي المؤرِّخين الحقيقيِّين ، وهذه المنهجيَّة يتبعها في أكثر من موضع مهاجماً المسعودي وسواه من لم يُحكِّموا عقولهم ووعيهم في إيرادهم الأخبار ، فجاؤوا بالغث والسمين عامدين أوساهين ، يقول ابن خلدون : «من الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة

---

(١) «المقدمة » ابن خلدون ، ص١٥ .

من قصة العبّاسة -أخته- مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذِنَ لهما في عقد النكاح دون الخَلْوَة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وأن العبّاسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبّه حتى واقعها ، زعموا في حالة السكر فحملَت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب ، وهيهات ذلك من منصب العبّاسة في دينها وأبويها وجلالها وإنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده .

والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن السجاد بن علي -أبي الخلفاء- ابن عبد الله -ترجمان القرآن- ابن العباس عم النبي ﷺ ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فأين يُطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين تُوجد الطهارة والذكاء إذا فُقِدَا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف .

وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المصنف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء

ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس .

وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبَعُدَ صِيتُهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم .

يقال أنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حِجره، ودرج من عشه، وغلب على أمره، وكان يدعوه يا أبتِ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وسيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء ، وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفَكُّوا العاني ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم »[1] .

---

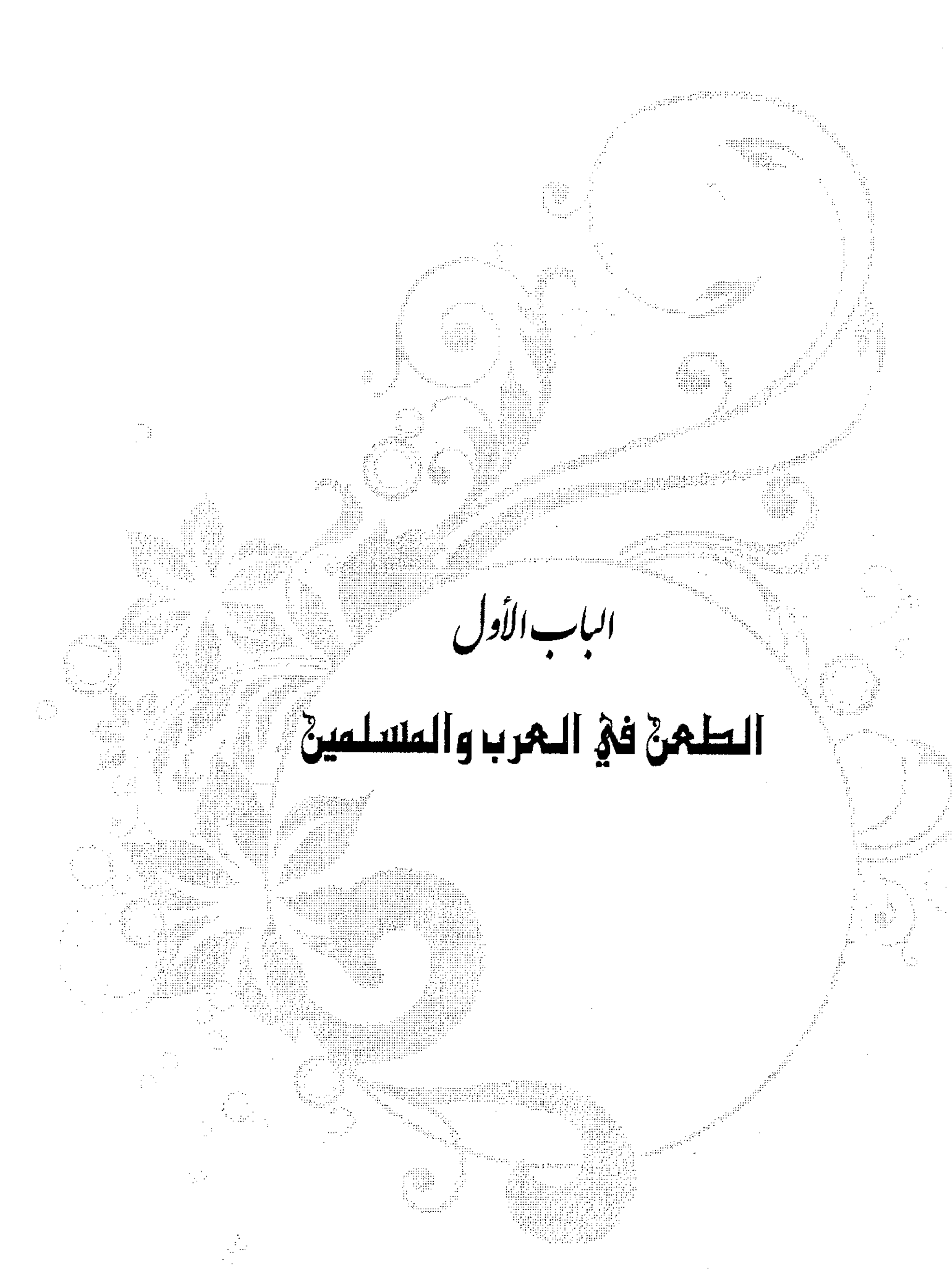
(١) «المقدمة» ص١٩ .

هكذا حاسب ابن خلدون مَن تقدَّمه مِن مؤرِّخين ورواة بميزان عقلي منطقي ؛ بعيداً عن الأهواء ، وملتحماً مع الواقعية العلمية فتجلّت له حقائق الأشياء ، وتوضحت أمامه دسائس ما أراده بعض المؤرِّخين فأوردها ونقدها نقداً بنّاءً .

وهكذا كان رأيه في المسعودي إذ جرّد أخباره من الزيف والدس والافتراء ؛ وأوضح منهجيته البلهاء في إيراد الأخبار ؛ التي إذا ماعرضت على العقل نفاها وامتنع عن التصديق بها .







الباب الأول

الطعن في العرب والمسلمين



إذ إنّ العربي يمتلك خصوصية فذة أهّلته لإنسانية التعامل مع الآخر ؛ فنشأ متفرداً بخصال تجلي إنسانيته، غير أن ذلك كان دافعاً لأعداء شتى لأن ينالوا منه؛ لأسباب مادية قبل الإسلام، وعَقَدِيّة دينية بعده.

فهذا كسرى يطعن في العرب؛ حينما قَدِم عليه النعمان بن المنذر، وعنده وفود الروم، والهند، والصين، فقام النعمان يفتخر بالعرب ولم يستثن أمة، فقال كسرى:

«لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حال مَن يقدم عليّ مِن وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع أُلفتِها، وعظم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق بنيانها، وأن لها ديناً يُبيِّن حلالها وحرامها، ويرد سفيهها، ويقيم جاهلها.

ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعتها، وطيب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وفروسيتها وهمتها، وأن لها ملكاً يجمعها.

والتُّرك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيهم، وتدبر أمرهم.

ولم أرَ للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دِين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة،

ولا عقل ولا حكمة، مع إن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها، محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع، لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قَرَى أحدُهم ضيفاً عدّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدّها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر رجالهم»[1].

وقد ردّ النعمان بن المنذر على افتراءاته على العرب، فمما قاله: « فأي أُمَّة تقرنها بالعرب إلا فضلتها، قال كسرى : بماذا؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها وحسن وجوه بأسها وسخائها ، وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها»[2].

ويذكر النساء فيقول: « ونساؤهم أعف النساء... وأما وفاؤها، فإن أحدهم يلحظ اللحظة، ويومئ الإيماءة فهي ولث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه.... وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيُصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته»[3].

---

(١) «العقد الفريد» ابن عبد ربه الاندلسي ٢/ ٦-٧.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٧ .

(٣) ولث: العهد غير الاكيد ، ينظر، القاموس المحيط، الفيروز ابادي، مادة / ولث، ص١٧٨ .

وهو يذكر - هنا- النساء، وسنرى لاحقاً مدى الحيف الذي أصابهن مِن قِبَل هؤلاء الأعداء؛ ويقول كسرى أيضاً لواحد من العرب « هذا فعل الحكماء وكلامهم وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم، فما غذاؤك؟ قال: البُر، قال كسرى: هذا العقل من البُر، لا من التمر واللبن»[1].

وكأنّما العرب بلا عقول، وإن جاءهم العقل فمن غذائهم، وما بال التمر ذاك الثمر الذي تعظمه العرب، وقد عظمه الرسول ﷺ.

ومن البدهي القول، أن مطاعن الأصفهاني في كتابه «الأغاني»، والمسعودي في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، كلاهما قد غرق في أقوال كسرى وتمثلها حرفاً حرفاً، حتى غدت كتبهما ترجمة لأقوال كسرى، وتتبعاً لمطاعنهما، حتى إذا ما وجدا مكرمة عمّيَا عليها وغيّباهَا، فأضحت كتاباتهما مقصداً لكل مطعن أو تشويه أو تحريف.

ولم تغب المنهجية في مطاعنهما فقد نوّعَا جهات الطعن، واختارَا ضحاياهما بعناية فائقة تدل على عقلية ممنهجة، نرجو أن نفك طلاسمها وأن نتوصل إلى خيوطها في بحثنا هذا.

وقد واجهَت الأمة في تاريخها الطويل الكثير من الافتراءات والمطاعن بعد ظهور الإسلام، خاصة لما أحدثه الإسلام من هزة في يقين العالم أجمع، فضلاً عن أنه هدم عروشاً للظلم كانت قائمة قروناً طويلة، فلم تكن بعض الأمم وفيّة لهذا

---

(١) «العقد الفريد» ابن عبدربه الاندلسي، ٢/ ٨-٩.

التحول والتبدل ؛ الذي جلبه الإسلام بمبادئه وقيمه، فتعصبوا لأجناسهم وحملوا على العرب لاعتقادهم الراسخ بترابطية العرب والإسلام.

إن قراءة التاريخ تصدمنا بذاك الكم الهائل من الروايات المكذوبة الممنهجة، التي اعتمدت أسلوباً رخيصاً ألا وهو الكذب، فما أرخص الكذب من بضاعة، وما أكبر تأثيرها، لذا وجدنا غابة من الآراء المنحرفة رسمت صورة غريبة للمجتمع العربي، قصدوا فيها رموز أمتنا، في محاولة لإسقاطها وترك الأمة بلا قدوات ولا رموز.

ونلحظ المنهج المتسلسل في الطعن، بدءاً بالدين مروراً بالعشيرة والنسب فالأخلاق، ثم الرموز فالأفراد، النساء خاصة؛ لتكتمل صورة الطعن المُشوّهة، فما عدنا نرى معالم نرحب بها ونفخر، بل غدت ملامح شوهاء يخجل منها العربي، فإذا ما ذُكِر الرشيد يتذكر العربي الخمر والنساء والغناء والرقص والسهر الطويل ، وإذا ما ذكر العربي في بيدائه نتذكر الغدر واللؤم والإغارة والأسلاب، هكذا هي صور نمطية نخجل من أن نتمثلها أو نذكرها، وهذا هو عين مايشاهد اليوم في النتاج السينمائي الغربي، حينما يظهرون العربي بائساً متردّداً، في تصرفاته ضعة، وفي أخلاقه نقص، قَذِر الملابس، خاسر دائماً ، أبله ، لا يكاد يفقه حديثاً، وتُصوّر المرأة لَعوباً، شغوفة بالشهوات، عارية تتمايل بغنج ودلال.

هذا التوافق بين الغرب-اليوم- وأعداء الأمس، هو الذي دعَا المستشرقين إلى إحياء تلك الكُتب مبكراً، لترسم صورة شوهاء للمجتمع العربي الإسلامي، والأغرب أن تلك الصور تم تداولها وقبولها ولم تعرض على العقل لمناقشتها

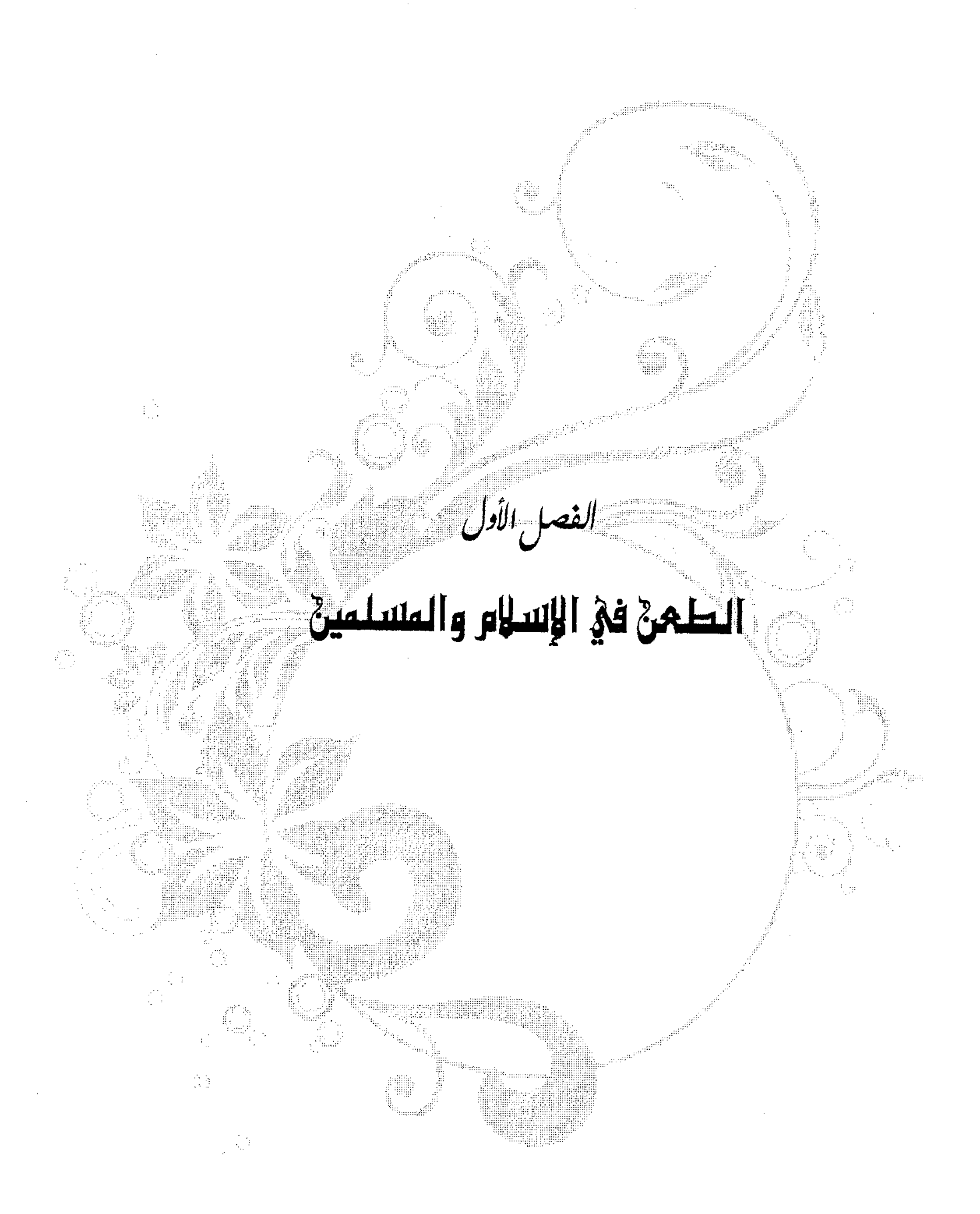
وتفنيدها، بل أضحت صورة نمطية نستقبلها ونروج لها.

وعلى هذا فقد توزعت الإساءة والمطاعن على العرب في جانب، وعلى المسلمين في آخر، من هنا ارتأينا أن نفصل في كل جانب على حدة.



الفصل الأول

الطعن في الإسلام والمسلمين





الفصل الأول

الطعن في الإسلام والمسلمين

إن من يتجرأ على الطعن في الإسلام أو منهج المسلمين الحق، فهو لا بد من أن يتخذ سُبلاً شتّى للوصول إلى ذلك، منها الدس والافتراء والكذب.

لذلك؛ فقد تم وصف الإسلام بشتى الأوصاف وكذا أخلاق المسلمين، فلَم يَرْدَعْهُم الإسلام، بل غدَا الخمر رفيقهم، واللهو والملذات صواحبهم، واتهموهم بمحرمات أنفوا منها في جاهليتهم ولم تكن إلا طارئة عليهم، وقد أثبتنا شواهد سنوردها على إنكارها، وعلى أنهم قد تحصنوا بعظمة الإسلام، ودرعه الحصين من أن يأتوا بمثلها.

فلم تكن تلك الافتراءات إلا أقوالاً مريضة لأناس حقدوا على الإسلام والمسلمين فألبسوهم لباسهم هم ، وعكسوا عليهم صفاتهم هم، وأغرقوهم بأخلاقيتهم هم، فلم يجمعهم مع الحق جامع.

فمن الاستهزاء بالإسلام، ما يرويه الأصفهاني ، فيقول:

«وأخبرني الحسن بن علي، قال: حدثنا ابن مهروية، قال: حدثنا عثمان الوراق، قال: رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك، أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لو كنا في دار فيها بقرة، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر.

فقام فوعظ وقصّ ودعَا ، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار، فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه، ويقدّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا، قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟»[١].

وقد امتلأ كتابُه بمثل هذا الاستهزاء بالدين الحنيفِ، يقول:

«وجدت في بعض الكتب، عن أحمد بن الحارث الخراز، عن المدائني قال:

توضأ أشعب فغسل رجله اليسرى وترك اليمنى فقيل له لِمَ تركت غسل اليمنى؟ قال لأن النبي ﷺ قال : «**أمتي غرٌّ محجلون من آثار الوضوء**»، وأنا أحب أن أكون أغر محجلاً مطلق اليمنى»[٢].

ومِن استهزائه بالدين ما نقله عن « إسماعيل بن يونس الشيعي أن أشرافاً مِن أهل المدينة فيهم عبد الله بن مصعب ذكروا مزبّداً المديني وكان بخيلاً، فيقول نقلاً عن عبد الله بن مصعب فصلّيت الغداة في مسجد المدينة، فإذا أنا به، فقلت: أبا إسحاق، أما تحب أن ترى بصبص جارية ابن نفيس؟ فقال امرأته طالق إن لم يكن الله ساخطاً عليّ فيها، وإن لم أكن أسأله أن يرينيها منذ سنة فما يفعل، فقلت له : اليوم إذا صليت العصر فوافني ههنا، قال : امرأته طالق إن برحت من ها هنا حتى تجيئ صلاة العصر.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٣/ ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه ١٣/ ١٦٤.

قال: فتصرفت في حوائجي حتى كانت العصر، ودخلت المسجد فوجدته فيه، فأخذت بيده وأتيتهم به، فأكلوا وشربوا وتساكر القوم وتناوموا، فأقبلَت بصبص على مزبّد فقالت: أبا اسحاق كأن في نفسك تشتهي أن أغنيك الساعة :

(مجزوء الوافر)

لقد حشوا الجمال ليه ربوا منا فلم يئلوا

فقال : زوجته طالق إن لم تكوني تعلمين مافي اللوح المحفوظ؟ قال: فغنته ساعة ثم مكث ساعة فغنته:

قالت وقد أبثثها وجدي فبحت به قَد كنت قدما تحب الستر فاسترِ

ألست تُبصر من حولي؟ فقلت لها غطى هواك وما ألقى على بصري

فقال: امرأته طالق إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام وما تكسب الأنفس غداً، وبأيّ أرض تموت، فغنته:

أنا أبصرت بالليلِ غلاماً حسن الدلِّ

كغصن البان قد أصبح مسقياً من الطلِّ

فقال: أنتِ نبيّة مُرسَلة»[1].

ويُنقَل بسند مقطوع غريب، فسنده لا يتجاوز عصره ، هو لا عصر المنقول عنه مع الفارق الزمني بينهما، فيقول:

«أخبرني أبو الحسن الأَسَدِيّ قال: حدثني العباس بن ميمون طائع قال:

---

(١) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٥/ ٣٠-٣٢

حدثنا بعض شيوخنا البصريِّين الظرفاء وقد ذكرنا مطيع بن اياس، فحدثنا عنه قال:

اجتمع يحيى بن زياد ومطيع بن إياس وجميع أصحابهم، فشربوا أياماً تباعاً فقال لهم يحيى ليلة من الليالي وهم سكارى: ويحكم! ما صلينا منذ ثلاثة أيام فقوموا بنا حتى نصلي ؛ فقالوا: نعم ، فقام مطيع فأذّن وأقام ثم قالوا: من يتقدم؟ فتدافعوا ذلك، فقال مطيع للمغنية تقدمي فصلي بنا فتقدّمَت تصلي بهم وعليها غلالة رقيقة بلا سراويل فلما سجدت ...[١] ثم قطعوا صلاتهم، وضحكوا وعادوا إلى شربهم»[٢].

هل يستطيع مسلم أن يتصور أن مُسلماً يفعل ذلك ولماذا أدخلت الصلاة في هذا الفحش وهذه البذاءة، أليس فعلاً ينال من الإسلام وأهله؟!وهذا منهج يتبعه في ربط الإفحاش الشديد مع آيات أو أحاديث أو عبادات، وكذا ربطها بمجالس الخلفاء لينال من الجميع في خبر واه واحد، ويقول: « وجه الرشيد إلى ذات الخال ليلة وقد مضى شطر الليل فحضرت، فأخرج إليه جارية كأنها المهاة فأجلسها في حجره، ثم قال، غني، فغنته:

جئن من الروم وقاليقلا يرفلن في المرط ولين الملا
مقرطقاتٌ بصنوف الحلى يا حبّذا البيض وتلك الحلى

---

(١) كلام فاحش، وعبارات بذيئة ننزه القارئ عنها.

(٢) «الأغاني»١٣/ ٣٥٠-٣٥١

فاستحسنه وشرب عليه، ثم استؤذن للفضل بن الربيع، فأذن له، فلما دخل قال: ما وراؤك في هذا الوقت؟ قال: كل خير يا أمير المؤمنين، ولكن جرى الساعة لي سبب لم يجز لي كتمانه أمير المؤمنين، قال: وما ذاك؟ قال: أُخرِج إليّ في هذا الوقت ثلاث جوار لي، مكية ومدينية وعراقية...[1] وقد قالت المدنية للمكية، ما هذا التعدِّي؟ ألم تعلمي أن مالكاً حدثنا عن الزهري عن عبد الله بن ظالم، عن سعيد بن زيد أن النبي ﷺ قال: «**مَن أحيَا أرضاً ميتةً فهي له**»، قالت الأخرى: أوَلَم تعلمي أن سفيان حدثنا عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**الصيد لمن صاده**»[2].

لا يوجد استهزاء بآيات الله مثل هذا الاستهزاء، قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3].

الطعن في الأنصار وقريش

إن منهجية كتابي «الأغاني» و«مروج الذهب» في الطعن في المسلمين، تتصدر أولوياتها مظاهر الطعن في معدن الإسلام وأصل نشأته، قريش والأنصار -رضوان الله عليهم-، فالمسلمون من قريش والأنصار هم من شادوا

(١) فعل فاحش من ثلاثتهن، ننزه القارئ عن ايراده لبذاءته.

(٢) «الأغاني» ١٦/ ٣٧٣-٣٧٤

(٣) التوبة/ ٦٥

الإسلام وحافظوا على بيضته، وهُمَا مَن تلقّيا سهام الكفر ، والإلحاد بصدور يعمرها الإسلام : فكل مُغرِض لا بد وأن يعلم أن المساس بهما هُو المساس بالإسلام أجمع لِـمَا يمثلانه في أصل الإسلام الزاكي.

إذ ينقل الأصفهاني «أن مالك بن العجلان وفد إلى جبيلة الغساني وهو يومئذٍ ملك غسان، فسأله عن قومه وعن منزلهم، فأخبره بحالهم؛ وضِيق معاشهم، فقال له أبو جبيلة : والله ما نزل قومٌ منّا بَلَدًا قطّ إلا غلبوا أهله عليه، فما بالكم؟ ثم أمره بالمضي إلى قومه، وقال له: أعلمهم أني سائر إليهم، فرجع مالك بن العجلان، فأخبرهم بأمر أبي جبيلة؛ ثم قال لليهود:

إن الملك يريد زيارتكم فأعدوا نُزُلاً فأعدوه، وأقبل أبو جبيلة سائراً من الشام في جمع كثيف، حتى قدم المدينة، فنزل بذي حرض ثم أرسل إلى الأوس والخزرج، فذكر لهم الذي قدم له، وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤوسهم وأشرافهم، وخشي إن لم يمكر بهم أن يتحصنوا في آكامهم، فيمنعوا منه حتى يطول حصاره إياهم، فأمر ببنيان حائر واسع، فبني، ثم أرسل إلى اليهود : أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه، فلم يبق وجه من وجوه القوم إلّا أتاه، فجعل الرجل يأتي بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم، فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالاً من جنده أن يدخلوا الحائر، ويدخلوهم رجلاً رجلاً، فلم يزل الحجّاب يأذنون لهم كذلك، ويقتلهم الجند الذين في الحائر، حتى أتوا على آخرهم»[1].

(١) «الأغاني» ٢٢/ ١١٦

ويصفهم بالانتهازية، يقول:

«أخبرني وكيع والحسن بن علي قالَا: حدثنا أبو قلابة : قال حدثنا الأصمعي، عن أبي الزناد ، عن أبيه، عن رجال من الأنصار :

أن سعية بن عريض أخا السموأل بن عاديا كان ينادم قوماً من الأوس والخزرج، ويأتونه، فيقيمون عنده، ويزورونه في أوقات قد ألف زيارتهم فيها، فأغار عليه بعض ملوك اليمن، فانتسف من ماله حتى افتقر، ولم يبق له مال فانقطع عنه إخوانه، وجفوه، فلما أخصب وعادت حاله وتراجعت راجعوه، فقال في ذلك :

أرى الخلّانَ لما قلَّ مالي ... وأجحفَتِ النوائبُ ودَّعوني

فلمَّا أن غنِيتُ وعاد مالي ... أراهم لا أبالكَ راجَعُوني

وكان القوم خُلّاناً لمالي ... وإخواناً لما خُوّلت دوني

فلمّا مرَّ مالي باعدوني ... ولمَّا عاد مالي عاودوني»

ويصفهم بالاستغلال وقلة الأمانة ؛ فهو يعلل سبب تسمية الشاعر عبد الله ابن أبي معقل ابن مُنهب الورق، فيقول: «وكان يقال لأبيه منهب الورق، وقيل جده المسمى بذلك؛ لأنه كسب مالاً ، فعجب أهل المدينة من كثرته، فأباحهم إياه فنهبوه»[1].

هكذا هم نهبوه؟!!

---

(١) «الأغاني» ٢٢/ ١٥.

ولا يتقي الله فيهم، فينقل كلاماً يطعن فيهم ، وشعراً ينال منهم، فهو يقول:

«أخبرني الجوهري قال: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثنا أبو يحيى الزهري، قال حدثني ابن أبي زريق قال: شبّب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال: (الخفيف)

رمل هل تذكرين يوم غزال إذ قَطَعنا مَسيرنا بالتَّمنِّي

أَم تقولين عمرك الله هل شَي ءٌ وإن جلَّ سوف يُسليك عنِّي

أَم هل أطعمتُ منكم بابن حَسا ن كما قد أراك أطعمت منِّي

قال: فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب، فدخل على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، ألا ترى إلى هذا العلج من أهل يثرب يتهكّم بأعراضنا ويشبب ببناتنا؟ قال ومن هو قال: عبد الرحمن بن حسان، وأنشده ما قال، قال: يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوي القدرة، ولكن أمهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكرني.

قال: فلما قدموا أذكرَه به، فلما دخلوا عليه قال: يا عبد الرحمن، ألم يبلغني أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين؟ قال: بلى، ولو علمت أن أحداً أشرف به شعري أشرف منها لذكرته، قال: واين انت من اختها هند؟ قال؟ وإن لها لأختاً؟ قال: نعم، قال: وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعاً فيكذب نفسه، قال: فلم يرض يزيد ما كان من معاوية في ذلك: أن يشبب بهما جميعاً، فأرسل إلى كعب بن جعيل، فقال: اهج الأنصار فقال: افرق من أمير المؤمنين، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر، قال: من هو ؟ قال: الأخطل، قال: فدعا به، فقال:

اهج الأنصار، فقال: لا تخف شيئاً؛ أنا لك بذلك، قال: فهجاهم، فقال: (الكامل)

وإذا نسَبتَ ابن الفريعةِ خلته كالجحش بين حِمارةٍ وحمارِ
لعنَ الإلهُ من اليهود عِصابةً بالجزع بين صُليصِلٍ وصِرارِ
قوم إذا هدر العصيرُ رأيتَهم حُمراً عيونُهُم من المُصطارِ
خلُّوا المكارم لستم من أهلِها وخذوا مساحيكُم بني النجارِ
إن الفوارس يعلمون ظهوركم أولادَ كلِّ مقبح أكارِ
ذهبَت قريش بالمكارم والعُلا واللؤم تحت عمائم الأنصارِ

فبلغ ذلك النعمان بن بشير، فدخل على معاوية، فحسر عن رأسه عمامته، وقال: يا أمير المؤمنين، أترى لؤماً؟ قال: لا بل أرى كرماً وخيراً، ما ذاك؟ قال: زَعَم الأخطل أن اللُّؤم تحت عمائمنا، قال: أَوَفَعَلَ؟ قال: نعم، قال: لك لسانه.

وكتب فيه أن يؤتى به، فلمّا أُتي به سأل الرسول ليدخل إلى يزيد أوّلاً، فأدخلَه عليه، فقال: هذا الذي كنت أخاف، قال: لا تخف شيئاً، ودخل على معاوية فقال: علام أُرسِلَ إلى هذا الرجل وهو يرمي من وراء جمرتنا؟ قال: هجا الأنصار، قال: ومن زعم ذلك؟ قال: النعمان بن بشير، قال: لا تقبل قوله عليه وهو يدعي لنفسه، ولكن تدعوه بالبيِّنة، فإن ثبت شيئاً أخذته به له، فدعاه بالبيِّنة فلم يأت بها، فخلَّى سبيله»[1].

---

(١) «الأغاني» ١٥/ ١٠٣-١٠٥

ثم ينتقل إلى قريش فينقل «عن سلمة بن عياش قال: حُبست في السجن، فإذا فيه الفرزدق قد حبسَه مالك بن المنذر بن الجارود، فكان يريد أن يقول البيت فيقول صدره وأسبقُه إلى القافية، ويجيء إلى القافية وأسبقُه إلى المصدر، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: من قريش، قال: كل ... [1] حمار من قريش؛ من أيِّهم أنت؟ قلت: من بني عامر بن لؤي، قال لئامٌ والله أذلّة، جاورتُهم فكانوا شرَّ جيران، قلت: ألا أُخبِرُك بأذلَّ منهم وألْأَم؟ قال: مَن؟ قلت: بنو مجاشع، قال: ولمَ ويلك؟ قلتُ أنت سيِّدهم وشاعرهم وابن سيدهم، جاءك شرطي مالِك، حتى أدخلَك السجن، لمْ يَمنعُوك، قال: قاتلَك الله» [2].

وهو يذكُر أبياتاً لا يجوز أن تُذكَر، ففيها طعنٌ ومساسٌ سيِّئ بقريش، فهو يَنقُل قول دعبل [3]:

مِن أيِّ ثَنيَّة طلعَت قريش   وكانوا معشراً متنبطينا

وهو ينقل مهاجاة بين عبد الله بن الزبير والفرزدق حينما رمى تميم بالجلاء عن البيت الحرام قبل الإسلام، فلقي الفرزدق بعض الناس، فقال: إيه! يعيرنا ابن الزبير بالجلاء! اسمع، ثم قال:

فإنْ تغضب قريش أو تغَضَّب   فإنّ الأرضَ تُوعبُها تميم
هم عَددُ النجوم وكل حيٍّ   سواهم لا تُعدُّ له نجوم

(١) كلمة بذيئة.

(٢) «الأغاني» ٢٠/ ٣١٣.

(٣) المصدر نفسه ١٥/ ١٠٣-١٠٥

ولــولا بيــت مكــة مــا ثــويتم بهـــا صَـــحّ المنابـــتُ والأروم
بهـا كثـر العديـد وطـاب مـنكم وغـيرُكم أخيـذُ الـريش هـيم
فمهـلاً عـن تعلـل مـن غـدَرتم بخونتـــه وعذبـــه الحمـــيم
اعبـــد الله مَهـــلاً عـــن أداتي فـــإني لا الـــضعيفُ ولا الـــسَّؤوم
ولكنــــي صــــفاةٌ لم تــــدنس تــزِل الطــيرُ عنهــا والعُــصوم

ولْنَنْظُر إلى سنده الركيك المنقطع، وهـو يطعـن في قـريش والأنـصار معـاً، فيقول: «قال العباس: قال هارون: فأخبرني بعض أصحابنا:

أن رجلاً من قريش نظر إلى رجلٍ من أهل اليمن يقول: الحمد لله الذي أقـرَّ عيني بمقتل قريش، فقال له ابنه: الحمد لله الذي أذلَّهم بأيدينا، فما كانت قـريش تظن أن من نزل على عُمان من الأزد عربي، قال: وكان هذان الرجلان مـع أهـل المدينة، فقال القرشيُّ لابنه: يا بُنَيّ! هلم نبدأ بهذين الرجلين، قال: نعم يا أبـتِ، فحَمَلَا عليهما، فقتلاهما، ثم قال لابنه : أيْ بُنَيّ! تقدّم ، فقاتلَا، حتى قُتِلَا.

وقال المدائني: القرشي كان عمارة بن حمزة بن مصعب بن الـزبير، والمـتكلِّم بالكلام مع ابنه رجل من الانصار»[1].

والمسعودي يروي على لسان جارية، يدَّعي فصاحتها وشـاعريتها بـل هـي شاعرة مرتجلة ، ولكنه ارتجال أساء إلى العرب جميعاً؛ عشيرة فعشيرة، ذلك كلـه بأسلوبٍ مُلتوٍ يدَّعي فيه أن أعرابيًّا طَعَنَ في عشيرتها، فكان جوابها طعناً في كـل

(١) «الأغاني» ٢٠/ ٢٤١

عشيرة ادَّعَى الانتساب عليها ، وإن ادَّعَى أنه من بني هاشم رهط النبي محمد ﷺ، إذ تقول:

بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهم
فإن قلتُم رهط النبي محمد فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

تلك القصة الملفقة انتبَه اليها السفاح، انتبه إلى كلام الرقاشي الفارسي المتعصب إلى أصله، فقال له: لئن كنت عملت هذا الخبر ونظمت فيمن ذكرت هذه الأشعار فلقد أحسنت، وأنت سيّد الكذّابين»[1].

نلحظ أن إيراد المسعودي للخبر كان على وجه الرواية الحقيقية، وهذه الطريقة تدل على حرصهم بل اندفاعهم الشديد في الطعن في العرب بل في قريش، بل في بني هاشم قوم نبينا الكريم ﷺ.

هذا كله غير كاف، ولمْ يَشْفِ غيظ صدريهما، فدلفَا يطعنان في شجرتي الإسلام الوارفة، آل البيت والصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-.

الطعن في آل البيت

إن أشد الأمور مضاضة، أن ينال من بيت النبوة ، من سيد شباب أهل الجنة، سيدنا الحسين رضي الله عنه وكان ذلك بطرق شتى ، ينقل عن المدائني أنه قال:

«دخل أشعب يوماً على الحسين بن علي وعنده أعرابي قبيح المنظر مختلف

(١) ينظر «مروج الذهب ومعادن العرب» ٣/ ٣٣٠-٣٤٣

الخِلقة، فسبّح أشعب حين رآه، وقال للحسين عليه السلام: بأبي أنت وأمي، أتأذن لي أن أسلح عليه؟ فقال الاعرابي: ما شئت، ومع الأعرابي قوس وكنانة ففوق له سهماً، وقال: والله لئن فعلت لتكونن آخر سلحة سلحتها، قال أشعب للحسين: جُعِلْتُ فداءَك، قد أخذني القولنج»(١).

أيحدث مثل هذا العبث بحضرة سيدنا الحسين، وهو يسمع ويرى.

ويروي الأصفهاني أن يزيد «لما رجع في خلافة أبيه جلس بالمدينة على شراب، فاستأذن عليه عبد الله بن العباس، والحسين بن علي، فأمر بشرابه فرفع وقيل له: أن ابن عباس إن وجد ريح شرابك عَرَفَه، فحجبه وأذِن للحسين، فلمّا دَخَلَ وجد رائحة الشراب مع الطِّيب فقال: لله در طِيبك هذا ما أطيبه، وما كنتُ أحسب أحداً يتقدَّمُنا في صنعة الطِّيب، فما هذا يا ابن معاوية؟ فقال: يا أبا عبد الله هذا طِيبٌ يُصنع لنا بالشام. ثم دعَا بقدح فشربه، ثم دعَا بقدح آخر فقال: اسقِ أبا عبد الله يا غلام، فقال الحسين: عليك شرابك أيها المرء، لا عين عليك مني. فشرب وقال: (مجزوء الرمل)

أَلَا يا صاحِ للعجبِ ... دَعوتُك ثم لم تُجبِ
إلى القينات واللَّذَّا ... ت والصهباءِ والطربِ
وباطيةٍ مُكلّلةٍ ... عليها سادةُ العربِ
وفيهن الَّتي تبلت ... فؤادك ثم لم تَتُبِ

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩/ ١٦٣

فوثب الحسين عليه السلام وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية»[١] .

من المعلوم أن المذاهب جميعاً تَنْهَى عن مجالسة شارب الخمر، لقول الرسول ﷺ: «**لعنَ اللهُ الخمرَ وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه**»[٢] .

أمّا أن يُجالس الحسين -رضوان الله عليه- يزيداً وهو يشرب الخمر، فهذا مما ينافي أخلاقه، وهو سيد شباب أهل الجنة ، وينافي أخلاق عامة المسلمين، ثم إنه لا يَغضب لشربه الخمر بل يقول: (أيها المرء لا عين عليك مني)، والسؤال هل هكذا أَمَرَنا الإسلام ليفعل ذلك سبط الرسول ﷺ ، مع هذا كله فهو يغضب لنفسه لقول يزيد :

وفيهن التي تبلت فؤادك ثم لم تتب

فقال بل فؤادك، فهو يصوره- هنا- بأنه يغضب لنفسه لا لمحارم الله.

فاللهَ اللهَ في آل البيت -رضوان الله عليهم أجمعين-.

ويَذكُر المسعودي الخليفة المنتصر بالله بخير فيقول: «وكان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغباً في الخير، سخيًّا، أديباً، عفيفاً،

---

(١) المصدر نفسه ١٥/ ٢٨٢.

(٢) «سنن أبي داود» سليمان السجستاني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر، ٢/ ٣٥٠، رقم الحديث ٣٦٧٤ .

وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الإنصاف، وحُسن المعاشرة، بما لم يَسبقه خليفة إلى مثله...

وكان آل بني طالب قبل خلافته في محنة عظيمة، وخوفٍ على دمائهم، قد مُنعوا زيارة قبر الحسين...، وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد.

وكان الأمر بذلك مِن المتوكل سنة ستة وثلاثين ومئتين، وفيها أمر المعروف بالذيريج بالسير إلى قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهدمه ومحو أرضه وإزالة أثره، وأن يعاقب مَن وجد به، فبذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر، فكلٌّ خَشِيَ العقوبة، وأحجم.

فتناول الذيريج مسحاة وهدم أعالي قبر الحسين، فحينئذٍ أقدمَ الفعلة فيه، وإنهم انتهوا إلى الحفرة وموضع اللحد فلم يروا فيه أثر رمة ولا غيرها.

ولم تزل الأمور على ما ذَكَرنا إلى أن استخلف المنتصر، فأمَّن الناس، وتقدم بالكفّ عن آل أبي طالب، وترك البحث عن إخبارهم، وألّا يُمنع أحد زيارة الحيرة لقبر الحسين رضي الله عنه، ولا قبر غيره من آل أبي طالب»[1].

ولكن لو تأملنا الخبر، لوجدنا حديثاً عجباً، فهو يدَّعي أنّ الفَعَلَة حينما حَفرُوا في اللحد حيث جسد سيد الشهداء، لم يجدوا جسداً ولا رمة ؟!!

ويروِي صاحب «الأغاني» عن ابن أشعب عن أبيه قال:

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٤/ ١٥٤ .

«كان الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام يعبث بأبي أشد عبث، وربما أراه في عبثه أنه قد ثمل وأنه يعربد عليه، ثم يخرج إليه بسيف مسلول ويريه أنه يريد قتله، يجري بينهما في ذلك كل مستمع، فهجره أبي مدة طويلة، ثم لقيه يوماً، فقال له: يا أشعب، هجرتني وقطعتني ونسيت عهدي، فقال له: بأبي أنت وأمي، لو كنت تعربد بغير السيف ما هجرتك، ولكن ليس مع السيف لعب، فقال له : فأنا أعفيك مِن هذا فلا تراه مني أبداً، فهذه عشرة دنانير، ولك حماري الذي تحتي أحملك عليه، وصِر إليّ ولك الشرط ألّا ترى في داري سَيفاً، قال: لا والله أو تخرج كل سيف في دارك قبل أن نأكل، قال: ذلك لك.

قال: فجاءه أبي ، ووفا له بما قال من الهبة وإخراج السيوف، وخلف عنده سيفاً في الدار، فلما توسّط الأمر قام إلى البيت فأخرج السيف مشهوراً، ثم قال: يا أشعب إنما أخرجت هذا السيف لخيرٍ أريده بك ، قال: بأبي أنت وأمي، فأيّ خير يكون مع السيف؟ ألست تذكر الشرط بيننا؟ قال له: فاسمَع ما أقول لك، لستُ أضربك به ، ولا يلحقك منه شي تكرهه ، وإنما أريد أن أضجعك وأجلس على صدرك، ثم آخذ جلدة حلقك بأصبعي من غير أن أقبض على عصب ولا ودج ولا مقتل ، فأحزّها بالسيف، ثم أقوم عن صدرك واعطيك عشرين دينارا، فقال: نشدتك الله يا ابن رسول الله ألا تفعل بي هذا!

وجعل يَصرُخ ويبكي ويستغيث والحسن لا يزيده على الحلف له أنه لا يقتله ولا يتجاوز به أن يجز جلده فقط ويتوعده مع ذلك بأنه إن لم يفعله طائعاً فعله كارهاً، حتى إذا طال الخطب بينهما، واكتفى الحسن من المزح معه، أراه أنه

يتغافل عنه، وقال له: أنت لا تفعل هذا طائعاً، ولكن أجيء بحبل فأكتفك بـه، مضى كأنه يجيء بحبل، فهرب أشعب وتسوّر حائطاً بينه وبين عبد الله بن حسن أخيه فسقط إلى داره، فانفكت رجله وأغمي عليه، فخرج عبد الله فزعاً، فسأله عن قصته ، فأخبره، فضحك منه وأمر له بعشرين ديناراً، وأقام في منزله يعالجه ويعوله إلى أن صلحت حاله: قال: وما رآه الحسن بن الحسن بعدها»[١].

ومن الجليّ الواضح أن مَن أحبّ إنساناً ، ابتعد عمّا يُسيئ إليه ويؤذيه، ومما لا شكّ فيه أن أكثر ما يُؤذي المرء هو المساس بحرمه ونساء بيته، وإن كان مَن يدَّعي محبة آل البيت صادقاً فما كان عليه أن يمس طاهرة من نساء بيته.

ينقل صاحب «الاغاني» عن أشعب[٢] وهو يحدِّث جعفر بن سليمان، يقول:

«كانت بنت الحسين بن علي عند عائشة بنت عثمان تُربِّيها حتى صارت امراة، وحجّ الخليفة فلمْ يبقَ في المدينة خلق من قريش إلا وافَى الخليفة إلّا مَن لا يصلح لشيء، فماتت بنت الحسين بن علي، فأرسلت عائشة إلى محمد بن عمرو ابن حزم وهو والي المدينة....

فأرسلَت عائشة : يا أخي! قد ترى ما دخل عليَّ من المصيبة بابنتي، وغيبة أهلي وأهلها، وأنت الوالي، فأمّا ما يكفي النساء من النساء فأنا أكفيكه بيدي وعيني، وأمّا ما يكفي الرجال من الرجال فاكفِنيه، مُر بالأسواق أن ترفع، وأْمُر

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩/ ١٩٢-١٩٣ .

(٢) ملاحظة الفارق الزمني الكبير بين الأصفهاني وأشعب ومع هذا فهو ينقل عنه؟!!

بتجويد عمل نعشها، ولا يحملها إلّا الفقهاء الألباء من قريش بالوقار والسكينة، وقُم على قبرها ولا يدخله إلا قرابتها من ذوي الحجا والفضل...

ودخل ليقيل، فدخل عليه، فأبلَغه رسالتَها، فقال ابن حزم لرسولها: أقرِئ ابنة المظلوم السلام وأخبِرها أني قد سمعت الواعية وأردت الركوب إليها فأمسكت عن الركوب حتى أبرد، ثم أصلي، ثم أنفذ كل ما أمرَت به.

وأمر حاجبه وصاحب شرطته برفع الأسواق، ودعا الحرس وقال: خذوا السياط حتى تحولوا بين الناس وبين النعش إلّا ذوي قرابتها بالسكينة والوقار، ثم نام وانتبَه وأسرج له، واجتمع كل مَن كان بالمدينة، وأتى باب عائشة حين أُخرج النعش، فلما رأى الناس النعش التقفوه، فلم يملك ابن حزم ولا الحرس منه شيئاً، وجعل ابن حزم يركض خلف النعش ويصيح بالناس من السفلة والغوغاء: اربعوا -أي ارفقوا- فلمْ يَسمعوا، حتى بلغ بالنعش القبر، فصلى عليها، ثم وقف على القبر فنادى: مَن ها هنا مِن قريش؟ فلم يحضره إلّا مروان ابن أبان ابن عثمان، وكان رجلاً عظيم البطن بادناً لايستطيع أن ينثني من بطنه، سخيف العقل، فطلع وعليه سبعة قمص، كأنها درج، بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمن ألفَي درهم فسلّم، وقال له ابن حزم: لعمري قريبها، ولكن القبر ضيِّق لايسعك، فقال: أصلحَ اللهُ الأمير إنما تضيق الأخلاق.

قال ابن حزم: إنّا لله، ما ظننتُ أن هذا هكذا كما أرى، فأمر أربعة فأخذوا بضبعه حتى أدخلوه في القبر، ثم أتى خراء الزنج، وهو عثمان بن عمرو بن

عثمان، فقال: السلام عليك أيها الامير ورحمة الله، ثم قال: وا سيدتاه وابنت اختاه! فقال ابن حزم: تاللهِ لقد كان يبلغني عن هذا أنه مخنث، فلم أكُن أرَى أنه بَلَغَ هذا كله، دلوه فإنه عورة هو والله أحق بالدفن منها.

فلما أدخِلَا؛ قال مروان لخراء الزنج: تنحّ إليك شيئاً، فقال له خراء الزنج: الحمد لله رب العالمين، جاء الكلب الإنسي يطرد الكلب الوحشي، فقال لهما ابن حزم: اسكُتا قبحكُما الله وعليكُما لعنته، أيّكما الإنسي من الوحشي، والله لئن لم تسكُتا لآمرن بكما تدفنان، ثم جاء خال للجارية من الحاطبين وهو ناقِهٌ من مرض لو أخذ بعوضة لم يضبطها فقال: أنا خالها وأمي سَودة وأمها حفصة، ثم رمى بنفسه في القبر، فأصاب ترقوة خراء الزنج فصاح: أوه أصلحَ الله الأمير دقّ والله عرقوبي، فقال ابن حزم: دق الله عرقوبك وترقوتك اسكُت ويلك.

ثم أقبلَ على أصحابه فقال : وَيْحَكم إني خبرت أن الجارية بادن، و مروان لا يقدر أن ينثني مِن بطنه، وخراء الزنج مخنث لا يعقل سُنَّة ولا دفناً، وهذا الحاطبي لو أخذ عصفوراً لم يضبطه لضعفه، فمن يدفن هذه الجارية؟ والله ما أمرتني بهذا بنت المظلوم.

فقال له جلساؤه: لا والله ما بالمدينة خلق من قريش، ولو كان في هؤلاء خير لما بقوا، فقال : مَن ها هنا مِن مواليهم؟ فإذا أبو هانئ الأعمى وهو ظئرٌ[1] لها،

---

(١) ظئر : القريب من الرضاعة ، ينظر «القاموس المحيط» ، الفيروز أبادي ، مادة ظئر، ص٤٣٢ .

فقال ابن حزم: من أنت رحمك الله؟ قال: أنا أبو هانئ ظئر عبد الله بن عمرو بن عثمان وأنا أدفن أحياءهم وأمواتهم، فقال: أنا في طلبك، ادخُل رحمك الله، فادفن هؤلاء الأحياء، حتى يدلى عليك الموتى ثم أقبَلَ على أصحابِه فقال: إنّا لله! وهذا أيضاً أعمى لا يبصر، فنادوا : مَن ها هنا مِن مواليهم فإذا برجل يزيدي يُقال له أبو موسى قد جاء، فقال له ابن حزم : مَن أنت أيضاً؟ قال: أنا أبو موسى صالمين، وأنا ابن السميط سميطين والسعيد سعيدين، والحمد لله رب العالمين، فقال ابن حزم: والله العظيم لتكوننّ لهم خامساً، رحمك الله يا بنت رسول الله، فما اجتمع على جيفة خنزير ولا كلب ما اجتمع على جثتك، فإنا لله، وإنا اليه راجعون، وأظنُّه سقط رجل آخر »[1].

لقد أورد خبراً مُهلهلاً يناقض بعضه بعضاً، فبينما يقول أن الأسواق قد عطلت، واجتمع كل من كان في المدينة، وذلك لا شك في أنه توقير لشخصها وتعظيماً لبيتها، يعود لِيَذكُر كلاماً لا ينطق به مسلمٌ (فما اجتمع على جيفة خنزير ولا كلب ما اجتمع على جثتك)!

أهكذا يُوقَّرُ أهل البيت ونساؤهم، إنه إن أراد أن يطعن في أبناء عثمان -رضوان الله عليه-؛ فوصف أحدهم بأنه سخيف العقل وهو مروان بن أبان ابن عثمان -رضوان الله عليه-، والآخَر بأنّه خراء الزنج وهو عثمان بن عمرو ابن عثمان وطعن في أنه مخنث وتحدث بأنه يستحق الدفن بدلاً منها... اللهَ اللهَ! أيُّ افتراء يشوب هذا الخبر، وأيُّ عقل صوَّر تلك المشاهد البشعة في حق

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني، ١٩ / ١٥٦ ١٥٨ .

بيوتات آل البيت والصحابة الكرام.

وكانت سيدتنا سكينة بنت الحسين -رضوان الله عليها- مِن أكثرنساء بيت الرسول ﷺ أخباراً، غير أن تلك الأخبار كان في الأغلب الأعم منها طعناً ومساساً، مِن دون أنْ يعطوها حقها، وأن يبرزوا مظهرها الحقيقي بوصفها سيدة عظيمة من بنات بيت النبوة، ومن بنات سيدنا الحسين -رضوان الله عليه-.

وإنها من بيت قد نكب بسادة عظام بدءاً مِن علي بن أبي طالب -رضوان الله عليه- حينما قُتِلَ غيلة، وكذا الحسن والحسين، والعباس، وكان بيتُها من أكثر البيوت الإسلامية نكبة، غير أن الأصفهاني وسواه يصورها بمظهر العبثية وعدم الاهتمام، ينقل عن ضمرة بن ضمرة أنه قال: «أجلسَت سكينة شيخاً فارسيًّا على سلَّة بيض، وبعثت إلى سليمان بن يسار، كأنها تريد أن تسأله عن شيء فجاءها إكراماً لها، فأمرَت مَن أخرج اليه ذلك الشيخ جالساً على السلّة فيها البيض فولّى يُسبِّح»[1].

قال: وبعثَت سكينة إلى صاحب الشرطة بالمدينة، أنه دخل علينَا شامي فابعَث إلينا بالشرط، فركب ومعه الشرط فلما أتى إلى الباب أمرَت ففُتِح له، وأمرَت جارية من جواريها فأخرجَت إليه برغوثاً، فقال: ما هذا؟ قالت: هذا الشامي الذي شكوناه، فانصرفوا يضحكون»[2].

(١) المصدر نفسه ١٦/ ١٥٢.

(٢) «الأغاني» ١٦/ ١٥٢-١٥٣.

وقصة أشعب بعد أن كـذب عليهـا ، إذ عاقبَتْـه، «فـأمرت بابتيـاع خـشب بثلاث مئة دينار ، وأمرت بنشره، وليس عندي ولا أحد مِن أهل المدينة علم بـما تريده فيه، ثم أمرت بأن يتخذ بيت كبير وجعلت النفقة عليه في أجرة النجـارين من المئة دينار الباقية، ثم أمرَت بابتياع بيض وتبن وسرجين بما بقي من المئة دينار بعد أجرة النجارين ، ثـم أدخلتنـي البيـت، وفيـه البـيض والتبن والـسرجين، وحلفت بحق جدها ألّا أخرُج من ذلك البيت حتى أحضن ذلك البيض كله إلى أن يفقس ففعلت ذلك ، ولمْ أزل أحضنه حتى فقس كله ، فخـرَج منـه الألـوف مـن الفـراريج، وربيـت في دار سـكينة ، فكانـت تنـسبهن إليّ، وتقـول: بنـات أشعب»[1]، ولكن لننظر إلى الخبر الذي هو أشبه بحكايَا الأطفال.

ثم يَروِي قصتها مع ابن حزم وهو قاضٍ يومئذ، «وقد جـاءت إليـه سـكينة فقال ابن حزم: أدخِلوها وحدها، فقالت: والله لا أدخـل إلّا ومعـي ولائـدي، فأُدخِلن معها، فلما دَخلت، قالت: يا جارية! اثـنِ لي هـذه الوسـادة ، ففعلَـت، وجلَسَت عليها، ولصق زيد بالسرير حتى كاد يدخل في جوفه خوفاً منها.

فقال لها ابن حزم يا ابنة الحسين! إنّ الله -عز وجل- يحـب القـصد في كـل شيء فقالت له: وما أنكرْتَ مني، إني وإياك والله كالذي يـرى الـشعرة في عـين صاحبه ولا يرى الخشبة في عينه ، فقال لها : أمَا والله لو كنتُ رَجلاً لسطوتُ بك فقالت له: يا ابن فرتنى ألا تزال تتوعدني؟ وشتَمَتْهُ وشتَمَها.

فلمّا بَلَغَا ذلك قال ابن أبي الجهم العدوي: ما بهذا أُمِرنا فـامضِ الحكـم ولا

---

(١) المصدر نفسه ١٦/ ١٥٧-١٥٨ .

تشاتم، فقالت لمولاة لها: من هذا؟ قالت: أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم، فقالت: لا أراك ها هنا وأنا أشتم بحضرتك، ثم هتف برجال قريش وحضّت ابن أبي الجهم، وقالت أمَا والله لو كان أصحاب الحرة أحياء لقتلوا هذا العبد اليهودي عند شتمه إياي، أيْ عدو الله تشتمني؟! وأبوك الخارج مع يهود صبابة بدينهم لما أخرجهم رسول الله ﷺ إلى أريحاء، يا ابن فرتنى. قال: وشتمها وشتَمَتْه»[1].

إذا فرضنا - جدلاً أن سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما قد شتمَت ابن حزم على علمه، ومكانته؛ فأين هو مِن شتم سكينة، ومن يشتم؟ أيشتم أباها أم جدها، أم يشتم قريشاً أم بني هاشم؟!

إن ما يذكره صاحب «الاغاني» لهو تشويه محض يراد به النيل من هذه الطاهرة المطهرة.

ويقول عن مظهرها «كانت سكينة أحسن الناس شعراً، فكانت تصفف جمتها تصفيفاً لمْ يرَ أحسن منه، حتى عرف ذلك، فكانت تلك الجمة تسمّى السكينية»[2] فهو لم يذكر دينَها ولا ورعها ولا طهر منبتها، فلم يذكُر إلّا أخباراً تنحصر بالعبث أو بالمظهر، يذكر إن «سكينة قالت لعائشة بنت طلحة، أنا أجمل منك، وقالت عائشة، بل أنا، فاختصمتَا إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال: لأقضينّ

---

(١) المصدر نفسه ١٦/ ١٦٥.

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٦/ ١٥١.

بينكما، أما أنت يا سكينة فأملح منها، وأما أنت ياعائشة فأجمل منها، فقالت سكينة: قضيتَ لي والله»[1].

لنقف-هنا- وقفة متأملة، ولنتصور ذلك المشهد، شريفتان من أطهر بيوت مكة والأُمّة أجمع، تقفان أمام شاعر ماجن، تكشفان عن وجهيهما، ليحكم بينهما، وأنا وأنتم نتساءل؛ هل يمكن أن يحدث هذا في يومنا من نساء أقل منزلة وأبعد مورداً مِن الإسلام، وأقلّ ورعاً وطُهراً ونقاءً؟!

وقصتها مع الفرزدق لتشير بوضوح إلى مدى الإسفاف الذي وقع فيه الرواة، فقد «خرج الفرزدق حاجًّا فمرَّ بالمدينة فأتى سكينة بنت الحسين فقالت: يا فرزدق! مَن أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعر منك الذي يقول:

بنفسي مَن تَجَنُّبُه عزيزٌ   عليّ ومَن زيارتُه لمامُ

ومَن أُمسِي وأُصبِحُ لا أراهُ   ويطرقُني إذا هَجع النيامُ

فقال: والله لو أذنتِ لي لأسمعتك أحسن منه. فقالت: أَقيموه، فأُخرِجَ.

ثم عاد اليها في اليوم الثاني، فقالت له: يا فرزدق مَن أشعر الناس؟ قال: أنا قالت: كذبتَ، أشعر منك الذي يقول:

لولا الحياء هاجني استعبار   ولزرت قبرك والحبيب يزار

لا يلبث الفرقاء أن يتفرقوا   ليل بكر عليهم ونهار

كانت إذا هجر الضجيع فراشها   كتم الحديث وعفت الأسرار

---

(١) المصدر نفسه ١٦/ ١٦٠ .

قال: أفاسمعك أحسن منه؟ قالت: اخرُج.

ثم عاد إليها في اليوم الثالث وعلى رأسها جارية ظبية، فاشتد عجبه بها، فقالت: يافرزدق! مَن أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت، أشعر منك الذي يقول:

إن العيون التي في طرفها مرض قَتَلْنَنَا ثمّ لمْ يُحيِينَ قتلانا
يصرعن ذا اللُّبّ حتى لا حراك له وهُنّ أضعف خلق الله أركانا

ثم قالت: قم فاخرُج، فقال لها: يا بنت رسول الله، إن لي عليك لحقًّا، إذ كنت إنّما جئت مُسلِّماً عليك، فكان مِن تكذيبك إياي وصنيعك بي حين أردت أن أسمعك شيئاً من شعري ما ضاق به صدري والمنايا تغدو وتروح، ولا أدري، لعلِّي لا أفارق المدينة حتى أموت فإن مت فمُرِي مَن يدفنني في حر هذه الجارية التي على رأسك، فضحكت سكينة، حتى كادت تخرج من ثيابها وأمَرَت له بالجارية، وقالت: أحسِن صحبتها»[1].

إنّ النساء العفيفات يَأنفن عن سماع أيّ كلمة فاحشة، فكيف بسيدة عفيفة من أطهر البيوت، وهي لا تسمع فقط بل تكاد تخرج من ثيابها ضحكاً؟!!

وهذا المظهر يتكرر، فيقول:

«غضبت سكينة على أبي في شيء خالفها فيه، فحلفَت لتحلقن لحيته، ودعت بالحجام فقالت له: احلق لحيته، فقال له الحجام: انفخ شدقيك حتى

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢١/ ٣٦٨-٣٦٩.

أتمكّن منك، فقال له يابن البظراء أمرَتْك أن تحلق لحيتي أو تعلمني الزمر، خبِّرني عن امرأتك إذا أردتَ أن تحلق [١]تَنفخ أشداقه! فغضب الحجام وحلف ألّا يحلق لحيته وانصرف، وبلغ سكينة الخبر وما جرى بينهما، فضحكت وعفت عنه»[٢].

وهو يطعن في نساء آل البيت وسميتهن نساء آل البيت؛ لأن الزوجة ترجع إلى زوجها بعد زواجها، فكيف بمن تزوجت السبطين! يقول:

وكانت أم إسحاق مِن أجمل نساء قريش وأسوئهن خُلُقاً، ويُقال: إن نساء بني تيم كانت لهن حظوة عند أزواجهن على سوء أخلاقهن، ويُروى أن أم إسحاق كانت رُبّما حملت وولدت وهي لا تكلم زوجها.

ويقول : «أخبرني الحرمي بن أبي العلاء عن الزبير بن بكار عن عمه بذلك قال: وقد كانت أم إسحاق عند الحسن بن علي بن أبي طالب -صلوات الله عليه- قبل أخيه الحسين عليه السلام، فلما حضرته الوفاة دعا بالحسين -صلوات الله عليه-، فقال له: يا أخي إني أرضى هذه المرأة لك ، فلا تخرجن من بيوتكم ، فإذا انقضَت عِدَّتُها فتزوَّجْها، فلمّا تُوفِّي الحسن عنها تزوَّجها الحسين عليه السلام، وقد كانت ولدت من الحسن عليه السلام ابنه طلحة بن الحسن، فهو أخو فاطمة لأمِّها وابن عمها وقد درج طلحة ولا عقب له»[٣].

---

(١) كلمة فاحشة.

(٢) المصدر نفسه ١٩/ ١٨٧ .

(٣) «الأغاني» ٢٢/ ١٢٤-١٢٥ .

إن ما يذكره الأصفهاني مردود بكلامه هو ، فليست نساء تيم أسوأ نساء قريش لسبب وجيه واحد، هو رضا سيدنا الحسن -رضوان الله عليه- عنها ، ووصيته لسيدنا الحسين رضي الله عنه بالزواج منها! فكيف يوصي أخاه بالزواج من امرأةٍ سيئة الخلق وهو سيد شباب أهل الجنة؟!!

وفي أم سلمة بنت محمد بن طلحة بن عبيد الله يقول: «ومن طرائف أخبار التيميات من نساء قريش في حظوتهن وسوء أخلاقهن أخبرنا به الحرمي بن أبي العلاء عن الزبير بن بكار عن محمد بن عبد الله : قال: كانت أم سلمة بنت محمد ابن طلحة عند عبد الله بن الحسن وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتغلظ له، ويفرق منها ولا يخالفها، فرأى يوماً منها طيباً، فأراد أن يشكو إليها قسوتها ، فقال لها : يا بنت محمد قد أحرق والله قلبي ... فحددت له النظر وجمعت وجهها وقالت له : أحرَقَ قلبَك ماذا ؟ فخافها، فلم يقدر على أن يقول لها: سوء خلقك، فقال لها: حب أبي بكر الصديق ، فأمسكت عنه»[1].

إنّ وصف شبل من أشبال بيت النبوة بالجُبن لهُو أمرٌ محير غريب، فهو قد جاءه المجد مِن السبطين معاً، فأمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب -رضوان الله عليهم-: فكيف بسليل هذين السبطين أن يكون جباناً رعديداً يخاف حتى من كلمته.

إنه أراد أن يطعن في النساء من آل طلحة -رضوان الله عليه-، فلمْ يَدْرِ إلّا وهو يطعن في بيت النبوة، جاعلاً من حبه لأبي بكر الصديق -رضوان الله

(١) المصدر نفسه ٢٢/ ١٢٥ .

عليه- كذبة يبرّر بها خوفه وتردده، فمعاذ الله أن يكون هذا الفعل من أفعال آل البيت الأطهار!!

ويُعَدّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مِن أكثر مَن طُعِنَ في شخصه وفي خلقه لأسباب مجهولة، أو قد تكون لعلاقته الوثيقة بآل أمية ، فمن مجالساته للمغنيات وحضور مجالس الطرب ، يقول:

«قال سياط: جلست جميلة يوماً للوفادة عليها وجعلت على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن وألبستهن أنواع الثياب المصبغة ووضعت فوق الشعور التيجان وزينتهن بأنواع الحلي ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره وقالت لكاتب أملَت عليه : بأبي أنت وامي ! قدرك يجل عن رسالتي وكرمك يحتمل زلتي؛ وذنبي لا تقال عثرته ولا تغفر حوبته، فإنْ صفحتَ فالصفحُ لكم معشر أهل البيت يؤثر والخير والفضل كله فيكم مدخر بالكتاب نسألك وبحق الرسول ندعوك إن كنت نشيطاً لمجلس هيَّأتُه لك لا يحسن إلّا بك ولا يتم إلّا معك ، ولا يَصلُح أن ينقل عن موضعه ولا يسلك به غير طريقه.

فلما قرأ عبدالله الكتاب قال: إنّا لنعرف تعظيمها لنا وإكرامها لصغيرنا وكبيرنا وقد علمت أنها قد آلت إليه ألّا تغني أحداً إلّا في منزلها وقال للرسول: والله قد كنت على الركوب إلى موضع كذا وكان في عزمي المرور بها. فأما إذا وافق ذلك مرادها فإنّي جاعل بعد رجوعي طريقي عليها فلما صار إلى بابها أُدخِل بعض من كان معه إليها وصرف بعضهم فنظر إلى ذلك الحُسن البارع

والهيئة الباذة فأعجبه ووقع في نفسه ؛ فقال يا جميلة ! لقد أوتيت خيراً كثيراً، ما أحسن ما صنعت ! فقالت ياسيدي! إن الجميل للجميل يصلح ولك هيأت هذا المجلس فجلس عبد الله بن جعفر وقامت على رأسه وقامت الجواري صفين؛ فأقسم عليها فجلست غير بعيد ثم قالت : ياسيدي! ألَا أُغنِيك؟ قال: بلى، فغنّت:

بَني شَيبة الحَمد الذي كان وجهُه يضيء ظلامَ اللّيل كالقمرِ البَدرِ
كهُولهُم خيرُ الكهولِ ونسلُهم كنسلِ الملوكِ لا يبورُ ولا يَجري
أبو عتبة الملقي إليك جماله اغر هجان اللون من نفر زهر

فقال عبد الله : أحسنتِ ياجميلة .... بالله أعيديه عليَّ فأعادته فجاء الصوت أحسن من الارتجال. ثم دعت لكل جارية بعود وأمرتهن بالجلوس على كراسي صغار قد أعدّتها لهن ، فضربن وغنت عليهن هذا الصوت وغنى جواريها على غنائها» [1].

ويذكر عنه أيضا فيقول:

«حدثنا محمد بن العباس اليزيدي قال: حدثنا أحمد بن الحارث الخراز عن المدائني عن أبي عبد الرحمن القرشي:

أن معاوية بن عبدالله بن جعفر وُلِدَ وأبوه عبدالله عند معاوية ، فأتاه البشير

(١) «الأغاني» ٨/ ٢٣٦-٢٣٨ .

بذلك وعرف معاوية الخبر فقال: سَمّه معاوية ولك مئة ألف درهم، ففعل»[1].

السؤال الذي يظهر هو: هل أن عبد الله بن جعفر قد سمّى ابنَه معاوية خوفاً أم طمعاً في المال؟!

إن كليهما مما لا يُمكن أن يُنسبان إلى هذا الوَرِع العابد الذي صاحبَ نبيّ الرحمة، ثم إن الخبر بمجمله كاذب، فأين معاوية بن أبي سفيان مِن دفع مئة ألف درهم في ذلك الوقت؟ مِن أجل اسم يسميه والمعروف أن السكة كانت عزيزة وصعبة المنال في ذلك العصر.

ويتحدث عن سبطه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ فيقول:

«أن عبد الله بن جعفر لما حضرته الوفاة دعا ابنه معاوية فنزع شنفاً كان في أذنه وأوصى إليه – وفي ولده من هو أسنّ منه – وقال له: إنِّي لم أزَلْ اؤمِلُك لها فلما توفي احتال بدَيْن أبيه وخرج فطلب فيه حتى قضاه وقسم أموال أبيه بين ولده، ولم يستأثر عليهم بدينار ولا درهم ولا غيرهما.

وأم عبد الله بن معاوية أم عون بنت عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب -ويقال: بنت عياش بن ربيعة- وقد روَى العباس عن النبي ﷺ وكان معه يوم حنين، وهو أحد من ثبت معه يومئذ.

وكان عبد الله من فتيان بني هاشم وجودائهم وشعرائهم، ولم يكن محمود

---

(١) المصدر نفسه ١٢/ ٢٦٠.

المذهب في دينه ، وكان يُرمى بالزندقة ويستولي عليه من يعرف ويشتهر أمره فيها، وكان قد خرج بالكوفة في آخر أيام مروان بن محمد ، ثم انتقل عنها إلى نواحي الجبل ثم إلى خراسان فأخذه أبو مسلم فقتله هناك»[١].

ويرمي عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب بعد الزندقة بمثالب أخرى فيقول:

« حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: حدثني علي بن محمد النوفلي عن أبيه وعمومته ، أن مطيع بن اياس وعمارة بن حمزة من بني هاشم، وكانا مرميِّين بالزندقة نزعا إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب لما خرج في آخر دولة بني أمية ، وأول ظهور الدولة العباسية بخراسان ، وكان ظهر على نواح من الجبل: منها أصبهان وقم ونهاوند ، فكان مطيع وعمارة ينادمانه ولا يفارقانه.

قال النوفلي: فحدثني إبراهيم بن يزيد بن الخشك قال: دخل مطيع ابن إياس على عبد الله بن معاوية يوماً وغلاماً واقف على رأسه يذب عنه بمنديل - ولم يكن في ذلك الوقت مذاب، إنما المذاب عباسية- قال وكان الغلام الذي يذب أمرد حسن الصورة يروق عين الناظر فلما نظر مطيع إلى الغلام كاد عقله يذهب ، وجعل يكلم ابنه معاوية ويلجلج، فقال: (منسرح)[٢]

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٢/ ٢٦٠ .

(٢) «الأغاني» ١٣/ ٣٠٦.

إني وما أعمل الحجيج له أخشى مطيع الهوى على فرج
أخشى عليه مغامساً مرسا ليس بذي رقبة ولا حرج

ولم يكتف بحفيده بل انتقل إلى واحد من أحفاده البعيدين وهو علي بن عبد الله بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأمه ولادة بنت الحجل بنت عنية بن سعيد بن العاص بن أمية [١].

وقد قال علي بن عبد الله: مكثت في الحبس مدة، فدخل عليَّ رجلٌ مِن الكتاب يوماً فقال: أريد هذا الجعفري الذي تديث في شعره فقلت له: إليَّ فأنا هو، فعدل إليَّ وقال: جُعِلتُ فداك! أُحِبُّ أن تنشدني بيتيك اللذين تديثت فيهما، فأنشدته [٢]:

ولما بدا لي أنها لا تودّني وأن هواها ليس عني بمُنجَلِ
تمنيتُ أَن تَهوى سواي لعلّها تذوقُ حراراتِ الهوى فترقَّ لي

إن الأبيات لا شك في أنها رقيقة عذبة، تنم عن ذوق رفيع وحرقة صادقة، لكن أن توصف بالتخنّث، فهذا هو الغريب. وهل لناقد أن يتصوّر أن الشعر كله يجب أن يطرح على سمت واحد ونمط متوافق، فهل يتساوى شعر الحماسة مع الهجاء؟ أو الغزل مع شعر الفروسية؟

إن مما لا شك فيه أن مقاييس الشعر تختلف وتتباين فمنه ما يجب أن يكون عذباً رقراقاً، ومنه مايكون جزلاً رصيناً فيه قوة تنعكس على ألفاظه ومعانيه

---

(١) المصدر نفسه ٢٢/ ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه ٢٢/ ٢٢٥-٢٢٦.

وحتى على أصوات مفرداته.

الطعن في الصحابة

كما أسلفنا فإن المنهجية التي اختطها بعض القدماء، ومنهم أبو الفرج الأصفهاني في الطعن في منابع الإسلام، متمثلة بآل البيت والصحابة الكرام، هذه المنهجية لم تدع قمم الصحابة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو قامة لا تدانيه قامة من سوى الأنبياء فلو أن الأمم جميعاً اجتمعت؛ ما جاءت بمثله من سوى الأنبياء، ولا أظنه يظلم أحداً ليظلم خالد بن الوليد رضي الله عنه فليس بينهما حسد أو منافسة، يقول الأصفهاني:

أخبرنا عيسى بن الحسين، قال: حدثنا أحمد بن الحارث الخزاعي، عن المدائني، عن أبي بكر الهذلي قال:

« سمع عمر بن الخطاب نساء بني مخزوم يبكين على خالد بن الوليد، فبكى وقال: ليقل نساء بني مخزوم في أبي سليمان ما شئن فإنهن لا يكذبن وعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي، فقال له طلحة بن عبيد الله: إنك وإياه لَكَما قال عبيد بن الأبرص [1]:

لا ألفيَنّك بعد الموتِ تَندُبني ... وفي حياتي ما زَوَّدتني زادي

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٢/ ٩٨.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن طالب دنيا ، أو منصب أو مال لينافس خالد بن الوليد إذ كان «عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يأكل إلّا إداماً واحداً وكان يخشى إن اختلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه في طعامه يختلف في سيرته»[1].

« وأُتي ابن الخطاب بخبز مفتوت بسمن عام الرمادة فدعا رجلاً بدويًا فجعل يأكل معه يتبع اللقمة الودك -أي: الدسم- في جانب الصفحة ؛ فقال له عمر رضي الله عنه: كأنك مقفر من الودك؛ فقال: أجل ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت أكلاً منذ كذا وكذا إلى اليوم ، فحلف عمر رضي الله عنه لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيي الناس ؛ فكان كذلك حتى أحيى الناس -أي: أخصبوا ؛ من الحياة (الخصب والمطر)-.

وعن عياض بن خليفة قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام الرمادة وهو أسود اللون فقيل له: مم ذاك قال: كان رجلاً عربيًّا يأكل السمن واللبن ، فلمّا أمحل الناس حرمها حتى يحيوا فأكل الزيت حتى تغيّر لونه وجاع فأكثر»[2].

فهل هذا فعل أهل دنيا وكسب وصراع، أم فعل صحابة نبي رباهم على الورع والزهد ونكران الذات والعدل ، فالعدل خلق اسلامي راق قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ

(١) ينظر: «أخبار عمر وأخبار ابن عمر» علي الطنطاوي ،ص١٠١ .

(٢) المصدر نفسه ص١١٤ .

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

فالعدل فضيلة يرزقها -تعالى- لمن يشاء من عباده ، ولا تمنح إلّا لمن جاهد نفسه ، وأحسن فطامها ، وأخضعها مراراً لسيف الحق « فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد جاءه جندي يأخذ رزقه ، وكان جنديًّا من جنود المسلمين ، ولكنه كان في الجاهلية قد قتل أخاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما رآه عمر أربد وجهه ، فقال : يا هذا إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ، فقال الرجل لعمر : أوَمانعي ذلك عندك حقًّا من حقوق الله، فقال عمر: اللهم لا ، فقال الرجل : ما يضرُّني بغضك إيّاي ، إنما يأسى على الحب النساء .

فقد عرف الرجل مِن ورع عمر ودينه ؛ أن شدة غضبه وغيظه وحنقه عليه وكراهيته له لا تخرج به عن العدل إلى الظلم ؛ فهو علم من عدله وثقته بدينه فأمِن مِن بطشه »(٢) .

هل إن عدله في قاتل أخيه ، أولى من عدله في صحابي جليل ؟! والأصفهاني لا يدع الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم أجمعين- فبعد عمر رضي الله عنه ها هو يتناول عثمان بن عفان -رضوان الله عليه- بالطعن يقول :

ومن أخبار نائلة زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، حين زواجه منها « فلما أرادوا حملها إليه قال لها أبوها: يا بُنيّة إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هن أقدر

(١) المائدة/ ٨ .

(٢) «موارد الضمان لدروس الزمان » عبد العزيز المحمد السلمان ، ص٥٥٥ .

على الطِّيب منك ، فاحفظي عني خصلتين ، تكحّلي وتطيّبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر .

فلما حُمِلت كرهت الغربة ، وحزنت لفراق أهلها فأنشأت تقول:

ألست ترى يا ضب بالله أنني   مصاحبةٌ نحو المدينة أركبا
إذا قطعوا حَزَناً تخب ركابهمْ   كما زعزعتْ ريحٌ يراعاً مُثقبا
لقد كان في أبناء حِصْن بن ضَمْضمٍ   لك الويلُ ما يغني الخِباءَ المطنبا

فلما قدمتْ على عثمان رضي الله عنه قعد على سريره، ووضع لها سريراً حياله ، فجلستْ عليه ، فوضع عثمان قلنسيته فبدا الصلع، فقال: يا ابنت الفرافصة ، لا يهولنّك ما ترين من صلعي ، فإن وراءه ما تُحبِّين، فسكتت، فقال: إمّا أن تقومي إليّ، وإمَّا أن أقوم إليك، فقالت: أمّا ما ذكرت من الصلع فإنِّي من نساء أحب بعولتهنّ إليهن السادة الصلع، وأمّا قولك : إمّا أن تقومي إليّ، وإما أن أقوم إليك، فوالله ما تجشمت من جنبات السماوة أبعد مما بيني وبينك، بل أقوم اليك. فقامت فجلست إلى جنبه ، فمسح رأسها ودعَا لها بالبركة، ثم قال لها: اطرحي عنك رداءك ، فطرحته ، ثم قال لها اطرحي خمارك، فطرحته، ثم قال لها: انزعي درعك، فنزعته، ثم قال حلي إزارك، فقالت ذاك إليك، فحل إزارها ، فكانت من أحظى نسائه عنده»[1].

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٣٤٩ .

إنّ أزواجاً في عصرنا الراهن لا يتحدثون بهذا الحديث ؛ لأنه قد نهى الإسلام عن ذلك، فقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ من أشرِّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثم ينشر سرّها**»[1]، وأكثر من حديث في المعنى نفسه.

فكيف بالحيِيّ الذي تستحي منه الملائكة أن يتحدث بهذا الحديث ، وكما هو معلوم فليس من ثالث بين المرء وزوجه في ليلة الدخول؟!!

ثم يروي «أن أبا هريرة قال لعائشة بنت طلحة: ما رأيت شيئاً أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله ﷺ، قالت: والله لأنا أحسن من النار في الليلة القرة في عين المقرور»[2].

أهكذا يكون خلق أبي هريرة راوي الحديث عن رسول الله ﷺ، ثم ما علاقة عائشة بمعاوية؟ وهل من شخص يشبه امرأة برجل ! فمن المعلوم أن الرجل يشبه بالرجل والمرأة بالمرأة، ولكن هكذا هو ديدن صاحب «الأغاني» في غرابة نُقوله وافتراءاته على صحابة رسول الله ﷺ.

ويتهم سعد بن أبي وقاص في أمانته، وعبد الله بن مسعود بالتآمر، يقول :

---

(١) رواه مسلم «صحيح مسلم بشرح النووي» كتاب النكاح ، باب تحريم إفشاء سر المرأة، ٥/ ١١، ١٤٣٧ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١١/ ١٩٤ .

« قدم الوليد بن عقبة عاملاً لعثمان على الكوفة وعبد الله بن مسعود على بيت المال، وكان سعد قد أخذ مالاً، فقال الوليد لعبد الله : خذه بالمال، فكلمه عبد الله بمحضر من الوليد في ذلك، فقال سعد: آتي أمير المؤمنين . فإن أخذني به أدّيته . فغمز الوليد عبد الله ونظر إليهما سعد فنهض وقال: فعلتماها! ودعا الله أن يغري بينهما وادى المال»[1].

وهو يتهم الزبير وأبناءه بالبخل:

فقد وصف الزبير سليمان بالسخاء ، إذ أنه أمر لأحدهم «بألف دينار في دَينه، وألف دينار معونة على عياله، وبرقيق من البيض والسودان، وكثير من طعام الجاري ، وأن يُدان من الصدقة بألفي دينار، قال: فلما جاء ذلك إلى أبي قال: أعطيته من غير مسألة ؟ فقيل: نعم قال: الحمد لله ، ما أسخى هذا الفتى ! ما كان أبوه سخيًّا ولا ابن سخي. ولكن هذا كأنه من آل حرب. ثم قال: (الطويل)

فما كنت ديّاناً فقد دِنْتُ إذ بَدَت صُكوكُ أميرِ المؤمنين تدورُ
بوصلِ أُولي الأرحامِ قَبلَ سؤالِهم وذلك أمرٌ في الكرامِ كَثيرُ

قال بعض مَن روَى هذا الخبر عن الزبير، الناس لا ينظرون في عيب أنفسهم ، وما كان لجعفر أن يَعيب أحداً بالبخل ، وما رُئي في الناس أحدٌ أبخل

---

(١) «الأغاني» ٥/ ١٣٨ .

منهم أهل البيت ولا من عبد الله بن الزبير خاصة ، وما كان فيهم جواد غير مصعب»[١].

والأصفهاني في هجومه على الوليد بن عقبة ، يتهمه اتهامات عظيمة لا يمكن أن تجتمع في مسلم، يقول:

« كان الوليد بن عقبة زانياً شرِّيب خمر، فشرب الخمر بالكوفة وقام يصلي بهم الصبح في المسجد الجامع ، فصلى بهم أربع ركعات ثم الْتَفَت إليهم وقال لهم: أزيدكم؟ وتقيّأ في المحراب، وقرأ بهم في الصلاة وهو رافع لصوته[٢]:

علق القلب الرَّبابا بعد ما شَابَتْ وشَابا

ويَذكر عثمان بن محمد الخميس في اتهامه بشرب الخمر:

«أمّا شربه الخمر فهذه أولاً عِلْمُها عند الله -تبارك وتعالى- ، لا تكذيباً لـ«صحيح مسلم» فهو قد جلد على الخمر، ولكن هل ثبت عنه أنه شرب الخمر أو لا؟ هذا أمرٌ آخَر فالوليد بن عقبة لَـمَّا كان والياً على الكوفة، خرج اثنان من أهل الكوفة إلى عثمان بن عفان في المدينة وقالَا له: رأينا الوليد بن عقبة صلى بنا الفجروهو سكران، قال أحدهما: رأيته سكران، وقال الآخر رأيته يتقيأ، فقال عثمان : ما تقيأها إلا بعد أن شربها.... وقد طعن محب الدين الخطيب صاحب كتاب «العواصم من القواصم» في شهادة الشاهدين وتبيّن أنهما ليسَا من

---

(١) المصدر نفسه ١٥/ ١٥ .

(٢) المصدر نفسه ٥/ ١٣٩ .

الثقات»[١].

ومبدأ المسألة كما يذهب الطبري ، أن الوليد بن عقبة عزر جندب لقتله الساحر بالظن ، فغضب أصحاب جندب فلم يبقَ موتورٌ في نفسه إلا أتاهم ، فاجتمعوا على رأي فأصدروه ، ثم تغفلوا الوليد ، وكان ليس عليه حجاب ، فدخل عليه أبو زينب الأَزْدي ، وأبو مورِّع الأَسَدي ، فسلّا خاتمه ، ثم خرجَا إلى عثمان ، فشَهِدَا عليه ، ومعهما نفر ممن يعرف من أعوانهم ، فبعث إليه عثمان ، فلما قدِم أمر به سعيد بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أنشدك الله ! فوالله إنهما لخصمان موتوران . فقال : لا يضرك ذلك ؛ إنما نعمل لما ينتهي إلينا ، فممن ظَلَم فالله وليّ انتقامه ، ومن ظُلم فالله ولي جزائه »[٢] .

ويهاجم أبا سفيان فيقول:

« لما كان يوم اليرموك خلفني أبي ، فأخذتُ له وخرجت ، فرأيت جماعة من الخلفاء فيهم أبو سفيان بن حرب فوقفتُ معهم ، فكانت الروم إذا هزمت المسلمين قال أبو سفيان : إيه بني الاصفر ، فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان :

وبنُو الأصفر الكرامُ ملوكُ الرو   م لم يبق منهمُ مذكورُ

---

(١) «حقبة من التاريخ» ص٨٩ .

(٢) «صحيح تاريخ الطبري » ابن جرير الطبري ، تحقيق محمد بن طاهر الطبري البرزنجي ، محمد صبحي حلاق ، ٣ / ٣١٦ ٣١٧. .

فلما فتح الله على المسلمين حدّثت أبي فقال : قاتله الله ! يأبى إلّا نِفاقاً ؛ أوَلسنا خيراً له من بني الأصفر ! ثم كان يأخذ بيدي فيطوف على أصحاب رسول الله ﷺ يقول : حدِّثهم ، فأحدِّثهم فيعجبون من نفاقه » [1].

وقد يظهر بعض الصحابة بمظهر العبث وعدم الجدية ، يقول :

« اشتاق النعمان بن بشير إلى الغناء ، فصار إلى منزل عزة الميلاء ، فلما انصرف إذا امرأة بالباب منتظرة له . فلما خرج شكت إليه كثرة غشيان زوجها إياها فقال النعمان : لأقضين بينكما بقضية لا تُرد عليّ ، قد أحل الله له من النساء أربعاً : مثنى ، وثلاث ، ورباع ، له مرتان بالنهار ، ومرتان بالليل » [2].

وهو يهاجم أبا الأسود الدؤلي: العلّامة الفاضل قاضي البصرة الذي ولد في أيام النبوة وأسلم في حياة النبي ﷺ، وإن لم يصاحبه، وحدّث عن عمر، وعلي، وأُبيّ بن كعب، وأبي ذر، وعبد الله بن مسعود، والزبير بن العوام، وقرأ القرآن على عثمان، وعليّ، وقاتل يوم الجمل مع علي بن أبي طالب، وكان من وجوه الشيعة، ومِن أكملهم عقلاً ورأياً، وقد أمَرَه علي رضي الله عنه بوضع شيء في النحو لما سمع اللحن» [3].

غير أن صاحب «الاغاني» لم يدع صفة خَلقية أو خُلقية سيِّئة؛ إلا وألصقها

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني، ٦ / ٣٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٦ / ٤١ .

(٣) «ينظر سير أعلام النبلاء» الذهبي، ٤/ ٨١-٨٢ .

به.

فما وصفه به سوء الخلق - حاشاه ذلك- فهو يحدث نقلاً عن المدائني، أنه «خرج أبو الأسود الدؤلي ومعه جماعة أصحاب له إلى الصيد، فجاءه أعرابي فقال له: السلام عليكم. فقال له أبو الأسود: كلمة مقولة، قال: أدخُل؟ قال: وراءك أوسع لك. قال: إن الرمضاء أحرقت رجلي، قال: بل عليها أو آتي الجمل يفيئ عليك. قال: هل عندك شيء تطعمنيه؟ قال: نأكل ونطعم العيال، فإن فضل شيء فأنتَ أحقّ به من الكلب، فقال الأعرابي: ما رأيتُ قط أَلْأَم منك، قال أبو الأسود: بلى قد رأيت، ولكنك قد أنسيت»[1].

وينقل عن المدائني أيضاً أنه:

«كان أبو الأسود له على داره دكان يجلس عليه، مرتفع عن الأرض إلى قدر صدر الرجل، فكان يوضع بين يديه خوان على قدر الدكان، فإذا مر به مار فدعاه إلى الأكل لم يجدْ موضعاً يجلس فيه، فمر به ذات يوم فتىً فدعاه إلى الغداء، فأقبل فتناول الخوان فوضعه أسفل، ثم قال له: يا أبا الأسود إن عزمت على الغداء فانزل، وجعل يأكل وأبو الأسود ينظر إليه مُغتاظاً حتى أتى على الطعام، فقال له أبو الاسود: ما اسمُك يا فتى؟ قال: لقمان الحكيم، قال: لقد أصاب أهلك حقيقة اسمك»[2].

وهو يطعن في خلقه وأهل بيته، يقول:

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٢/ ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) المصدر نفسه ١٢/ ٣٧٣ .

« كان أبو الأسود يجلس إلى فناء امراة بالبصرة فيتحدث إليها، وكانت برزة جميلة، فقالت له: يا أبا الأسود، هل لك في أن أتزوجك ؟

فإني صناع الكف، حسنة التدبير، قانعة بالميسور، قال: نعم، فجمعت أهلها فتزوجته، فوجد عندها خلاف ما قدره ، وأسرعت في ماله ، ومدت يدها إلى خيانته وأفشت سره» (١).

ويطعن في صفاته الخلقية ، فيقول:

كان أبو الاسود أبخر فسارَّ معاوية يوماً بشيء فأصغى إليه ممسكاً بكمّه على أنفه ، فنحّى أبو الأسود يده عن أنفه ، وقال : لا والله لا تسود حتى تصبر على سرار المشايخ البخر» (٢).

وينقل عن المدائني أيضاً:

« زعم أبو بكر الهذلي أن أبا الاسود الدؤلي كان يحدّث معاوية يوماً فتحرك فضرط ، فقال لمعاوية : استُرها عليّ ، فقال : نعم ، فلمّا خرج حدّث بها معاوية عمرو بن العاص ومروان بن الحكم ، فلما غدَا عليه أبو الأسود قال عمرو: ما فعلت ضرطتك يا أبا الاسود بالأمس؟ قال: ذهبت كما تذهب الريح مقبلة ومدبرة ، من شيخٍ ألان الدهر أعصابه ولحمه عن إمساكها، وكل أجوف ضروط، ثم أقبلَ على معاوية فقال : إنّ امرأً ضعفت أمانته ومرؤته عن كتمان

---

(١) «الأغاني» ١٢/ ٣٦٠ .

(٢) المكان نفسه .

ضرطة لحقيق بألّا يؤمن على أمور المسلمين»[1].

فأين هذه الأوصاف مما وصف به من قبل الإمام الذهبي ، فذلك الإمام الوَرِع قد منح شخصية أبي الأسود الدؤلي حقها من العلم والجهاد والورع والتُّقى ، في حين أن صاحب «الأغاني» قد جردها من ذلك كله، وطعن في حرماته وفي أخلاقه.

الطعن في أبناء الصحابة

يَأْبى أهل الفرية والكذب ؛ إلّا أن يَصلوا الأبناء بالآباء ، وأن لا يتركوا حفيداً . فمن سلسلة افتراءاته ، ودوام كذبه أنه بعد أن طعن في الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم-، ابتدأ في الطعن في أبنائهم، يقول: كان ابن أبي عتيق مُعجباً بغناء عزة الميلاء كثير الزيارة لها... (فسألها يوماً زيارته فأجابته إلى ذلك ومضت نحوه ، فقال لها بعد أن استقر بها المجلس: يا عزة، أحب أن تغنيني صوتي الذي أنا له عاشق. فغنته هذا الصوت، فطرب كل الطرب وسُرّ غاية السرور.

وكانت له جارية، وكان فتى من أهل المدينة كثيراً ما يعبث بها، فأعلمَت ابن أبي عتيق بذلك، فقال لها : قولي له: وأنا أحبك، فإذا قال لك: وكيف لي بك؟ فقولي له : مولاي يخرج غداً إلى مال له، فإذا خرج أدخلتك المنزل. وجمع ابن أبي عتيق ناساً من أصحابه فأجلسهم في بيته ومعهم عزة الميلاء، وأدخلت

---

(١) المصدر نفسه ١٢/ ٣٦١ .

الجارية الرجل. وقال لعزة: غنّي، فأعادت الصوت. وخرجت الجارية فمكثت ساعة ثم دخلت البيت كأنها تطلب حاجة، فقال لها : تعالي . فقالت : الآن آتيك. ثم عادت فدعاها فاعتلت، فوثب فأخذها فضرب بها الحجل، فوثب ابن أبي عتيق عليه هو واصحابه، فقال لهم وهو غير مكترث: يا فساق ما يجلسكم ها هنا مع هذه المغنية! فضحك ابن أبي عتيق من قوله وقال له: استر علينا ستر الله -تعالى- عليك . فقالت له عزة يا ابن الصديق ، ما أظرف هذا لولا فسقه! فاستحيًا الرجل فخرج.

وبلغهم أن ابن عتيق قرر إن هو وقع في يده أن يصير به إلى السلطان فأقبل يعبث بها كلما خرجت، فشكت ذلك إلى مولاها ، فقال لها: أوَلم يرتدع من العبث بك! قالت: لا . قال: فهيِّئي الرحى وهيِّئي من الطعام طحين ليلة إلى الغداة. فقالت : أفعل يا مولاي . فهيأت ذلك على ما أمرها به ثم قال لها : عِديه الليلة فإذا جاء فقولي له : إن وظيفتي الليلة طحن هذا البر كله ثم اخرُجي من البيت واترُكيه. ففعلَت، فلمّا دخل طحنَت الجارية قليلاً، ثم قالت له : ان كفت الرحى فإن مولاي جاء إليّ أو بعض من وكله بي، فاطحن حتى نأمن أن يجيئنا أحد، ثم أصير إلى قضاء حاجتك. ففعل الفتى ومضت الجارية إلى مولاها وتركته. وقد أمر ابن أبي عتيق عدة من مولياته أن يتراوحن على سهر ليلتهن ويتفقدن أمر الطحين ويحثن الفتى عليه كلما أمسك؛ ففعلن، وجعلن ينادينه كلما كف: يافلانة إن مولاك مستيقظ؛ والساعة يعلم أنك كففت عن الطحن فيقوم إليك بالعصا كعادته مع من من كانت نوبتها قبلك إذا نامت وكفت عن

الطحن. فلم يزل الفتى كلما سمع ذلك الكلام يجتهد في العمل والجارية تتعهد وتقول: قد استيقظ مولاي. والساعة ينام فأصير إلى ما تحب. فلم يزل الرجل يطحن حتى أصبح وفرغ من جميع القمح. فلما فرغ وعلمت الجارية أتته فقالت: قد أصبحت فانجُ بنفسك، فقال: أوَقَد فعلتها يا عدوة الله! فخرج تَعِباً نَصِباً فأعقبه ذلك مرضاً شديداً أشرف منه على الموت، وعاهد الله -تعالى- أن لا يعود إلى كلامها، فلم تر منه بعد ذلك شيء ينكر»[1].

هل هذه أفعال جل أبناء الصحابة؟ أين دينهم؟ أين قراءتهم للقرآن الكريم؟ أين ورعهم وتقاهم؟ ألا يحرمون حراماً ويحلون حلالاً! ألا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ وكيف يرضون ذلك في بيوتهم، أليست بيوتهم عورة؟!

وهذا عاصم بن عمر بن الخطاب -رضوان الله عليهما- يَذكُره فيقول:

«مَرَّ فضالة بن شريك بعاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو متبدٍّ بناحية المدينة فنزل به فلم يقره شيئاً ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيء، وقد عرفوه مكانهم. فارتحلوا عنه. والتفت فضالة إلى مولى لعاصم فقال له: قل له: أما والله لأطوقنك طوقاً لا يبلى .فقال يهجوه:

ألا أيُّها الباغي القِرى لستَ واجداً ... قِراكَ إذا ما بِتَّ في دار عاصمِ
إذا جئتَه تبغِي القِرَى باتَ نائماً ... بطيناً وأمسى ضيفُه غيرَ نائمِ

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٢/ ١٨٤-١٨٥ .

فَدَعْ عاصماً أُفٍّ لأفعالِ عاصمٍ   إذا حصل الأقوام أهلُ المكارمِ
فتىً مِن قريشٍ لا يجودُ بنائلٍ   ويحسبُ أن البُخلَ ضَربةُ لازمِ
ولولا يد الفاروق قلدتُ عاصماً   مُطوقةً يُحدى بها في المواسمِ
فليتَك من جَرمِ بن زَبانِ أو بني   فقيم أو النوكى أبان بن دارِمِ
أناسٌ إذا ما الضيفُ حل بُيوتهم   غدَا جائعاً عَيمان ليس بغانمِ

[قال] : فلما بلغت أبياته عاصماً استدعى عليه عمرو بن سعيد بن العاص وهو يومئذ بالمدينة أمير، فهرب فضالة بن شريك ، فلحق بالشام، وعاذ بيزيد ابن معاوية وعرفه ذنبه وما تخوف من عاصم؛ فأعاذه، وكتب إلى عاصم يخبره أن فضالة أتاه مستجيراً به، وأنه يحب أن يهبه له. ولا يذكر لمعاوية شيئاً من أمره، ويضمن له ألا يعود لهجائه؛ فقبل ذلك عاصم وشفع يزيد بن معاوية[1].

وقد نال النصيب الأكبر من الطعن، أبناء سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ اتهم الأصفهاني الوليد بن عثمان بن عفان، فقال:

«كان الوليد بن عثمان بن عفان يشرب مع الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وابن سيحان وكان يخمر فأصابه من ذلك شيء شديد حتى خيف عليه وشق النساء عليه الجيوب، فدعي له ابن سيحان ، فلما رآه قال: اخرجن عني وعن أخي، فخرجن ، فقال له : الصبوح أبا عبد الله ، فجلس مفيقاً؛ فذلك حيث

(١) المصدر نفسه ١٢/ ٩١-٩٢ .

يقول ابن سيحان:

بــأبي الوليــدُ وأمّ نفــسي كلــها بَــدت النجــومُ وذر قــرنُ الــشَارقِ
أثــوى فــأكرمَ في الثَّــواء وقــضيت حاجاتنــا مــن عنــد أروع باســقِ
كــم عنــده مــن نائــلٍ وســماحةٍ وفــضائل معــدودة وخلائــقِ
وســماحة للمُعتفــين إذا اعتفــوا في مالــه حقًّــا وتمــول صــادقِ
لا تبعَــدنَّا دواة مطروحــةُ كانــت حــديثاً للــشرابِ العــاتقِ

أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد بن إسحاق عن أبيه قال:

كان الوليد بن عثمان يُكنّى أبا الجهم، وكان لابن سيحان صديقاً ونديماً وكان صاحب شراب، فمرض فعاده الوليد وقال: ما تشتهي؟ قال: شراباً، فبعث فجاءه بشراب في إداوة، ثم ذكر باقي الخبر نحو الذي قبله[1].

والخبر الذي قبله يُروى في ابن سيحان وهو حليف لقريش وليس منهم، فقد كان ابن سيحان حليفاً لقريش ينزل بالمدينة، وكان نديماً للوليد بن عثمان، فأصابه ذات يوم خمار، فذهب لسانه وسكنت أطرافه وصرخ أهله عليه، فأقبل الوليد إليه فزعاً، فلما رآه قال: أخي مخمور ورب الكعبة، ثم أمر غلاماً له فأتاه بشراب من منزله في إداوة فأمر به فأُسخن ثم سقاه إياه وقيأه، وصنع له حساء وجعل على رأسه دبنا وجعل رجليه في ماء سخن، فما لبث أن انطلق وذهب ما كان به ومات الوليد بعد ذلك فبينا ابن سيحان يوماً جالساً وبعض متاعه ينقل

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢/ ٢٣٩ .

من بيت إلى بيت ، إذ مرت الخادم بإداوة الوليد التي كان دواه بما فيها من الشراب وقد يبست وتقبضت، فانتحب[1].

ومن عجيب أسانيده ، إطلاقه الخبر عن المكيِّين، وبينه وبين الحدث ما يزيد على مئتي عام، يقول: «كان العرجي -وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان- شاعراً سخياً شجاعاً أديباً ظريفاً. ويشبه شعره بشعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد بن هشام وإن كانَا قدِمَا عليه.

فقد نسب كثير من شعره إلى شعرهما ، وكان صاحب صيد فخرج يوماً متنزهاً من مكة ومعه جماعة من غلمانه ومواليه ومعه كلابه وفهوده وصقوره وبوازيه نحو الطائف إلى مال له بالعرج - وبهذا الموضع سمي العرجي- فجرى بينه وبين مولى لبني أمية كلام، فامضه المولى فكف عنه العرجي حتى أوى إلى منزله، ثم هجم عليه ومعه غلمانه فأمرهم أن يوثقوه ، ثم أمرهم أن ينكحوا امرأته وهو يراهم ففعلوا، ثم أخرجه فقتله.

فبلغ أمير مكة ما فعل فطلبه، فخرج من منزله وأخرج معه غلمانه ومواليه وآلة الصيد وتوجه نحو المدينة وقد ركب أفراسه وأعد عدته. فلم يزل يتصيد ويقصف في طريقه حتى دخل المدينة ليلاً، وأراد المقام في منزل جميلة ، وكانت آلت أن لا تغني بشعره ولا تُدخِله منزلها بكثرة عبثه وسفهه وحداثة سنه. فلما أُعلِمت بمكانه ليلاً قالت: طارق! إن له لشأناً! فاستخبرَت خبره فقيل لها: إنه قدم مستخفياً، ولم ير بالمدينة موضعاً هو أطيب له من منزلك والأيمان تُكفَّر

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢٣٨ .

والأشراف لا يردون. فقالت لرسولها إليه: منزلي منزل جوار ولا يمكن مثلك الاستخفاء فيه، فعليك بالأحوص- وكان الأحوص مجانباً له لشيء جرى بينه وبينه في منزل جميلة - فقال: أنَّى لي بالاحوص مع الذي كان بيننا! قالت: ائته عني وقل له: قد اغنينا بذلك الشعر؛ فإن أحببت أن تظهر وتبقى مودتنا لك فأصلح ما بينك وبين عبدالله، إذ أصلح بيننا وأنزله منزلك. قال لها: ليس هذا بمقنعي؛ أما إذ أبيت أن تقيم بمنزلك فوجّهي معي رسولاً إلى الأحوص؛ فإن منزله أحب المنازل إليّ بعد منزلك. فوجهت معه إلى الأحوص بعض مواليها فأنزله الأحوص وأكرمه وأحسن جواره وستر أمره. فقال شعراً ووجه به إلى جميلة:

ألا قاتلَ اللهُ الهَوى كيف أخلقا ... فلم تلفِه إلا مشُوباً مُمذقَا

وما مِن حبيبٍ يستزير حبيبَه ... يعاتبه في الودّ إلا تَفرَّقا

أمَّر وصالُ الغانيات فأصبحت ... مضاضتُه يشجى بها من تَمَطقا

تعلّق هذا القلبُ للحَيْن معلقاً ... غَزَالاً تحلى عِقدُ دُرٍّ ويَارقا

فلما قرأت شعرَه رقّت له وقالت : كيف لي بإيلائي ألا يدخل منزلي ولا أغنيه بشعره؟! فقيل لها: يدخل منزلك وتغنين وتكفرين عن يمينك، فوجهت أن صِر إلينا والأحوص في تلك الليلة، فجاءَاها؛ وعرّفت الأحوص تكفير اليمين؛ فقال لها: وأنا والله شفيعه إليك؛ ففرِّجي ما به من غم فقد فارق مَن يحب ويهوى، فتؤنسينه وتسرينه وتغنينه بشعره. فغنت:[1]

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٨/ ٢٣٧-٢٣٩ .

ألا قاتلَ اللهُ الهوى كيفَ أخلقا فــلم تُلــفهِ إلا مَشــوباً مُمَذقَا

وفي هذا مروان بن أبان بن عثمان رضي الله عنه يقول :

«صلى أشعب يوماً إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان ، وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة ، فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت، فانصرف أشعب من الصلاة ، فوهم الناس أنه هو الذي خرجت منه الريح، فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له: الدية، فقال : دية ماذا؟ فقال: دية الضرطة التي تحملتها عنك والله وإلا شهرتك، فلم يدعه حتى أخذ منه شيئاً صالحاً»[1].

وقد شمل الطعن آل الزبير رضي الله عنه وكان الطعن مشتملاً على جوانب مختلفة، أسهلها اتهامه إياهم بالتزوير، يقول:

«افتعل عمرو بن الزبير كتاباً عن معاوية إلى مروان بن الحكم بأن يدفع اليه مالاً، فدفعه إليه ، فلما عرف معاوية خبره كتب إلى مروان بأن يحبس عمراً حتى يؤدي المال فحبسه مروان ، وبلغ الخبر عبد الله بن الزبير ، فجاء إلى مروان وسأله عن الخبر ، فحدّثه به فقال: مالكم في ذمتي ، فأطلق عمراً ، وأدّى عبد الله المال عنه ، وقال: والله إني لأؤدّيه عنه وإني لأعلمُ أنه غير شاكر ، ثم تمثل قول أمية بن الأسكر الليثي:[2]

فلولا تأسينا وحد رماحنا لقد جر قوم لحمنا تربا قضا

---

(١) المصدر نفسه ١٩/ ١٥٣-١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢١/ ٢٢ .

ثم اتهمه بالتحريش بين معاوية بن أبي سفيان، والحسن بن علي رضي الله عنه يقول: « قال معاوية لعبد الله بن الزبير وهو عنده بالمدينة في أناس: يا ابن الزبير: ألا تعذرني في الحسن بن علي! ما رأيته مذ قدمت المدينة إلا مرة. قال دع عنك حسناً، فأنت والله كما قال الشماخ:

أجامل أقواماً حياءً وقد أرى   صدورهمُ تغلي عليَّ مِراضُها

والله لو يشاء الحسن أن يضربك بمئة ألف سيف ضربك! والله لأهل العراق أرأم له من أم الحوار لحوارها. فقال معاوية -رحمه الله- : أردت أن تغريني به! والله لاصلن رحمه ولاقبلن عليه، وقال [1]:

ألا أيها المرءُ المحرشُ بيننا   ألا اقتُل أخاك لستُ قاتلَ اربدِ
أبى قُربُه منِّي وحسنُ بلائِه   وعلمي بما يأتي به الدهرُ في غدِ

وهو هنا ينحرف انحرافة شاذة شديدة التأثير توحي بمدى إسفاف الراوي ومدى تعمله وكثرة رهقه وشدة وله بمثل هذه الأخبار؛ التي يلحظ عليها الصنعة والافتراء الظاهر فهو ينقل عن رواة لم يتحقق أحد يوماً عن شخصياتهم، وهم مما لا شك فيه ينقطعون عن الحدث بزمن بعيد، يقول:

«إن عبد الله بن مصعب خاصم رجلاً من ولد عمر بن الخطاب بحضرة المهدي، فقال له عبد الله بن مصعب: أنا ابن صفية، قال: هي أدنتك من الظل ولولاها لكنت ضاحياً وكنت بين الفرث والحوية. قال أنا ابن الحواري قال له

(١) «الأغاني» ٩ / ٢٠٢.

العمري : بل أنت وردان المكاري قال: وكان يقال: إن أمه كانت تهوى رجلاً يكري الحمير يقال له وردان ، فكان من يسبه ينسبه اليه ، وقال فيه الشاعر:

أتُدعى حواريّ الرسولَ سفاهةً وأنـــت لوردانِ الحمير سَليلُ

فقال: والله لأنا بأبي أشبه من التمرة بالتمرة والغراب بالغراب ، قال له العمري: كذبت، وإلا فأخبرني ما بال آل الزبير ثط اللحى وأنت ألضّ وما لهم سمراً جعاداً وأنت أحمر سبط ؟ قال: إليّ تقول هذا يا ابن قتيل أبي لؤلؤة؟ قال العمري: يا ابن قتيل ابن جرموز على ضلالة أتعيرني أن قتل أبي رجلٌ نصراني وهو أمير المؤمنين قائماً يصلي في محرابه وقد قتل أباك رجلٌ مسلم بين الصفين يدفعه عن باطل ، ويدعوه إلى حق، فأنا أقول: رحم الله ابن جرموز، فقل أنت: رحم الله أبا لؤلؤة ، ثم أقبل على المهدي فقال:

ألا تسمع يا أمير المؤمنين ما يقول عائدُ الكلب في عمر بن الخطاب ، وقد عرفت ما كان بينه وبين أبيك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله من المودة وتعلم مابين جده عبد الله بن الزبير وبين جدك عبد الله بن العباس من العداوة فأعن يا أمير المؤمنين أولياءك على أعدائك ، فوثب رجل من آل طلحة فقال له يا أمير المؤمنين، ألا تكف هذين السفيهين عن تناول أعراض أصحاب رسول الله ﷺ وتكلم الناس بينهما وتوسطوا كلامهما وأكثروا فأمر المهدي بكفهما والتفريق بينهما»[1].

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٤/ ٢٠٠-٢٠١ .

مع علمنا واعتقادنا الراسخ، أن الرد على هذا الافتراء، هو من نافلة القول، لجلاء الكذب والافتراء فيه إلا أن الرد على هذا الافتراء، له سبل عدة، منها أن فضل آل الزبير عظيم، ولهم دور في الإسلام كبير وقرابة رحم مع سيدنا رسول الله ﷺ، ففضلهم لا ينكره إلا جاحد، ومن كان هذا وصفهم لا تكون هكذا نساؤهم، فحاشاهم، ونعوذ بالله أن نكون ممن ينقل هذا الإسفاف والكذب والتزوير، ولكن عذرنا أننا نرد على الافتراء والدس.

عن علي قال: بشر قاتل ابن حنيفة بالنار، ثم قال علي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل نبيّ حوارياً وحواريي الزبير**»[1].

١- أن الرسول الكريم ﷺ قد قال في قاتل الزبير: «**بشّر قاتل ابن صفية بالنار**»[2]؛ فكيف بابن أحد دعائم الإسلام، ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يعمل بعكس هذا ويتجاهل قول الرسول ﷺ ليترحم على قاتل الزبير رضي الله عنه ولا أظن الترحم إلا على لسان الأصفهاني.

٢- أن زمن المهدي المتوفى (١٦٠هـ)، يفترق بثلاثة أجيال عن زمن الزبير

---

(١) «مسند الإمام أحمد بن حنبل» تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، ٢ / ٩٩، رقم الحديث ٦٨١، وقال عنه إسناده حسن وأخرجه الترمذي من طريق معاوية بن عمرو عن زائدة بهذا الإسناد، وقال عنه حسن صحيح، ينظر: «جامع الترمذي» كتاب المناقب، باب مناقب الزبير بن العوام، رقم الحديث ٤٣٧٤.

(٢) المكان نفسه.

المتوفى(٣٦هـ) ، فالفارق هو (١٢٤ سنة) ، وهذه السنوات هي لثلاثة أجيال - لا لجيلين- إذ أنه يروي أنه التقى بعبد الله بن مصعب بن الزبير ، وهذا يدل بوضوح على افتراء ذلك الاجتماع وأنه من نسج الخيال.

وصاحب «الأغاني» لا يفتأ يحرش بين أبناء الصحابة ، ويشوه صورتهم، وهو يعمد أحياناً إلى ذكر أخبار مشوهة عنهم فيجمع عدداً منهم في خبر واحد ، كما في الخبر السابق وأخبار أخرى ، فهو يحدّث عن عبيد الله بن عروة بن الزبير قال:

«خرجت وأنا غلام أدور في السكك بالمدينة فانتهيت إلى فناء مرشوش وشاب جميل الوجه جالس، فلما رآني دعاني ، ثم قال لي: من أنت يا غلام؟ فقلت: عبيد الله بن عروة بن الزبير . فقال: اجلس فجلست ، فدعَا بالغداء فتغدينا جميعاً ، ثم قال يا جارية ؛ فأقبلتْ جارية تتهادى كأنها مهاة وفي يدها قنينة فيها شراب صاف وقلة ماء وكأس، فقال لها اسقِيني؛ فصبّتْ في الكأس وسكبتْ عليه ماءً وناولَتْهُ ، فشرب ثم قال: اسقيه، فصبّتْ في الكأس وسكبتْ عليه ماء وناولَتْني. فلما وجدت رائحته بكيت، فقال: ما يبكيك يا ابن أخي؟ فقلت : إن أهلي إن وجدوا رائحة هذا مني ضربوني ، فأقبل على الجارية بوجهه، وقال لها يخاطبها:

ألا اسقني كأسي ودعْ عنك مَن أَبى   ورَوِّ عِظاماً قصرهُنّ إلى بِلَى

فأخذته من يدي وأعطته ؛ فشربه، وقمتُ فلما جاوزته سألتُ عنه فقيل لي:

هذا خالد بن أبي أيوب الأنصاري الذي يقول فيه الشاعر[1]:

إذا أنــت نادمــت العُتــير وذا النــدى   جُبــيراً ونازعــتَ الزجاجــة خالــدَا
أمنــت بــأذن الله أن تقــرع العــصا   وأن يوقظوا مــن سكرة النــوم راقــدَا
وصرت بحمــد الله في خــير عــصبة   حــسان النــدامى لا تخــاف العرابــدَا

فها هو يجمع ابن عروة بن الزبير ، وابن أبي ايوب الانصاري في خبر واحد، ليجعلهما يشربان الخمر، وكأنما الإسلام ريح عاصف مرت فلم تبق في عقـول وأذهان المسلمين شيئاً ، فغدوا يتنافسون شرب الخمـر ويتعـادون إلى الحـانوت ليل نهار.

ثم ها هو يعود إلى ديدنه وسلوكه الشائن ليطعن في أبناء الـصحابة وهـو لا يكتفي إلّا بجعل أبناء الصحابة يخون بعضهم بعضاً، يقول:

« كان عبد الرحمن بن حسان خليلاً لعبـد الـرحمن بـن الحكـم بـن العـاص مخالطاً له فقيل له أن ابن حسان يخلفـك في أهلـك. فراسـل امـرأةَ ابـن حـسان فأخبرت بذلك زوجَها فقالت : أرسل إليّ: إني أحبك حبًّـا أراه قـاتلي! فأرسـل ابن حسان إلى امرأة ابن الحكم وكانت تواصله وقالت للرسـول: اذهـب اليهـا وقل لها إن امرأتي تزور أهلها اليوم فزوريني حتى نخلـو . فزارتـه فقعـد معهـا ساعة ثم قال لها : قد والله جاءت امرأتي . فأدخلهـا بيتـاً إلى جنبـه وأمـر امرأتـه فأرسلت إلى عبد الرحمن بن الحكم : إنك ذكرت حبك إياي وقد وقـع ذلـك في

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني،٢٠/ ٢١٦ .

قلبي ، وأن ابن حسان قد خرج اليوم إلى ضيعته فهلم فتهيأ ثم أقبل. فإنه لقاعد معها إذ قالت له: فقد جاء ابن حسان فادخل هذا البيت فإنه لا يشعر بك . فأدخلته البيت الذي فيه امراته ، فلما رآها أيقن بالسوأة ووقع الشر بينهما وهجا كل واحد منهما صاحبه.

قال أبو عبيدة : هذه رواية أبي الخطاب الأنصاري ، وأما قريش فإنهم يزعمون أن امراة ابن حسان كانت تحب عبد الرحمن وتدعوه إلى نفسها فيأبى ذلك حفظاً لِـمَا بينه وبين زوجها ، وبلغ ذلك ابن حسان فراسل امرأة ابن الحكم حتى فضحها ، وبلغ ذلك ابن الحكم وقيل له : إنك إذا أتيت ضيعتك أرسلت إلى ابن حسان فكان معها فأمر ابن الحكم أهله فقال: عالجوا سفرة حتى أطالع مالي بمكان كذا وكذا . فخرج وبعثت امرأته إلى ابن حسان فجاء كما كان يفعل ، ورجع ابن الحكم حين ظن أن ابن حسان قد صار عندها ، فاستفتح وقالت : ابن الحكم والله! وخبأته خلفها في بيت ، ودخل عبد الرحمن فبعث إلى امراة ابن حسان : أنه قد وقعت لك في قلبي مقة فأقبلي إليّ الساعة. فتهيأتْ وأقبلت حتى دخلت عليه ، فوضعت ثيابها وزوجها ينظر فقال لها : قد كنت أكثرت الإرسال إليّ فما شأنك؟ قالت: إني والله هالكة من حبك، قال وزوجها يسمع ، وإنما أراد أن يعلمه أنها قد كانت ترسل إليه ويأبى عليها . وزعم أنها هي التي قالت لابن الحكم أن ابن حسان يخلفك في أهلك . فلما فرغ من كلامه وأسمعه زوجها قال لها : قد جاءت امرأتي . وأدخلها البيت الذي فيه ابن حسان ، فلما جمعهما في

مكان واحد خرج عنهما، فخرجا وطلق امرأته»[1].

كأني أقرأ قصة أوروبية حديثة تتناول الفضائح بين الأزواج المنحرفين ، لا قصة أزواج أبناء الصحابة الذين هم أقرب إلى أهل الارض من عهد الرسالة الصافي، أين هم مما تحدث به رسول الرحمة ﷺ بقوله: «**خيركم قرني ثم الذين يلونهم**» -قال عمران : فما أدري قال النبي ﷺ بعد قوله مرتين أو ثلاث- «**ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يتشهدون ويخونون ولا يوفون، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن**»[2] .

وهم لم يغادروا القرن الأول بعد، فأين هم من هذه الافتراءات وتلك الخزعبلات التي حبكت على شكل روايات تهالك فيها الطاعنون لإقناع المتلقي بصحتها.

الطعن في أصحاب المذاهب والعلماء

إن الطعن في الإسلام والمسلمين من قبل الأصفهاني والمسعودي في كتابيهما قد اتخذ طابعاً ممنهجاً ، بدءاً بالاستهزاء بأمر الدِّين ثم الطعن بالصحابة وآل البيت الأطهار ثم في أبنائهما ، ثم في مظهر واضح يبرز منهجيتهما في الطعن إذ

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني،١٥/ ١٠٩-١١٠ .

(٢) رواه البخاري «صحيح البخاري»، تحقيق مصطفى ديب البغا، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ٥/ ٢٣٦٢ رقم الحديث ٦٠٦٤ .

ينحدران انحداراً ، مفضوحاً ليطعنا في أصحاب المذاهب وعلماء الأمة.

فعن حسين بن دحمان الأشقر قال: « كنت بالمدينة فخلَا لي الطريق وسط النهار فجعلتُ أتغنى:

ما بال أهلكِ يا رباب خُزراً كأنّهم غضاب

قال: فإذا خوخة قد فتحت ، وإذا وجه قد بدَا تتبعه لحية حمراء، فقال يا فاسقاً أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ثم اندفع يغنيه ، فظننت أن طويساً قد نشر بعينه، فقلت له: أصلحك الله من أين لك هذا الغناء؟ فقال: نشأت وأنا غلام حَدَث أتّبع المغنّين وآخذ عنهم ، فقالت لي أمي: يا بني! إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه . فتركت المغنين واتّبعت الفقهاء . فبلغ الله بي -عز وجل- ما ترى. فقلت له: فأعِد جُعِلتُ فداك! قال: لا ولا كرامة! أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن انس ! وإذا هو مالك بن أنس ولم أعلم»[1].

بينما تُرجِم له في مقدمة «الموطأ»، نقلاً عن مجموعة من المصادر في صفاته الخَلقية والخُلقية ، أن « الإمام مالك من أحسن الناس وجها، وأجلاهم عيناً وأنقاهم بياضاً ، وأتمهم طولاً ، قال عيسى بن عمر : ما رأيت قط بياضاً ولا حُمرة أحسن من وجه مالك ولا أشدّ بياضاً من ثوب مالك... وكان مالك في مجلسه وَقُوراً حليماً وكان يرى الخطأ في الحديث عظيماً ، وكان مالك لا يحدّث

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٤/ ٢٢١-٢٢٢ .

حديثاً إلا على طهارة تعظيماً لحديث النبي ﷺ»[1] « وقال أبو عاصم : ما رأيت محدثاً أحسن وجهاً من مالك»[2] .

هذا يُظهر كذبه على الأقل فيما يخص خِلقته، فهو أحسن الناس وجهاً ، في حين يَروِي الأصفهاني أنه لقبحه اتخذ منهج الفقه؟!! اللهَ اللهَ في كذبه وافتراءاته أيّ عالمٍ جليل اختار ، وأيّ عابدٍ مترفع عن الخطايا نافح.

« وقال الإمام الشافعي : إذا جاء الأثر كان مالك كالنجم وقال: مالك وسفيان لقرينان»[3] .

فهو نجم كما وصفه الإمام الشافعي ، وحاشى لله أن ينزل النجم إلى ما اتهمه به الأصفهاني.

ويقول « أخبرني الحسين بن يحيى ومحمد بن مزيد قالا: حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه قال:

سمعتُ إبراهيم بن سعد يحلف للرشيد وقد سمعه عمن بالمدينة يكره الغناء، فقال: من قنعه الله بخزيه مالك بن أنس، ثم حلف له أنه سمع مالكاً يغني:

سُليمى ازمَعتْ بينا فَأيـن تقولـها أيْـنا

(١) «الموطأ» الإمام مالك بن أنس ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، المقدمة.

(٢) «سير أعلام النبلاء» الذهبي، ٨/ ٧٠ .

(٣) «حلية الاولياء وطبقات الاصفياء» ٦/ ٣١٨ .

في عرس رجل من أهل المدينة يكنى أبا حنظلة»(١).

يطعن في مالك بن أنس، والخليفة يسمع ويرى وهو صامت يستمع إلى القائل. ويتهم أبا حنيفة بشرب الخمر، ومصاحبة حماد عجرد وحماد هو فاسد فاسق لا يتوانى عن الموبقات، يقول الأصفهاني: حدثني أبو دهمان قال:

«كان أبو حنيفة الفقيه صديقاً لحماد عجرد، فنسك أبو حنيفة وطلب الفقه، فبلغ فيه مابلغ، ورفض حماداً وبسط لسانه فيه، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذِكره، وأبو حنيفة يذكره، فكتب إليه حماد بهذه الأبيات:

إن كان نسكُك لا يتـ ـمُّ بغيرِ شَتمي وانتقاصي
أو لم تكن إلّا به ترجو النجاةَ مِن القصاصِ
فاقعُد وقم بي كيف شئـ ـتَ مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكيتني وأنا المقيمُ على المعاصي
أيام تأخذها وتعُـ ـطي في أباريقِ الرَّصَاصِ

قال: فأمسَك أبو حنيفة -رحمه الله- بعد ذلك عن ذِكره خوفاً من لسانه»(٢).

في حين أن أبا حنيفة «وُلد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة .... قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم، جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل: تعلَّم القرآن، فقلت: إذا حفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس في المسجد فيقرأ

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢/ ٢٣١.

(٢) المصدر نفسه ١٤/ ٣٢٦.

عليك الصبيان والأحداث، ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو مساويك فتذهب رئاستك.

قلت: من طلب العلم للرئاسة قد يفكِّر في هذا، وإلّا فقد ثبت قول المصطفى -صلوات الله عليه-: «**أفضلكم مَن تعلم القرآن وعلَّمه**»[1].

يا سبحان الله! وهل محل أفضل من المسجد ؟! وهل نشر العلم يقارب تعليم القرآن؟! كلا والله وهل طلبه خير من الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب»[2] .

ومما لا شك فيه فإن حديثه يشير إلى طلب العلم والصبي لم يذنب بعد ولذلك فسّر علي الطنطاوي كنية أبي حنيفة فقال: « أما أبو حنيفة فهي كنيته ولم يكن له بنت اسمها حنيفة ، الحنيفية هي (الدواة) بلُغة[3] أهل العراق -العامية- كنُّوه بذلك؛ لحمله الدواة في صغره ، ودورانه على العلماء» [4].

إذن قد طلب العلم صغيراً ، وكُنِّي لذلك بأبي حنيفة ، فأين التوبة منه؟!! وقد وهم الأصفهاني في ادعائه مصاحبة (حماد عجرد الفاسد كما يصفه هو في كتابه)، إذ إن أبا حنيفة قد تتلمذ وصاحب حماد بن سليمان الفقيه العابد ، يقول

(١) رواه البخاري «صحيح البخاري» كتاب فضائل القران ، باب: خيركم ممن تعلم القران وعلمه،٩/ ٩٣، ٥٠٢٧ .

(٢) ينظر «سير أعلام النبلاء» الذهبي ، ٦/ ٣٩١-٣٩٦ .

(٣) اللغة يعني بها اللهجة.

(٤) «رجال من التاريخ» ص١٢٧ .

أبو حنيفة: « فجلست إلى حماد ، فكنت أسمع مسائله فأحفظ قوله ، ثم يعيدها من الغد فأحفظها ويخطئ أصحابه ، فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة ، فصحبته عشر سنين» [١].

ألا يسمع ألا يرى الأصفهاني، غير أنه كعادته يخلط السم بالدسم ، فيحرف الاسم لغرض في نفسه. وقال آخر: « قال أحمد بن عبد الله العجلي ، حدثني أبي قال: قال أبو حنيفة قدمت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء ، إلّا أجبت فيه، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب ، فجعلت على نفسي ألّا أفارق حماداً حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة»[٢].

سواء أكانت عشر سنين أم ثماني عشرة سنة ؛ فهو قد صاحب حماد بن سليمان وليس حماد عجرد.

أما الإمام أحمد بن حنبل فيقول عنه المسعودي: «وكانت وفاة أحمد بن حنبل في خلافة المتوكل بمدينة السلام وذلك في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومئتين ، ودفن بباب حرب ، في الجانب الغربي ، وصلّى عليه محمد بن طاهر وحضر جنازته خلقٌ من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع في جنازة من سلف قبله.

وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد في الأمور: منها أن

(١) «سير أعلام النبلاء» الذهبي، ٦/ ٣٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ٦/ ٣٩٨ .

رجلاً منهم كان ينادي: (العنُوا الواقف عند الشبهات) ، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة ﷺ في ذلك، وكان عظيماً من عظمائهم ومقدّماً فيهم يقف موقفاً بعد موقف أمام الجنازة وينادي بأعلى صوته : (الطويل)

وأظلمتِ الدنيا لفَقدِ محمدٍ وأظلمت الدنيا لِفَقد ابنِ حَنْبلِ

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد -عليه الصلاة والسلام- وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل ، كظلمتها عند موت الرسول ﷺ[١].

كما أسلفنا فإن الأصفهاني، يظهر أنه يمدح حتى إذا اطمأن المتلقي إلى ذلك، يظهر انحرافاً فيطعن فيما تقدم من مدح ، ونحن نعلم أن قضية خلق القرآن قضية مبدئية لاقى فيها الإمام شتى صنوف العَنَت من أجْلِها.

ويعود الأصفهاني مجدداً وبأسلوب رخيص ليطعن في شيخين بارزين هما الكسائي الذي يعد أبرز علماء النحو في مدرسة الكوفة، وتعود إليه إحدى القراءات القرآنية العشر، أما سعيد بن وهب ، فهو من « كبراء شيعة عليّ حدّث عن عليّ ، وابن مسعود ومعاذ بن جبل وخباب ، أسلم في حياة النبي ﷺ ولزم عليًّا رضي الله عنه حتى كان يُقال له القراد للزومه إياه.

وروى عن سلمان وابن عمر والقاضي شريح ، وروى عنه أبو إسحاق وولده يونس بن أبي إسحاق وطائفة»[٢].

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٤/ ١١٨ .

(٢) «سير أعلام النبلاء» الذهبي، ٤/ ١٨٠ .

مع هذا كله يتهمهما صاحب «الأغاني» فيقول:

«أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان ، قال حدثني أحمد بن أبي طاهر عن أبي دعامة ، قال: مر سعيد بن وهب والكسائي ، فلقيا غلاماً جميل الوجه، فاستحسنه الكسائي ، وأراد أن يستميله ، فأخذ يذاكره بالنحو ويتكلم به، فلم يمل إليه ، وأخذ سعيد بن وهب في الشعر ينشده فمال إليه الغلام فبعث به إلى منزله ، وبعث معه بالكسائي ، وقال له: حدثه وآنسه إلى أن أجيء وتشاغل بحاجة له ، فمضى به الكسائي فما زال يداريه حتى قضى حاجته وإربه ، ثم قال له: انصرف ، وجاء سعيد فلم يره»[1].

ويتهم القاضي يحيى بن أكثم بالفعل نفسه وشرب الخمر وهذا ابن خلدون يرد على مزاعمهم ، ويروى أنهم ينشدون على لسانه ما لم يقله من ذلك « ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه ، وأنه كان يعاقر الخمر ، وأنه سكر ليلةً مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق ؛ وينشدون على لسانه :

يا سيِّدي وأميرَ الناس كلهمُ ... قد جارَ في حُكمهِ من كان يسقيني
إني غَفلتُ عن الساقي فصيَّرني ... كما تراني سَليبَ العَقلِ والدِّينِ

وأيضاً : فإن يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث ، وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي في كتابه «الجامع» وذكر المزي الحافظ : أن البخاري روى عنه في غير «الجامع» فالقدح فيه قدحٌ في

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٦/ ٣٦٠ .

جميعهم.

وكذلك ما ينبزه به المجان بالميل إلى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه؛ فإن كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان ، وكان مقامه من العلم والدين منزهاً عن مثل ذلك . وقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس ، فقال: (سبحان الله! سبحان الله! ومن يقول هذا) وأنكر ذلك إنكاراً شديداً وأثنى عليه إسماعيل القاضي، فقيل له: ما كان يقال فيه ، فقال: مَعاذ الله أن تزول عدالة مثله بكذب باغٍ وحاسد، وقال أيضاً: يحيى بن أكثم أبرأ إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يُرمى به من أمر الغلمان، لقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله، لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي بما رمي به . وذكره ابن حبان في (الثقات) ، وقال: لا يشتغل بما يحكى عنه ، لأن أكثرها لا يصح عنه»[1].

بينما يذكر الأصفهاني في بعض رواياته أنه : « زامل المأمون في بعض أسفاره بين يحيى بن أكثم وعبادة المخنث فقال عمي إبراهيم في ذلك:

وحاكم زامل عبّاده ... ولم يزل تلك له عاده

لو جازَ لي حكم لما جاز أن ... يحكم في قيمةِ لُبّاده

كم من غلام عزَّ في أهلهِ ... وافت قفاه منه سجاده

وقال في يحيى أيضاً:

وكنا نرجّي أن نرى العدلَ ظاهراً ... فأعقبنا بعد الرجاء قنوطُ

---

(١) «المقدمة» ابن خلدون، ص٢٨ .

متى تصلح الدنيا ويصلحُ أهلها   وقاضي قضاة المسلمين يلوطُ!

وأخبرني عمي: حدثنا أبو العيناء قال:

نظر المأمون إلى يحيى بن أكثم يلحظ خادماً له، فقال للخادم: تعرض له إذا قمت ، فإني سأقوم للوضوء- وأمره ألّا يبرح - وعُد إليّ ما يقول لك، وقام المأمون وأمر يحيى بالجلوس. فلما غمز الخادم بعينه، قال يحيى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فمضى الخادم إلى المأمون فأخبره، فقال له: عُد إليه ، فقال له:

﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾[1] فخرج الخادم إليه فقال له ما أمره به المأمون ، فأطرق يحيى وكاد يموت جزعاً ، وخرج المأمون وهو يقول:

متى تصلح الدنيا ويصلح أهلُها   وقاضي قضاة المسلمين يلوطُ !

قم وانصرف ، واتق الله ، وأصلح نيتك»[2].

ويقول المسعودي: «كان طاوس اليماني صاحب عبد الله بن عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي، ويقول: إنه عبد مشوه الخلقة»[3].

---

(١) سبأ/ ٣٢ .

(٢) «الأغاني» ٢٠/ ٢٧٢-٢٧٣ .

(٣) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ١/ ٨١ .

وهو يذكر أن طاوس اليماني وهو صاحب عبد الله بن عباس فكيف بهذا الفقيه العالم صاحب الفقيه العالم ، أن يحل هذا الشيء يقول به ويسمع منه الناس وقد أُمِرنا نحن المسلمين بالمساواة بين المسلمين لأقوال متواترة للرسول ﷺ، ولقوله -تعالى-: ﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].



(١) الحجرات / ١٣ .



الفصل الثاني

الطعن في العرب والعروبة



الفصل الثاني

الطعن في العرب والعروبة

العرب أمة عريقة في أصل نشأتها ، وأمة بعراقتها لا بد أن تنالها سهام الحقد والغدر ، وأن تلتف حولها شباك المكر والخديعة والافتراء ، لذا فقد برزت أقوال وأفعال تنال من العرب مع التباشير الأولى لظهورهم وسيادتهم من خلال الإسلام، بل قد ألفت كتب في مثالبهم ، يقول د. شوقي ضيف : إن من « أهم الكتّاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء : سعيد بن حميد بن البختكان وكان من أبناء دهاقين الفرس، وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله في الشعوبية والتعصب بقومه كتب مختلفة منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها »[1].

ولم يدع المسلمون عرباً وسواهم تلك الكتب الضالة ، بل قاموا بملاحقتها ومعارضتها والرد على ما عرض فيها من شبهات، وإسقاطها حرفاً حرفاً، ومنهم الجاحظ في بعض كتبه ، وابن قتيبة وسواهما من العلماء المسلمين.

غير أن لصاحب «الأغاني» رأياً مغايراً لذلك ، فهو يرى أن أصل المثالب زياد -لعنه الله- فإنه لما ادُّعي إلى أبي سفيان، وعلم أن العرب لا تقر له بذلك

---

(١) «العصر العباسي الثاني» ص٩٣ .

مع علمها بنسبه ومع سوء آثاره فيهم، عمل كتاب المثالب ، فألصق بالعرب كلها كل عيب وعار، وحق وباطل، ثم بنى على ذلك الهيثم بن عدي، وكان دعيًّا فأراد أن يعر البيوتات تشفِّياً منهم، وفعل ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وكان أصله يهوديًّا وأسلم جده على يد بعض آل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فانتمى إلى ولاء بني تيم فجدد كتاب زياد وزاد فيه ، ثم نشأ غيلان الشعوبي لعنه الله، كان زنديقا ثنويا لا يشك فيه ، عرف في حياته بعض مذهبه، وكان يورى عنه في عوارته للإسلام بالتشعب والعصبية ثم انكشف أمره بعد وفاته ، فأبدع كتاباً عمله لطاهر بن الحسين ، وكان شديد التشعب و العصبية ، خارجاً عن الاسلام بأفاعيله ، فبدأ فيه بمثالب بني هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم وصنائعهم ، وبدأ منهم بالطيب الطاهر ، رسول الله ﷺ فغمصه وذكره ، ثم والى بين أهل بيته الأذكياء النجباء عليهم السلام ، ثم ببطون قريش على الولاء ، ثم بسائر العرب ، فألصق بهم كل كذب وزور، ووضع عليهم كل خبر باطل، وأعطاه طاهر على ذلك مئتي ألف درهم فيما بلغني»[1].

والسؤال الذي يواجه رأي الأصفهاني ، هو أين ذلك الكتاب الذي ادعاه إلى زياد بن أبيه (ابن أبي سفيان) ، وأي مؤلف هو في منتصف القرن الأول الهجري ، فمن المعلوم أنه لم يعرف التأليف مطلقاً في هذا الوقت المبكر.

ولكن لِنَقُل إنها فتنة قد ماج بها المجتمع ، فكانت أفكار وآراء متصارعة.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٠/ ٨٧-٨٨ .

وكان للشعراء نصيب كبير في تاجيج هذه الفتنة، فهذا بشار بن برد لم يدع مثلبة إلا ونسبها إلى العرب، بل نال من الإسلام لينال من العرب في ثنائية لا يغفلها العقل الواعي، من ذلك قوله يشيد بعبادة النار، وأنها أفضل من الارض والطين ، فيقول(١):

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وتمادى ليفضل إبليس المخلوق من النار على آدم عليه السلام المخلوق من الطين فيقول:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم فتنبهوا يامعشرَ الفُجّارِ
النارُ عنصرُه وآدمُ طِينةٌ والطينُ لا يسمو سُموَّ النّارِ

الواعي يلحظ أن الشاعر ينال من العرب ويخاطبهم بقوله: (يا معشر الفجار) وكأنها لا وعي للشاعر ينطقه في قوله أبيكم ؛ ولأنّ مشاعره تفصح على أنه ليس منهم، وفيه مدخل موسوس إلى أن عبادة النار أفضل من دين الاسلام بما فيه من عبادة الله، فالشاعر يربط العرب بالإسلام وينال منهما.

مع «علمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة (كذا) ولا ساذجة، بل كانت معقدة، فقد كان فارسي الأصل، وورث عن الفرس حدة في المزاج»(٢).

«وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي.... وجدنا شعوره بالعصبية القبلية

(١) ينظر «العصر العباسي الاول» شوقي ضيف، ص٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ص١٠٧.

يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية، فإذا هو يفاخر العربي بما في قومه، فإذا هو يتحول شعوبيًّا مارقاً يتغنّى بأمجاد قومه الحضارية كافراً بالعرب والعروبة، يقول:

هل من رسولٍ مخبرٍ عنّي جميعَ العربِ

وهي صياح وضجيج بتصوير أبهة الملك الفارسي ... هاتفاً هتافاً مقذعاً بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة »[١].

وإنا لنعجب أشد العجب لهؤلاء، ولهذا الحقد المتأصِّل في أعماقهم فهم يعيشون بين العرب ينهلون من معينهم، ويأكلون من خيراتهم، ومع هذا يضمرون حقداً، لو وزع على شعوب الأرض جميعاً لأخرجَهم عن إنسانيتهم!

فهُم قد تحولوا في المجتمع العربي الإسلامي إلى معول للهدم والتخريب، متخذين أشكالاً من الهجوم مختلفة، منها محاولات إفشاء الفاحشة والبذاءة ومحاولات النيل من الدين كما في شعر أبي نواس، وكأنما وزعوا الأدوار، فهذا أبو نواس يحاول جر المجتمع إلى الفجور والإباحية، فقد غصت قصائده بمظاهر تثير الغرائز، فهو دائم على حث المجتمع ودفعه دفعاً نحو الجهر بالمعاصي، يقول[٢]:

ألَا فاسقِني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقِني سرًّا إذا أمكن الجهرُ

---

(١) ينظر المصدر نفسه ص٢١٥ .

(٢) «ديوان أبي نواس» ص٧٣ .

فبُح باسمِ مَن تَهوى ودعَنْي من الكنى فلا خيرَ في اللَّذّاتِ دونَها سترُ
لا خير في فتكٍ بدون مجانة ولا في مُجونٍ ليس يتبعه كفرُ

وهذا ديك الجن وكان فيه « شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذّات وشكوكاً في الدين، حتى ليبدو أحياناً شاكًّا في البعث والنشور يقول:

إن كان عرفُكَ مذخوراً لذي نَسبِ فاضمُم يَديك فإني لستُ بالعربي
إني امروٌ بازلٌ في ذروى شرفِ لقيصَر ولكسرى محتدىً وأبي

ولم يكتفوا بذلك بل نالوا من ثوابت أَلِفَها العرب... منها الوقوف على الأطلال سوى أنهم لم يفهموا، ولم يحاولوا استيعاب دور الأطلال في حياة العربي، فهي تجري مجرى الدم منهم لالتصاقهم بأرضهم، وكثرة الترحال عنها، فهي ليست شكلاً كماليًّا، إنما هي ضرورة من ضروراتهم للتعويض عن نأيهم عن ملاعب طفولتهم.

يقول أبو نواس:

عاج الشقي على دارٍ يُسائلُها وعجتُ أسألُ عن خمّارَةِ البلدِ
قالوا أذكرتَ ديارَ الحيّ من أسدٍ لا درّ درّك قل لي من بنو أسدِ
ومن تميم ومن قيس وإخوتهم ليس الأعاريبُ عند الله من أحَدِ

ويقول:

دع الربعَ، ما للربع فيكَ نصيبُ وما إن سَبَتْني زينبُ وكَعوبُ
ولكن سبتني البابليةُ إنّها لِمثلي في طولِ الزمانِ سَلوبُ
جفا الماءُ عنها في المزاج لأنّها خيالٌ لها بينَ العِظام دَبيبُ

ولم ينحصر هذا الخصم المتماوج على الشعراء وحدهم، بل أغرق الكثيرون فيه، حتى غدا لدى البعض منهجاً ثابتاً يخفت أحياناً، ويظهر أخرى، ولكنه لا يفتأ يَذكُر العرب بما يسوؤهم وينال منهم في إنسانيتهم، وقد اتخذ بعضهم وسائل متعددة لذلك، منها:

الطعن في أخلاق العرب

قال -تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

«الخطاب في الآية قيل لأصحاب رسول الله ﷺ خاصة، وقيل للمهاجرين من بينهم، وهو أحد خبرين عن ابن عباس، وفي آخر أنه عامّ لأمة محمد ﷺ ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد بسند حسن عن أبي الحسن -كرم الله وجهه- قال: قال رسول الله ﷺ أُعطيت ما لم يُعط أحد من الأنبياء، نُصرت بالرعب، وأُعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم»[2].

إنّ أُمّة الإسلام بمن فيهم العرب حملة لواء الإسلام، هذا هو وصفهم في

---

(١) آل عمران/ ١١٠.

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» الآلوسي، ٤/ ٣٨٢.

القرآن الكريم وفي حديث سيدنا محمد ﷺ، أمّا أعداء العرب والإسلام فقد زرعوا في أذهان أجيال كثيرة مظاهر نسبوها إلى العرب والإسلام وهي بعيدة عنهم في إسلامهم وقبل إسلامهم، وكما هو معلومٌ فلم تكن هناك حدود واضحة يفرق بها بين المسلمين من العرب وغيرهم، فالكل قد انصهر في بوتقة عظيمة جليلة القدر هي الإسلام.

وفي سعي هؤلاء لأن ينالوا من العرب والمسلمين ألبسوا العصور المختلفة لباساً واحداً، حتى ما عُدنا نرى حدوداً تفصل بين أزمنة تمتد من صدر الإسلام وحتى العصر العباسي الثاني، فكأنّما حِيكت الأحداث حياكة واحدة في وقت واحد وزمن واحد مما أدّى إلى إلباس الأزمنة المختلفة زيًّا واحداً لا يكاد يفرق بين تلك العهود المتباعدة، وهذه مسالة تَنبَّه إليها العلّامة ابن خلدون في «مقدمته».

الطعن في القبيلة

تمثل القبيلة في حياة العربي الأساس الذي تُبنى عليه حياته جميعها، فهي تمثل حماه الذي يحتمي بجنابها، وهي تشكل سوراً بل جنة يتظلل بأفيائها، لا حياة خارجها، ولا سكن بعيداً عنها.

ولطالما تفاخر العربي بقبيلته، حتى أن العربي ليخشى من كلمة تصيبها فتناله معرة منها، قال -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا

﴿وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

إن الإسلام لم يبطل دور القبيلة، بل أذابها في بوتقة الإسلام، وشذب من أعرافها بما يتلاءم مع الاسلام في عظمة مبادئه، أما أعداء الإسلام، فقد حاولوا الطعن في ثوابت أَلِفَها العربي، وقد اتخذ هذا الطعن أشكالاً مباشرة وغير مباشرة، فمن الطعن المباشر، ما رواه الأصفهاني من أن « المغيرة بن شعبة لقي أحد الأعراب فسأله ممن أنت، قال: من بكر بن وائل، قال: فكيف علمك بهم ؟ قال: إن جهلتهم لم أعرف غيرهم. قال: فما تقول في بني شيبان ؟ قال: سادتنا وسادة غيرنا. قال: فما تقول في بني ذهل ؟ قال: سادة نوكى؟

قال: فقيس بن ثعلبة ؟ قال: إن جاورتهم سرقوك، وإن ائتمنتهم خانوك. قال فبنو تيم الله ابن ثعلبة ؟ قال: رعاء البقر ، وعراقيب الكلاب . قال: فما تقول في بني يشكر ؟ قال: صريح تحسبه مولى -قال هشام : لأن في ألوانهم حمرة- قال: فعجل؟ قال: أحلاس الخيل قال: فحنيفة ؟ قال : يطعمون الطعام، ويضربون الهام . قال فعنزة ؟ قال : لا تلقي بهم الشفتان لؤماً. قال : فضبيعة أضجم؟ قال: جزعاً وعقراً»[2].

قال الكلبي[3]: ومن النسابين من يذكر أن ثقيفاً هو قسي بن منبه بن النبيت ابن منصور ابن يقدم بن أفصى بن دعمي بن إياد بن نزار. ويقال: أن ثقيفاً كان

---

(١) الحجرات/ ١٣ .

(٢) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني، ١٦/ ٩٩-١٠٠ .

(٣) الكلبي: متروك الحديث ، ينظر «سير أعلام النبلاء» ، الذهبي ، ١٠ / ١٠١ .

عبداً لأبي رغال وكان أصله من قوم نجوا من ثمود فانتمى بعد ذلك إلى قيس.

وروي عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه-: أنه مر بثقيف ، فتغامزوا به! فرجع اليهم وقال لهم : يا عبيد أبي رغال، إنما كان أبوكم عبداً له فهرب منه، فثقفه بعد ذلك ثم انتمى إلى قيس.

وقال الحجاج في خطبة خطبها بالكوفة: بلغني أنكم تقولون إن ثقيفاً من بقية ثمود ، ويلكم؛ وهل نجى من ثمود إلا خيارهم ومن آمن بصالح فبقي معه عليه السلام! ثم قال: قال الله -تعالى- : ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ فبلغ ذلك الحسن البصري : فتضاحك ثم قال: حكم لكع لنفسه، إنما قال -عز وجل-: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي: لم يبقهم بل أهلكهم .

فرفع ذلك إلى الحجاج فطلبه ، فتوارى عنه حتى هلك الحجاج. وهذا كان سبب تواريه منه. ذكر ابن الكلبي أنه بلغه عن الحسن.

وكان حماد الراوية يذكر أن أبا رغال أبو ثقيف كلها ، وأنه من بقية ثمود ، وأنه كان ملكاً بالطائف ، فكان يظلم رعيته . فمر بامرأة ترضع صبيًّا يتيماً بلبن عنز لها ، فأخذها منها ، وكانت سنة مجدبة ؛ فبقي الصبي بلا مرضعة فمات ، فرماه الله بقارعة فأهلكته ، فرجمت العرب قبره ، وهو بين مكة والطائف. وقيل: بل كان قائد الفيل ودليل الحبشة لما غزوا الكعبة ، فهلك فيمن هلك منهم، فدفن بين مكة والطائف؛ فمر النبي ﷺ بقبره ؛ فأمر برجمه فرجم ؛ فكان

ذلك سُنّة»[1].

وقد يحتال المسعودي احتيالاً بيِّناً ، فيطعن في العشائر كافة، فهو يروي على لسان جارية؛ يدَّعي شعريتها ، فتقول شعراً تطعن فيه في العشائر العربية كافة ، في سلسلة لا تبقي عشيرة إلّا وتمسها ، بدءاً ببجيلة فخزاعة ، فسليم، فلقيط، ثم كندة، وخثعم، وطيء، ومزينة، والنخع، وأود، ولخم، وجذام، وتنوخ، وحمير، وقشير، وبني أمية، وبني هاشم، ومجاشع، وقضاعة، وجرم، وكليب، وثعلب، ونمير، ويأتي على العشائر في أربع عشرة صفحة، لا يُبقي لهم مكرمة إلا سلبها، ولا مطعن إلا أتى به، بأسلوبٍ خبيث ينم عن حقد ورؤية سلبية للقبائل العربية كافة، والخبر يورده المسعودي عن يزيد الرقاشي في حضرة السفاح إذ يقول:

«فقلت: يا أمير المؤمنين، وإن كان في بني هاشم؟

قال: ذلك أعجب إليَّ.

قلت: يا أمير المؤمنين، نزل رجل من تنوخ بحي من بني عامر بن صعصعة، فجعل لا يحط شيئاً من متاعه إلا تمثّل بهذا البيت: [من الطويل]

لعمرك ما تبلى سرائرُ عامرٍ   من اللؤمِ ما دامت عليها جلودها

فخرجت إليه جارية من الحيّ، فحادثته وآنسته، وسألته حتى أنس بها، ثم قالت: ممّن أنت متّعت بك.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢ / ٢٩٨-٢٩٩ .

قال: رجلٌ من بني تميم.

فقالت: أتعرف الذي يقول: [من الطويل]

تميمُ بطرْق اللؤمِ أهدى من القطا ولو سَلكت سُبلَ المكارمِ ضلّتِ
ولو أن برغوثاً على ظَهرِ قملةٍ يكرُّ على جمعي تميمٍ لَولتِ
ذبحنا فسمّينا فتم ذبيحنا وما ذبحتْ يوماً تميم فسمّتِ
أرى الليل يجلوه النهارُ ولا أرى عظام المخازي عن تميمٍ تجلّتِ

فقال: لا والله ما أنا منهم.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجل من عجل.

قالت: أتعرفُ الذي يقول: [من الطويل]

أرى الناس يُعطون الجزيلَ وإنما عطاءَ بني عجل ثلاثٌ وأربعُ
إذا مات عجليٌّ بأرضٍ فإنما يُشّقُ له منها ذراعٌ وإصبعُ

قال: لا والله ما أنا من عجل.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من بني يشكر.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من الطويل]

إذا يشكريٌّ مسَّ ثوبك ثوبُهُ فلا تذكرَنَّ الله حتى تطهَّرا

قال: لا والله ما أنا من يشكر.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من بني عبد القيس.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من الرّجز]

رأيتُ عبد القيس لاقت ذلًّا   إذا أصابوا بصلاً وخلّا

ومالحاً مصنّعاً قد طلّا   باتوا يسلون النساء سلّا

سل النبيط القصب المبتلّا

قال: لا والله ما أنا من عبد القيس.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من باهلة.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من الوافر]

إذا ازدحمَ الكرام على المعالي   تنحّى الباهليُّ عن الزحامِ

فلو كان الخليفة باهليًّا   لقصر عن مناوأة الكرامِ

وعِرضُ الباهليّ وإن توقى   عليه مثل منديل الطعامِ

قال: لا والله ما أنا من باهلة.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من بني فزارة.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من البسيط]

ولا تــأمننَّ فزاريًّــا خلــوت بـــهِ   عــلى قلوصــك واكتبهــا بأســيار

قــومٌ إذا نــزل الأضــياف ســاحَتَهُم   قــالوا لأمهــم بــولي عــلى النــارِ

قال: لا والله ما أنا من فزارة.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من ثقيف.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من الوافر]

أضــلَّ الناســبون أبــا ثقيــفٍ   فــما لهــم أبٌ إلا الــضلالُ

فــإن نُــسِبْتَ أو انتَــسَبت ثقيــفٌ   إلى أحــدٍ فــذاك هــو المُحــالُ

خنــازير الحــشوشِ فقتلوهــا   فــإن دماءَهــا لكــم حــلالُ

قال: لا والله ما أنا من ثقيف.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من بني عبس.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من الوافر]

اذا عبسية وَلدت غُلاماً   فبشِّرها بلؤمٍ مسْتفادِ

قال: لا والله ما أنا من عبس.

قالت: فممّن أنت؟

قال: رجلٌ من ثعلبة.

قالت: أتعرف الذي يقول: [من الوافر]

وثعلبةُ بني قيس شرُّ قومٍ وألأمُهم وأغدرهم بجار

قال: لا والله ما أنا من ثعلبة [١].

وهو يستمر فلا يُبقي قبيلة عربية إلا ويُطعَن فيها.

وقد حاول الكثير من الرواة والإخباريِّين إظهار الخلافات القبلية، وإسقاط العصبية القبلية على الحياة العربية - بعد الإسلام خاصة - فما من خلافٍ، وإن كان شخصيًّا إلّا وأرجعوه إلى تلك العصبية المقيتة، مُحاوِلين إظهار المجتمع بمظهر التفكك والاحتراب، فكانت اليمنية والنزارية، وسوى ذلك من تسميات حاولوا من خلالها اقحام المجتمع العربي في صراع توهموه.

فها هو الأصفهاني يورد خبراً فيه شتم لليمانية، إذ ينقل عن ابن دأب [٢]، أنه:

«قال : قلتُ لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون وتروي من شعرهِ شيئاً؟ قال: أوَقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين! إنهم لكثيرٌ!

(١) ينظر «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٣/ ٣٣٠-٣٤٣ .

(٢) ابن دأب: (توفي سنة ١٧١ه/ ٧٨٧م) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الليثي البكري الكناني، أبو وليد: خطيب، شاعر، علم بالأنساب، راوية. من أهل المدينة. اشتهر بأخباره مع المهدي العباسي. حظي عند الهادي حظوة لم تكن لأحد. اتّهم بوضع الشعر وأحاديث السمر، ونسبتها إلى العرب. ينظر، الأعلام، الزركلي، ٥/ ١١١.

فقلتُ: ليس هؤلاء أعني، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشقُ فقالَ: هيهات! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذاكَ، إنما يكون هذا في اليمانية الضِّعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصعلة [١] رؤوسها، فأما نزَارُ فلا» [٢].

«واجتمع يزيدُ بن عبد المَدان وعامر بن الطفَيْل بموسمِ عكاظ، وقَدِم أمية ابن الأسكر الكناني ومعه ابنةٌ له من أجمل أهل زمانها ، فخطبها يزيدُ وعامرٌ، فقالت أم كِلابٍ أمرأةُ أمية بن الأسكر: مَن هذان الرجلان؟ فقال: هذا يزيدُ بن عبد المدان بن الديّان ، وهذا عامر بن الطفَيْل. فقالت: أعرف بني الديّان ولا أعرف عامراً. فقال: هل سمعتِ بمُلاعِب الأسِنّة؟ فقالت: نعم. قال: فهذا ابن أخيه. وأقبل يزيد فقال: يا أمية ، أنا ابن الديّان صاحب الكَثيب ، ورئيس مَذحِج ، ومُكّلم العُقاب ، ومن كان يصوّب أصابعه فتنطِفُ دماً، ويَدْلُك راحتيه فتُخرجانِ ذهباً. فقال أمية: بخٍ بخٍ، فقال عامر: جدِّي الأخرمُ وعمي مُلاعِب الأسنّة وأبي فارسُ قرْزُل. فقال أمية: بخٍ بخٍ! مَرْعًى ولا كالسعدان. فأرسلها مثلاً. فقال يزيد: يا عامر ، هل تعلم شاعراً من قومي رحل بمدحهِ إلى رجلٍ من قومك؟ قال: اللهم لا . قال فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ قال: اللهم نعم . قال: فهل لكم نجمٌ يمانٍ أو بُردٌ يمانٍ أو سيفٌ يمانٍ أو ركنٌ يمانٍ؟ قال: لا . قال فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟ قال: نعم .

---

(١) **صعل الرأس**: صغيرة، والأنثى صعلة، تكون في الناس والأنعام والنخل. ينظر، لسان العرب، ابن منظور، مادة صعل ١١/ ٣٧٨ .

(٢) «الأغاني» ٢/ ٤.

فنهض يزيد وأنشأ يقول :

أميَّ يَابن الأسكرِ بن مدلجِ لا تجعلنَّ هوازن كمَدحجِ

إنكَّ إنْ تلهج بأمرٍ تلجج ما النبع في مغرسه كالعَوْسَجِ

ولا الصريحُ المحض كالمُمزَّجِ

قال : قال مرة بن دُوَدَان النُفَيْلي وكان عدواً لعامر[1] :

يا ليت شعري عنك يا يزيدُ ماذا الذي من عامرٍ تريدُ

لكلِّ قومٍ فخرُكم عتيدُ أمُطلقون نحنُ أم عبيدُ

لا بل عبيدٌ زادنا الهَبيدُ

«وكان ابن أبي عُيَينة لما هجا نزاراً بلغ شعره المأمون ، فنذر دمه فهرب من البصرة وركب البحر إلى عمان فلم يزل بها متوارياً في نواحي الأزد حتى مات المأمون»[2].

والمسعودي يقول:

«قد فخر بعض أولاد قحطان في مجلس السفاح بمناقب قحطان بن حمير وكهلان على ولد نزار ، وخالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد منصتون هيبة للسفاح؛ لأن أخواله من قحطان .

---

(١) «الأغاني» ١٢ / ١٢-١٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠ / ١١٢.

فقال السفاح لخالد بن صفوان: ألا تنطق وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها ؟

فقال خالد: ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلّا دابغ جلد ، أو ناسج برد ، أو سائس قرد ..[1]، أغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة، ودلَّ عليهم هدهد !

ثم مر في ذمهم إلى أن انتهى إلى ما كان من قصتهم وتملك الحبشة وما كان من استنقاذ الفرس إياهم[2].

وهذه العصبية قد غذاها بعض الشعراء ، يقول المسعودي: قد قال الشاعر الكميت «قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار بن معد وربيعة ابن نزار وإياد وأنمار ابني نزار ، ويكثر فيها في تفضيلهم ، ويطنب في وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان ، فغضب بها بين اليمانية والنزارية فيما ذكرناه وهي قصيدته التي أولها : [من الوافر].

الا حييت عن يا مدينا وهل ناسٌ نقولُ مُسَلِّمينا

ألى أن انتهى إلى قوله تصريحاً وتعريضاً باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها ، وهو قوله:

لنا قمرُ السماءِ وكلُّ نجمٍ تشيرُ إليه أيدي المُهتَدينا
وجدتُ الله إذ سمَّى نِزاراً وأسكنهَم بمكةَ قاطنينا

---

(١) عبارة قبيحة.

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٢/ ١٩٦ .

لنا جعل المكارمَ خالصاتٍ وللناس القفا ولنا الجَبينا
وما ضربتُ هجائنَ من نزارٍ فوالج من فحول الأعجمَينا
وما حملوا الحمير على عتاقٍ مطهرةٍ فيلفوا مبلغينا
وما وجدتُ نساءً بني نزارٍ حلائل أسودين وأحمرينا

وقد نقض دعبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وغيرها، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها، وصرّح وعرّض بغيرهم كما فعل الكميت، وذلك في قصيدته التي أولها: [من الوافر] (١)

أفيقي من ملامكِ يا ظعينا كفاكِ اللوم قد مرَّ الأربعينا
ألم تحزنكِ أحداث الليالي يُشَيِّبنَ الذوائب والقرونا
أحيّ الغر من سروات قومي لقد حيّيت عنا يا مدينا
فإن يكُ آل اسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازير اللواتي مُسِخنَ مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسومٌ وآثارٌ قدِمن وما محينا
وما طلب الكميت طلاب وترٍ ولكنّا لنُصرتنا هُجينا
لقد علمتُ نزارٌ أن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا

وهؤلاء العرب لم يكن لهم إلا أياماً طاحنة يفتخرون بها، وإن انحطت أسبابها، وتدنّت أهدافها، من ذلك ما دار بين قُضاعة ونزار، إذ أن خزيمة بن

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٣/ ٢٧٩-٢٨١.

نهد خرج مع مذكر من عنزة ، فغدر به وقتله ، فلما رجع - وليس هو معه - سأله عن أهله ، فقال : لست أدري ، فارقني ولست أدري أين سلك . فكان في ذلك شرٌّ بين قضاعة ونزار ابني معد ، وتكلموا فيه فأكثروا ، ولم يصحَّ على خزيمة عندهم شيء يطالبون به ، حتى قال خزيمة بن نهد : (متقارب)

فتاة كأن رضابَ العبير بفيها يُعَّلُ به الزنجبيلُ

قتلتُ أباها على حبها فتبخلُ إن بخِلتْ أو تنيلُ

فلما قال هذين البيتين تثاور الحيّان فاقتتلوا وصاروا أحزاباً[1].

أمّا أيام الفجار فقد كانت أسبابها واهية ولا تنم عن حقيقتها وما سُفِك فيها من دماءِ الأهل والأقرباء.

«كان أول أمر الفجار أن بَدْرَ بن معشر الغِفاري أحد بني غفار بن مالك بن ضمرة بن بكر بن عبد بن مناه بن كنانة كان رجلاً منيعاً مستطيلاً بِمَنعَتِهِ على من ورد عكاظ فاتّخذ مجلساً بسوق عكاظ ، وقعد فيه وجعل يبذخ على الناس ويقول :

نحن بنو مدركةَ بن خِنْدِف من يطعنوا في عينه لا يَطرِف

ومن يكونوا قومه يُغطرِف كأنهم لجَّة بحرٍ مُسدِفِ

وبدر بن معشر باسطٌ رجليه ، يقول : أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز مني فليضرب هذه بالسيف، فهو أعز مني ، فوثب رجل من بني نصر بن

---

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني ، ٢٢/ ٥٩ .

معاوية ، يقال له الأحمر بن مازن بن أوس بن النابغة ، فضربه بالسيف على ركبته، فأنْدَرَها ، ثم قال : خذها إليك أيها المخندف ، وهو ماسكٌ سيفه .

ثم كان اليوم الثاني من أيام الفجار الأول ، وكان السبب في ذلك أن شباباً من قريش وبني كنانة كانوا ذوي غرام ، فرأوا امرأة من بني عامرٍ جميلةً وسيمةً ، وهي جالسة بسوق عكاظ في درع وهي فُضُل عليها برقع لها ، وقد اكتنفها شباب من العرب ، وهي تحدثهم ، فجاء الشباب من بني كنانة وقريش ، فأطافوا بها ، وسألوها أن تُسفِر ، فأبت ، فقام أحدهم فجلس خلفها ، وحل طرف ردائها ، وشدَّهُ إلى فوق حُجْزتها بشوكة ، وهي لا تعلم ، فلما قامت انكشف درعها عن دبرها ، فضحكوا ، وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهكِ وجُدْت لنا بالنظر إلى دبرك ، فنادت : يا آل عامر! فثاروا ، وحملوا السلاح ، وحملته كنانة، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حربُ بني أمية ، واحتمل دماء القوم ، وأرضى بني عامر من مَثْلةِ صاحبتهم.

ثم كان اليوم الثالث من الفِجار الأول ، وكان سببه أنه كان لرجل من بني جُشم بن بكر بن هوازن دَيْن على رجل من بني كنانة فلواه به ، وطال اقتضاؤه إياه ، فلم يعطِهِ شيئاً ، فلما أعياه ، وافاه الجشمي في سوق عكاظ بقردٍ ، ثم جعل ينادي : من يبيعني مثل هذا الرُبَّاح بما لِيَ على فلان بن فلان الكناني؟ من يعطيني مثل هذا الرُبَّاح بما لِيَ على فلان بن فلان الكناني؟ رافعاً صوته بذلك ، فلما طال نداؤه بذلك وتعييره به كنانة مرَّ به رجل منهم ، فضرب القرد بسيفه ، فقتله ،

فهتف به الجشميّ : يا آل هوازن ، وهتف الكنانيّ : يا آل كنانة ، فتجمع الحيّان فاقتتلوا ، حتى تحاجزوا ، ولم يكن بينهم قتلى ، ثم كفوا ، وقالوا : أفي رُبَّاحٍ تريقون دماءكم ، وتقتلون أنفسكم؟ وحمل ابن جُدْعان ذلك في ماله بين الفريقين»[1].

«وكان أول ما هاج الحرب بين بني عامر بن عبد الله بن ذبيان وبين بني رَقاش، وهم بنو قُرَّة بن حفش بن عمرو بن عبد الله بن ثعلبة بن ذبيان ، وهم رهط زيادة بن زيد ، وبنو عامر رهط هدبة ، أن حَوْطَ بن خشرم أخا هدبة راهن زيادة بن زيد على جملين ، من إبلهما ، وكان مُطلقهُما من الغاية على يوم وليلة ، وذلك في القيظ ، فتزودوا الماء في الروايا والقِرَب ، وكانت أخت حوطٍ سلمى بنت خشرم تحت زيادة بن زيد ، فمالت مع أخيها على زوجها ، فوهَّنت أوعية زيادة ، ففني ماؤه قبل ماء صاحبه ، فقال زيادة:

قد جعلت نفسِيَ في أديم   مُحَرّمِ الدّباغ ذي هُزُومِ
ثم رمت بي عُرُضَ الدّيمومِ   في بارحٍ من وهج السمومِ
عند اطلاع وعرة النجومِ

وقال زيادة أيضاً :

قد عَلِمَتْ سلمةُ بالعميسِ   ليلة مَرْمَارٍ ومَرْمَريسِ
إن أبا المِسور ذو شريس   يشفي صُداع الأبلج الدِّلْعيسِ

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني ، ٢٢/ ٥٩-٦١ .

وتعلو القوائم القوائما

قال : فشتمه زيادة ، وشتمه هُدبة ، وتسابًّا طويلاً ، فصاح بهما القوم : اركبَا، لا حملكما الله، فإنّا قومٌ حُجّاج. وخَشُوا أن يقع بينهما شر فوعظوهما ، حتى أمسك كل واحد منهما على ما في نفسه ، وهدبة أشدهما حنقاً؛ لأنه رأى أن زيادة قد ضامه ، إذ رجز بأخته وهي تسمع قوله ، ورجز هو بأخته ، وهي غائبة ولا تسمع قوله ، فمضيَا ولم يتحاورَا بكلمة، حتى قضيا حجّهمَا ، ورجعَا إلى عشيرتيهما[1].

ولم تكن حياتهم تتشكل إلّا على وقف غارات تنتهب حياتهم وتسلب آمالهم، فلا أمن ولا أمان ولا هدوء ولا سَكِينة ، بل يأكل القوي منهم الضعيف، صورة نمطية حاول بعض الرواة إلباسها العرب متناسين نخوتهم ومروءتهم وإكرامهم لضيفهم ، وفكهم العاني والأسير.

«قال أبو الفرج: نسختُ خبره من كتاب أبي عمرو الشيباني : لما خلعتْ خزاعة بن عمرو - وهو مُزَيْقياء بن عامر ، وهو ماء السماء بن الحارث - قيس ابن الحدادية ، كان أكثرهم قولاً في ذلك وسعياً قوم منهم يقال لهم : بنو قُمَيْر بن حبشية بن سلول ، فجمع لهم قيساً شُذّاذاً من العرب وفُتّاكاً من قومه ، وأغار عليهم بهم ، وقتل منهم رجلاً يُقال له ابن عُش ، واستاق أموالهم فلحقه رجل من قومه كان سيّداً ، وكان ضلْعه مع قيس فيما جرى عليه من الخلع ، يقال له

(١) «الأغاني » أبو فرج الأصفهاني ، ٢١/ ٢٥٨-٢٦٠ .

ابن محرِّق ، فأقسم عليه أن يردّ ما استاقه ، فقال : أما ما كان لي ولقومي فقد أبررتُ قَسَمَكَ فيه وأما ما اعتورته أيدي هذه الصعاليك فلا حيلة لي فيه ، فردَّ سهمه وسهم عشيرته ، وقال في ذلك :

فاقسم لولا أسْهم ابن مُحَرِّقٍ ... مع الله ما أكثرتُ عدَّ الأقاربِ

تركتُ ابن عشٍّ يرفعون برأسه ... ينوءُ بساقٍ كعبها غير راتبِ

وأنهاهم خلعي على غير ميرةٍ ... من اللحم حتى غُيِّبوا في الغوائبِ

وقال ابن عمرو : أغار أبو بردة بن هلال بن عُوَيْمر ، أخو بني مالك بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن أمرئ القيس على هوازن في بلادها ، فلقي عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت بنو عامر وبنو نصر ، وقتَلَ أبو بردة قيس بن زهير أخا خِداش بن زهير الشاعر ، وسَبَى نسوةً من بني عامر: منهن صخرة بنت أسماء ابن الضَّريبة النَّصرى ، وامرأتين منهم يقال لهما : بيقر وريًّا ، ثمّ انصرفوا راجعين ، فلما انتهوا إلى هَرْشى خنقتْ صخرة نفسها فماتت ، وقسم أبو بردة السبي والنَّعم والأموال في كل من كان معه، وجعل فيه نصيباً لمن غاب عنها ، من قومه وفرَّقه فيهم.

ثم أغارت هوازن على بني ليث فأصابوا حيًّا منهم يُقال لهم : بنو الملوح بن يَعْمر بن عوف ، ورِعاءً لبني ضاطر بن حبشية ، فقتلوا منهم رجلاً وسَبَوا منهم سبياً كثيراً واستاقوا أموالهم ، فقال في ذلك مالك بن عوف النَّصْري [1]:

---

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني ، ١٤ / ١٤٣-١٤٥ .

نحـن جلبنـا الخيـل مـن بطـن ليـةٍ وجلـدان جُـرْداً مُـنْعَلاتٍ ووُقحـا

فأصـبحن قـد جـاوزن مَـرًّا وجُحْفـةً وجـاوزن مـن أكنـاف نخلـةَ أبطحـا

تلقطـن ضـيطارِي خُزاعـة بعـدما أبـرْنَ بـصحراءِ الغمـيم الملوَّحـا

قتلنـاهم حتـى تركنـا شريـدهم نـساء وأيتامـاً ورَجْـلاً مُـسَدَّحا

فإنـك لـو طـالعتهم لحـسِبتهم بمنعـرج الـصفراء عِـتراً مُـذَبحا

من قبل إذ يقول ابن خلدون :

« ومن الغلط الخفيِّ في التاريخ: الذهول عن تبدُّل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدُّل الأعصار ومرور الأيام ، وهو داءٌ دَوِيٌّ شديد الخفاء ؛ إذ لا يقع إلا بعد أحقابٍ متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة ؛ وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحَلَهم لا تدوم على وتيرةٍ واحدةٍ ومنهاجٍ مستقر ، إنما هو اختلافٌ على الأيام والأزمنة ، وانتقالٌ من حالٍ إلى حال ، كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

ويعلل ذلك بقولهِ :

والسبب الشائع في تبذل الأحوال والعوائد : أن عوائد كل جيل تابعة

(١) سورة غافر / ٨٥ .

لعوائد سلطانه ، كما يقال في الأمثال الحِكْمية : الناس على دين الملك. وأهل المُلكِ والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بدَّ أن يفزعوا إلى عوائد مَن قَبْلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك ، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت ايضا بعض الشيء، وكانت للأولى أشد مخالفةً، ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة ، فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في المُلك والسلطان ، لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعةً» (١).

ويبدو جليًّا أن الأصفهاني والمسعودي كليهما لم ينتبها إلى ذلك، فهما قد وسما العهود المتعاقبة على امتداد ثلاث مئة عام أو يزيد بميسم واحد مما أظهر بجلاء الصنعة في تلك الأخبار ؛ غير أنهما كانا واعيَين إلى ضرورة التسلل بخفية إلى هدفهما في الطعن في العرب والمسلمين عامة ، لذا لم يسموا كتبهم بآسم المثالب أو سوى ذلك من أسماء ، بل إن الأصفهاني أفرد صفحات كثيرة ، يشتم فيها كتُب المثالب ومن ألّف فيها.

وقد اتخذت الروايات الموضوعة - في أحيان كثيرة - أساليب رخيصة في الطعن غير أنها لا تخفى على المتلقي الواعي ، ولأهمية الأخلاق في بناء الأمم ونهضتها ، لذا وجدنا الكثير من الأحداث والمظاهر قد رسمت من نسج خيال مريض ، بل منحرف يصور مشاهد غرقت في الشهوة والابتذال ويمنح أدوارها

---

(١) ينظر : «المقدمة» ص ٣٨.

لأسماء هي قمم في مجتمعاتها ، وهي رموز لأتباعها ، يقول الأصفهاني:

« وبلغنا أن المنذر بن ماء السماء ، وضع ابناً له صغيراً - ويقال : بل كان أخاً له صغيراً - يقال له : مالك عند زُرارة، وأنه خرج ذات يوم يتصيد فأخفق، ولم يصب شيئاً، فرجع ، فمرَّ بإبل لرجل من بني عبد الله بن دارم ، يقال له سويد ابن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم ، وكان عند سويد ابنة زرارة بن عُدَس، فولدت له سبعة غِلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ، ثم اشتوى وسويدٌ نائم ، فلما انتبه شدَّ على مالك بعصاً فضربه بها ، فأمَّه ومات الغلام ، وخرج سويد هارباً حتى لحق بمكة وعلم أنه لا يأمن ، وكانت طيئ تطلب عثرات زُرارة وبني أبيه حتى بلغهم ما صنعوا بأخي الملك ، فأنشأ عمرو ابن ثعلبة بن ملقط الطائي يقول:

تسفي الرياح خلاله سحياً وقد سلبوا إزارَه

فاقتل زرارة لا أرى في القوم أفضل من زرارَه

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى ، حتى فاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة ، فهرب ، وركب عمرو بن هند في طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهي حبلى فقال : أذَكَرٌ في بطنكِ أم أنثى؟ قالت: لا علم لي بذلك ، قال: ما فعل زرارة الغادر الفاجر؟ فقالت : إن كان ما علمتُ لطيِّبُ العَرَق سمين المرق ويأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، لا ينام ليلة يخاف ، ولا يشبع ليلة يُضاف. فبقر بطنها.

فقال قوم زرارة لزرارة : والله ما قتلتَ أخاه ، فأت الملك ، فاصدُقه الخبر

فأتاه زرارة ، فأخبره الخبر فقال: جئني بسويد ، فقال قد لحق بمكة ، قال: فعليّ ببنيه السبعة ، فأتى ببنيه السبعة وبأمهم وبنت زرارة وهم غِلْمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه، وتعلق بزرارة الآخرون فتناولوهم فقال زرارة: يا بعضي دع بعضاً فذهبت مثلاً. وقتِلوا.

وآلى عمرو بن هند بأليَّة ليحرِقَنَّ من بني حنظلة مئة رجل ، فخرج يريدهم وبعث على مقدّمته الطائي عمرو بن ثعلبة بن عتّاب بن مِبقط، فوجدوا القوم قد نذروا ، فأخذوا منهم ثمانية وتسعين رجلاً بأسفل أوارة من ناحية البحرين ، فحبسهم ، ولحقه عمرو بن هند ، حتى انتهى إلى أوارة ، فضُرِبت فيه قبته ، فأمر لهم بأخدود فحفر لهم ، ثم أضرمه ناراً ، فلما احتدمت وتلظّت ، قذف بهم فيها، فاحترقوا [1].

هذا العنف المتناهي ، يضيف إليه الغدر ، فيروي في سبب الحرب بين دوس وبني الحارث، فيقول:

«وكان سبب ذلك فيما ذُكِر عن أبي عمرو الشيباني أن ضماد بن مسرح بن النعمان بن الجبار بن سعد بن الحارث بن عبد الله بن عامر بن الحارث بن يشكر، سيد آل الحارث ، كان يقول لقومه : أحذركم جرائر أحمقينِ من آل الحارث يبطلانِ رئاستكم، وكان ضماد يتعيّف ، وكان آل الحارث يسودون العشيرة كلها فكانت دوس أتباعاً لهم ، وكان القتيل من آل الحارث تؤخذ له ديتان ، ويعطون إذا لزمهم عقل قتيل من دوس ديّة واحدة ، فقال غلامان من بني الحارث يوماً:

---

(١) «الأغاني أبو الفرج الأصفهاني» ٢٢ / ١٩٢-١٩٤ .

ائتوا شيخ بني دوس وزعيمهم الذي ينتهون إلى امره فلنقتله. فأتياه ، فقالا : يا عم ، إن لنا أمراً نريد أن تحكم بيننا فيه. فأخرجاه من منزله ، فلما تنحَّيا به قال له أحدهما : يا عم! إن رجلي قد دخلت فيها شوكة، فأخرِجها لي. فنكس الشيخ رأسه لينتزعها وضربه الآخر فقتله، فعمدت دوس إلى سيد بني الحارث وكان نازلاً بِقَنَوْنى فأقاموا له في غيضةٍ في الوادي وسرحت إبله فأخذوا منها ناقة فأدخلوها الغيضة وعقلوها فجعلت الناقة ترغو وتحن إلى الأبل ، فنزل الشيخ إلى الغيضة ليعرف شأن الناقة، فوثبوا عليه فقتلوه، ثم أتوا أهله وعرفت بنو الحارث الخبر فجمعوا لدوس وغزوهم فنذروا بهم فقاتلوهم فتناصفوا ، وظفرت بنو الحارث بغلمة من دوس فقتلوهم، ثم إن دوساً اجتمع منهم تسعة وسبعون رجلاً، فقالوا: مَن يكلمنا، من يُهانينا حتى نغزو أهل ضماد؟ فكاد ضماد قد أتى عكاظ، فأرادوا أن يخالفوه إلى أهله، فمروا برجل من دوس وهو يتغنى: (وافر).

فإن السَّلْمَ زائدة نواها وإن نوى المحارب لا تروب

فقالوا: هذا لا يتبعكم ولا ينفعكم إن تبعكم، أما تسمعون غناءه في السلم. فأتَوْا حُمَمَة بن عمرو، فقالوا : أرسِل إلينا بعض ولدك. فقال: وأن إن شئتم. وهو عاصب حاجبيه من الكِبر . فأخرج معهم ولده جميعاً، وخرج معهم وقال لهم : تفرقوا فرقتين ، فإذا عرف بعضكم وجوه بعض فأغيروا، وإياكم والغارة حتى تتفارقوا لا يقتل بعضكم بعضاً. ففعلوا، فلم يلتفتوا حتى قتلوا ذلك الحيَّ من آل الحارث، وقتلوا ابناً لضماد، فلما قدم قطع أُذُني ناقته وذنبها ، وصرخ في

آل الحارث، فلم يزل يجمعهم سبع سنين ودوس تجتمع بإزائه، وهـم مـع ذلـك يتغاورون ويتطرف بعضهم بعضاً وكان ضماد قـد قـال لابـن أخٍ لـه يكنـي أبـا سفيان لما أراد أن يأتي عكاظ : إنْ كنتَ تحرز أهلي ، وإلا أقمت عليهم. فقال له : أنا أحرزهم من مئة؛ فإن زادوا فلا. وكانت تحت ضمادٍ امـرأة مـن دوس وهـي أخت مربان بن سعد الدوسي الـشاعر، فلـما أغـارت دوسٌ عـلى بنـي الحـارث قصدها أخوها، فلاذت به ، وضمّت فخذها على ابنها من ضـماد ، وقالـت: يـا أخي اصرف عني القـوم ، فـإني حـائض لا يكـشفوني. فنكـز سـية القـوس في درعها، وقال : لستِ بحائض ولكن بدرعك سَخْلَةً بكذا مـن آل الحـارث، ثـم أخرج الصبي فقتله وقال في ذلك : (طويل)[1] .

ألا هل أتى أمَّ الحُصين ولو نـأتْ	خلافتنـا في أهلـهِ ابـنُ مُـسَرَّحِ
ونـضرة تـدعو بالفنـاء وطلقهـا	ترائبـه يـنفحن مـن كـل مـنفحِ
وفـرَّ أبـو سـفيان لمـا بـدا لنـا	فـرار جبـانٍ لأمـه الـذلُّ مُقـرَحِ

ومن المؤكد أن ما سلف من أخلاق تبعد الإنسان عن محبة أسلافه، إن كانوا بمثل هذه الأخلاق ، ولا يخفى أن من يرغب بـإذلال قـوم والنيـل مـنهم فهـو يذكر معايبهم بحقٍ أو بباطل ؛ بل يتحـرى الـصغائر ليعظمهـا ، ولا يـذكر مـن محاسنهم شيئاً ، ولا شك في أن الأعراض هي أغلى ما يملكه العربي ، ومـا كـان لِيئِد بناته إلا حفاظـاً علـيهن مـن عـوادي الـزمن ، غـير أن الأصـفهاني يختـار

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٣ / ٢٤٥-٢٤٧ .

شخصية عربية جاهلية ليطعن في أخلاقه فيذكر أنه: « كانت للبرج أخت يقال لها العُفاطة ، وكان البرج يشرب مع الحصين ذات يوم فسكر وانصرف إلى أخته فافتضّها ، وندم على ما صنع لما أفاق ، وقال لقومه : أيُّ رجل أنا فيكم؟ قالوا : فارسنا وأفضلنا وسيِّدنا. قال : فإنه إن علم بما صنعتُ أحد من العرب أو أخبرتم به أحداً ركبتُ رأسي فلم تروني أبداً، فلم يسمع بذلك أحد منهم. ثم أن أمة لبعض طيئ وقعت إلى الحصين بن الحُمام ، فرأت عنده البرج الطائي يوماً وهما يشربان. فلما خرج من عنده قالت للحصين : إن نديمك هذا سكر عندك ففعل بأخته كَيْت وكيت، وأوشك أن يفعل ذلك بك كلما أتاك فسكر عندك. فزجرها الحصين وسبَّها فأمسكتْ. ثم إن البرج بعد ذلك أغار على جيران الحصين بن الحمام من الحُرقة فأخذ أموالهم وأتى الصَّريخ الحصين ابن الحُمام ، فتبع القوم ، فأدركهم ، فقال للبرج : ما صبّك على جيراني يا برج؟ فقال له: وما أنت وهم هؤلاء من أهل اليمن وهم منّا وأنشأ يقول:

إني لك الحُرُقات فيما بيننا عنَنٌ بعيدٌ منكَ يا بن حُمامِ
أقبلتَ تُزْجي ناقة متباطئاً عُلطاً تزجيها بغير خِطامِ

تزجي: تسوق. علطاً : لا خطام عليها ولا زمام، أي: أتيت هكذا من العجلة فأجابه الحصين بن الحُمام:

برج يؤثمني ويكفر نعمتي صَمِّي لما قال الكفيل صمامِ
مهلاً أبا زيدٍ فإنك إن تشأ أُورِدْك عُرْض مناهلٍ أسدامِ

أورِدْكَ أقلِبـــةً إذا حافلتهـــا | خوض القعود خبيثة الأخصامِ
أقبلتُ مـن أرض الحجاز بذمَّـةٍ | عُطـلاً أُسـوِّقها بغـير خِطـامِ
في إثـر إخـوانٍ لنـا مـن طيـئ | ليـسوا بأكفـاء ولا كـرامِ
لا تحـسبنَّ أخـا العفاطـة أننـي | رجُـلٌ بخُـبْرك لـيس بـالعلامِ
فاستنزلوك وقـد بَللـتَ نطاقهـا | عن بنت أمِّـك والـذيول دوامـي

ثم ناصب الحصين بن الحُمام البرج الحرب ، فقتل من أصحاب البرج عدة وهزم سائرهم ، واستنقذ ما في أيديهم، وأسر البرج، ثم عرف له حق ندامه وعشرته إياه فمنَّ عليه وجزَّ ناصيته وخلَّى سبيله . فلما عاد البرج إلى قومه وقد سبّه الحصين بما فعل بأخته لامهم وقال: أشعتم ما فعلتُ بأختي وفضحتموني، ثم ركب رأسه وخرج من بين أظهرهم فلحِق ببلاد الروم، فلم يُعرَف له خبرٌ إلى الآن.

وقال ابن الكلبيّ[١]: «بل شرب الخمر صِرفاً حتى قتلته »[٢].

ويسقط أعمال قوم لوط على مجالس المسلمين، الخاصة منهم والعامّة ، فمن

---

(١) ابن الكلبيّ : هشام بن محمد أبي النظر ابن السائب بن يشكر الكلبي ، مؤرخ وعالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها و بيوتات قريش و المثالب ، والمؤودات وافتراق العرب ، ويضيف الذهبي بأنه الكوفي الشيعي أحد المتروكين كأبيه ، قال أحمد بن حنبل ، إنما كان صاحب سمر وما ظننا أن أحداً يحدث عنه ، وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث ، ينظر: «الأعلام» ، الزركلي ٨ / ٨٨ ، وينظر : «سير أعلام النبلاء» ، الذهبي ، ١٠ / ١٠١ .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٤ / ١٥ / ١٦ .

أعمال قوم لوط التضارط في المجالس ، وهذا مظهر يكرره الأصفهاني في أكثر من موضع.

يقول: « حدثني الحسن بن علي عن محمد بن القاسم عن أبي هِفان: قال: كنا في مجلس، وعندنا قَينة تغنينا، وصاحب البيت يهواها، فجعلت تكايده، وتومئ إلى غيره بالمزح والتّجميش وتغيظه بجَهدها وهو يكاد يموت قلقاً وهمًّا وتنغص عليه يومه وجَدَّت في أمرها ثم سقط المضراب عن يدها، فأكبّت على الأرض لتأخذه، فضرطت ضرطة سمعها جميع من حضر، وخجِلت، فلم تَدْرِ ما تقول فأقبلت على عشيقها فقالت: أيشٍ تشتهي أن أغني لك؟ فقال: غنّي:

*** يا ريحُ ما تصنعين بالدّمَنِ ***

فخجلت وضحك القوم وصاحب الدار حتى أفرطوا، فبكت وقامت من المجلس وقالت: أنتم والله قوم سِفَل، ولعنة الله على من يعاشركم، وغضبت وخرجتْ، وكان – علم الله – سبب القطيعة بينهما وسلو ذلك الرجل عنها »[1].

ويروي عن أبي الشبل فيقول:

« حدثنا الحسن قال: حدثنا ابن مهروية قال: حدثنا أبو الشبل قال: إن خالد بن يزيد بن هبيرة كان يشرب النبيذ، فكان يغشانا وكانت له جارية صفراء مغنية يقال لها هب ، فكانت تغشانا معه فكنت أعبث بها كثيراً ويشتماني فقام مولاها يوماً إلى الخابية يستقي نبيذاً، فإذا قميصه قد انشق فقلت فيه:

---

(١) المصدر نفسه ٢٣ / ١٤٧ .

قالــتْ لــه لهــبٌ يومــاً وجادلهــا بالــشعر في بــاب فعــلان ومفعــولِ
أمـا القمـيص فقـد أودى الزمـان بـه فليـت شِـعري مـا حـال الـسراويلِ؟

فبلغ الشعر أبا الجهم أحمد بن يوسف فقال :

حــال الــسراويل حــال غــير صــالحة تحكـــي طرائقـــه نـــسج الغرابيـــل

قال أبو الشبل: وكانت أم خالد هذا ضرَّاطة، تضرط عـلى صـوت العيـدان وغيرها في الإيقاع» [1].

ويقول: « أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي قال: حدثنا عيسى بـن إسـماعيل تينة، عن ابن عائشة، قال: ضرط رجل في مجلس حماد عجرد ومطيع بـن إيـاس، فتجلد ثم ضرط أخرى متعمداً ، ثم ثلّث ليظنوا إن ذلك كلـه تعمـداً فقـال لـه حماد: حسبك يا أخي فلو ضرطت ألفاً لعُلم بأن المخلف الأول مُفلِت »[2].

وكأنما يريد أن يقول إن التضارط إذا كان بإرادة الفاعل فهـو لا بـأس فيـه، وقال أبو سعيد السُّكري وعمر بن سعيد صاحب الواقدي:

« إن أبا جلدة كان في قرية من قرى بُسْت يقال لها الخيزران [3] ومعهم عمرو

---

(١) المصدر نفسه ١٤ / ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٣٣٣.

(٣) الخيزران : قرية ينسب اليها وهي من قرى بست وبست هي مدينة بين سجـستان وغزنين وهراة ، وأظنّها من اعمال كابل وهي كبيرة وينسب إليها مجموعة من العلماء ، ينظـر «معجم البلدان» ، ياقوت الحموي ، ٢ / ٤١١ ، ١ / ٤١٤ ٤١٦ .

ابن صوحان أخو صعصعة في جماعة يتحدثون ويشربون، إذ قام أبو جلدة ليبول فضرط ، وكان عظيم البطن، فتضاحك القوم منه ، فسل سيفه وقال: لأضربّنَّ من لا يضرط في مجلسه هذا بسيفي، أمنّي تضحكون لا أمَّ لكم! فما زالَا حتى ضرطوا جميعاً غير عمرو بن صُوحان. فقال له: قد علمت أن عبد القيس لا تضرط ولك بدلها عشرُ فسوات. قال: لا والله أو تفصح بها! فجعل عمرو يجثي وينحني فلا يقدر عليها، فتركه. وقال أبو جلدة في ذلك[1]:

أَمِنْ ضرطةٍ بالخيزران ضرطتُها تَشَدّد مني دارةً وتلينُ

فما هو إلا السيف أو ضرطة لها يشور دخانٌ ساطعٌ وطنينُ

وهذه الأفعال لا تقتصر على العامة في مجالسهم بل في المجالس الخاصة، يقول الأصفهاني نقلاً عن حماد عن أبيه أنه قال:

« بلغني أن حمزة بن بيض الحنفي كان يسامر عبد الملك بن بشر بن مروان وكان عبد الملك يعبث به عبثاً شديداً فوجه إليه ليلة برسول، وقال: خذه على أي حال وجدته عليها ولا تدعه يغيرها وحلفه على ذلك ، وغلّظ الأيمان عليه فمضى الرسول فهجم عليه فوجده يريد أن يدخل الخلاء، فقال: أجب الأمير . فقال: ويحك، أني أكلت طعاماً كثيراً ، وشربت نبيذاً حلواً، وقد أخذني بطني. قال: والله لا تفارقني أو أمضي بك إليه، ولو سلحت في ثيابك. فجهد في الخلاص، فلم يقدر عليه فمضى به إلى عبد الملك، فوجده قاعداً في طارمة له، وجارية جميلة كان يتحظاها جالسة بين يديه، تسجر النّد في طارمته، فجلس

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني، ١١ / ٣٢٢.

يحادثه وهو يعالج ما هو فيه.

قال: فعرضت لي ريح. فقلت: أسرحها وأستريح، فلعل ريحها لا يتبين مع هذا البخور، فأطلقتها فغلبت والله ريح الند وغمرته، فقال: ما هذا يا حمزة! قلت عليّ عهد الله وميثاقه وعليّ الهدي والمشي إن كنت فعلتها. وما هذا إلا عمل هذه الفاجرة. فغضب واحتفظ، وخجلت الجارية، فما قدرت على الكلام، ثم جاءتني أخرى فسرحتها ، فسطع والله ريحها. فقال: ما هذا ويلك! أنت والله الآفة. فقلت: امرأتي فلانة طالِق ثلاثاً إن كنت فعلتها. قال: وهذه اليمين لازمة لي إن كنت فعلتها، وما هو إلا عمل هذه الجارية، فقال: ويلك ما قصتكِ؟ قُومي إلى الخلاء إن كنتِ تجدين حسًّا، فزاد خجلها وأطرقت، وطمِعت فيها، فسرحت الثالثة، وسطع من ريحها ما لم يكن في الحساب، فغضب عبد الملك، حتى كاد يخرج من جلده، ثم قال: خذ يا حمزة بيد الزانية، فقد وهبتها لك، وامضِ فقد نغصت عليَّ ليلتي. فأخذت والله بيدها، وخرجت، فلقيني خادم له، فقال: ما تريد أن تصنع؟ قلت : أمضي بهذه. قال: لا تفعل، فوالله لئن فعلت ليبغضنك بغضاً لا تنتفع به بعدها أبداً، وهذه مئة دينار، فخذها ودع الجارية، فإنه يتحظاها، وسيندم على هبته إياها لك. قلت: والله لا نقصتك من خمس مئة دينار. فلم يزل يزايدني حتى بلغ مئتي دينار ولم تطب نفسي أن أضيعها، فقلت: هاتها، فأعطانيها، وأخذها الخادم.

فلما كان بعد ثلاث دعاني عبد الملك، فلما قربت من داره لقيني الخادم، فقال: هل لك في مئة دينار وتقول ما لا يضرك، ولعله أن ينفعك؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إذا دخلت إليه ادّعيت إليه عنده الثلاث الفسوات، ونسبتها إلى

نفسك، وتنفح عن الجارية ما قرفتها به. قلت: هاتها. فدفعها إليّ، ودخلت على عبد الملك، فلما وقفت بين يديه قلت، إليّ الأمان حتى أخبرك بخبر يسرك، وتضحك منه؟ قال: لك الأمان. قلت: أرأيت ليلة حضوري وما جرى؟ قال: نعم. فقلت: فعليّ وعليّ إن كان فسا تلك الفسوات غيري، فضحك حتى سقط على قفاه. ثم قال: ويلك! فلِم لمْ تخبرني؟ قلت: أردت بذلك خصالاً، منها أن قمت فقضيت حاجتي، وقد كان رسولك منعني منها، ومنها أني أخذت جاريتك، ومنها أن كافأتك على أذاك لي بمثله. فقال: فأين الجارية؟ قلت: ما برحتُ من دارك ولا خرجتُ حتى سلمتها إلى فلان الخادم، وأخذت مئتي دينار. فسُرّ بذلك، وأمر لي بمئتي دينار أخرى، وقال: هذا لجميل فِعلك بي وتركك أخذ الجارية» [1] ويقول:

« قال حمزة بن بيض: ودخلت إليه يوماً وكان لم ير الناس أنتن إبطاً منه، فقال لي: يا حمزة، سابق غلامي حتى يفوح صنانكما، فأيكما كان صنانه أنتن، فله مئة دينار. فطمعت في المئة، ويئست منها لِما أعلمه من نَتْن إبط الغلام. فقلت: أفعل، وتعادينا، فسبقني، فسلحت في يدي، ثم لطخت إبطي بالسلاح، وقد كان عبد الملك جعل بيننا حَكَماً يخبره بالقصة، فلما دنا الغلام منه فشمه، وثب وقال: هذا والله لا يساجله شيء. فصحت به: لا تعجل بالحكم، مكانك. ثم دنوت منه، فألقمت أنفه إبطي حتى علمت أنه قد خالط دماغه، وأنا ممسك

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٦ / ٢٢٩-٢٣١ .

لرأسه تحت يدي، فصاح: الموت والله؛ هذا بالكنف أشبه منه بالآباط! فضحك عبد الملك ثم قال: أفحكمت له؟ قال: نعم، فأخذت الدنانير »[(١)].

هذا مظهر لم يسمع به شريف ولا دنيء ، حتى في حاضرنا الغارق في الصرعات، فكيف بها وهي تُجرى في مجلس خاص لأحد أبناء الخلفاء، والمعلوم أن أبناء الخلفاء في ترف ورُقي فكري ومظهري؛ ينزع بهم نحو نظافة، وسمو خُلقي ؛ لا يسمح بمثل هذا الإسفاف الذي تشمئز منه النفوس.

« وهذا المظهر أو شبيه له يتكرر في مجلس عبد الله بن جعفر وهو أخو زبيدة زوجة هارون الرشيد، وكان يلازمه عمرو الغزال فلقيه الخضر بن جبريل، وكان في الناس في العسكر، فعاتبه عبيد الله على تركه وانقطاعه عنه ، فقال: والله ما أفعل ذلك جهلاً بحقك، ولا إخلالاً بواجبك، ولكنا في طريقين متباينين لا يمكن معهما الاجتماع. قال: وما هما ويحَكَ؟ قال: أنت على نهاية السرف في محبة عمرو الغزال، وأنا على نهاية السرف في بغضه وأنت تتوهم أنه لا يطيب لك عيش إلا به، وأنا أتوهم أني إن عاشرته ساعة متّ، وتقطعتْ نفسي غيظاً وكمداً، وما يستقيم مع هذا بيننا عشرة أبداً، فقال له عبيد الله: إذا كان هذا هكذا فأنا أعفيك منه إذا زرتني، فصِرْ إليَّ آمناً، ولم يجلس عبيد الله حتى قال لحاجبه لا تُدخِل اليوم أحداً، ولا تستأذن عليَّ لجلوسه ودخلنا، فلما وُضِعَت المائدة لم يأكل ثلاث لقم، حتى دخل الحاجب فوقف بين يديه، وأقبل عمرو الغزال خلفه فرآه

(١) المصدر نفسه ١٦ / ٢٣١-٢٣٢ .

من أقصى الصحن فقال له عبيد الله: ثكلتك أمّك! ألم أقل لك لا تُدخل عليَّ أحداً من خلق الله؟ فقال له الحاجب: امرأته طالق ثلاثاً إن كان عنده أن عمراً عندك في هذا المجرى، ولو جاء جبريل وميكائيل وكل من خلق الله لم يدخلوا عليك إلا بإذن سوى عمرو؛ فإنك أمرتني أن آذن له خاصة وأن يدخل متى شاء، وعلى كل حال. قال: ولم يفرغ الحاجب من كلامه حتى دخل عمرو، فجلس على المائدة وتغير وجه الخضر، وبانت الكراهة فيه فما أكل أكلاً فيه خيرٌ، وتبين عبيد الله ذلك، ورُفِعت المائدة وقُدِّم النبيذ فجعل الخضر يشرب شرباً كثيراً لم أكن أعهده يشرب مثله، فظننت أنه يريد بذلك أن يستتر من عمرو الغزال، وعمرو يتغنى، فلا يقتصر وكلما تغنى قال له عبيد الله: لمن هذا الصوت يا حبيبي؟ فيقول: لي وعندنا يومئذ جوارٍ مطربات محسنات، وهو يقطع غناءهن بغنائه، وتبين في وجه الخضر العربدة إلى أن قال عمرو بعقب صوت: هذا لي، فوثب الخضر وكشف إسته وخري في وسط المجلس على بساط خزٍّ لم أر لأحد مثله، ثم قال: إن كان هذا الغناء لك، فهذا الخراء لي، فغضب عبيد الله وقال له: يا خضر أكنت تستطيع أن تفعل أكثر من هذا؟ قال: إي والله أيها الأمير، ثم وضع رجليه على سلحه ثم أخرجهما فمشى على البساط مقبلاً ومدبراً ، حتى خرج وقد لوثه، وهو يقول هذا كله لي، وتفرقنا عن المجلس على أقبح حال وأسوأها، وشاع الخبر، حتى بلغ الرشيد، فضحك حتى غُلب عليه، ودعى الخضر ، وجعله في ندمائه منذ يومئذٍ، وقال هذا أطيب خلق الله، وانكشف عنه عوار عمرو الغزال واسترحنا منه وأمر أن يُحجَب عنه ، فسقط يومئذٍ، وقد كان

الجواري والغلمان أخذوه ولهجوا به، وكان الرشيد يكايد بـه إبـراهيم الموصـلي وابن جامع قبل ذلك فسقط غناؤه أيضاً منذ يومئذٍ »[1].

ومن أعمال قوم لوط الأخرى، حديثه عن الغلمان، وهو حديث ننزه أنفسنا والقارئ عن ذكره، وذكر ما فيه من كذب وافتراء، وخيال مريض منحرف.

أخبار السيئين

يلحظ جليًّا أن شخصيات «الأغاني» و«مروج الذهب» هي في غالبهـا مـن السيئين، مما نسميها شخصيات (قاع المجتمـع) ، فهـما يختـاران روايـاتهما عـن أشخاص غير أسوياء فيهم مطاعن ومثالب ، قد تتعلق بأخلاقهم أو سلوكياتهم أو مهنهم، وهما حينما يكثران من إيراد مثل هذه الـنماذج، فهـما يحـاولان بـذلك الحط من شأن المجتمع بإظهاره بمظهر السوء عن طريق هذه الشخصيات التـي يتلبس بها المجتمع، حتى ليظهر وكأنهم المظهر الأوحد للمجتمع.

ولا بد أن نعلم أن المجتمعات جميعاً لا تخلو من أمثال هؤلاء، بل تـدعي أن المجتمع الإسلامي بسموه الخُلُقي قد هذَّب الكثير من تلك الأخلاقيات، حتـى غدا مجتمعاً سامياً في أخلاقه وطبائعه، إلا أن اختيار أشخاص بطريقـة متعمّـدة لأصباغ المجتمع بصبغتهم السيئة لهو مسك يراد بها إذلال ذلك المجتمع والحـط من شأنه.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ٢٣ / ١٤٤-١٤٧ .

يقول د. شوقي ضيف: « من يقرأ الأغاني لأبي فرج، يخيل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورطوا في إثمها تورطاً»[1].

و«ممن ذكره من السيئين تأبّط شرًّا، وهو ثابت بن العميثل الفهمي ومن أخبار غدره وسوء خلقه، أنّه سُئل: أي يوم مرَّ بك خيراً؟ قال: خرجت حتى كنت في بلاد بجيلة، أضاءت لي النارُ رجلاً جالساً إلى امرأة، فعمدتُ إلى سيفي فدَفَنْتُه قريباً، ثم أقبلت حتى استأنست، فنبحني الكلب، فقال: ما هذا؟ فقلت: بائس. فقال: ادنه، فدنوتُ، فإذا رجُلٌ جلحاب آدم، وإذا أضوى الناس إلى جانبه، فشكوت إليه الجوع والحاجة، فقال: اكشف تلك القصعة، فأتيتُ قصعة إلى جنب إبله، فإذا فيها تمر ولبن، فأكلتُ منه حتى شبعتُ، ثم خررت متناوماً، فوالله ما شئتُ أن اضطجع حتى اضطجع هو ورفع رجله على رجله ثم اندفع يغني وهو يقول:

خير الليالي إن سألت بليلة ... ليل بخيمة بين بِيشَ وعثرِ

لِضجيع آنسةٍ كأن حديثها ... شهدٌ يُشاب بمزجةٍ من عنبرِ

وضجيع لاهيةٍ ألاعبُ مثلها ... بيضاء واضحةٍ كظيظ المِئزرِ

ولأنت مثلها وخيرٌ منهما ... بعد الرقادِ وقبل أن لم تُسْحِري

قال: ثم انحرف فنام، ومالت فنامت فقلتُ: ما رأيتُ كالليلة في الغِرَّة، فإذا عشر عشراوات، بين أثلاث فيها عبدٌ واحد وأمَة فوثبتُ فانتضيتُ سيفي،

(١) «العصر العباسي الأول» ص ٧٥.

وانتحيتُ للعبد فقتلته وهو نائم، ثم انحرفت إلى الرجل فوضعت سيفي على كبده حتى أخرجته من صلبهِ، ثم ضربت فخذ المرأة فجلستْ، فلما رأتْه مقتولاً جزِعتْ، فقلتُ: لا تخافي، أنا خيرٌ لكِ منه. قال: وقمتُ إلى جُلّ متاعها فرحلته على بعض الإبل أنا والأمة فما حللتُ عقده حتى نزلت بصعدة بني عوف بن فِهر، وأعرستُ بالمرأة هناك» (١).

و«ممن ذكره من أخبار الخاملين السيئين أيضاً أخبار أبي الهندي واسمه غالب بن عبد القدوس بن شبث بن رِبعيّ، وكان مشغوفاً بالخمر، فيروي صاحب «الأغاني»:

«أن أبا الهندي اشتهى الصّبوح في الحانة ذات يوم، فأتى خَماراً بِسِجستان في محلة يقال لها: كوه زيان – وتفسيره: جبل الخُسران – يُباع فيها الخمر والفاحشة، ويأوي إليها كل خاربٍ وزانٍ ومغنية، فدخل إلى الخمار فقال له: اسقني، وأعطاه ديناراً، فكال له، وجعل يشرب حتى سكر، وجاء قوم يسألون عنه فصادفوه على تلك الحال. فقالوا للخمّار: ألحقنا به، فسقاهم حتى سكروا، فانتبه فسأل عنهم، فعرّفه الخمار خبرهم، فقال له: هذا الآن وقت السكر، الآن طاب، ألحقني بهم. فجعل يشرب حتى سكر، وانتبهوا فقالوا للخمّار: ويحك! هذا نائم بعد! فقال: لا، ولقد انتبه، فلما عرف خبركم شرب حتى سكر، فقالوا: ألحقنا به، فسقاهم حتى سكروا، وانتبه فسأل عن خبرهم، فعرفه فقال: والله لألحقن بهم، فشرب حتى سكر، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم ثلاثة أيام لم يلتقوا وهو في

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني، ٢١ / ١٥٩-١٦٠.

موضع واحد، ثم تركوا هم الشرب عمداً حتى أفاق، فلقوه »[1].

« ويذكر يونس بن الخياط، وهو عبد الله بن محمد بن سالم بن يونس بن سالم، وهو شاعر ظريف، ماجن خليع، هجّاء خبيث مخضرم من شعراء الدولة الأموية والعباسية، وكان منقطعاً إلى آل الزبير بن العوّام مدّاحاً لهم... وهو يروي عن تنافسه وأبيه على جائزة خزيم بن أبي الهيذام، وأنه قد مدّ يده إلى أبيه ليمنحه جائزة، فيقول يونس: «فبادرتُ فأخذت بيد المُري وقلت له: لا تعجل فإنه قد قلت شعراً أجود من شعره. قال أبي: ويلك يا يونس تحرمني؟ فقلت: دع هذا عنك، فوالله لا تجوع امرأتي وتشبع امرأتك، فقلت ليونس: ومن كانت امرأة أبيك يومئذٍ؟ فقال: أمي، وجمعت والله عقوقهما. فقال لي المري أنشد فأنشدته:

اسقياني يا صحبيّ اسقياني ودعاني من الملام دعاني

اسقياني هُديتما من كميتٍ بنْتِ عشْرٍ مشمولةٍ اسقياني

فُضَّ عنها ختامها إذ سباها واضح الخد من بني عدنانِ

نتحايا بالكأسِ أربعة في الدّ ورِ هذان ناعمانِ وذانِ

ذا لهذا ريحانة مثل هذا ك لهذا من طيّب الريحانِ

فنهضنا لموعد كان منا إذ سمعنا تجاوب البُكمانِ

فنعمنا حولين بهراً وعشنا بين دُفّ ومُسمِع ودِنانِ

---

(١) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٠ / ٣٤٣-٣٤٥.

ثم هِجنا للحرب إذ شبّت الحر ... بُ ففُزنا فيها بسبق الرهانِ

إنّ قيساً في كل شرقٍ وغربٍ ... خارج سهمها على السهمانِ

منع الله ضيمنا بأبي الهيـ ... ـذام حِلْفِ السماحِ والإحسانِ

واليمانون يفخرون أما يد ... رونَ أن النبيّ غير يمانِ

قال: فقال الفتى لأبي: قد وجب علينا من حقه مثل ما وجب علينا من حقك يا شيخ؛ واستظرف ما جرى بيني وبين أبي، وقسم الدنانير بيننا، وكانت خمسين ديناراً.

أخبرني الحسن بن عليٍّ قال: حدثنا محمد بن موسى بن حماد قال: حدثني الزبير قال:

مرَّ رجل بيونس بن عبد الله بن الخياط -وهو يعصر حَلْق أبيه وكان عاقاً به- فقال له: ويلك أتفعل هذا بأبيك؟ وخلصه من يده، ثم أقبل على الأب يعزيه ويسكّن منه، فقال له الأب: يا أخي لا تلمه، واعلم أنه ابني حقاً. والله لقد خنقتُ أبي في هذا الموضع الذي خنقني فيه. فانصرف عنه الرجل وهو يضحك»[1].

ويذكر حمدون الحامض وهو ابن عبد الله بن عبد الصمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، وأن ابنه أبا العبر ولِد بعد خمس سنين خلت من خلافة الرشيد ... وقد كان أبو العِبر يجلس بسرَّ من رأى في مجلس يجتمع عليه

---

(١) عبارة فاحشة.

فيه المجان يكتبون عنه، فكان يجلس على سلّم وبين يديه بلاعة فيها مـاء وحمـأة، وقد سُدَّ مجراها، وبين يديه قصبة طويلة، وعلى رأسه خُفٌّ وفي رجليه قلنسيتان، ومُستمليه في جوف بئر، وحوله ثلاثة نفرٍ يدُقُّون بالهواوين، حتـى تكثـر الجلبـة ويقل السماع، ويصيح مستمليه من جوف البئر من يكتب، عذبك الله، ثم يملي عليهم، فإن ضحك أحد ممن حضروا قاموا فصبّوا على رأسه من ماء البلاعة إن كان وضيعاً، وإن كان ذا مروءةٍ رشّش عليه بالقـصبة مـن مائهـا، ثـم يحبس في الكنيف إلى أن ينفضّ المجلس، ولا يخرج منه حتى يغرم درهمين. قـال: وكانـت كنيته أبا العباس، فصيرها أبا العِبر، ثم كان يزيد فيها في كل سـنة حرفـاً، حتـى مات ، وهي أبو العِبر طرد طيل طيلري بك بك بك.

ويذكر من أخباره أيضاً أنه يقول:

سمعت رجلاً سأل أبا العِبر عن هذه المحـالات التـي يـتكلم بهـا: أيُّ شيء أصلها؟ قال: أُبكر، فأجلس على الجسر، ومعـي دواة ودرج، فأكتـب كـل شيء اسمعه من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمُكارين، حتى أمـلأ الـدرج مـن الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وطولاً والصقه مخالفاً، فيجـيء منـه كـلام لـيس في الدنيا أحمق منه.

أخبرني عمي قال: رأيتُ أبا العِبر واقفاً على بعض آجام سُرَّ من رأى، وبيده اليسرى قوس جُلاهق وعلى يده اليمنى باشق، وعلى رأسه قطعة رئة مـن حبـل مشدود بأنشوطة، وهو عريان مشدود فيه شص قد ألقاه في الماء للسمك، وعـلى شفته دُوشاب ملطخ، فقلت له: خرِب بيتك، أيش هذا العمل؟ فقـال: أصـطاد

ياكَشخان يا أحمق بجميع جوارحي، إذا مر بي طائر رميته عن القوس، وإن سقط قريباً مني أرسلت إليه الباشق، والرئة التي على رأسي يجيء الحِدَأ ليأخذها فيقع في الوَهَق والدّوشاب أصطاد به الذباب، وأجعله في الشص، فيطلبه السمك، ويقع فيه، والشص في ... [١]، فإذا مرت به السمكة أحسستُ بها فأخرجتها.

قال: وكان المتوكل يرمي به في المنجنيق إلى الماء، وعليه قميص حرير، فإذا علا في الهواء صاح: الطريق الطريق، ثم يقع في الماء فتخرجه السُّباح، قال: وكان المتوكل يُجلسه على الزلاقة، فينحدر فيها، حتى يقع في البِركة، ثم يطرح الشبكة، فيخرجه كما يخرج السمك ففي ذلك يقول في بعض حماقاته [٢]:

ويأمر بي المَلِكْ فيطرحني في البِرَكْ

ويصطادني بالشبك كأني من السمك

ويضحك كك كككك ككك كك ككك كك ككك

وممن يذكر أخبارهم جعيفران، وفيه يقول:

« كان جعيفران خبيث اللسان، هجّاء لا يسلم عليه أحد، فاطلع يوماً في الجب، فرأى وجهه قد تغيّر، وعفا شعره فقال [٣]:

---

(١) كلمة فاحشة.

(٢) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٣ / ٢٠٥-٢١٠.

(٣) المصدر نفسه ٢٠ / ٢٠٩.

مــا جعفــرٌ لأبيــه ولا لـــه بـــشبيه

أضـحى لقـوم كثـير فكلهـم يدعيـه

هــذا يقــول بُنيــي وذا يخاصــم فيــه

والأم تــضحك مــنهم لعلمهــا بأبيــه

الطعن في الخُلفاء

إن مقولة (والحسن يظهر حسنه الـضد)، لهـي مقولـة مطـردة في تطبيقاتهـا العملية، وعلى ذلك؛ فالأمر يتطلب أن تذكر المحاسن بعد ذكـر المـساوئ، فهـما حينما ذكرَا تلك الشريحة من الناس، كان عليهما أن يظهرا شريحة تقابلهـا لتظهـر حسن المجتمع كما أظهرا سوءه.

غير أن منهجيتهما الساعية للطعـن في المجتمـع تـأبى إلا أن تظهـر المجتمـع العربي الإسلامي بمظهر سيِّئ، لذلك فهما قد بالغا في الطعن لينالا من رموزنـا، وخلفائنا وقادة الأمة وعلمائها، سعياً منها لإسقاط الرمز في حيـاة الأمـة، ومـن الجليّ أن الأمم جميعاً بحاجة إلى رمز تقتدي بـه وتـسير عـلى هديـه وتنهـل مـن محاسنه، وبإسقاط الرمز قد تنهار القدوة وبذلك تختل مفـاهيم المقتـدي، ولـربما انهارت وسقط معها. إن الأصفهاني - في سعيه ذلك - يتخـيّر أفـضل الخلفـاء، فهو قد ذكر الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز -رضوان الله عليه- لينـال منـه بأسلوب ملتوٍ خبيث في أكثر من موقف، بل هو يمس أفراد عائلته معه ، يـروي عن ابن جعدبة، فيقول :

« عاتب عمرو بن عبد العزيز رجلاً من قريش، أمه أخت عقيل بن عُلفة فقال له: قبحك الله! أشبهت خالك في الجفاء. فبلغتْ عقيلاً فجاء حتى دخل على عمرو فقال له: ما وجدت لابن عمك شيئاً تعيره به إلا خُؤولتي! فقبح الله شركما خالاً. فقال له صخير بن أبي جهم العدوي (وأمه قريشية) : آمين يا أمير المؤمنين. فقبح الله شركما خالاً، وأنا معكما أيضاً. فقال له عمر إنك لأعرابي جلف جافٍ، أما لو كنت تقدمت إليك لأدّبتك. والله لا أراك تقرأ من كتاب الله شيئاً، قال: بلى، إني لأقرأ، قال: فاقرأ، فقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[1] حتى بلغ إلى آخرها فقرأ: فمن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، فقال له عمر: ألم أقل لك إنك لا تحسن أن تقرأ؟ قال: أو لم أقرأ؟ قال: لا، لأن الله -جلّ وعز- قدم الخير وإنك قدمت الشر. فقال عقيل:

خذا بطن هرْشى أو قفاها فإنه كِلا جانبي هرْشى لهن طريق

فجعل القوم يضحكون من عجْرَفِيتهِ» [2].

ويروى الخبر عن طريق علي بن محمد المدائنيّ « فيذكر أنه كان بين عمر بن عبد العزيز وبين يعقوب بن سلمة وأخيه عبد الله كلامٌ، فأغلظ يعقوب لعمر في الكلام فقال له عمر: اسكت فإنك ابن اعرابية جافية. فقال عقيل لعمر: لعن الله شر الثلاثة، مني ومنك ومنه! فغضب عمر، فقال له صُخير بن أبي الجَهْم: آمين. فهو والله أيها الأمير شر الثلاثة. فقال عمر: والله إني لأراك لو سألته عن

(١) الزلزلة / ١ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٢ / ٣٠٤.

آية من كتاب الله ما قرأها. فقال: بلى والله أني لقارئ لآية وآيات فقال: فاقرأ، فقرأ، إنا بعثنا نوحاً إلى قومه، فقال له عمر: قد أعلمتك أنك لا تُحسن. ليس هكذا قال الله، قال: فكيف قال؟ قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ فقال: وما الفرق بين أرسلنا وبعثنا[1]:

خذا أنف هرشي أو قفاها فإنه كلا جانبي هرْشي لهن طريق

وبين الخبرين مفارقة غريبة، يجب أن نفطن إليها لنظهر مدى تلفيق القصة، ففي الأولى يقول: (آمين يا أمير المؤمنين)، أما في الثانية، فيقول: (فهو والله أيها الأمير شرّ الثلاثة) ومن الواضح أن الخبرين يترجحان بين الإمارة والخلافة، وهذا لوحده يكشف زيف وكذب الخبر، إذ لو كان صادقاً لما تذبذبت آراؤهم بين الإمارة والخلافة، ويروي بما يتنافى مع ما عُرف عن الخليفة عمر بن عبد العزيز ﵁، فيقول:

جئت عبيد الله بن عبد الله يوماً في منزله فوجدته ينفخ وهو مغتاظ فقلت له: مالك؟ قال: جئت أميركم آنفاً - يعني عمر بن عبد العزيز - فسلّمتُ عليه وعلى عبد الله بن عمرو بن عثمان، فلم يردَّا عليّ، فقلت:

فمسا تراب الأرض منها خلقتما

وذكر الأبيات الأربعة. قال فقلت له: رحمك الله! أتقول الشعر في فضلك

---

(١) نوح / ١.

ونسكك!قال: إن المصدور إذا نفث برأ [١].

والأبيات هي:

فمسا تراب الأرض منها خلقتما ومنها المعاد والمصير إلى الحشرِ
ولا تأنفا أن تسألا وتسلما فما خشي الإنسان شرًّا من الكِبرِ
فلو شئت أن ألفي عدوًّا وطاعناً لألفيته أو قال عندي في السرِّ
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلجَّ ويستشري

قال أبو زيد: حدثنا ابراهيم بن المنذر، وأنشدني هذه الأبيات عبد العزيز بن أبي ثابت عن ابن أبي الزِناد له وذكر مثل ذلك وأنها في عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن عمرو [٢].

وهو يصفه بالبخل فيقول:

« كان الوليد بن عبد الملك محسناً إلى أعشى بني تغلب، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وفد إليه ومدحه فلم يعطه شيئاً، وقال: ما أرى للشعراء في بيت المال حقًّا، ولو كان لهم فيه حقاً لما كان لك؛ لأنك امرؤٌ نصرانيٌّ. فانصرف الأعشى وهو يقول[٣]:

لعمري قد عاش الوليد حياته إمام هدىً لا مُسْتَزادٌ ولا نَزْرُ

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٩ / ١٧٠.
(٢) المصدر نفسه ٩ / ١٦٩.
(٣) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١١ / ٢٨٤.

كـأن بنـي مـروان بعـد وفاتـه جلاميدُ لا تندى وإن بلّها القطرُ

ويطعن في ابنه، فيقول: « قال المهدي يوماً وبين يديه مروان بن أبي حفـصة: أين ما تقوله فينا من قولك في أمير المؤمنين المنصور:

له لحظاتٌ عن حِفافَيْ سَرِيرِهِ إذا كرّها فيها عقابٌ ونائلُ

فاعترضه آدم بن عمر بن عبد العزيز فقال: هيهات والله يا أمير المـؤمنين أن يقول هذا ولا ابن هَرْمة كما قال الأخطل:

شمسُ العدواةِ حتى يُستقادَ لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قـالَ فغـضب المهـدي حتـى استـشاط وقـال: كـذب والله ابـن النـصرانية العاض... [1] وكذّبت يا عاض! [2] والله لولا أن يُقال : أني خفرت بك لعرّفتـك من أكثر شعراً! خذوا برجل ابن الفاعلة فأخرجوه عني! فـأخرجوه عـلى تلـك الحال، وجعل يشتمه وهـو يُجـرّ ويقـول يـا ابـن الفاعلـة! أراهـا في رؤوسـكم وأنفسكم! [3]

أفي ابن عمر وأهله يُقال كذا؟!!!

ويقول: « كان المعتصم يبغض دِعبلاً لطول لـسانه، وبلـغ دِعـبلاً أنـه يريـد اغتياله وقتله فهرب إلى الجبل ، وقال يهجوه :

---

(١) عبارة فاحشة.

(٢) عبارة فاحشة.

(٣) المصدر نفسه ١١ / ٧٠-٧١.

بكى لِشتات الدين مكتئب صبّ وفاض بفرط الدمع من عينه غربُ
وقام إمام لم يكن ذا هداية فليس له دينٌ وليس له لبُّ
وما كانت الآباء تأتي بمثله يُملَّك يوماً أو تدين له العُربُ
ولكن كما قال الذين تتابعوا من السلفِ الماضين إذ عظم الخطبُ
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم كتْبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عُدّوا وثامنهم كلبُ
وإني لأُعلي كلبهم عنك رفعةً لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنْبُ
لقد ضاع ملك الناسِ إذ ساس وصِيف وأشناسٌ وقد عظُم الكَربُ
وفضل بنُ مروان يُثلمُ ثلمة يظل لها الإسلام ليس له شعبُ

أخبرني عمي قال: حدثني ميمون بن هرون قال: لما مات المعتصم قال محمد ابن عبد الملك الزياتُ يرثيه:

قد قلت إذ غيّبوه وانصرفوا في خير قبرٍ لِخَير مدفون
لن يجبر الله أمةً فقدت مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه[1]:

قد قلتُ إذ غيّبوه وانصرفوا في شرّ قبرٍ لشرٍّ مدفون
اذهب إلى النار والعذاب فما خِلتك إلا من الشياطين
مازلت حتى عقدت بيعة من أضرّ بالمسلمين والدين

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٠ / ١٥٧ - ١٥٨ .

إن الطعن في الخلفاء، هو منهج منسق يظهر جليًّا بأشكال نمطية ظاهرة من أبرزها:

الطعن في حصافة الخلفاء

من ضمن منهجية الأصفهاني في الطعن في الخلفاء، إظهارهم بمظهر عقلي متدنٍّ، من ذلك ما رواه من أنه:

«كان رجل يأتي عبيد الله بن عبد الله، ويجلس إليه. فبلغ عبيد الله أنه يقع ببعض أصحاب رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فلم يلتفت إليه عبيد الله. وكان الرجل شديد العقل، فقال له يا أبا محمد، إن لك لشأناً، فإن رأيت لي عذراً فاقبل عذري. فقال له: أتتّهم الله في علمه؟ قال أعوذ بالله. قال: أتتّهم رسول الله ﷺ في حديثه؟ قال: أعوذ بالله. قال يقول الله -عز وجل-:﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[1] وأنت تقع في فلان وهو ممن بايع، فهل بلغكَ ان الله سخط عليه بعد أن رضي عنه؟! قال: والله لا أعود أبداً. قال: والرجل عمر بن عبد العزيز»[2].

ويظهر سخافة في عقل عبد الملك بن مروان على ما عُرف عنه من عقل راجح، وورع ظاهر، يقول المزّي:

---

(١) الفتح / ١٨ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٩ / ١٧٦، ١٧٧ .

« عبد الملك بن مروان بن الحكم، روى عن جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة والتابعين، وروى عنه الكثير، وذكره محمد بن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة وقال: كان عابداً ناسكاً قبل الخلافة، وشهد يوم الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين وحفظ أمرهم وحديثهم. واستعمله معاوية على أهل المدينة وهو يومئذٍ ابن ست عشرة سنة، فركب بالناس البحر، وكان قد جالس العلماء والفقهاء وحفظ عنهم، وقال وهب بن جرير بن حازم عن أبيه، سمعت نافعاً يقول: لقد رأيت المدينة وما بها شابٌّ أشد تشميراً لا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان، أو قال: ولا أطول صلاة ولا أطلب للعلم منه ... وقال عبد الله بن بكر السهمي؛ حدثني بشر بن نضر أن عبد الملك بن مروان دخل على معاوية وعنده عمرو بن العاص فسلّم ثم جلس، ثم لم يلبث أن نهض، فقال معاوية: ما أكمل مروءة هذا الفتى!

فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنه أخذ بأخلاق أربعة، وترك أخلاقاً ثلاثة، أخذ بأحسن البشر إذا لقي وأحسن الحديث إذا حدَّث وأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وأيسر المؤونة إذا خُولِف، وترك مزاح من لا يثق بعقله ولا دينه، وترك مجالسة لئام الناس، وترك من الكلام ما يُعتذر منه [1].

ويقول صاحب «الأعلام» عنه: « عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد: من أعاظم الخلفاء ودُهاتهم، نشأ في المدينة، فقيهاً واسع

(١) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» جمال الدين المزّي، ١٨ / ٤٠٨-٤١٠ .

العلم، متعبّداً ناسكاً »[1].

وصاحب «الأغاني» يصفه بالورع من حيث لا يشعر، فينقل عن عبد الملك ابن مروان أنه قال لنصيب: انشدني. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

ومُضمَرِ الكَشْحِ يطويه الضجيع به طيَّ الحمائل لا جافٍ ولا فقِرُ

وذي روادف لا يلفى الإزارُ بها يُلوى ولو كان سبعاً حتى يأْتزِرُ

فقال له عبد الملك: يا نُصَيْب، من هذه؟ قال: بنت عمٍّ لي نُوبيّة، لو رأيتها ما شربت من يدها الماء. فقال له: لو غير هذا قلتَ لضربتُ الذي فيه عيناك »[2].

هذه الحجة في الحفاظ على المحارم لا ينطق بها إلا عابدٌ زاهد يمتنع عن المحارم بينما يصفه الأصفهاني بصغر العقل، وسذاجة الرأي، وانطفاء الحكمة، فيقول:

«أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: قال داود بن جميل: حدثني من سمع هذا الحديث من ابن العتبي يذكره عن أبيه قال: دخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان وهو يتأوه فقال: يا أمير المؤمنين، لو أدخلتَ عليك من يؤنسك بأحاديث العرب وفنون الأسمار؟ قال: لستُ صاحب هزلٍ، والجِد مع علّتي أحجى بي. قال: وما علتك يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بي عرق النسا في ليلتي هذه، فبلغ مني. قال: فإن بُديحاً مولاي أرقى الناس منه. فوجّه اليه عبد

---

(١) «الأعلام» الزركلي، ٤ / ١٦٥ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١ / ٣٣٦ .

الملك فلما مضى الرسول سُقط في يدي ابن جعفر وقال: كذبةٌ قبيحة عند خليفة. فما كان بأسرع من أن طلع بديح.

فقال: كيف رقيتك من عرق النسا. قال: أرقى الخلق يا أمير المؤمنين. قال فسُرّي عن عبد الله لأن بديحاً كان صاحب فكاهة يُعرف بها؛ فمدّ رجله فتفل عليها ورقاها مراراً، فقال عبد الملك: الله أكبر، وجدتُ والله خفًّا يا غلام، ادعُ فلانة حتى تكتب الرُّقية، فإنّا لا نأمن هيجها بالليل فلا نذعر بديحاً[1]. فلما جاءت الجارية قال بديح: يا أمير المؤمنين! امرأته الطلاقُ إن كتبتها حتى تعجل حبائي. فأمر له بأربعة آلاف درهم فلما صار المال بين يديه، قال: وامرأته الطلاق إن كتبتها أو يصير المال إلى منزلي. فأمر به فحُمل إلى منزله، فلما أحرزه قال: يا أمير المؤمنين! امرأته الطلاق إن كنتُ قرأت على رجلك إلا أبيات نُصَيب (طويل).

ألا إن ليلى العامرية أصبحت   على النأي مني ذَنْبَ غيري تنقمُ

وذكر الأبيات وزاد فيها:

وما زلتُ أستصفي لكِ الود أبتغي   مُحاسنَةً حتى كأني مجْرِمُ

---

(١) بُديح: هو اسم مولى آل جعفر الطيّار، وهو مغنٍّ، كان إذا غنّى، قطع غناء غيره؛ لحسن صوته، ينظر «الإكمال لتهذيب الكمال»، ابن ماكولا، ١ / ٢١٦ ، وينظر «تاج العروس»، الزبيدي، ٦ / ٣١٢، وينظر «لسان العرب»، ابن منظور، مادة / بدح، ٢ / ٤٠٧.

قال: ويلك ما تقول؟ قال: امرأته الطلاق إن كان رقاك إلا بها قال. قال: فاكتُمها عليّ. قال: وكيف ذاك وقد سارت بها البُردُ إلى أخيك بمصر؟ فطفق عبد الملك ضاحكاً يفحص برجليه» [١].

ويقول في أخبار الوليد بن يزيد:

« لما ظهرت المُسوِّدة بخُراسان كتب نصر بن سيّار إلى الوليد يستمده، فتشاغل عنه؛ فكتب إليه كتاباً وكتب في أسفله يقول:

أرى خلل الرماد وميضَ جمرٍ ... وأحْرِ بأن يكون له ضرامُ
فإنّ النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب مبدؤها الكلامُ
فقلتُ من التعجب ليت شعري ... أأيقاظٌ أُميةُ أم نيامُ

فكتب إليه الوليد: قد أقطعتك خراسان ، فاعمل لنفسك أو دعْ، فإني مشغول عنك بابن سريج ومعبد والغريض » [٢].

ويقول في أخباره أيضاً:

« لما استُخلِف الوليد بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بالشخوص إليه بعطرد المغنّي؛ قال عطردٌ: فأقرأني العامل الكتاب وزودني نفقةً وأشخصني إليه، فأُدخِلتُ عليه وهو جالس في قصره على شفير بركة مرصصة مملوءة خمراً ليست

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٥ / ١٦٩-١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ٧ / ٦٧ .

بالكبيرة ولكنها يدور الرجل فيها سباحة، فوالله ما تركني أسلم عليه حتى قال: أعطرد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ قال: لقد كنتُ إليك مشتاقاً يا أبا هارون. غنّني:

حيِّ الحُمول بجانب العزلِ إذ لا يلائم شكلها شكلي
إني بحبلكِ واصلٌ حبلي وبريش نبلك رائشٌ نبلي
وشمائلي ما قد علمتِ وما نبحتْ كلابُك طارقاً مثلي

قال: فغنّيته إياه، فوالله ما أتممته حتى شقّ حلة وشْي كانت عليه لا أدري كم قيمتها، فتجرد منها كما ولدته أمه وألقاها نصفين، ورمى بنفسه في البركة فنهل منها حتى تبيّنت - علم الله - فيها أنها قد نقصت نقصاناً بيّناً، وأُخرج منها وهو كالميّت سُكراً، فأُضجع وغُطي، فأخذت الحلة وقمتُ، فوالله ما قال لي أحدٌ: دعها ولا خذها ، فانصرفتُ إلى منزلي متعجباً مما رأيت من ظرفه وفعله وطربه، فلما كان من قدر جاءني رسوله في مثل الوقت فأحضرني فلما دخلتُ عليه قال لي: يا عطرد، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين؛ قال: غنّني:

أَيذهبُ عُمري هكذا لم أنلْ بها مَجَالس تشفي قَرح قَلبي من الوَجدِ
وقالوا تداوَ إن في الطبِّ راحةً فعللتُ نفسي بالدواء فلم يُجْدِ

فغنيته إياه، فشق حلة وشي كانت تلتمع عليه بالذهب التماعاً احتقرتُ والله الأولى عدها، ثم ألقى نفسه في البركة فنهل فيها حتى تبينتُ - علم الله - نقصانها ، وأخرج [منها] كالميّت سُكراً، وأُلقي وغطيَ فنام، وأخذتُ الحلة

فوالله ما قال لي أحد دعها ولا خذها وانصرفتُ ، فلما كان اليوم الثالث جاءني رسوله فدخلت إليه وهو في بهوٍ قد أُلقيت ستوره، فكلمني من وراء الستور وقال: يا عطرد! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كأني بك الآن قد أتيت المدينة فقمتَ بي في مجلسها ومحفلها وقعدتَ وقلتَ: دعاني أمير المؤمنين فدخلتُ إليه فاقترح عليّ فغنيته وأطربته فشق ثيابه وأخذتُ سلبه وفعل وفعل، والله يا ابن الزانية، لئن تحركتْ شفتاك بشيء مما جرى فبلغني لأضربن عنقك، يا غلام! أعطه ألف دينار، خذها وانصرف إلى المدينة، فقلتُ: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في تقبيل يده، ويزوِّدني نظرة منه وأغنيه صوتاً! فقال: لا حاجة بي ولا بك إلى ذلك، فانصرِفْ. قال عطرد: فخرجتُ من عنده وما علم الله أني ذكرت شيئاً مما جرى حتى مضت من دولة بني هاشم مدّة »[1].

ويروى عنه أيضاً أنه سمع غناء ابن سريج:

إني رأيت صبيحة النفر ... حُوراً نَفَيْنَ عزيمة الصبرِ
مثلَ الكواكب في مطالِعِها ... بعدَ العشاء اطفَنَ البدرِ
وخرجتُ أبغي الأجر محتسباً ... فرجعت موفوراً من الوِزْرِ

فطرب الوليد حتى كفر وألحد، وقال: يا غلام، اسقنا بالسماء الرابعة، وكان الغناء يعمل فيه عملاً ضل عنه من بعده؛ ثم قال: أحسنت والله يا أميري! أعد بحق عبد شمس؛ فأعاد؛ ثم قال: أحسنت والله يا أميري! أعد بحق أمية،

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٣/ ٣٠٥، ٣٠٦، والخبر مذكور في ألف ليلة وليلة وسنورده لاحقاً.

فأعاد؛ ثم قال: أعد بحق فلان، أعد بحق فلان، حتى بلغ من الملوك نفسه، فقال: أعد بحياتي، فأعاده، قال: فقام إليه فأكب عليه فلم يبقَ عضو من أعضائه إلا قبّله وأهوى إلى هنه فجعل ابن عائشة يضم فخذيه عليه، فقال: والله العظيم لا تريم حتى أقبله، فأبداه له ....، ثم نزع ثيابه فألقاها عليه وبقي مجرداً إلى أن أتوه بمثلها، ووهب له ألف دينار، وحمله على بغلة وقال: اركبها - بأبي أنت - وانصرفْ، فقد تركتني على مثل المقلى من حرارة غنائك، فركبها على بساطه وانصرف»[1].

لم نسمع بهذا الفعل في الأولين ولا في الآخرين، أهذا فعل خليفة؟! أم هو فعل سوقي منحط، لا ينتمي إلى الإنسانية فضلاً عن انتمائه إلى الإسلام، بل إلى إمارة المؤمنين.

إن ما يبديه الأصفهاني، لهُو حرصٌ عميق على تشويه القيم جميعها، والمعايير الخلقية كلها، بل حديثٌ على لسان مريض، يفكر بعقل منحرف، يخرج فيه عمّا أَلِف من الناس، وعمّا سمعوه أو رأوه، ويروي ذلك كله على ألسنة مجاهيل أو منحرفين لا يعتد بقولهم ولا فعلهم.

ويروي عن ضعف عقله فيقول:

كان الوليد زنديقاً، وكان رجل من كلب يقول بمقالته مقالة الثَّنوية فدخلتُ على الوليد يوماً وذلك الكلبي عنده، وإذا بينهما سَفَطٌ قد رُفع رأسه

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢١٩.

عنه، فإذا ما يبدو لي منه حرير أخضر؛ فقال: ادْنُ يا علاء فدنوت، فرفعت الحريرة فإذا في السفط صورة إنسان وإذا الزئبق والنوشادر قد جُعلَا في جفنه فجفنه يطرف كأنه يتحرك؛ فقال: يا علاء هذا ماني لم يبتعث الله نبياً قبله ولا يبتعث نبيًّا بعده، فقلت: يا أمير المؤمنين اتقِ الله ولا يغرنّك هذا الذي ترى عن دينك. فقال له الكلبيّ: يا أمير المؤمنين! ألم أقل لك: إن العلاء لا يحتمل هذا الحديث؟

ويقول: « دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف، فلما فتحه وافق ورقةً فيها: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾[1] فقال: أسجعاً سجعاً! علقوه؛ ثم أخذ القوس والنبل حتى مزّقه؛ ثم قال:

أتوعد كلّ جبارٍ عنيد فها أنا ذا جبارٌ عنيدُ

إذا لاقيتَ ربكَ يوم حشرٍ فقل لله مزَّقني الوليدُ

قال: فما لبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى قتل»[2].

وتتهمه حاضنة ابنته بالمجوسية لفعلٍ فاحش يفعله، فتقول: «إنها المجوسية، قال: اسكتي! ثم قال:

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللَّذَّةِ الجسور

(١) ابراهيم / ١٥ ١٦ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٧ / ٥٩ – ٦٠ .

غير أن صاحب «الأغاني» أراد أن يمزج الصدق بالكذب حتى يختلج الأمر على المتلقي، إذ يقول: وأحسب أنا أن هذا الخبر باطل لأن الشعر لسلم الخاسر وهو عباسي !! »[١]!

ولكن لو كان ما ادعاه من طعن في إسلامه وإيمانه لما قال فيه أيوب السختياني وهو من كبار فقهاء ونساك التابعين؛ ليت القوم تركوا لنا خليفتنا لم يقتلوه»[٢]!

ويقول عنه ابن علاثة الفقيه في حضرة المهدي بعد أن اتهمه بالزندقة، يقول: يا أمير المؤمنين! الله -عز وجل- أعظم من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة من لا يؤمن بالله. لقد أخبرني من كان شهده في ملاعبة وشربه عنه بمروءة في طهارته وصلاته وكان يطرح ثياباً كانت عليه مطيّبةً مصبغة ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نطاف من ثياب الخلافة فيصلي فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت سكون وركوع وسجود» [٣].

فهل من كان هذا وصفه من فقهاء عصره، أن يوصف من إخباري بعد مئتي سنة، بتلك الأوصاف، وبما يذكر في هذا الخبر يقول:

« كتبَ الوليد بن يزيد في أشخاص أشعب من الحجاز إليه وحمله على

---

(١) المصدر نفسه ٧/ ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ٧/ ٩٥ .

(٣) المصدر نفسه ٧/ ٩٦.

البريد، فحُمل إليه، فلما دخل أمر بأن يلبس تُباناً ويجعل فيه ذَنَبُ قردٍ ويُشدُّ في رجليه أجراس ، وفي عنقه جلاجل، ففُعِل به ذلك، فدخل وهو عجبٌ من العجب، فلما رآه ضحك منه وكشف عن عورته [١]، قال أشعب: فنظرت اليه كأنه .. [٢] ... [٣]، فقال لي: اسجد .. [٤] ويلك، يعني [٥]، فسجدتُ، ثم رفعتُ رأسي وسجدتُ أخرى، فقال: ما هذا؟ قلت: الأولى.. [٦]، والثانية.. [٧] فضحك وأمر بنزع ما كان ألبسنيه ووصلني، ولم أزل من ندمائه حتى قتل» .. [٨].

القارئ للخبر يستطيع بيقين أن يحكم على راوي الخبر بالمرض العقلي أو الشذوذ، فأحدهما يدفع الإنسان إلى إيراد مثل هذه الأحداث، فهذا الخليفة إن كان على مثل هذا الوصف، فكيف يمدحه الفقهاء، وكيف يمدحه خليفة عباسي قد أجمع أصدقاؤه وأعداؤه على رجاحة عقله، وحصافته وشدة بأسه، يقول هارون الرشيد بعد أن دخل عليه ابن اخٍ للوليد، وهو ابن الغمر بن يزيد «رحم الله عمَّك ولعن يزيد الناقص وقتلَة عمك جميعاً، فإنّهم قتلوا خليفة مجمعاً

---

(١) كلمة أُبدِلَت بلفظة العورة لقبحها.

(٢) كلمات فاحشة.

(٣) كلمات فاحشة.

(٤) كلمات فاحشة.

(٥) كلمات فاحشة.

(٦) كلمات فاحشة.

(٧) كلمات فاحشة.

(٨) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩ / ١٨٤ .

عليه»[1] فهل يحكم عليه بالإجماع، إن كان ذاك فعله، ثم أليس الوليد هو القائل، وبرواية الأصفهاني نفسه، إذ يروي أنه :

«قال الوليد بن يزيد: يا بني أمية! إياكم والغناء، فإنه يُنقصُ الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثوّر على الخمر ويفعل ما يفعل السُّكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجنّبوه النساء، فإن الغناء رُقية الزِّنا »[2].

ثم ها هو المتهم في دينه، يروي عنه فيقول:

خرج الوليد بن يزيد وكان مع أصحابه على شراب؛ فقيل له: إن اليوم الجمعة فقال : والله لأخطبنهم اليوم بشِعر؛ فصعد المنبر فخطب فقال:

الحمد لله ولي الحمد ... أحمد في يسرنا والجهدِ

وهو الذي في الكربِ أستعينُ ... وهو الذي ليس له قرينُ

أشهد في الدنيا وما سواها ... أن لا إله غيره إلها

ما إن له في خلقه شريكُ ... قد خضعت لملكه الملوكُ

أشهد أن الدِّين دين أحمدِ ... فليس مَن خالفَه بمهتدي

وأنه رسول رب العرشِ ... القادرِ الفرد الشديد البطشِ

أرسله في خلقه نذيرا ... وبالكتاب واعظاً وبشيرا

---

(١) المصدر نفسه ٧/ ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٧/ ٨٢ .

ليُظهـر الله بـذاك الـدينا وقـد جُعلنـا قبـلُ مـشركينا

مـن يُطـع الله فقـد أصـابا أو يعـصه أو الرسـول خابـا

ثـم القـرآن والهـدى الـسبيلُ قـد بقيـا لـمّا مـضى الرسـولُ

كأنــه لمــا بقــي لــديكم حيٌّ صـحيحٌ لا يـزال فـيكم

إنكــم مــن بعــد أن تزلــوا عـن قـصده أو نهجـه تـضلوا

لا تتركن نصحي فإني ناصـحُ إن الطريـق فـاعلمن واضـحُ

من يتـقِّ الله يجـد غـب التقـى يوم الحساب صائراً إلى الهدى

إن التُقــى أفــضل شيءٍ في أرى جماع البر فيـه قـد دخـل

خافوا الجحيم إخوتي لعلكـم يوم اللقاء تعرفـوا مـا سرّكـم

قد قيل في الأمثال لـو علمـتم فـانتفعوا بـذاك إن عقلـتم

ما يزرع الزرّاع يومـاً يحـصده وما يقدم مـن صـلاح يحمـده

فاسـتغفروا ربّكـم وتوبـوا فالموت منكم فاعلموا قريـبُ

ثم نزل »[١].

هل هذا حديث سكير؟! أليس هذا حديث الفقيه الورع الذي يعتمد أركان الخطبة كافة من حمد وتـشهد وتـوحيـد وهـو مـصلح وموجـه ومنبـه إلى آخـرة وحساب، ومخوّف من جحيم ونيران ثـم يختمهـا بالاسـتغفار والتخويـف مـن

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٧ / ٦٨ - ٦٩ .

الموت. فهل هذا حديث سكران زنديق مجوسي فاسد، ليترك الحكم للمتلقي في ذلك.

وهو يطعن في موسى الهادي الخليفة العباسي، فيقول: « سألت الخيزران موسى الهادي أن يولي خاله العُطْريف اليمن، فوعدها بذلك ودافعها به، ثم كتبتْ إليه يوماً رقعةً تتنجزه فيها أمره، فوجه إليها برسولها يقول: خيِّريه بين اليمن وطلاق ابنته، أو مقامي عليها ولا أوليه اليمن، فأيهما اختار فعلته، فدخل الرسول إليها - ولم يكن فهم عنه ما قال - فأخبرها بغيره، ثم خرج إليه فقال: تقول لك: ولاية اليمن، فغضب وطلق ابنته وولاه اليمن، ودخل الرسول فأعلمه بذلك، فارتفع الصياح من داره، فقال: ما هذا؟ فقالوا: من دار بنت خالك، قال: أو لم تختر ذلك! قالوا: لا، ولكن الرسول لم يفهم ما قلت فأدى غيره، وعجلتَ بطلاقها، ثم ندم ودعا صالحاً صاحب المصلّى وقال له: أقم على رأس كل رجل بحضرتي من الندماء، رجلاً بسيف، فمن لم يطلّق امرأته منهم فلتضرب عنقه، ففعل ذلك، ولم يبرح من حضرته أحداً إلا وقد طلق امرأته، قال ابن البواب: وخرج الخدم إليّ فأخبروني بذلك وعلى الباب رجل واقف متلفع بطيلسانه يراوح بين رجليه، فخطر ببالي[1]:

خليليَّ من سعد ألـمّا فسلِّما　　على مريم لا يُبعِدِ الله مريما

---

(١) الخيزران: هي أم موسى الهادي والرشيد وكانت جارية فأعتقها وتزوجها وكانت وفاتها (١٧٣ هـ)، ينظر «تاريخ الأمم والرسل والملوك»، الطبري، ٤/ ٦٢٣، وينظر «البداية والنهاية»، ابن كثير، ١٠/ ١٦٣، وينظر «تاريخ الخلفاء»، السيوطي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ص ٢٤ .

وقولا لها: هـذا الفـراق عزمتـه   فهل من نـوال قبـل ذاك فـنعلما

وهو يطعن في عقل الرشيد، ويظهر سخافة مجلسه وقدرة الآخرين على الاستهزاء في حضرته، وكأنما هو سوقي. وفي روايته الخبر يحاول أن يقلد طريقة المحدثين، في قولهم أخبرني، حدثني، لكن بشكل غريب ينم عن استخفاف بعقل ووعي المتلقي، يقول:

«أخبرني علي بن صالح بن الهيثم قال: حدثني أحمد بن أبي فنن الشاعر، قال: حدثني من لا أحصي من الجلساء:

أن ربيعة الرأي كان لا يزال يعبث بالعباس بن محمد بحضرة الرشيد، العبث الذي يبلغ منه، منذ جرى بينهما في مديحه إياه ما جرى، من حيث لا يتعلق عليه فيه بشيء، فجاء العباس يوماً إلى الرشيد ببرنية فيها غالية، فوضعها بين يديه، ثم قال: هذه يا أمير المؤمنين غالية، صنعتها لك بيدي، اختير عنبرها من شجر عمان، ومسكها من مفاوز التبت، وبانها من قعر تهامة؛ فالفضائل كلها مجموعة فيها، والنعت يقصر عنها.

فاعترضه ربيعة، فقال: ما رأيت أعجب منك، ومن صفتك لهذه الغالية، عند من إليه كل موصوف يجلب، وفي سوقه ينفق، وبه إليه يتقرب، وما قدر غاليتك هذه، أعزك الله، حتى تبلغ في وصفها ما بلغت، أأجريت بها إليه نهراً، أم حملت إليه منها وقرا! إن تعظيمك هذا عند من تجبى إليه خزائن الأرض وأموالها من كل بلدة، وتذِل لهيبته جبابرة الملوك المطيعة والمخالفة، وتتحفه

بطرف بلدانها، وبدائع ممالكها، حتى كأنك فقت به على كل ما عنده، أو أبدعتَ له ما لا يعرفهُ، أو خصصته بها لما يحوه ملكه لا تخلو فيه من ضعف أو قصر همة، أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا جعلت حظي من كل جائزة وفائدة توصلها إلي مدة سنتي الغالية، حتى أتلقاها بحقها. فقال: ادفعوها إليه، فدفِعت إليه فأدخل يده فيها وأخرج ملئها وحل سراويله، وأدخل يده فطلى بها إسته، وأخذ حفنة أخرى، وطلى بها ... [1]، وأخرج حفنتين، فجعلهما تحت إبطيه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، مر غلامي أن يدخل إليّ، فقال: أدخلوه إليه وهو يضحك، فأدخلوه إليه فدفع إليه البرنية غير مختومة، وقال: اذهب إلى جاريتي فلانة بهذه البرنية، وقل لها: طيبي بها.. [2] وإبطيكِ، حتى أجيء الساعة .. [3]، فأخذها الغلام ومضى وضحك الرشيد حتى غُشي عليه، وكاد العباس يموت غيظاً، ثم قام فانصرف، وأمر الرشيد لربيعة بثلاثين ألف درهم»[4].

ويظهره بمظهر المستهزئ بآيات الله ورسله، فقد قال -تعالى-:﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[5] بينما يروي عنه فينقل عن: « شارية الكبرى مولاة إبراهيم المهدي قالت: سمعتُ مولاي إبراهيم بن

---

(١) عبارات قبيحة فاحشة .

(٢) عبارات قبيحة فاحشة .

(٣) عبارات قبيحة فاحشة .

(٤) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٦ / ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٥) النحل/ ١٢٠.

المهدي يحدّث قال :

كنتُ بين يدَي الرشيد جالساً على طرف حراقة من حراقاته وهو يريد الموصل وقد بلغنا السودقانية، والمدّادون يمدون السفن، والشطرنج بيني وبينه، والدّست متوجه له، إذ أطرق هُنيْهةً ثم قال لي: يابن أمِّ، ما أحسن الأسماء عندك؟ قلت: محمد اسم رسول الله ﷺ. قال: ثم أي شيء بعده؟ قلت: هارون اسم أمير المؤمنين. قال: فما أسمج الأسماء؟ قلتُ: إبراهيم، فزجرني ثم قال: ويحك! أتقول هذا! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن! فقلت له: بشؤم هذا الاسم لقي من نمرود ما لقي وطرح في النار. قال: فإبراهيم ابن النبي ﷺ؟ فقلت: لا جرم إنه لم يعمر من أجله. قال: فإبراهيم الإمام؟ قلت: بحرفة اسمه قتله مروان في حرّان. وأزيدك يا أمير المؤمنين: إبراهيم بن الوليد خُلع، وإبراهيم بن عبد الله بن حسن قتل، وعمه ابراهيم بن حسن سقط عليه السجن فمات، وما رأيتُ والله أحداً يُسمى بهذا الإسم إلا قُتِل أو نُكِب أو رأيته مضروباً أو مقذوفاً أو مظلوماً. ثم ما انقضى الكلام حتى سمعت ملاحاً يصيح بآخر: مدّ يا إبراهيم يا عاضّ ... [1] أمه مدّ. فقلتُ له: أبقيَ لك شيئاً بعد هذا؟! ليس والله في الدنيا اسم أشأم من إبراهيم والسلام. فضحكَ والله حتى أشفقتُ عليه»[2].

ومن الجرأة على الخليفة هارون الرشيد عن الأصمعي أنه قال:

---

(١) كلمة فاحشة .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ١٦٢ - ١٦٤ .

« بعثتْ إليّ أم جعفر أن أمير المؤمنين قد لهج بذكر هذا الجارية عنان، فإن صرفته عنها فلك حكمك. قال: فكنتُ أريغُ لأن أجد للقول فيها موضعاً، فلا أجده، ولا أقدم عليه هيبة له، إذ دخلتُ يوماً فرأيت في وجهه أثر الغضب، فانخزلتُ، فقال: ما لكَ يا أصمعي؟ قلتُ: رأيتُ في وجه أمير المؤمنين الغضب، فلعن الله من أغضبه! فقال: هذا الناطفي والله، لولا أني لم أجرْ في حكم قط متعمّداً لجعلتُ على كل جبلٍ منه قطعة، وما لي في جاريته أربٌ غير الشعر، فذكرت رسالة أم جعفر، فقلت له: أجل والله ما فيها غير الشعر، أفيسر أمير المؤمنين أن يجامع الفرزدق؟ فضحك حتى استلقى، واتصل قولي بأم جعفر فأجزلتْ لي الجائزة »[1].

ومن التلاعب بالخلفاء وإظهارهم بمظهر لا يليق بهم، على ما عرف عنهم من علم وحكمة، يروي الأصفهاني أن محمد بن الجهم البرمكي، قال له المأمون يوماً: « يا محمد: أنشدني بيتاً من المديح جيداً فاخراً عربياً لمحدث حتى أوليك كورة تختارها، قال: قلتُ قول علي بن الخليل:

فمع السماءِ فروعُ نبعتهم ... ومع الحضيض منابتُ الغرسِ
متهللين على أسرّتهم ... ولدى الهياج مصاعبُ شمسِ

فقال: أحسنت، وقد وليتك الدِّينور، فأنشدني بيت هجاء على هذه الصفة حتى أوّليك كورةً أخرى فقلتُ: قول الذي يقول:

(١) المصدر نفسه ٢٣ / ٩٨ .

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقُبح المخبرِ

فقال : قد أحسنت، قد وليتك همذان، فأنشدني على هذا حتى أزيدك كورة أخرى، فقلت: قول الذي يقول :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّهِ فطيبُ تراب القبرِ دل على القبرِ

فقال: قد أحسنت، قد وليتك نهاوند، فأنشدني بيتاً من الغزل على هذا الشرط حتى أوليك كورةً أخرى ، فقلت: قول الذي يقول:

تعاليْ نجدِّد دارس العلم بيننا كلانا على طول الجفاء ملومُ

فقال: قد أحسنت، قد جعلت الخيار إليك فاختر، فاخترت السوس من كور الأهواز، فولاني ذلك أجمع. ووجّهت إلى السوس بعض أهلي »[1].

أي خليفة هذا الذي يولي الكور ببعض أبيات الشعر ، وهل يصل الخليفة إلى الإستخفاف بأمر المسلمين إلى هذه الدرجة؟!! ويشترك معه صاحب «العقد الفريد» بالاستخفاف بالمأمون فيقول :

« ادعى رجلٌ النبوة في أيام المأمون، فقال ليحيى بن أكثم: امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ وإلى دعواه. فركبنا متنكرين، ومعنا خادم حتى صرنا اليه، وكان مستتراً بمذهبه. فخرج آذنه قال: من أنتما؟ فقلنا: رجلان يريدان أن يُسلما على يديه. فأُذِن لهما ودخلا. فجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٤ / ١٧٧ / ١٧٨ .

يساره. فالتفت إليه المأمون فقال له: إلى من بُعثت؟ قال: إلى الناس كافة. قال: فيُوحَى إليك، أم ترى في المنام، أم يُنفث في قلبك، أم تُناجى، أم تُكلّم؟ قال: بل أُناجى وأُكلم. قال: ومن يأتيك بذلك؟ قال: جبريل. قال: فمتى كان عندك؟ قال: قبل أن تأتيني بساعة. قال :

فما أوحى أليك؟ قال: أوحى إلي أنه سيدخل عليّ رجلان فيجلس أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فالذي عن يساري أَلْوَطُ خلق الله. قال المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله. وخرجَا يتضاحكان »[1].

ويظهر الاستخفاف بعقل المتوكل، ففي حديثه عن أبي العبر، يقول: « وكان المتوكل يرمي به في المنجنيق إلى الماء وعليه قميص حرير، فإذا علا في الهواء صاح: الطريق الطريق، ثم يقع في الماء ، فتفرحه السبّاح، قال: وكان المتوكل يجلسه على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة، ثم يطرح الشبكة، فيُخرجه كما يخرج السمك »[2].

والأغرب من ذلك قوله:

« كان المتوكل قد ولى ابن الكلبي[3] البريد، وأحلفه بالطلاق ألا يكتمه شيئاً

---

(١) «العقد الفريد» ابن عبد ربه الأندلسي، ٦ / ١٥٢.

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٣ / ٢١٠.

(٣) ذكرت ترجمة ابن الكلبي وهو متروك لكذبه ، وهو مؤلف كتاب «المثالب في الطعن على العرب» ينظر ص١٣٥ من الكتاب .

من أمر الناس جميعاً ولا من أمره هو في نفسه. فكتب إليه يوماً أن امرأته خرجت مع حبّتها في نزهة، وأن حبّتها عربدت عليها فجرحتها في صدغها. فقرأه ابراهيم بن العباس على المتوكل ثم قال له: يا أمير المؤمنين قد صحّف[1] ابن الكلبي، إنما هو: «جرحتْها في سُرمها»، فضحك المتوكل وقال: صدقت. ما أظن القصة إلا هكذا. قال: ولم يكن ابن الكلبي هذا من العرب، إنما كان أبوه يُلقَّب «كلب الرحل» فقيل له الكلبي »[2].

غير أن الذهبي يصفه بالقول « استخلف المتوكل، فأظهر السُنّة، وتكلم بها في مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة وبسط السُّنّة ونصر أهلها »[3] ثم يقول: «وفي سنة ٢٣٤ أظهر المتوكل السُّنَّة، وزجر عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الأمصار، واستقدم المحدّثين إلى سامراء، وأجزل صلاتهم»[4].

وكان المتوكل محبّباً إلى رعيته، قائماً في نصرة أهل السنة، وقد شبهه، بعضهم بالصدِّيق في قتل أهل الردة؛ لأنه نصر الحق، ورده عليهم حتى رجعوا إلى

---

(١) صحّف: والتصحيف: هو تغيير في نقط الحروف أو حركاتها، مع بقاء صورة الخط، ينظر «تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل»، د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، ص ٢٥٨.

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠/ ٦٨.

(٣) «سير أعلام النبلاء»، ١٢/ ٣١ .

(٤) المصدر نفسه ١٢/ ٣٤.

الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية، وقد أظهر السُّنَّة بعد البدعة، وأخمد أهل البدع، وبدعتهم بعد انتشارهاواشتهارها، فرحمه الله، وقد رآه بعضهم في المنام، بعد موته؛ وهو جالس في نور قال: فقلت: المتوكل؟ قال: المتوكل، قلتُ، فما فعل بك ربّك؟ قال: غفر لي، قلتُ: بماذا؟ قال: بقليل من السُّنّة أحييتها»[1] «وقال ابن عساكر من «تاريخه»، وحدّث عن أبيه المعتصم ويحيى ابن أكثم القاضي، وروى عنه ابن الجهم الشاعر، وهشام بن عمار الدمشقي»[2].

الخلفاء والخمر

الخمر؛ تلك الآفة التي حرمها الإسلام بقوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]. فهي آية صريحة في تحريمه، غير أن منهج الأصفهاني في الطعن في الخلفاء يأبى إلا أن يحملهم كل موبقة ويرميهم بشواظٍ من نار كلمات، تحرق منجزاتهم، وتلهبُ حسناتهم، فهو يختار أكثر الخلفاء ورعاً ومعرفةً بالله وبحرماته فيقول:

---

(١) «البداية والنهاية» ابن كثير، ١٠ / ٣٥١ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ / ٣٥٠ .

(٣) المائدة / ٩٠.

« قال رجل لأبي عمرو: يا عجباً للأخطل! نصراني كافر يهجو المسلمين! فقال أبو عمرو: يا لُكع! لقد كان الأخطل يجيء وعليه جبّة خزٍّ وحرز خزٍّ، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنفضُ لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن » (١).

ولكن لننظر ما خاطب به الخليفة عبد الملك بن مروان الأخطل، ويتعجب من شرب الخمر، فيقول:

«ودخل الأخطل على عبد الملك بن مروان، فاستنشده؛ فقال: قد يبس حلقي، فمُر من يسقيني. فقال: اسقوه ماء. فقال: شراب الحمار، وهو عندنا كثير. قال: فاسقوه لبناً. قال: عن اللبن فُطمت. قال: فاسقوه عسلاً. قال شراب المريض. قال: فتريد ماذا؟ قال: خمراً يا أمير المؤمنين. قال: أوَعَهِدتني أسقي الخمر لا أمَّ لك! لولا حُرمتك بنا لفعلتُ بك وفعلت! ».

وهو في الطعن في الخلفاء، يبرقع الوليد ببرقعٍ لم يزل يلبسه إياه، فيقول: «أخبرني الحسن بن علي قال حدّثنا أحمد بن الحارث الخرّاز؛ وأخبرني أحمد بن عبد العزيز قال: حدثنا عمر بن شبّة عن المدائني عن جويرية بنت أسماء المنهال بن عبد الملك عن إسحاق بن أيوب كلّهم عن أبي الزبير المنذر بن عمرو قال: وكان كاتباً للوليد بن يزيد قال:

أرسل إليّ الوليد صبيحة اليوم الذي أتته في الخلافة فأتيته؛ فقال لي: يا أبا

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٨ / ٣١٠.

الزبير، ما أتت عليّ ليلة أطول من هذه الليلة، عرضتني أمور وحدثتُ عبد الله: إن الله لم يجعل قبر أبيك معاذاً للظالمين، فخذه بردِّ ما في يديه من مال الله؛ فقال: صدقت، وأخذهما فبعث بهما إلى يوسف بن عمر ، وكتب إليه أن يبسط عليهما العذاب حتى يتلفا، ففعل ذلك بهما وماتا جميعاً في العذاب بعد أن أقيم إبراهيم ابن هشام للناس حتى اقتضوا منه المظالم؟

وقال عمر بن شبّة في خبره: إنه لَـمَّا نُعي له هشام قال: والله لأتلقينّ هذه النعمة بسكرة قبل الظهر؛ ثم أنشأ يقول :

طاب يومي ولذَّ شرب السُّلافة إذ أتاني نعي من بالرصافَه

وأتانا البريد ينعى هشاماً وأتانَا بخاتم للخلافَه

فأصبحنا من خمر عانة صرفاً ولَهَوْنا بقينةٍ عزّافَه

ثم حلف ألا يبرح موضعه حتى يغني في هذا الشعر ويشرب عليه؛ فغُني له فيه وشرب وسكر، ثم دخل فبويع له بالخلافة »[1].

أما الرشيد، فنقلاً عن إسحاق، الذي يقول:

« كنت مع الرشيد حين خرج إلى الرقة، فدخل يوماً إلى النساء، وخرجتُ فمضيتُ إلى تل عزاز، فنزلتُ عند خمارة هناك فسقتْني شراباً لم أرَ مثله حسناً وطيباً طيب رائحة في بيتٍ مرشوش وريحانٍ غضّ، وبرزتْ بنت لها كأنها خوط بانٍ أو جدل عنان، لم أرَ أحسن منها قدًّا، ولا أسْيَل خدًّا، ولا أعتق وجهاً، ولا

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٧/ ٢٢٠ ٢٢١ .

أبرع ظرفاً، ولا أفتن طرفاً، ولا أحس كلاماً، ولا أتمّ تماماً، فأقمت عندها ثلاثاً والرشيد يطلبني فلا يقدر عليّ، ثم انصرفتُ فذهبتْ بي رسله، فدخلت عليه وهو غضبان، فلما رأيته خطرْتُ في مشيتي ورقصتُ، وكانت فيّ فضلةٌ من السُّكر، وغنيتُّ:

إن قلبي بالتلِّ تلِّ عزازِ[1] عند ظبي من الظباء الجوازي
شادنٍ يسكن الشام وفيه مع دلّ العراق ظرفُ الحجازِ
يا لقومي لِبنت قسٍّ أصابتْ منك صفو الهوى وليست تجازي
حلفتْ بالمسيح أن تنجز الوعـ ـدَ وليستْ تجود بالإنجازِ

«الغناء» لأسحاق خفيف رمل بالوسطى عن عمرو بن بانة.

قال إسحاق: فسكن غضبه، ثم قال لي: أين كنت؟ فأخبرتُه فضحك وقال: إن مثل هذا إذا اتفق لطيِّب، أعد غناءك، فأعدته، فأعجب به، وأمرني أن أعيده ليلةً من أولها إلى آخرها؛ وأخذها المغنّون مني جميعاً وشربنا إلى طلوع الفجر، ثم انصرفنا، فصليت الصبح ونمت، فما استقررنا حتى أتى إليّ رسول الرشيد فأمرني بالحضور، فركبت ومضيت، فلما دخلت وجدتُ ابن جامع قد طرح نفسه يتمرغ على دكان في الدار لغلبة السُّكر عليه، ثم قال: أتدري لم دُعينا؟

---

(١) عَزاز: يفتح أوله، وربما قيل بالزاي في أولها، والعزاز الأرض الصليبية، وهي بليدة فيها قلعة شمالي حلب وبينهما يوم، وقال الأصفهاني إنها بالرقة، ينظر «معجم البلدان»، ياقوت الحموي، ٤ / ١١٨.

فقلتُ: لا والله، قال: لكني أدري، دُعينا بسبب نصرانيتك ...[١]، عليك وعليها لعنة الله، فضحكتُ. فلما دخلتُ على الرشيد أخبرتُه بالقصة، فضحكَ وقال: صدَق، عودوا فيه فإني اشتقت إلى ما كنا فيه لما فارقتموني؛ فعدنا فيه يومنا كله حتى انصرفنا[٢].

لا ندري إلى ما نطمئن، هل إلى شرب الخمر، وارتياده إلى أماكن المجون؟ أم إلى صلاته الفجر؟ وهو سكران غارق في الفجور، بينما الخالق -تعالى- قد نهى المسلمين جميعاً عن الاقتراب من الصلاة مع السُّكر، قال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[٣].

ثم إن المجلس قد صور الرشيد؛ ذاك الخليفة الذي أرعب الروم وجعلهم يدفعون الجزية، والذي ملك نصف العالم القديم. نراه في هذا الخبر وأمثاله سفيهاً يعاقر الخمر ولا يفارق المغنين والعابثين، ويصرخ بشكل لا يليق بأمثاله بأنه لا يستطيع مفارقة هذه الحثالة التي قد وصفها الخبر. وكيف تُدار دولة بحجم دولة الخلافة الإسلامية - في عهد الرشيد - مِن قِبَل سكّير ينام ويصحو على الخمر والغناء، وفي خبر سكره يقول العلامة ابن خلدون:

«وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر، واقتران سُكره بسكر

(١) كلمة فاحشة .

(٢) ينظر : «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ٣٨٣ ٣٨٥ .

(٣) النساء، ٤٣.

الندمان فـ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[١] . وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها! حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مئة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً. ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢] وقال: والله ما أدري لمَ؟ فما تمالك الرشيد أن ضحك، ثم التفت إليه مغضباً، وقال: يا ابن أبي مريم، في الصلاة أيضاً؟ إياك إياك والقرآن والدين، ولكَ ما شئت بعدهما.

وأيضاً: فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك، ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بَعيد زمن، إنما خلفه غلاماً. وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف «الموطّأ»: « يا أبا عبد الله! إنه لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتني الخلافة، فضع أنت للناس كتاباً

(١) يوسف / ١٥ .

(٢) يس / ٢٢ .

ينتفعون به، تجنّب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر، ووطئه للناس توطئة». قال مالك : فوالله لقد علمني التصنيف يومئذٍ.

ولقد أدرك ابن المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوماً وهو بمجلسه يباشر الخياطين في أرقاع الخلقان من ثياب عياله، فاستنكف المهدي من ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين! عليَّ كسوة هذه العيال عامَنا هذا من عطائي، فقال له: لك ذلك ولم يصدّه عنه ، ولا سمح بالإنفاق من أموال المسلمين. فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبويه وما رُبّي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته، والتخلُّق بها، أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها؟ وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة، ولم يكن الكرْم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم، والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب.

وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أُحضِر له السمك في مادته فحماه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح: خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجاً وعلى الثالثة خمراً صرفاً وقال في الأول والثاني: هذا طعام يا أمير المؤمنين، إن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه وقال في الثالث: هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها

إلى صاحب المائدة حتى إذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ وأحضر الثلاثة الأقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وانماع وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما فكانت له في ذلك معذرة وتبيّن من ذلك أن حالة الرشيد في اجتناب الخمر معروفة عند بطانته وأهل مائدته. ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع. وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم، لِمَا كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد. فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر، وعن الحلية إلى الحرمة؟ »[١].

ويقول ابن خلدون:

« وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك حال الرشيد. وشرابهم إنما كان النبيذ، ولم يكن محظوراً عندهم. وأما السُّكر فليس من شأنهم، وصحابته للمأمون إنما كانت في خلة في الدين. ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت. ونُقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويتلمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم. وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعاً. فأين هذا

---

(١) «المقدمة» ابن خلدون، ص٢٥ ٢٧ .

من المعاقرة؟ »[١].

بينما يروى عن صاحب «الأغاني» فيقول:

« أخبرني محمد قال: حدثنا حماد قال: حدثني أحمد بن صدقة قال:

دخلت على المأمون في يوم السعانين، وبين يديه عشرون وصيفة، جلباً وروميات مزنّرات، قد تزيَّن بالديباج الرومي وعلقن في أعناقهن صلبان ذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون، فقال لي المأمون: ويلك يا أحمد! قد قلت في هؤلاء أبياتاً فغنني فيها.

ثم أنشدني قوله:

ظبــاءٌ كالـدنانير ... مـلاح في المقاصـير

جلاهـن السعانين ... علينـا في الزنـانير

وقـد زرفـن أصـداغاً ... كأذنـاب الزرازيـر

وأقـبلن بأوسـاطٍ ... كأوسـاط الزنـابير

فحفظتها وغنيته فيها فلم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص من الدستبند[٢] إلى الإيلا حتى سكر فأمر لي بألف »[٣].

ويروي عن جعفر ابن المأمون يقول:

---

(١) المكان نفسه .

(٢) كلمة فارسية.

(٣) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٢ / ٢١٧.

« حدثني عمي والحسن بن علي قالا: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني ابن عن جعفر بن المأمون قال:

دخل إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي على أبي وهو يشرب، فأمره بالجلوس فجلس، وأمر له بشراب فشرب، وزاد في الشرب فسكر وعربد، فأخذ علي بن صالح صاحب المصلى بيده، فأخرجه فلما أصبح كتب إلى أبي [1]:

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ... ولو لم يكن ذنب لما عُرف العفو
ثملتُ فأبدتْ مني الكاس بعض ما ... كرهتُ وما أن يستوي السكر والصحو
ولولا حميا الكأس كان احتمال ما ... بدهتُ به لا شك فيه هو السرو
ولا سيما إذا كنتُ عند خليفة ... وفي مجلس ما أن يجوز به اللغو
تنصلت من ذنبي تنصل ضارع ... إلى من لديه يُغفرُ العمد والسهو
فإن تعفُ عني تُلْفِ خطوي واسعاً ... وإلا يكن عفو فقد قصر الخطو

الخلفاء والغناء

إن إبراز مظهر ألبسه الخلفاء هو علاقتهم بالغناء ، فالمتابع لتلك العلاقة يجد مدى الإغراق الشديد الذي ابتلى به هؤلاء الخلفاء وهو ابتلاء أصابهم ، فما عادوا مستمعين ، بل أصبحوا مغنين وملحنين .

فالأصفهاني مثلاً لم يدع خليفةً عابداً زاهداً ؛ قد أجمع على فضله وحسن

---

(١) المصدر نفسه ٢٠ / ٢٦٩.

عبادته ، وسمته الورع ، ليبتدئ به مغنياً وملحناً ، بل يطرح غناءه على النساء؛ فيروي عن علية بنت المهدي :

« قالت: حدثتني عاتكة بنت شهدة عن أمها شهدة عن كردم طرح علي عمر بن عبد العزيز لحنه :

علق القلب سعادَا   عادت القلب فعادَا

كلما عوتِب فيها   أو نهي عنها تمادَى

وهو مشغوف بسعدى   قد عصى فيها وزادَا

ويدع الأحلام تروي الأشعار والألحان فكأنما عجز عن تسويق أكاذيبه الرخيصة على هؤلاء القمم ، فاستعان بالأحلام على ذلك يروي عن أحمد بن الحسين فيقول :

رأيت عمر بن عبد العزيز في النوم وعليه عمامة ورأيت الشجة في وجهه تدل على أنها ضربة حافرٍ ، فسمعته يقول : قال عمر بن الخطاب : لا تعلموا نساءكم الخلع . قال حدثني محمد بن بن الحسن فأقبلت عليه في نومي فقلت له: يا أمير المؤمنين ، صوت يزعم الناس أنك صنعته في شعر جرير :

ألمَّا صاحبي نزر سعادا   لو شك فراقها وذرا البعادا

لعمرك إن نفع سعاد عني   لمصروف ونفعي عن سعادا

إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى   ومروان الذي رفع العمادا

فتبّسم عمر ولم يرد عليّ شيئاً[(١)].

هل يا تُرى يحكم على الأشخاص بمثل هذه الأحكام بوساطة حلم لا نعلم حقيقته ليتهم علمٌ رفع راية المسلمين، وأبدع منهجاً ورعاً في الحياة؛ غدا رمزاً لكل الشرفاء.

« وممن غنّى منهم الوليد بن يزيد.

وله أصوات صنعها مشهورةً وقد كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز.

أخبرني الحسن بن علي قال: حدثني محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني عبد الله بن أبي سعد عن القطراني عن محمد بن جبر قال: حدثني من سمع خالد صامة يقول: كنت يوماً عند الوليد بن يزيد وأنا أغنيه:

أراني الله يا سلمى حياتي

وهو يشرب حتى سكر. ثم قال لي: هات العود، فدفعته إليه فغناه أحسن غناء فنفست عليه إحسانه ودعوت بطبل فجعلت أوقع عليه وهو يضرب حتى دفع العود وأخذ الطبل فجعل يُوقع به أحسن إيقاع، ثم دعا بدف فأخذه ومشى به وجعل يغني أهزاج طويس حتى قلت قد عاش ثم جلس وقد انبهر فقلت: يا سيدي! كنت أرى أنك تأخذ عنا ونحن الآن نحتاج إلى الأخذ عنك! فقال: اسكُت ويلك!

---

(١) «الأغاني» أبو فرج الأصفهاني، ٩ / ٢٩٠، ٢٩١.

فوالله لئن سمع هذا منك أحد ما دمت حيًّا لأقتلنّك. فوالله ما حكيته عنه حتى قتل»[١].

والغناء هو أقل ما اتهم به هذا الخليفة، فلم تبقَ مثلبة وموبقة إلا وعلقت به، وهو هنا لم يكن ملحنا مشهوراً فقط، بل غدا طبّالاً وهزّاجاً وراقصاً وزمّاراً!!!

فبأي خلافة يتحكم؟ وبأي دين يحكم؟ وهل من طاعةٍ لمن خُلقهُ بهذا الشكل؟!!

ومن أخبار عبد الله بن العباس الربيعي، أنه قال:

« أحضرت فوقفت بين يدي الرشيد وأنا أرعد فاستدْناني حتى صرت أقرب من الجماعة إليه ومازحني وأقبل عليّ وسكن مني، وأمر جدّي بالانصراف وأمر الجماعة فحدثوني، وسُقيت أقداحاً وغنى المغنون جميعاً، فأومأ إليّ إسحاق الموصلي بعينه أن أبدأ فغنِّ إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تؤمر بذلك، ليكون ذلك أصلح وأجود بك، فلما جاءت النوبة إليّ أخذت عوداً ممن كان إلى جنبي وقمت قائماً واستأذنت في الغناء فضحك الرشيد وقال: غنِّ جالساً فجلستُ وغنيت لحني الأول فطرب واستعاده ثلاث مرات، وشرب عليه ثلاثة أنصاف، ثم غنيتُ الثاني، فكانت هذه حاله وسكر فدعا بمسرور فقال له: احمِل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوباً من فاخر ثيابي، وعيبةً مملوءة طيباً، فحمل ذلك أجمع معي »[٢].

(١) المصدر نفسه ٩ / ٣١٤.

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩ / ٢٣٩ .

والرشيد الخليفة العباسي، لا يستمع إلى الغناء وحسب، بل ويرقص على نغمات أخته عليّة بنت المهدي في مظهر غريب، لا ينتمي إلى أبهة الخلافة فضلاً عن انتمائه إلى الإسلام، إذ أن الأصفهاني يروي عن محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ونحن نعلم ما فعله الرشيد في البرامكة؟ يقول محمد بن جعفر ابن يحيى بن خالد البرمكي:

« شهدتُ أبي جعفراً وأنا صغيرٌ وهو يحدّث يحيى بن خالد جدّي في بعض ما كان يخبره به من خلواته مع الرشيد، قال: يا أبت! أخذ بيدي أمير المؤمنين ثم أقبل على حجرة يخترقها حتى انتهى إلى حجرة مغلقة ففُتحت له ثم رجع من كان معنا من الخدم ثم صرنا إلى حجرة مغلقة ففتحها بيده ودخلنا جميعاً وأغلقها من داخلٍ بيده، ثم صرنا إلى رواق ففتحه وفي صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس، فنقر هارون بيده الباب نقرات فسمعنا حساً، ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثةً فغنّتْ جارية ما ظننت والله أن الله خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب. فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتاً: غنّي صوتي، فغنّت صوته، وهو:

ومخنثٍ شهد الزفافَ وقبله　　غنَّى الجواريَ حاسراً ومُنقبا
لبس الدّلال وقام يَنقُر دُفه　　نقراً أقرّ به العُيونَ وأطرْبا
إنَّ النساء رأينه فعشقنه　　فشكونَ شدة ما بِهِنّ فأكذَبا

في هذا اللحن الخفيف رمل نسبه يحيى المكّي إلى ابن سريج ولم يصح له،

وفيه خفيفُ ثقيل في كتاب علية أنه لها، وذكر عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزيّات أنه لريق.

ثم قال غنّي:

طال تكذيبي وتصديقي

فغنتْ:

طال تكذيبي وتصديقي لم أَجِد عَهداً لمخلوقِ
إنّ أناساً في الهَوى أحدثوا نَقض المواثيقِ
لا تراني بعدهم أبداً أشتكي عِشقاً لمعشوقِ

لحنُ عُليّة في هذا الصوت هزج، والشعر لأبي جعفر محمد بن حُميد الطوسي وله فيه لحن خفيف ثقيل، ولعريب فيه ثقيل أول وخفيف آخر. قال: فرقص الرشيد ورقصتُ معه، ثم قال: امضِ بنا فإني أخاف أن يبدو منا ما هو أكثر من هذا، فمضينا، فلما صرنا إلى الدهليز قال وهو قابض على يدي: أعرفتَ هذه المرأة؟ قال: قلت: لا يا أمير المؤمنين. قال: فإني أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا اخبرك أنها عُليّة بنت المهدي. ووالله لئن لفظتَ به بين يدي أحدٍ ويبلغني لأقتلنك. قال: فسمعتُ جدّي يقول له: فقد والله لفظتَ به، ووالله ليقتلنك! فاصنع ما أنت صانع»[1].

الأغرب في الخبر أنه يُرجع نكبة البرامكة ، ومقتل جعفر بن يحيى البرمكي

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ٢١٧ - ٢١٩.

إلى فضح عُلية المغنية، وكأنما الخلافة بين كأس وغانية، فقد تحوّل بيت الخلافة في عهد الرشيد وأبنائه إلى دار طرب وغناء واستماع، فبيت الخلافة ما بين مدرس غناء ومغنٍ ومستمع، وهو يروي عن أبي أحمد بن الرشيد فيقول:

« كنتُ يوماً بحضرة المأمون وهو يشرب، فدعا بياسر وأدخله فسارّه بشيء ومضى وعاد، فقام المأمون وقال لي: قم، فدخل دار الحُرم ودخلتُ معه فضحك ثم قال هذه عمتك عُليّة تطارح عمك إبراهيم:

ما لي لا أرى الأبصار جافيةً

□ نسبة الأصوات:

ما لي لا أرى الأبصار جافيةً	**لم تلتفِتْ منِّي إلى ناحيهْ**
لا ينظُر الناسُ إلى المُبتلى	**وإنما الناسُ مع العَافيهْ**
وقد جافاني ظالماً سيّدي	**فادمعي منهلةً هاميهْ**
صَحبي سَلُوا ربّكم العافيه	**فقد دهتني بعدكُم داهيهْ**

الشعر والغناء لعُليّة بنت المهدي خفيف رملٍ، وأخبرني ذكاء وجه الرزة أن لعريب فيه خفيف رمل آخر مزموراً، وأن لحن عليه مُطّلق » (١).

والعائلة المغنية ترد في أخبار آخر مع الأمين، عن ابن ابراهيم بن المهدي عن منصور ابن المهدي أنه قال:

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ١٣٠ ، ١٣١.

« أنه كان عند أبي في يوم كانت عليه فيه نوبة لمحمد الأمين، فتشاغل أبي بالشرب في بيته ولم يمضِ وأرسل إليه عدة رسل فتأخر. قال منصور: فلما كان من غدٍ قال: ينبغي أن تعمل على الرّواح إليّ لنمضي إلى أمير المؤمنين فنترضاه؛ فما أشكّ في غضبه عليّ. ففعلتُ ومضينا. فسألنا عن خبره فأُعلمنا أنه مشرف على حيْر الوحش وهو مخمور، وكان من عادته ألا يشرب إذا لحقه الخُمار فدخلنا؛ وكان طريقنا على حجرة تُصنع فيها الملاهي. فقال لي أخي: اذهب فاختر منها عوداً ترضاه، وأصلحه غاية الإصلاح حتى لا تحتاج إلى تغييره البتة عند الضرب، ففعلت وجعلته في كمّي. ودخلنا على الأمين وظهره إلينا. فلما بَصُرنا به من بعيد قال: أخرِج عودكَ فأخرجتُه، واندفع يغنّي:

وكأسٌ شربتُ على لذة ... وأخرى تداويتُ منها بها

لكي يعلم الناس أني امرؤ ... أتيتُ الفُتوة من بابها

وشاهِدُنا الجُلُّ والياسَمـ ... ـينُ والمُسْمَعاتُ بقُصابها

وبربطنا دائمٌ مُعملٌ ... فأيُّ الثلاثة أزرى بها

فاستوى الأمين جالساً وطرب طرباً شديداً وقال: أحسنت والله يا عم وأحييت لي طرباً ، ودعا برطل فشربه على الريق وامتد في شربه. قال منصور: وغنى إبراهيم يومئذٍ على أشد طبقة يُتناهى إليها في العود، وما سمعتُ مثل غنائه يومئذٍ قط. ولقد رأيتُ منها شيئاً عجيباً لو حُدِّثت به ما صدّقت، كان إذا ابتدأ يغني أصغتِ الوحشُ إليه ومدت أعناقها، ولم تزل تدنو منّا حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنا، وجعل الأمين يعجب من ذلك، وانصرفنا

من الجوائز بما لم ننصرف بمثله قط »[1].

الخليفة المخمور، يدير الدولة، وهو يصحو على خمرٍ وغناء، بعد أن نام مخموراً، فمتى تسير أمور دولة من أعظم دول الأرض قاطبةً وأعظم دولة في وقتها، إن عظمة الدولة الإسلامية في بدايات العصر العباسي لا يمكن أن تدار من قبل مخمورين عابثين ينامون ويصحون على الخمر. إن المشاهد لتصلح أن تكون مشاهد خيالية للأفلام المتحركة، أو القصص الخرافية.

وأخباره وأخبار المسعودي في «المروج» تخالف الطبائع الإنسانية، وما جبل عليه الإنسان من خوفٍ على حياته في الملمات، واللجوء إلى الله -تعالى- في الشدائد، وكأنما يخبر عن أناس عاشوا حياةً في كوكب آخر ؛ لا يتمون بطبائعهم إلى عالمنا، يقول المسعودي:

« وحدث يوسف بن إبراهيم الكاتب قال: حدثني أبو اسحاق إبراهيم بن المهدي قال: بعث إليّ الأمين محمد، وهو محاصر، فصرت إليه؛ فإذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة، وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في جوف الطارمة (وهي قبة كان اتخذ لها فراشاً مبطناً بأبدع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الأبرسيم).

فسلمت فإذا قدامه قدح بلور مخروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال، وبين يدي سليمان قدح مثله.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ١٣٦ ، ١٣٧ .

فجلست بإزاء سليمان، فأتيت بقدحٍ كالأول والثاني.

قال: فقال: إنما بُعثتُ إليكما لما بلغني قدوم طاهر بن حسين إلى النهروان، وما قد صنع في أمرنا من المكروه، وقابلنا به من الإساءة، فدعوتكما لا فرّج الله بكما وبحديثكما. فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح، ودعا بجارية من خواص جواريه تُسمى ضعفاً.

قال: فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال، فقال لها: غنينا، فوضعت العود في حجرها وغنت: [من الطويل]

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً وأكثر حزماً منك ضُرِّج بالدم

فتطيّر من قولها، ثم قال لها: اسكتي قبّحك الله، ثم عاد إلى ما كان عليه من الغم والإقطاب فأقبلنا نحادثه ونبسطه؛ إلى أن سلا وضحك.

ثم أقبل عليها وقال لها: هاتِ ما عندكِ.

فغنتْ: [من الطويل]

هم قتلوه كي يكونوا مكانَه كما غدرتْ يوماً بكسرى مرازبه

فأسكتَها وزأرها وعاد إلى الحالة الأولى، فسلّيناه حتى عاد إلى الضحك، فأقبل عليها الثالثة فقال: غنّي.

فغنتْ: [من الطويل]

كأن لم يكن بين الحجون[1] إلى الصفا أنيسٌ ولم يسر بمكة سامرُ

---

(١) الحجون: جبل بأعالي مكة عنده مدافن أهلها، قال السكري: مكان من البيت على ميل ونصف، وقال السهلي: على فرسخ وثلث، ينظر «معجم البلدان»، ياقوت الحموي، ٢/ ٢٢٥.

بـلى نحـن كنـا أهلهـا فأبادنـا   صروف الليـالي والجـدود العـواثرُ

وقيل: بل غنت: [من المنسرح]

أما ورب السكون والحـركِ   إن المنايـا كثـيرة الـشُدكِ

فقال لها: قومي عني فعل الله بكِ كذا وكـذا وصـنع بـكِ، فقامـت فعثـرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته، فانهرق الشراب، وكانت ليلة قمراء، ونحن على شاطئ دجلة في قصره المعروف بالخلد.

فسمعنا قائلاً يقول: « قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان».

قال ابن المهدي: فقمتُ وقد وثب، فسمعتُ منشداً من ناحية القصر ينـشد هذين البيتين: [من مجزوء الكامل]

لا تعجـبنَّ مـن العجـبْ   قد جاء ما يقـضي العجب

قـد جـاء أمـرٌ فـادحٌ   فيـه لـذي عجـبٍ عجـبْ

قال: فما قعدنا معه بعدها إلى أن قتل »[1].

و «كان الواثق أعلم الخلفاء بالغنـاء، وبلغـت صـنعته مئة صـوتٍ، وكـان أحذق مَن غنى بضرب العود. قال: ثم ذكرها فعدَّ منها:

يفـرح النـاسُ بالـسماع وأبكـي   أنـا حُزنـاً إذا سـمعتُ الـسماعا

---

(١) «مـروج الـذهب ومعـادن الجـوهر» المـسعودي، ٣/ ٤٧٨ - ٤٨٠، وينظـر «الأغاني»، أبو الفـرج الأصـفهاني، ٥/ ١٦٥ - ١٦٦، مـع اخـتلاف في الأبيـات الـشعرية المروية في الحادثة، وهذا ما يخل بصدقيتها.

ولهـا في الفـؤادِ صـدعٌ مقـيمٌ   مثل صَدعُ الزجاجِ أعيا الصناعا

الشعر للعباس بن الأحنف. والغناء للواثق خفيف ثقيل »[١].

لكنه يتعمق في الطعن فيه، ولا يُرضيه أن يكون ملحناً وهو خليفة، فيقول :

« كان الواثق يلاعب حسين بن الضحّاك بالنرد وخاقانُ غلام الواثق واقفٌ على رأسه، وكان الواثق يتحظاه، فجعل يلعب وينظر إليه. ثم قال للحسين بن الضحّاك: إن قلتَ الساعة شعراً يشبه ما في نفسي وهبتُ لك ما تفرحُ به. فقال الحسين:

أحبك حبًّا شـابه بنـصيحةٍ   أبٌ لكَ مأمونٌ عليك شفيقُ

وأُقسِمُ ما بيني وبينَك قُربـةٌ   ولكنَّ قَلبي بالحِسَان عُلـوقُ

فضحك الواثق وقال: أصبتَ ما في نفسي وأحسنت. وصنع الواثق فيه لحناً، وأمر لحسين بألفي دينار. لحن الواثق في هذين البيتين من الثقيل الأول بالوسطى »[٢].

« والمعتز الخليفة العباسي هو أيضاً يجمع الخمر مع النساء مع الغناء فقد اصطبح المعتز في يوم ثلاثاء ونحن بين يديه ثم وثب فدخل، واعترضته جارية كان يحبها ولم يكن ذلك اليوم من أيامها فقبّلها وخرج، فحدثني بما كان وأنشدني لنفسه في ذلك:

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٩ / ٣٣٤.

(٢) المصدرنفسه، ٧ / ٢٢٠.

إنّي قمرتك يا سؤلي ويا أملي أمراً مُطاعاً بلا مطلٍ ولا عللِ
حتى متى يا حبيب النفس تمطلني وقد قمرتك مراتٍ فلم تفِ لي
يوم الثلاثاء يومٌ سوف اشكرهُ إذ زارني فيه من أهوى على عجلِ
فلم أنلْ منه شيئاً غير قبلتهِ وكان ذلك عندي أعظَم النفلِ

قال: وعُمِل فيه لحن خفيف وشربنا عليه سائر يومنا. الغناء في هذه الأبيات لعَرِيبَ رملٌ عن الهاشمي. ولأبي العُبيس في الثالث والرابع هَزَجٌ »[١].

«كنا عند ابن المعتز يوماً وعنده نشر وكان يحبها ويهيم بها، فخرجتْ علينا من صدر البستان في زمن الربيع، وعليها غلالة معصفرة وفي يديها جنّابى باكورة باقلاً. فقالت له: يا سيّدي تلعب معي جنّابى. فالتفت إلينا وقال على بديهته غير متوقفٍ ولا مفكّر:

فديتُ مَن مر يمشي في معصفرةٍ عَشيةً فسقاني ثم حَيّاني
وقال تلعبُ جنّابى فقلتُ له من جاد بالوصلِ لم يلعب بهُجرانِ

وأمر فغني فيه. غنّتْ فيما أرى فيه هزارُ لحناً، وهو رمل مطلق »[٢].

والمعتضد من المحسنين المجودين أيضاً، بل هو على وفق ما يدعيه الأصفهاني أحسن من القدامى والمحدثين في بعض الألحان.

« حدّثني محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثني عبيد الله بن عبد الله بن

---

(١) المصدر نفسه، ١٠ / ٣٦١ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ٣٢٨ .

طاهر أن المعتضد بعث اليه – لما صنعت جاريته شاجي اللحن الذي يجمع النغم العشر – بظبي وحبيب جاريتي أخيه سليمان بن عبد الله بن طاهر حتى أخذتا اللحن عنه ونقلتاه إليه وألقتاه على جواريه. قال: ولم يزل يُراسلني مع عبد الله ابن أحمد بن حمدون في أمر النغم العشر ويسألني عنها وأشرحها له، حتى فهمها جيداً وجمعها في صوت صنعه في شعر دُريد بن الصمة :

يا ليتني فيها جذع　　　أحب فيها واضع

وألقاه عليهما حتى أدتاه إليّ مستعلماً بذلك هل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا، فعرَّفته صحته ودللته على ذلك حتى تيقنه فسُرَّ بذلك، وهو لَعمري من جيد الصنعة ونادرها. وقد صنع المعتضد ألحاناً في عدة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمُحدثين وعارضهم بصنعته فأحسن وشاكل وضاهى، فلم يعجز ولا قصر ولا أتى بشيءٍ يُعتذر منه. فمن ذلك أنه صنع في:

أما القطاةُ فإنِّي سوف أنعتها　　　نَعتاً يوافق نعتي بعض ما فيها

لحناً من الثقيل الأول بالبنصر في نهاية الجودة، سمعت إبراهيم بن القاسم ابن زرزور يغنيه فكان من أحسن ما صنع في هذا الصوت على كثرة الصنعة فيه واشتراك القدماء والمحدثين في صنعته مثل معبد ونشيطٍ ومالك »[١].

إن المنهج واضح من أخبار «الأغاني» و«المروج»، فيبدو أن اتهام مجمل الخلفاء بالغناء ما بين استماع ، وأداء هو مطعن ؛ حاولوا من خلاله أن يبينوا

(١) المصدر نفسه ١٠ / ٤٨، ٤٩ .

سفاهة هؤلاء الخلفاء، وتضييعهم لأمر دينهم وأمر دولتهم.

والغريب فيما أورداه، أو في بعض ما أورداه أن الأبيات الشعرية المختارة هي أبيات من بحور مثل الطويل والمتقارب والبسيط، وهذه الأوزان لا تتلاءم مع الغناء، فالغناء تلائمه الأوزان الخفيفة والمجزوءة، إذ تلتقي موسيقى الشعر مع الغناء في التالي:

إن الأوزان الخفيفة والمجزوءة تناسب الغناء لابتعادها عن الرتابة في التكرار بين الأوتاد والأسباب، فالتكرار يوحي بالملل والضجر، بينما كان العصر العباسي عصر ملاءمات وتناسق وتوازن يختلف عما كان عليه العصر الجاهلي. فلو أخذنا البحر الطويل لوجدنا أسبابه وأوتاده تترتب على النحور التالي:

ولو أخذنا البحر المتقارب لوجدنا الرتابة ذاتها:

تتن تن　　　تنن تن تن　　تنن تن　　　تـنن تـن تـن

وتد سبب　　وتـد سـبب　　وتد سـبب　　وتـد سـبب

فهذه الرتابة المكررة أشبه بوقع الطبول في الحرب.

ويتفق الغناء مع موسيقى الشعر في الزمن، فالبحور التامة أبطأ من البحور المجزوءة في الزمن المستغرق في إيقاعه »[1].

---

(١) «مجلة كلية الإمام الأعظم» العدد الأول، السنة الأولى، ٢٠٠٥م، التجديد في أنساق البناء الشعري في العصر العباسي الأول. د. يوسف طارق، ص٤٠٣ - ٤٠٤.

مدح البرامكة

إن المنهجية الواضحة التي مرّتْ، والتي ظهر فيها الطعن المستمر، والترصد الواضح لعيوب مجتمعية، وإنزالها منزلة الثوابت من حيث طغيان القليل الخاص على الكثير العام، كذا النيل من رموز تلقتها الأجيال بالإعجاب والاقتداء، يقابله مدح وثناء وإعجاب بالفرس ومن مثلهم في الدولة الإسلامية، ويبدو أن أشهر من مثلهم (البرامكة)؛ لذا وجدنا منهجيتَي المسعودي والأصفهاني، قد اجتمعتا على مدح الفرس وبيان فضلهم وعلمهم، وورعهم وتقواهم وخوفهم من المعاصي والخطايا، حتى ليدعي المسعودي أن الفرس كانوا يحجّون إلى البيت الحرام قبل الإسلام، يقول:

« وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به، تعظيماً له، ولجدها إبراهيم عليه السلام وتمسكاً بهديه، وحفظاً لأنسابها.

وكان آخِر مَن حج منهم ساسان بن بابك وهو جد اردشير بن بابك. وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه كرجوع ملوك المروانية إلى مروان ابن الحكم، وخلفاء العباسيِّين إلى العباس بن عبد المطلب. ولم يَلِ الفرس الثانية أحد إلا ولد أردشير بن بابك هذا فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر اسماعيل، فقيل: إنما سميت زمزم [1] لزمزمته عليها وغيره من فارس.

---

(١) زمزم: قال أبو اسحاق الحربي: سميت زمزم لتزمزم الماء فيها وهي حركته. ينظر «معجم ما استعجم»، عبد الله بن عبد العزيز أبو عبيد، تحقيق، مصطفى السقا، ٢ / ٧٠١،

وهذا يدل على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البئر، وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان: [من السريع] [(١)]

زمزمتِ الفُرْسُ على زَمْزَمٍ   وذاكَ من سَالِفِها الأقْدَم

والأصفهاني يحاول أن يَفصِل الدين عن الدولة، فيُنزّه قُباذ بن فيروز ملك الفرس عن المزدكية فيروي قصة غريبة، يقول :

«ولما ملك قُباذ بن فيروز خرج في أيام ملكه رجل يُقال له مزدك فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم وألا يمنع أحد منهم أخاه ما يريده من ذلك. وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملاً على الحيرة ونواحيها. فدعاه قباذ إلى الدخول معه فأبى. فدعا الحارث بن عمرو فأجابه، فشدّد له مُلكه واطرد المنذر عن مملكته وغلب على ملكه. وكانت أم أنُو شروان بين يدي قباذ يوماً، فدخل عليه مزدك. فلما رأى أُمَّ أنُو شِروان قال لقباذ: ادفعها لي لأقضي حاجتي منها؛ فقال: دونكها. فوثب إليه أنو شروان فلم يزل يسأله ويضرع إليه أن يهب له أمه حتى قبّل رجله فتركها له؛ فكانت تلك في نفسه. فهلك قباذ على تلك الحال، وملك أنوشروان فجلس في مجلس المُلك. وبلغ المنذر هلاك قباذ فأقبل إلى أنوشروان وقد علم خلافه على أبيه فيما كانوا دخلوا فيه. فأذن أنوشروان

وزمزم في اللغة العربية تعني: الماء الغزير، يقال: زمزم الرجل الماء؛ أي: شربه جرعة جرعة. ينظر «القاموس الإسلامي»، أحمد عطية الله، ٣ / ٨١.

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ١ / ٢٤٩.

للناس، فدخل عليه مزدك ثم دخل عليه المنذر. فقال أنوشروان: إني كنت تمنّيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما لي. فقال مزدك: وما هما أيها الملك؟ قال: تمنّيت أمنيتين أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف -يعني: المنذر- وأن أقتل هؤلاء الزنادقة. فقال له مزدك: أَوَتستطيع أن تقتل الناس كلهم؟! قال: إنك لها هنا يابن الزانية! والله ما ذهب نتن ريح جوربك من أنفي منذ قبّلت رجلك إلى يومي هذا ! وأمر به فقُتل وصُلب، وأمر بقتل الزنادقة فقتل منهم ما بين جازر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة مئة ألف زنديق وصلبهم، وسُمِّي يومئذٍ أنوشروان»[1] ، وهم يحفظون أحسابهم وأنسابهم ، يقول :

وملوك الفرس عنصر « تتزوج إلى سائر من جاورها من ملوك الأمم ولا تزوجها، لأنهم أحرار وأنجاد، وللفرس في هذا خطب طويل كفعل قريش وتركها السنن وتحمسها. فكانوا يقفون بمزدلفة، وهو يوم الحج الأكبر ، ويقولون: نحن الحمس »[2].

« والأكثر من أبناء الملوك وأعقاب الطبقات الأربع بسواد العراق إلى الآن يتدارسون أنسابهم ويحفظون أحسابهم كحفظ العرب من قحطان ونزار، ولا خلاف فيما ذكرنا عند ذوي الدراية بما وصفنا »[3].

(١) «الأغاني» ٩ / ٩٦.

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي، ١ / ٢٨٥.

(٣) المصدر نفسه ١ / ٢٩٥.

ويُنسب إليهم كلاماً هو كلام إسلامي، وليس للعرب أن يقولوه ولا للفرس أن يفهموه، ففيه من أخلاق الإسلام الكثير، يقول المسعودي :

« قال الموبذان: أيها الملك السعيد جدّه، ان الملك لا يتم عزّه إلا بالشريعة والقيام لله -تعالى- بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة الا بالملك، ولا عز للملك الا بالرجال، ولا قوام للرجال الا بالمال، ولا سبيل للمال الا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة الا بالعدل، والعدل والميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قيماً وهو الملك »[1]. وينقل أيضاً قول أردشير:

« من أردشير بن بهمن ملك الملوك، إلى الكتاب الذين بهم تدبير المملكة، والفقهاء الذين هم عماد الدين، والأساورة الذين هم حماة الحرب، والى الحراث الذين هم عمرة البلاد:

سلام عليكم؛ نحن بحمد الله صالحون، وقد رفعنا إتاوتنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا ورحمتنا، ونحن كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحقد فيكم فيدهمكم العدو ، ولا تحبوا الاحتكار فيشملكم القحط، وكونوا لأبناء السبيل مأوى ترووا غدا في المعاد، وتزوجوا في الأقارب فإنه أمس للرحم وأقرب للنسب، ولا تركنوا للدنيا فإنها لا تدوم لأحد، ولا تهتموا لها فلن يكن إلا ما شاء الله، ولا ترفضوها مع ذلك، فإن الآخرة لا تُنال إلا بها»[2] .

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٦١.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٥٧.

يقول القاضي أبو حامد المروروذي: « لو كانت الفضائل كلها بعقدها وسمطها ونظمها ونثرها مجموعة للفرس ، ومصبوبة على رؤوسهم، ومعلقة بآذانهم وطالعة من جباههم لكان لا يذكروا شأنها ، وأن يخرسوا عن دقها وجلها مع [تحليلهم] (١) الأمهات والأخوات والبنات فإن هذا شيء كريه بالطباع، وضعيف بالسماع، ومردود عن كل ذي فطرةٍ سليمة، ومستبشع في نفس كل من له جبلة معتدلة، قال: ومن تمام طغيانهم، شدةُ بهتانهم أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله -جل جلاله- وبشريعة أتت من عند الله، والله -عز وجل- حرم الخبائث من المطعومات فكيف حلل الخبائث من المنكوحات، وقال: كذب القوم لم يكن زرادشت نبيًّا » (٢).

وحينما يبدءان بذكر البرامكة، وهم من يمثل الفرس في المجتمع العربي الإسلامي، أو أبرز من يمثلهم، فإنهما يضفيان على البرامكة أعلى درجات السمو الأخلاقي. يقول المسعودي:

« لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر ابن يحيى في كتابته وفصاحته ولا محمد بن يحيى في سروره وبُعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه، وفيمن ذكرنا يقول أبو الغول الشاعر : [من المنسرح]

---

(١) كلمة قبيحة، تم إبدالها .

(٢) «الإمتاع والمؤانسة» أبو حيان التوحيدي، ص٨٥.

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعةٌ سَيّدٌ ومتبوعُ
الخيرُ فيهم إذا سألت بهم مفَرّقٌ فيهم ومَجموعُ

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزرَ البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه »[١].

والأصفهاني غالباً ما ينقل أقوال الشعراء فيهم، وفي تلك الأشعار المتنوعة يضفي عليهم صفات العظمة من كرم وشجاعة ومروءة ونخوة، فعن محمد بن يزيد النحوي أنه قال: حُدثتُ من غير وجه: أن النصيب دخل على الفضل بن يحيى بن خالد مسلماً، فوجد عنده جماعة من الشعراء قد امتدحوه فهم ينشدونه، ويأمر لهم بالجوائز، ولم يكن امتدحه، ولا أعدّ له شيئاً، فلما فرغوا - وكان يروي قولاً في نفسه - استأذن في الإنشاد، ثم أنشد قصيدته في مدح الفضل[٢].

والبرمكي إذا تقارب سنّه أو باعدته السن فهو نجيبُ
خرق العطاء إذا استهل عطاؤه لا متبعٌ منا ولا محسوبُ
يا آل برمك ما رأينا مثلكم ما منكم إلا أغر وهوبُ
وإذا بدَا الفضل بن يحيى هبتُهُ لجلاله أن الجليل مهيبُ
قاد الجياد إلى العدا وكأنها رجل الجرادِ تسوقهن جنوبُ
قبا تباري في الأعنة شرباً تدعُ الحُزون كأنهن شهوبُ
من كل مضطرب العنان كأنه ذئب يبادره الفريسة ذيبُ

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٣ / ٤٥١.

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٣ / ١٥ ١٦.

تهـوي بكـل مغـاور عاداتـه صـدقُ اللقـاء فـما لـه تكـذيبُ
حتى صبحن الطـالبي بعـارضٍ فيـه المنايـا تغتـدي وتـؤوبُ
خاف ابـن عبـد الله مـا خوّفتـه فجفـاك ثـم أتـاك وهـو منيـبُ
ولقـد رآك المـوت إلا أنـه بـالظن يخطـئ مـرة ويـصيبُ
فرمـى إليـكَ بنفسه فنجـا بهـا أجـلٌ إليـه ينتهـي مكتـوبُ
فكـسوته ثـوب الأمـان وأنـه لا حبلـه واهٍ ولا مقـضوبُ
شـمنا إليـك مخيلـةً لا خُلَّبـاً في الشيم إذ بعض البروق خلوبُ
إنـا عـلى ثقـةٍ وظـنٍ صـادقٍ ممّـا نؤملـه فلـيس نخيـبُ

وقصيدة أخرى في مدح الفضل وفيها:

إني سـأمتدحُ الفـضلَ الـذي حُنيـت منـا عليـه قُلـوبُ الـبرِّ والـضِّلعُ
جـادَ الربيـعُ الـذي كنـا نؤملـه فكلنـا بربيـع الفـضْل مرتَبـعُ
كانـت تطـول بنـا في الأرض نجعتُنـا فـاليوم عنـد أبي العبـاس ننتجـعُ
إن ضـاق مـذهبنا أو حـل سـاحتنا ضـنكٌ وأزْم فعنـد الفـضل متّـسعُ
ما سلم الله نفس الفـضل مـن تلـفٍ فـما أبـالي أقـام النـاس أم رجعـوا
إن يمنعـوا مـا حـوت منـا أكفّهـم فلـن يـضر أبـا الحجنـاء مـا منعـوا
أو حلّؤونـا وذادوا عـن حياضـهم يـوم الـشروع ففـي غـدرانك الـشرعُ
يـا ممـسكاً بعُـرى الـدنيا إذا خُـشيت منهـا الـزلالُ والأمـرُ الـذي يقـعُ
قـد ضرّسـتْكَ الليـالي وهـي خاليـةٌ وأحكمتـكَ النهـى والأزلم الجـذعُ

فغادرا منك حزناً عن معاسرةٍ سهل الجنابِ يسيراً حين يُتبعُ
لم يفتلتْكَ نقيراً عن مخادعةٍ دهْيُ الرجال وللسؤالِ تنخدعُ
فأنت مصطلحٌ بالملك تحمله كما أبوك بثقل الملك مضطلعُ

أما جعفر بن يحيى فقد اجتاز به الرقاشي الشاعر وهو على الجذع، فوقف يبكي أحر بكاء، ثم أنشأ يقول:

أما والله لولا خوف واشٍ وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لَطُفنا حول جِذعكَ واستلمنا كما للناس بالحجر استلامُ
فما أبصرتُ قبلك يا ابن يحيى حساماً قدّه السيفُ الحسامُ
على اللّذّات والدنيا جميعاً ودولة آل برمكٍ السلامُ

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره، فقال له: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، كان إليّ محسناً، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حركني إحسانه، فما ملكت نفسي حتى قلت الذي قلت. قال: وكم كان يُجري عليك؟ قال: ألف دينار في كل سنة. قال: فإنا قد أضعفناها لك»[1].

فمدحهم لم ينقطع حتى بعد وفاتهم.

الطعن في النساء الشريفات

إن الطعن في النساء العربيات هو أكثر المطاعن إيلاماً لما للحرم من مكانة

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٦ / ٢٦٥.

متميزة عند الله -تعالى-، وعند العرب الأقحاح. يقول الرسول ﷺ: « **ألا إن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه**»[1].

وهو يبدأ بطعنه في النساء العربيات من شريفات القوم في الجاهلية، يقول:

« إن الذي من أجله هرب النابغة من النعمان أنه كان والمنخل بن عبيد بن عامر اليشكُري جالسين عنده، وكان النعمان دميماً أبرش قبيح المنظر، وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب وكان يُرمى بالمتجردة زوجة النعمان، ويتحدث العرب أن ابني النعمان منها كانا من المنخل. فقال النعمان للنابغة: يا أبا امامة! صف المتجردة في شعرك؛ فقال قصيدته التي وصفها فيها ووصف بطنها وروادفها[2] فلحقت المنخل من ذلك غيرةٌ، فقال للنعمان: ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جربه. فوقر ذلك في نفس النعمان، وبلغ النابغة فهرب فصار في غسان »[3].

وفي حديثه عن مسافر بن أبي عمرو بن أمية ، قال :

وله شعر ليس بالكثير والأبيات التي فيها الغناء يقولها في هند بنت عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس ، وكان يهواها فخطبها إلى أبيها بعد فراقها الفاكه بن

(١) رواه البخاري «صحيح البخاري» كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٨، رقم الحديث ٥٢.

(٢) كلمة تدل على العورة، تم رفعها لقبحها .

(٣) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢١/ ١٧ .

المغيرة، فلم ترض ثروته وماله . فوفد على النعمان يستعينه على أمره ثم عاد؛ فكان أول من لقيه أبو سفيان فأعلمه بتزويجه من هند فأخبرني أحمد بن عبيد الله ابن عمار قال: حدثني عمرو بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: حدثني ابن أبي سلمة عن هشام ، قال ابن عمار: وقد حدثناه ابن أبي سعيد عن علي بن الصباح عن هشام قال ابن عمار: وحدثنيه علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن أبيه دخل حديث بعضهم في بعض :

أن مسافر بن أبي عمرو بن أمية كان من فتيان قريش جمالاً وشعراً وسخاء . قالوا: فعشق هذا ابنة عتبة بن ربيعة وعشقته؛ فأتاهم بها وحملت . قال بعض الرواة : فقال مروف بن خربوذ : فلمّا بان حملها أو كاد قالت له : أخرج فخرج حتى أتى الحيرة فأتى عمرو بن هند فكان ينادمه .

وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها، فلقي مسافراً، فسأله عن حال قريش والناس فأخبره وقال له فيما يقول : « وتزوجتُ هند بنت عتبة فدخله من ذلك ما اعتل معه حتى استقى بطنه قال ابن خربوذ: فقال مسافر في ذلك [1] :

ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً   وأصبحت من أدنى حموتها حَمَا

وأصبحت كالقمور جفن سلاحه   يقلب بالكفين قوساً وأسهُمَا

الخبر كما يبدو يخلط فيه الصادق والكاذب ، ولا يعلم مراده إلا بصعوبة

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني، ٩ / ٦٢، ٦٣ .

لتداخل الخبر ، مع ذلك فهو يطعن في هند بنت عتبة طعناً شديداً تأباه كل حرّة «وهي القائلة حين مبايعة النساء للرسول ﷺ ، بعد قوله ﷺ: «**ولا تزنين**» قالت هند: وهل تزني الحرة »[١] .

وإذا ما وجد وفاءاً نادراً، وأثرةً مميزة، مثلما فعلت زوجة هدبة، حينما خاطبها شعراً وهو يُساق إلى الموت، فقال:

فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعَا

وكوني حبيساً أو لأروع ماجدٍ إذا ضن أعشاش الرجال تبرعَا

فمالت زوجته إلى جزار وأخذت شفرته، فجدعت بها أنفها، وجاءته تدمي مجدوعة فقالتْ: أتخاف أن يكون بعد هذا نكاح؟ قال: فرسف في قيوده وقال: الآن طاب الموت.

وقال النوفلي عن أبيه:

إنها فعلت ذلك بحضرة مروان وقالتْ له: إن لهدبة عندي وديعة، فأمهله حتى آتيه بها، قال: أسرعي، فإن الناس قد كثروا وكان جلس لهم بارزاً عن داره فمضت إلى السوق فانتهت إلى قصاب وقالت: أعطني شفرتك وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك. ففعل، فقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها، ثم ردت الشفرة، وأقبلت حتى دخلت بين الناس وقالت: يا هدبة! أتراني متزوجة بعد ما ترى؟ قال: لا،

---

(١) ينظر «طبقات ابن سعد» الزهري ، ٨ / ٩ .

الآن طابت نفسي بعد بالموت، ثم خرج يرسف في قيوده فإذا هو بأبويه يتوقعان الثكل، فهما بسوء حال، فأقبل عليهما وقال :

أبليـاني اليَـوم صَـبراً مـنكما   إن حُزنـاً إن بـدَا بـادئُ شرّ
لا أراني اليـومَ إلّا ميتـاً   إنَّ بعـدَ المـوت دار المستقرّ
اصـبِرا اليـوم فـإني صـابرٌ   كـلُّ حـيٍّ لقـضاء وقـدرْ

ولكن زوجته تنكث بعهدها، قال النوفلي: فحدثني أبي قال:

حدثني رجل من عذرة عن أبيه قال: إني لببلادنا يوماً في بعض المياه، فإذا أنا بامرأة تمشي أمامي وهي مدبرة، ولها خلق عجيب من عجز وهيئة وتمام جسم وكمال قامة، فإذا صبيّان قد اكتنفاها يمشيان، قد ترعرعا، فتقدمتها، والتفتّ إليها فإذا هي أقبح منظر، واذا هي مجدوعة الأنف مقطوعة الشفتين، فسألت عنها فقيل لي: هذه امرأة هدبة تزوجت بعده رجلاً فأولدها هذين الصبيين »[1].

وهو حاول النيل من القيم الاجتماعية، ما يتعلّق بالنساء خاصة، إذ أنه أظهر النساء بصورة غريبة، إن قلنا عن الإسلام لا يكفي ، فهي غريبة عن أخلاق العربيات في عفتهن.

«أخرج ابن مسعود في طبقاته قال: أخبرنا عبد الله بن موسى: أخبرنا عمرو ابن أبي زائد، قال: سمعت الشعبي يذكر أن النساء حين بايعن فقال رسول الله ﷺ: «**تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئاً**» -فقالت هند: إنا لقائلوها «**ولا**

(١) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢١ / ٢٧٢، ٢٧٣.

تسرقن»-، قالت هند: قد كنت أصيب من مال أبي سفيان، قال أبو سفيان: فما أصبتِ من مالٍ فهو حلال لكِ، «ولا تزنين» قالت هند: وهل تزني الحرة؟»[1]، غير أن الأصفهاني والمسعودي قد حاولَا تمييع وإذابة هذه القيم لتشكيل صورة جديدة للمرأة العربية، بأن تكون لعوب، سهلة المنال، عابثة لا يقر لها قرار. هذه الصور النمطية للمرأة العربية نجد أعداءنا اليوم وهو يحاولون تسويقها في مقالاتهم وأفلامهم السينمائية وآرائهم التي يبثوها.

ونحن نجد الأصفهاني ينوع في طعونه، ما بين النساء المتزوجات، والفتيات الأبكار، يقول:

« كان إبراهيم بن سعدان يؤدب ولد علي بن هشام، وكان يغني بالعود تأدباً ولعباً، قال: فوجّه إليَّ يوماً علي بن هشام يدعوني، فدخلت فإذا بين يديه امرأة مكشوفة الرأس تلاعبه بالنرد، فرجعت عجلاً، فصاح بي: ادخل فدخلت، فإذا بين أيديهما نبيذ يشربان منه فقال: خذ عوداً وغنّ لنا ، ففعلت، ثم غنيت في وسط غنائي:

من الخفرات لم تَفْضَح أَباهَا ولم ترفع لأخوتِها شَنَارا

فوثبت من بين يديه وغطّت رأسها وقالت: إني أشهد الله أني تائبة إليه ولا أفضح أبي ولا أرفع لإخوتي شناراً. ففتر علي بن هشام ولم ينطق وخرجتْ من حضرته فقال لي: ويلك، من أين صبك الله عليّ؟ هذه مغنية بغداد، وأنا في طلبها

(١) «طبقات ابن سعد» الزهري، تحقيق إحسان عباس، ٨/ ٩.

منذ سنة لم أقدر عليها إلا اليوم، فجئتني بهذا الصوت حتى هربت. فقلت: والله ما اعتمدت مساءتك، ولكنه شيء خطر على غير تعمد »[1].

من وصف القصة فإن الفتاة شابة، لقول الشاعر (لم تفضح أباها ولم ترفع لأخوتها شناراً) وهي مكشوفة الرأس تجلس في خلوة وتشرب النبيذ وتلعب النرد؟!!

مع هذا كله فهي تخشى على أهلها من الفضيحة وهي تذهب وتعود من غير رقيب، وتعود إليهم ورائحة الخمر تفوح منها؟!!

أمّا المتزوجات فذكر الخائنات منهن كثير، يقول:

« كان توبة بن الحمير إذا أتى ليلى الأخيلية خرجت إليه في برقع، فلمّا شهر أمره شكوه إلى السلطان، فأباحهم دمه إن أتاهم، فمكثوا له في الموضوع الذي كان يلقاها فيه، فلمّا علمت به خرجت سافرةً حتى جلست في طريقه، فلما رآها سافرةً فطن لما أرادت وعلم أنه قد رصد وأنها سفرت لذلك تحذره فركض فرسه فنجا، وذلك قوله:

وكنتُ إذا ما جئتُ لَيلى تَبَرْقَعَت   فقد رابَني الغداةَ منها سفُورَهَا

قال أبو عبيدة: وحدثني غير أنيس أنه كان يكثر زيارتها، فعاتبه أخوها وقومها فلم يعتب، وشكوه إلى قومه فلم يقلع، فتظلموا منه إلى السلطان فأهدر

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٠/ ٤٠٢.

دمه إن أتاهم، وعلمت ليلى بذلك وجاءها زوجها وكان غيوراً فحلف لئن لم تعلمه بمجيئه ليتقلنها ، ولئن أنذرته بذلك ليقتلنها، قالت ليلى: وكنت أعرف الوجه الذي يجيئني منه. فرصدوه بموضع ورصدته بآخر، فلما أقبل لم أقدر على كلامه لليمين، فسفرت وألقيتُ البرقع عن رأسي، فلما رأى ذلك نكره فركب راحلته ومضى ففاتهم»[1].

هو يتحدث عن امرأة مشهورة من عائلة نبيلة، ويصف علاقتها وهي متزوجة برجل آخر غريب وكأنها هي علاقة لا تثير إلا القليل من ردود الفعل، وهو يصف زوجها بالغيور، وهو يصبر على خيانة زوجته.

ويُظهر تهتك المجتمع وابتعاده عن القيم الإسلامية، بل القيم الإنسانية، يقول:

«أخبرني الحرمي قال: حدثنا الزبير قال: حدثني عمي مصعب وغيره أن حُسينة اليسارية كانت جميلة – وآل يسار من موالي عثمان –رضوان الله عليه– ويسكنون تيماء، ولهم هناك عدد وجلد، وقد انتسبوا في كلب إلى يسار بن أبي هند فقبلهم بنو كلب– قال: وكانت عند رجل من قومها يُقال له : عيسى بن ابراهيم بن يسار، وكان ابن ميادة يزورها، وفيها يقول:

ستأتينا حُسَيْنة حيث شئنا   وإن رَغِمتْ أنوفُ بني يَسارِ

قال: فدخل عليها زوجها يوماً فوجد ابن ميادة عندها، فهمّ به هو وأهلها،

---

(١) المصدر نفسه ١١ / ٢١١.

فقاتلهم وعاونته عليهم حُسينة حتى أفلت ابن ميادة؛ فقال في ذلك [1]:

لقد ظلتْ تعاونني عليهم صموتُ الحِجْل كاظمةُ السّوارِ

وقد غادرتُ عيسى وهو كَلْبٌ يقطّعُ سَلْحَه خَلْفَ الجدارِ

يصور المجتمع بمنظور جديد بعيد عن القيم، فلا شرف مصون ، ولا رجل يستطيع أن يحمي أهله، ولا سلطان يروع ، وكأنما المجتمع أجمع قد انغمس في الحرام، فما عاد للخطيئة رادع، وكأنما الإسلام غائب فلا حدود لتلك الجنايات.

ويقول حدثنا أحمد بن الطيب السرخسي قال:

« كان علي بن أحمد بن بسطام المروزي - وهو ابن بنت شبيب بن واج وشبيب أحد النفر الذين سترهم المنصور خلف قبّته يوم قتل أبا مسلم وقال لهم: إذا صفقتُ فاخرجوا فاضربوه بسيوفكم. ففعل وفعلوا - فكان علي بن أحمد هذا يتعشق عبيدة الطنبورية وهو شاب وأنفق عليها مالاً جليلاً فكتبتُ إليه اسأله عن خبرها ومن هي؟ ومن أين خرجتْ؟ فكتب إليّ: كانت عبيدة بنت رجل يُقال له صباح مولى أبي السمراء الغسّاني، نديم عبد الله بن طاهر - وأبو السمراء أحد العدّة الذين وصلهم عبد الله بن طاهر في يوم واحد لكل رجل منهم مئة ألف دينار - وكان الزبيدي الطنبوري أخو نظم العمياء يختلف إلى أبي السمراء، وكان صباح صاحب أبي السمراء فكان الزبيدي إذا سار إلى أبي السمراء فلم يصادفه أقام عند صباح والد عبيدة وبات وشرب وغنى وانس

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢ / ٣١٩.

وكان لعُبيدة صوت حسن وطبع جيد فسمعت غناء الزبيدي فوقع في قلبها واشتهته وسمع الزبيدي صوتها وعرف طبعها فعلمها وواظب عليها، ومات أبوها ورقت حالها وقد حذقت الغناء على الطنبور فخرجت تغني وتقنع باليسير وكانت مليحة مقبولة خفيفة الروح فلم يزل أمرها يزيد حتى تقدمتْ وكبر حظها واشتهاها الناس وحلّت تِكتها وسمحت ورغب فيها الفتيان فكان أول من تعشقها علي بن الفرج الرخجي أخو عمر، وكان حسن الوجه كثير المال، فكنت أراها عنده، وكنا نتعاشر على الفروسية، ثم ولدت من علي بن الفرج بنتاً فحجبها لأجل ذلك، فكانت تحتال في الأوقات بعلة الحمام وغيرها، فتلم من كانت تودها ويودها، فكنتُ ممن تلم به وأنا حينئذٍ شاب ورثت عن أبي مالاً عظيماً وضياعاً جليلة، ثم ماتت بنتها من علي بن الفرج، وصادف ذلك نكبتهم واختلال حال علي بن الفرج، فطلقها فخرجت، فكانت تخرج بدينارين لليل، واعترت بأبي السمراء ونزلت في بعض دوره » [1].

وهذه امرأة خاملة مغنية قد تكون ابتذلت، إلا أن الغريب أن يتزوجها أحد الأغنياء، وينجب منها على ما في سيرتها التي ذكرها صاحب «الأغاني»!!!

مع الذي تقدم، فإن أبشع ما قام به صاحب «الأغاني»، هو طعنه في النساء الشريفات في المجتمع العربي الإسلامي، فقد كان يتخير أرقى بيوت قريش لينال منهم في نسائهم.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢٢/ ٢١٠.

الطعن في نساء آل البيت

قال الأصفهاني: أخبرني إسماعيل بن يونس الشيعي قال: حدثنا عمر بن شبّة قال: حدثني ابن أبي أيوب عن ابن عائشة المغني عن معبد:

إن خولة بنت منظور كانت عند الحسن بن علي عليهما السلام، فلما أسنّت مات عنها أو طلقها، فكشفت قناعها وبرزت للرجال. قال معبد: فأتيتها ذات يوم أطالبها بحاجة، فغنيتها لحني في شعرٍ قاله فيها بعض بني فزارة، وكان خطبها فلم يُنكحها أبوها:

قفا في دار خولة فاسألاها ... تقادم عهدُها وهجرتُماها
بمحلالٍ كأن المسك فيه ... إذا فاحت بأبطحِه صَباها
كأنك مُزنَة برقت بليلٍ ... لحرانٍ يضيءُ له سنَاها
فلم تمطر عليه وجاوزَته ... وقد أشفى عليها أو رجاها
وما يملأُ فؤادي فاعلميه ... سلُوُّ النفسِ عنكِ ولا غناها
وترعى حيث شاءت من حمانا ... وتمنعنا فلا نَرعى حِمَاها

قال : فطربتْ العجوز لذلك، وقالتْ: يا عبد بن قطن، أنا والله يومئذٍ أحسن من النار الموقدة في الليلة القرّة »[1].

ويتحدث على أم إسحاق بنت طلحة زوجة الحسين -رضوان الله عليه-

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٢/ ٢٣٠.

فيقول:

« كذلك نساء بني تيم هن أشرس خلق الله وأحظاه عند أزواجهن. وكانت عند الحسين بن عليّ -صلوات الله عليهما- أمُّ إسحاق بنتُ طلحة» (١).

أما سيدتنا سكينة بنت الحسين بن علي ابن أبي طالب -رضي ا لله عنها وعن أبيها وعن جدها- فقد نالت الكثير من الإفك والافتراء، والكيد الظاهر للعين الواعية وهي من أكثر نساء آل البيت ممن مُستْ في الأخبار؛ لأسباب كثيرة، يترك معرفتها لعقل المتلقي الواعي، خاصة إذا ما علمنا أنها من العرب الأقحاح.

فقد نسب إليها الأصفهاني كلمات فيها براءة من النبي ﷺ والإسلام، وقد عزل المأمون قاضيه لكلمات مثلها قالها في شبابه. يروي الأصفهاني نفسه، فيقول:

« أنشد أحدهم عند المأمون أبياتاً منها:

برئتُ من الإسلام إن كان ذا الذي أتاكِ به الواشون عنّي كما قالوا

ولكنهم لما رأوكِ غريّةً بهجري تواصوا بالنميمة واحتالوا

فقد صرتِ أذناً للوشاة سميعةً ينالون من عرضي وإن شئتِ ما نالوا

فقال له المأمون: من يقول هذا الشعر؟ فقال: قاضي دمشق. فأمر المأمون بإحضاره، فكتب إلى صاحب دمشق بأشخاصه فأشخص، وجلس المأمون

(١) المصدر نفسه ١١/ ١٨٠.

للشرب وأحضر علوية، ودعا بالقاضي فقال له: أنشدني قولك:

برئتُ من الإسلام إن كان ذا أتاك به الواشون عنّي كما قالوا

فقال له: يا أمير المؤمنين! هذه أبياتٌ قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبي، والذي أكرمك بالخلافة وورثك ميراث النبوة ما قلتُ شعراً منذ أكثر من عشرين سنة إلا في زهدٍ أو عتاب صديق. فقال له: اجلس فجلس، فناوله قدح نبيذ التمر أو الزبيب. فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرف شيئاً منها. فأخذ القدح من يده وقال: أما والله لو شربت شيئاً من هذا لضربت عنقك، وقد ظننتُ أنك صادق في قولك كله، ولكن لا يتولى لي القضاء رجلٌ بدأ في قوله بالبراءة من الإسلام، انصرفْ إلى منزلك. وأمر علوية فغيّر الكلمة وجعل مكانها: (حرمت مناي منكِ) »[1].

إن المأمون الخليفة العباسي الذي عاش في نهاية القرن الثاني، وتوفي في بداية القرن الثالث، رفض هذه الكلمات وعدّها مثلبة في القاضي، وإن كان قالها سفهاً وطيشاً في شبابه فكيف بسيدة عظيمة من آل بيت النبوة أن تتفوه بكلمات تشابهها لأمر فيه سفاهة وضعة؛ يروي الأصفهاني «أن ابن سريج نسك، ولزم المسجد الحرام، فلما نزل المدينة لم يأذن للمغنين بالجلوس، وبلغ ذلك سكينة بنت الحسين، فاغتمت اغتماماً شديداً وضاق به ذرعها، فدفعت أشعب ليقنعه بالغناء فردّها بقوله إنه زاهد ولا حيلة لي فيه فأمرت بعض جواريها فوطأت بطنه حتى كادت أن تخرج أمعاؤه وخنقته حتى كادت نفسه أن تتلف، عندها

---

(١) «الأغاني» ١١/ ٣٤١.

انصاع أشعب لأمرها وذهب إلى ابن سريج وقال: لئن لم تصر معي لأصرخن صرخة أخرى لا يبقى بالمدينة أحد إلا صار بالباب ثم لأفتحنه ولأرينهم ما أنت مشهوراً به، فمنعتك وخلصت الغلام من يدك حتى فتح الباب، ومضى ففعلت بي هذا غيظاً وتأسفاً، وإنك إنما أظهرت النسك والقراءة لتظفر بحاجتك منه، فجاء ابن سريج معه إلى سكينة، وبعد أن حدّثها عما فعله بابن سريج ضحكت سكينة وأكرمته، ثم قال ابن سريج: أتأذنين بأبي أنتِ؟ قالت: وأين؟ قال: اعتزلت، قالت: أبرئت من جدي إن برحت داري ثلاثاً وبرئت من جدي إن أنت لم تغن إن خرجت من داري شهراً وبرئت من جدي من حنثت من يميني أو شفعت فيك أحداً »[1]. ولا نقول إلا حسبها الله من هذا الكذب والافتراء.

الطعن في بنات الصحابة

تعد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتي اتهمن اتهامات عديدة في كتاب «الأغاني»، مع العلم أن عائشة بنت طلحة هي ابنة طلحة بن عبيد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق -رضوان الله عليه- وخالتها أم المؤمنين أمنا عائشة رضي الله عنها، وكانت الأشد شبهاً بعائشة -رضوان الله عليها- وقد نال الأصفهاني منها في كل موضع ولم يدع لها مكرمة إلا سلبها إياها. وهو في الخبر ينال منها مع مجموعة من شريفات قريش منهن

(١) ينظر «الأغاني» ١٧/ ٥٠.

عائشة بنت عثمان، وأم القاسم بنت زكريا بن طلحة، يقول:

أخبرني الحسين بن يحيى قال: قال حماد: قال أبي: حُدثت عن صالح بن حسان قال:

كان بالمدينة امرأة حسناء تُسمى عَزّة الميلاء يألفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساءٍ. فأتاها مصعب ابن الزبير وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر وسعيد بن العاص، فقالوا: إنا خطبنا فانظري لنا، فقالت لمصعب: يا ابن أبي عبد الله ومن خطبتَ؟ فقال: عائشة بنت طلحة. فقالت: فأنت يا ابن أبي أُحيحة؟ قال: عائشة بنت عثمان. قالت: فأنت يا ابن الصدّيق؟ قال: أم القاسم بنت زكريا بن طلحة. قالت: جارية هاتي منقلي -تعني: خفيها-، فلبستهما وخرجت معها خادم لها، فإذا هي بجماعة يزحم بعضهم بعضاً، فقالتْ: يا جارية انظُري ما هذا. فنظرتْ ثم رجعتْ فقالت: امرأة أُخذت مع رجل. فقالت: داءٌ قديم، امضِ ويلكِ. فبدأت بعائشة بنت طلحة فقالت: فديتك! كنا في مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمال النساء وخلقهن فذكروك، فلم أدر كيف أصفك فديتك. فألقي ثيابكِ، ففعلتْ فأقبلتْ وأدبرتْ فارتجّ كل شيء منها. فقالتْ لها عزّة: خُذي ثوبك فديتكِ. فقالت عائشة: قد قضيتُ حاجتكِ وبقيت حاجتي. قالت عزّة: وما هي بنفسي أنتِ؟ قالت: تغنيني. فقامت عائشة فقبّلت ما بين عينيها ودعتْ لها بعشرة أثواب وبطرائف من أنواع الفضة وغير ذلك، فدفعته إلى مولاتها فحملته. وأتت النسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهن، حتى أتتِ القوم في السقيفة. فقالوا: ما صنعتِ؟ فقالت: يا ابن أبي عبد الله، أما عائشة فلا والله إن رأيتُ

مثلها مقبلةً ومدبرةً، محطوطة المتنين، عظيمة العجيزة، ممتلئة الترائب، نقية الثغر وصفحة الوجه، فرعاء الشعر، لفّاء الفخذين، ممتلئة الصدر، وأما أنت يا ابن أبي أُحيحة فإنّي والله ما رأيتُ مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة قط، ليس فيها عيب ... وأمّا أنت يا ابن أبي أصبحة فإنّي والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة فقط، ليس فيها عيب »[1].

من هذه التي تصف النساء عند الرجال، وأيّ نساء؟ إنهن من أشرف بيوت مكة والرجال كذلك.

و«قال المدائني: وحدثني مَسْلمة بن محارب قال:

قالت رملة بنت عبد الله بن خلف - وكانت تحت عمر بن عبيد الله بن معمر، وقد ولدت منه ابنة طلحة الجود - لمولاة لعائشة بنت طلحة: أريني عائشة متجردة ولكِ ألفا درهم. فأخبرتْ عائشة بذلك. قالتْ: فإني أتجرد، فاعلميها ولا تعرّفيها أني أعلم. فقامت عائشة كأنها تغتسل، وأعلمتها فأشرفت عليها مقبلةً ومدبرةً، فأعطت رملة مولاتها ألفي درهم، وقالت: لوَدِدْت أني أعطيتك أربعة آلاف درهم ولم أرها »[2].

أين حرمة النساء في مثل هذه الأخبار؟ هل يتحدث عن نسوة والإسلام لم يغادرهن بعد؟ وهل مسلمة تعلم ولو قليلاً من مبادئ الإسلام أن تفعل مثل هذا الفعل؟ إنّهُ واللهِ الإفكُ والكذب والحقد هو الذي دفع الأصفهاني إلى

(١) «الأغاني »أبو الفرج الأصفهاني، ١١/ ١٨٢- ١٨٤.

(٢) المصدر نفسه ١١/ ١٩٠- ١٩١.

رسم هذه الصورة، بل هي نفسية مريضة تصور لها مثل هذه المظاهر التي يعلوها الخيال، ويجتث صدقها ضروب المحال.

ويتهمها اتهام باطل لا ينطق به مسلم حق، وهو ينال من سيّدة من سيدات الإسلام، يقول:

«كانت عائشة بنت طلحة من أشد الناس مغايظةً لأزواجها، وكانت تكون لمن يجي يحدثها في رقيق الثياب، فإذا قالوا: قد جاء الأمير ضمّت عليها مطرفها وقبطتْ. وكانت كثيراً ما تصف لعمر بن عبيد الله مصعباً وجماله، تغيظه بذلك فيكاد يموت»(١).

أين دينها؟ أين حسبها؟ أتضع نفسها موضع التهمة والشبهة؟ ألم تكن قد تربت على يد سيدتنا وأمنا عائشة -رضوان الله عليها-؟ أهذا فعل الشريفات في عصرنا، لتفعله تلك السيدة الجليلة؟!!

ويطعن في أخلاقها أيضاً:

«قال: نالت عائشة من مصعب وقالت: عليّ كظهر أميّ، وقعدتْ في غرفة وهيأت فيها ما يصلحها. فجهد مصعب أن تكلمه فأبت. فبعث إليها ابن قيس الرقيّات، فسألها كلامه، فقالت: كيف بيميني؟ فقال: ها هنا الشعبي فقيه أهل العراق فاستفتيه. فدخل عليها فأخبرتْه، فقال: ليس هذا بشيء. فقالت: أتحلّني

(١) المصدر نفسه ١١/ ٩٢.

وتخرج خائباً! فأمرت له بأربعة آلاف درهم وقال ابن قيس الرقيّات لما رآها[1]:

جنيةٌ بَرَزَت لتقتلنا   مطَلَيَةُ الأقرابِ بالمِسكِ

أيُّ خيال صنع هذه الرواية والروايات السابقة؟ فقد ازدحمت المشاهد بالأشخاص، فامرأة من أسمى بيوت مكة، ورجل ابن أحد المبشرين بالجنة، يتساءلان عن بدهية لا يغفلها الجهال من المسلمين، فهل لامرأة أن تظاهر زوجها؟! وكيف بها وهما يدخلان الشاعر ابن قيس الرقيّات بينهما؟ أليس لهما أهلٌ وأقرباء؟!!

إن القصة جميعها مدخولة مرتبكة النسيج، لا يمكن حملها إلا على الصنعة.

وقصة أغرب يوردها، فيقول:

« كان أشعب يألف مصعباً، فغضبت عليه عائشة بنت طلحة يوماً، وكانت من أحب الناس إليه، فشكا ذلك إلى أشعب. فقال: ما لي إن رضيتْ؟ قال: حُكمُك. قال: عشرة آلاف درهم. قال: هي لك. فانطلق حتى أتى عائشة فقال: جُعِلتُ فداءكِ! قد علمتِ حبي لكِ وميلي قديماً وحديثاً إليكِ من غير منالةٍ ولا فائدة. وهذه حاجة قد عرضتْ تقبلين بها حقي وترهنين بها شكري. قالت: وما عناك؟ قال: قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيتِ عنه. قالت: ويحك! لا يمكنني ذلك. قال: بأبي أنتِ فارضي عنه حتى يعطيني ثم عودي إلى ما عوّدك الله من سوء الخلق. فضحكتْ منه ورضيت عن مصعب.

---

(١) المصدر نفسه ١١/ ١٨٠- ١٨١.

وقد ذكر المدائني أن هذه القصة كانت لها مع عمر بن عبيد الله بن معمر، وأن الرسول إليها والمخاطب لها بهذه المخاطبة ابن أبي عتيق »[1].

الطعن في نساء الخلفاء

إن الخليفة بما يمثله من سلطة هو بمثابة الأب لأبنائه بل إنه ليغدو رمزاً، بسقوطه قد تسقط أمة كاملة بعده، وهو ما نشاهده اليوم، فقد تخلخلت حضارات كبيرة، واندثرت أمم، بسقوط قادتها وولاة أمورها.

ولا شك في أن الطعن في بيت الخلافة بما تمثله الخلافة من رمز، لهو طعن في القيم المجتمعية أجمع، لرغبة الفرد في أن يستحضر صورة نقية لولي الأمر وأهل بيته، من هنا دخل الطاعنون ليطعنوا في آل بيت الخلافة، ففي حديث الأصفهاني عن إحدى النساء الحائرات:

« وأنها أدخلتْ على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان - فقالت لها: أرأيتِ قول كثيِّر:

قضى كلُّ ذي دينٍ فوفّى غريمه وعـزّة ممطولٌ معنى غريُمها

ما هذا الذي ذكره؟ قالت: قبلةٌ وعدته إياها. قالت: أنجزيها وعليَّ إثمها»[2].

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١١/ ١٨١ - ١٨٢.

(٢) المصدر نفسه ٩ / ٣٦.

وعن السائب بن حكيم الدوسي، قال:

والله إني لأسير يوما مع كثيّر، حتى إذا كنا ببطن جدار (جبل من المدينة على أميال) إذ أنا بامرأةٍ في رحالة متنقبة، معها عبيد لها يسعون معها. فمرّتْ جنابي فسلمتْ وقالتْ: ممن الرجل؟ فقلت: من أهل الحجاز. قالت: فهل تروي لكثيّر شيئاً؟ قلت: نعم. قالت: أما والله ما كان بالمدينة من شيء هو أحب إليّ من أن أرى كثيراً وأسمع شعره، فهل تروي قصيدته:

أهاجك برقٌ آخر الليلِ واصبُ

قلت: نعم وأنشدتها حتى أتيت على قوله:

فلم أرَ مثل العين ضنّت بمائها   عليّ ولا مثلي على الدمع يَحسُدُ

قالت: قاتله الله! فهل قال مثل قول كثير أحدٌ على الأرض. والله لأن أكون رأيت كثيراً، سمعتَ من شعره أحب إليّ من مئة ألف درهم. قال: فقلت: هو ذاك الراكب أمامكِ، وأنا السائب راويته. قالت: حياك الله -تعالى-. ثم ركضت بغلتها حتى أدركته فقالت: أنت كثير؟ قال: مالك ويلك! فقالت: أنت الذي تقول:

إذا حُسرتْ عنه العمامة راعها   جميلُ المحيَّا أغفلَتْهُ الدّوَاهنُ

والله ما رأيت عربيًّا قط أقبح ولا أحقر ولا ألأم منك. قال: والله أنت أقبح مني وألأم. قالت له:

أو لستَ القائل :

إذا ضمرِيّة عطست ... [١] فإن عُطاسَها طرَفُ الوِدَاقِ

قال: من أنتِ؟ قالت: لا يضرّك أن لم تعرفني ولا من أنا. قال: والله إني لأراكِ لئيمة الأصل والعشيرة. قالت: حيّاك الله يا أبا صخر! ما كان بالمدينة رجل أحب إليّ وجهاً ولا لقاء منك. قال: لا حيّاكِ الله، والله ما كان على الأرض أحدٌ أبغض إليّ وجهاً منكِ. قالت: أتعرفني؟ قال: أعرف أنكِ لئيمة من اللئام. فتعرفتْ إليه فإذا هي غاضرة أمّ ولدٍ لبشر بن مروان. قال: وسايرها حتى سندنا في الجبل من قبل زرود. فقالت له: يا أبا صخر، أضمن لك مئة ألف درهم عند بشر بن مروان إن قدمتَ عليه. قال: أفي سبِّكِ إياي أو سبّي إياك تضمنين لي هذا؟ والله لا أخرج إلى العراق على هذه الحال! فلما قامت تودعه، سفرت، فإذا هي أحسن من رأيتُ من أهل الدنيا وجهاً. فأمرتْ له بعشرة آلاف درهم، فبعد شدٍّ ما قبلها وأمرتْ لي بخمسة آلاف درهم. فلما ولّوا قال: يا سائب! أين نُعنّي أنفسنا إلى عكرمة، انطلق بنا نأكل هذه حتى يأتينا الموت. قال: وذلك قوله لمّا فارقتنا:

شجا أظعان غاضِرةَ الغوادي بغير مشيئةٍ عرضاً فؤادي

وقد روى الزبير أيضاً في خبر هذه المرأة غير هذا، وخالف المعاني [٢].

إن سطر الخبر الأخير لَيوحي بكل الكذب السابق الذي قيل، فيقول: يروى الخبر مع مخالفة المعاني، وفي هذا كفاية لكل لبيب، لأن الذي سطّره الأصفهاني،

---

(١) كلمة قبيحة تدل على العلاقة المحرمة بين المرأة والرجل.

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٢/ ١١٥-١١٨ .

لا يقبله العقل ولا المنطق السليم لتسلسل الأشياء أو وقائعها.

« أما أم حكيم، فكانت منهومة بالشراب، مدمنة عليه، لا تكاد تفارقه. وكأسها الذي كانت تشرب فيه مشهور عند الناس إلى اليوم، وهو في خزائن الخلفاء حتى الآن، وفيه يقول الوليد بن يزيد:

علـلاني بعاتقـات الكـروم ... واسـقياني بكـأس أمِّ حكيـمِ

إنهـا تـشرب المدامـة صرفـاً ... في إنـاء مـن الزجـاجِ عَظـيمِ

جنّبـوني أذاةَ كـل لئـيم ... إنـه مـا علمـتُ شرُّ نـديمِ

ثـم إن كـان في النـدامى كـريمٌ ... فـأذيقوهُ مَـسّ بعـض النعـيمِ

ليت حظي من النساء سُليْمى ... إن سَـلماي جَنّتـي ونعيمـي

فـدعوني مـن الملامـة فيهـا ... إنّ مـن لامنـي لغـيرُ حلـيم

فيقال: إن هذا الشعر بلغ هشاماً، فقال لأم حكيم: أتفعلين ما ذكره الوليد؟ فقالت: أوَتصدق الفاسق في شيء، فتصدقه في هذا؟ قال: لا. قالت: فهو كبعض كذبه»[1].

امرأة خليفة، تشرب الخمر، بل هي منهومة به، والخليفة لا يعلم بذلك. إن ما يذكر في هذا الخبر لهو مخالف للسنن وما تعاهد وتعارف عليه الناس؛ فهل من الصواب أو من العقل أن نصدق أن إنساناً لا يعرف بشرب امرأته للخمر وهو خليفة المسلمين؟! فأين هو منها؟ وأين هي منه؟ ونحن نعلم أن للخمر

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٦/ ٢٩٨- ٢٩٩ .

رائحة، وذهاب عقل شاربه وغير ذلك من ظواهر لا تخفى على البعيد قبل القريب!!

وحين الانتقال إلى العصر العباسي، نجد المنهج نفسه في الطعن في نساء بيت الخلافة، فعن أحمد بن علي بن جعفر قال:

« حضرت مرة مجلساً وفيه ابن دقاق وفيه النصراني المعروف بأبي الجاموس اليعقوبي البزّاز قرابة بلال قال: فعبث ابن دقاق بأبي الجاموس فلما أكثر عليه قال: اسمعوا مني ثم حلف بالحنيفية أنه لا يكذب، وحدثنا قال: مضيت وأنا غلام مع أستاذي إلى باب حمدونة بنت الرشيد ومعنا بزّ نعرضه للبيع، فخرجت إلينا دقاق أم هذا تقاولنا في ثمن المتاع، وفي يدها مروحة على أحد وجهيها منقوشٌ: الحر إلى ... [1] أحوج من ... [2] إلى حرين، وعلى الوجه الآخر: كما أن الرّحا إلى بغلين أحوج من البغل إلى رحوين، قال: فأسكته والله سكوتاً علمنا معه أنه لو خرس لكان الخرس أصون لعرضه مما جرى » [3].

يظهر أن الخبر في دقاق وأن ابنها لو صمت لكان خيراً له، غير أن الخبر برمته لا يصب إلا في الطعن في ابنة الرشيد حمدونة، فأين من بنت خليفة مصونة في بيت أبيها، عزيزة في قصرها، أن تقبل بمثل هذا الإسفاف والقبح الخلقي؟!!

(١) كلمات تدل على عورة الرجل.

(٢) كلمات تدل على عورة الرجل.

(٣) المصدر نفسه ١٢/ ٣٣٠.

أما في أخبار العباسة، فيذكر المسعودي أن الرشيد قال لجعفر بن يحيى:

« ويحك يا جعفر! إنه ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس، ولا إليها أميل، وأنا بها أشد استماعاً وأنساً مني برؤيتك، وإن للعباسة أختي مني موقعاً ليس بدون ذلك، وقد نظرت في أمري معكما، فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها، وكذلك حكمي منك في يوم كوني معك دونها، وقد رأيت شيئاً يجتمع لي به السرور، وتتكاثف لي به اللذة والأنس.

فقال : وفقك الله يا أمير المؤمنين، وعزم لك على الرشد في أمورك كلها!

قال الرشيد: قد زوجتكما تزويجاً تملك به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه لا سوى ذلك.

فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه في ذلك، وأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه.

وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها، ولا يجلس معها، ولا يظلهُ سقف بيتٍ إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما. فحلف له جعفر على ذلك ورضي به وألزم نفسه.

وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التي وصفناها وجعفر في ذلك صارف بصره عنها مزوّر بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ووفاءً بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه.

وعلقته العباسة، وأضمرت الاحتيال عليه وكتبت إليه رقعة، فردَّ رسولها وشتمه وتهدّده، وعادت فعاد بمثل ذلك.

فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه، ولم تكن بالحازمة، فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك، حتى إذا ظنّت أنها في الطاعة كالأمة، وفي النصيحة والإشفاق كالوالدة، ألقت إليها طرفاً من الأمر الذي تريده، وأعلمتها ما لها في ذلك من حميد العاقبة، وما لابنها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين، وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته.

فاستجابت لها أم جعفر، ووعدتها بأعمال الحيلة في ذلك، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما، فأقبلت على جعفر يوماً وقالت له: يا بني، قد وصفت لي وصيفة في بعض القصور من تربية الملوك قد بلغت من الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ما لم يُرَ مثله، وقد عزمت على اشترائها لك وقد قرب الأمر بيني وبين مالكها.

فاستقبل جعفر كلامها بالقبول، وعلقت بذلك قلبه، وتطلعت إليها نفسه، وجعلت تمطله، حتى اشتد شوقه، وقويت شهوته، وهو في ذلك يلح عليها بالتحريك والاقتضاء.

فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر واشتد به القلق قالت له: أنا مهديتها إليك ليلة كذا وكذا، وبعثت إلى العباسة فاعلمتها بذلك، فتأهبت بمثل ما

تتأهب به مثلها وسارت إليها في تلك الليلة.

وانصرف جعفر في تلك الليلة من عند الرشيد، وقد بقي في نفسه من الشراب فضلة لما قد عزم عليه.

فدخل منزله وسأل عن الجارية، فخبر بمكانها، فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالماً، ولا على خلقها واقفاً، فقام اليها فواقعها، فلما قضى حاجته منها قالت له: كيف رأيت حيل بنات الملوك؟

قال: وأي بنات الملوك تعنين؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم.

فقالت له: أنا مولاتك العباسة بنت المهدي.

فوثب فزعاً، وقد زال عنه سكره، ورجع اليه عقله، فأقبل على أمه وقال: لقد بعتني بالثمن الرخيص، وحملتني المركب الوعر، فانظري ما يؤول إليه حالي.

وانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل، ثم ولدت غلاماً، فوكلت به خادماً يقال له رياش وحاضنةً تسمى برّة.

فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجّهت الصبي والخادم والحاضنة إلى مكة، وأمرتهما بتربيته؟

وطالت مدة جعفر وغلب هو وأبوه وإخوته على أمر المملكة »[1].

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٣/ ٤٥٩- ٤٦١.

هذه مشاهد من نسج الخيال، وشخصيات تـؤدي أدواراً هابطـة، والحبكـة متشعثة، فالأحداث نسجت نسجاً غير محبوك، حول فكرة لا تمت للواقع بصلة، فالخليفة لا يُفارق العباسة ليلة واحدة ولهذا يزوجها من جعفر، غير أنه لا يعلم بحملها وإنجابها وإرسالها طفلها ليتربى بعيداً عـن الخليفـة، وكـأنما الحمـل والولادة نطاق تطوق به المرأة نفسها وتخلعه ساعة شـاءت. إنها دراما سيئة سخيفة، تدفع إلى البكاء حين قراءتها لضحالة ما وصلت إليه روايات هـؤلاء، الذين لم يبقوا لنا مكرمة في تاريخنا الطويل؛ إلا وركلوها وطعنوا فيها.

وهذا عين ما تنبّه إليه ابن خلدون في «مقدمته»، فهو يقول:

« ومن الحكايات المدخولـة للمـؤرخين: مـا ينقلونـه كافـةً في سـبب نكبـة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وأنه لكلفه بمكانهما في معاقرته إياهما الخمر، أذن لهـما في عقـد النكـاح دون الخلـوة، حرصاً على اجتماعهما في مجلسه، وأن العباسة تحيّلت عليه في التماس الخلوة به، لما شغفها من حبه حتى واقعها - زعموا في حالة سكرٍ - فحملـتْ ووشيَ بـذلك للرشيد فاستغضب.

وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبـد الله بن عباس، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظـماء الملـة من بعده. والعباسة بنت محمدٍ المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنـصور بـن محمـدٍ السجاد بن عليٍ أبي الخلفاء، ابن عبد الله ترجمان القرآن ابـن العبـاس عـم النبـي

ﷺ، ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفةٌ بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهدٍ ببداوة العروبية وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش. فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والزكاء إذا فُقدَا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولىً من العجم؟ بملكة جدة من الفرس؟ أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش؟ وغايته إن جذبتْ دولتهم بضبعه وضبع أبيه، واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف. وكيف يسوغُ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملكٍ من ملوك زمانه، لاستنكف لها عن مثله مع مولىً من موالي دولتها وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه. وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه. فعظمت آثارهم وبَعُدَ صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من وُلدهم وصنائعهم، واحتازوها عمّن سواهم، من وزارةٍ وكتابةٍ وقيادةٍ وحجابةٍ وسيفٍ وقلمٍ»[1].

---

(١) «المقدمة» ابن خلدون، ص٢٣- ٢٤.

النساء الشريفات والمشاعر المقدسة

عن محمد بن سلام قال:

«أن عبد الملك ولى الحارث بن خالد على مكة. فأذن المؤذن، وخرج للصلاة، فأرسلت إليه عائشة بنت طلحة: قد بقي من طوافي شيئاً لم آته، وكان يتعشقها، فأمر المؤذن فكفّ عن الإقامة، ففرغت من طوافها. وبلغ ذلك عبد الملك فعزله. فقال: ما أهون والله غضبه وعزله إياي عليّ عند رضاها عني »[1].

في الخبر طعون كثيرة، أولها الخليفة عبد الملك وهو يولي شخصاً لا يعتد بأمور الدين، والثانية في أمير مكة، الحارث وتلاعبه بالأذان، بينما يقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[2]، ثم الأخرى الطعن في سيدة شريفة من سيدات الإسلام واتهامها هذا الاتهام؟!!

وها هو ثانيةً يحول مكة إلى دار للغزل والعشق، يقول:

« حجت عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان، فنزلت من مكة بذي طوى[3]. فبينما هي ذات يوم جالسة وقد اشتد الحر وانقطع الطريق، وذلك في وقت

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١١/ ١٩٧ .

(٢) النساء / ١٠٣ .

(٣) طوى : بالفتح ، ومنهم من يضمها ، والفتح أشهر، وادٍ بمكة ، وقال الأصمعي : هو مقصور، والذي في طريق الطائف محدود فأمّا الذي في القرآن فيضم ويكسر لغتان ، وهو مقصور لا غير ينظر «معجم البلدان» ، ياقوت الحموي ، ٤ / ٤٥ .

الهاجرة، إذ مرتْ جواريها فرفعن الستر وهي جالسة في مجلسها عليها شفوفٌ لها تنظر إلى الطريق، إذ مر بها أبو دهبل الجمحي، وكان من أجمل الناس وأحسنهم منظراً، فوقف طويلاً ينظر إليها وإلى جمالها وهي غافلة عنه؛ فلما فطنت له سترت وجهها وأمرت بطرح الستر وشتمته. فقال أبو دهبل:

إني دعاني الحين فاقتادني ... حتى رأيتُ الظبيَ بالبابِ

يا حسنه إذا سبني مدبراً ... مستتراً عني بجلبابِ

سبحان من وقّفها حسرةً ... صُبّت على القلب بأوصابِ

يذود عنها إن تطلبتها ... أبٌ لها ليس بوهابِ

أحلها قصراً منيع الذُرى ... يُحمى بأبوابٍ وحُجابِ

قال: وأنشد أبو دهبل هذه الأبيات بعض إخوانه، فشاعت بمكة وشُهرتْ وغنّى فيها المغنون، حتى سمعتها عاتكة إنشاداً وغناءً، فضحكت وأعجبتها وبعثت إليه بكسوةٍ، وجرتِ الرسل بينهما. فلما صدرت عن مكة خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها، فكانت تعاهده بالبر واللطف حتى وردت دمشقٍ وورد معها، فانقطعتْ عن لقائه وبَعُدَ من أن يراها »[1].

وعن عبيد الله بن عمر العمري، قال:

« خرجتُ حاجًا فرأيت امرأةً جميلةً بكلامٍ رفثت فيه، فأدنيتُ ناقتي منها، ثم قلت لها: يا أمة الله، ألستِ حاجّة! أما تخافين الله! فسفرت عن وجه يبهر

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٧/ ١٤٤ .

الشمس حُسناً، ثم قالت: تأمل يا عمي، فإني ممن عنى العرجي بقوله:

من اللاء لم يحجُجنَ يبغينَ حِسبةً ولكن لِيَقتلنَ البريء المغفلا

قال: فقلت لها: فإني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار. قال: وبلغ ذلك سعيد بن المسيّب، فقال: أما والله لو كان من بعض بُغضاء أهل العراق لقال لها:

اعزُبي قبحك الله، ولكنّه ظَرْف عبّاد الحِجاز.

وقد رُويت هذه الحكاية عن أبي حازم بن دينار »[1].

إن ديننا اليوم وما نتبعه فيه هو بناء اعتمد على آراء السلف الصالحين، ونحن اليوم لا نجد مثل هؤلاء النساء، ولو وجدناهن لعزّرن أكبر تعزير، لقوله -تعالى-: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2] فكيف بسعيد بن المسيب أن يستمرئ الأمر ويأخذه بسخرية، وكيف بعبيد الله بن عمر أن يدعو لها هذا الدعاء من دون ردع أو توجيه؟؟

وهذان « عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق كانا جالسين بفناء الكعبة، إذ مرتْ بهما امرأة من آل أبي سفيان، فدعا عمر بكتفٍ إليها وكنى عن اسمها:

ألما بذاتِ الخالِ فاستطلعا لنا على العهد باقٍ ودُّها أم تصرّما

وقولا لها إن النَّوى أجنبيةٌ بنا وبكم قد خفتُ أن تتيَمَّما

فقال له ابن عتيق: سبحان الله! ما تريد إلى امرأةٍ مسلمةٍ محرمةٍ أن تكتب

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩/ ٢٣١- ٢٣٢.

(٢) الحج / ٣٢.

إليها مثل هذا »[١].

إن ما ذكر في الخبر لا يحصل في يومنا هذا، فكيف بهم وهم يعيشون ربيع الإسلام وبينهم الصحابة والتابعين!!

وها هو الحج يخلط بالغناء، وتتحول المدينة المنورة إلى مألف للمغنين والمستمعين، فلا رعاية لمشاعر ولا اهتمام بالبيت العتيق أو المسجد النبوي المطهّر، وكأنما غدت هذه المغنية هي المقصد لا الحج وزيارة المسجد النبوي، يقول الأصفهاني :

« دخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنٍّ حاذق ولا مغنية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف وغيرهم من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم. فلما قضت حجّها سألها المكّيون أن تجعل لهم مجلساً. فقالت: للغناء أم للحديث؟ قالوا: لهما جميعاً. قالت: ما كنتُ لأخلط جدًّا بهزل، وأبت أن تجلس للغناء. فقال عمر بن أبي ربيعة: أقسمتُ على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة، فإني خارج. فعزم القوم الذين سمَّيناهم كلهم على الخروج ومعهم جماعة ممّن نشط، فخرجتْ في جمع أكثر من جمعها بالمدينة. فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء، فدخلت أحسن مما خرجت به منها، وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها. فلما دخلت منزلها وتفرّق الجمع إلى منازلهم ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مسلمين، وما

---

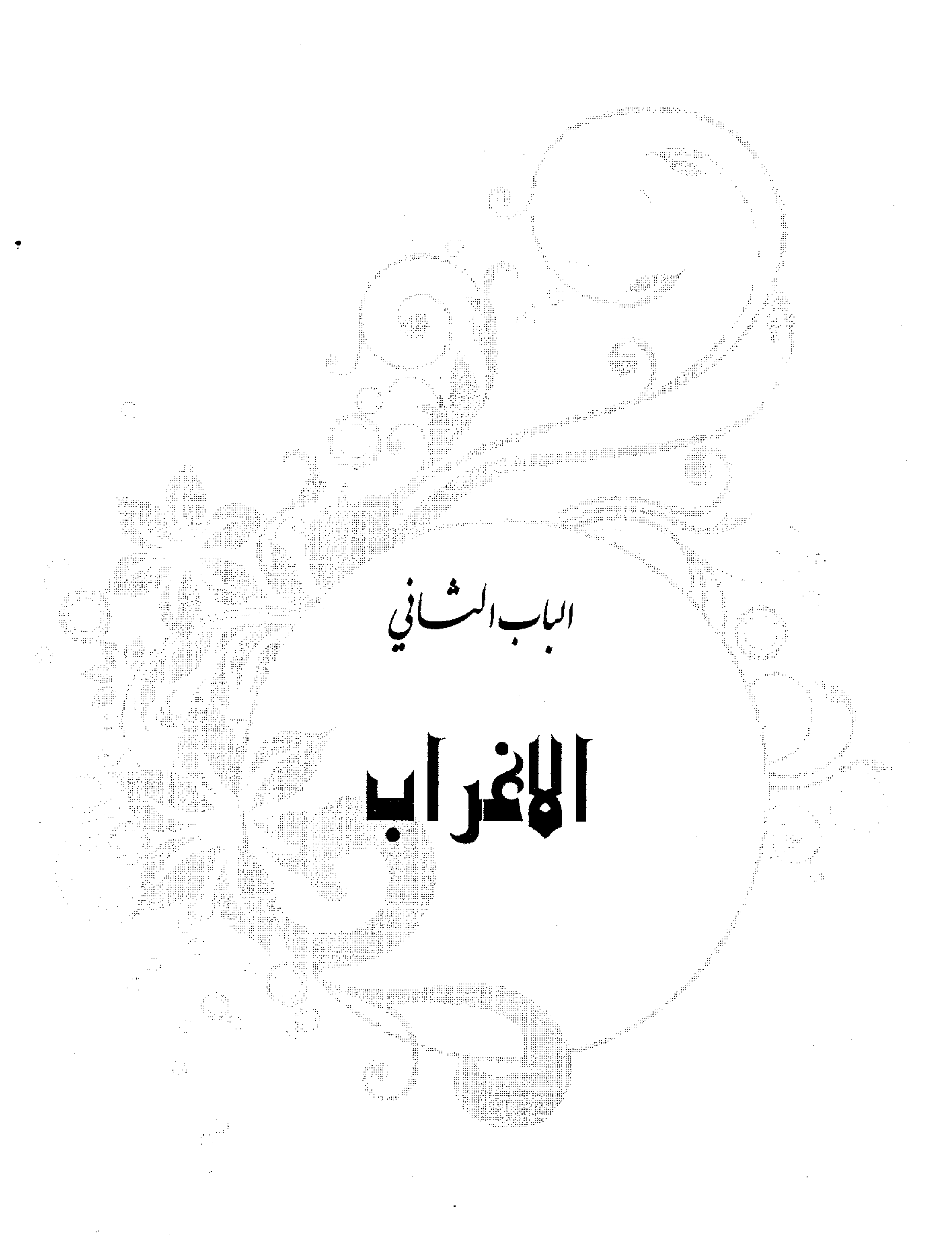
(١) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٩/ ٢٧٧ .

استنكف من ذلك كبيرٌ ولا صغير. فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلستْ للغناء؛ فقالت لعمر ابن أبي ربيعة: إني جالسة لك ولأصحابك، وإذا شئت فعِد الناس لذلك اليوم، فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء. فابتدأت جميلةُ فغنّتْ صوتاً بشعر عمر[1]:

هيهات من أَمَة الوهّاب منزلنا ... إذ حللنا بسيفِ البحرِ من عدنِ
واحتلَّ أهلك أجياداً فليس لنا ... إلا التذكُّر أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتْ بالجزع عَبْرَته ... وقد تغرد قمريٌّ على فَننِ



(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٩/ ٢١٩.



الباب الثاني

الأعراب



الفصل الأول

التناقض





الفصل الأول

التناقض

«النقض في البناء والحَبْل والعَهْد وغيره، ضد الإبرام، كالانتقاض والتناقض، وبالكسر المنقوض ، وهي ما نكث من الأخبية والأكسية ، فغُزِل ثانية » [1] .

المعنى اللغوي يتوافق مع المراد من معنى التناقض ، فقد نَحكم على الأشياء بالتناقض من دون تردد ، حينما نجدها مغايرة للواقع ، أو مخالفة للمألوف ، أو نجدها مذبذبة ، لا تركن إلى جانب منها دون آخر ، أو أنها تتكرر بشكل آخر ، أو بأشخاص أو بأحداث مختلفة ، أو أنها تخالف المألوف أو المعقول .

إننا قد نحكم على شخص بالتناقض لو أننا وجدناه يروي حدثا بشكلين مختلفين من منحى الأحداث أو الأشخاص أو الأماكن ، ولو تكرر لأكثر من مرة لحكمنا عليه بالكذب ، أو الافتراء إن كان في حديثه اتهام لأشخاص أو جهات ، قد وجدنا تناقضها مع روايات أخرى لأشخاص آخرين ، أو تناقضها مع الواقع ، أو تناقضها مع ما يرويه هو في أماكن أخرى ، أو ما يرويه غيره .وقد وجدنا لِزاماً أن نتحرَّى الحقيقة في مثل هذه الروايات، التي قد نالت من أشخاص ومجموعات وقبائل قد قامت القرائن والدلائل المختلفة على أنهم

---

(١) «القاموس المحيط» الفيروز آبادي ، مادة ، نقض ، ص ٦٥٦ .

مغايرون لما أُورِد عنه ؛ ولربما قد لعبت أهواء أو انتماءات عقدية ، أو مذهبية في تلك المنهجية الغارقة في أمواج الإيهام المشتمل على الإِغراب ، وضمن نطاق التناقض المفضوح ، من ذلك :

التناقض في ذكر الأسماء

ربما يورد الخبر ، ويذكر فيه شخص بعينه ربَّما يكون مشهوراً، لا يمكن الإساءة إليه ؛ لمنزلته وعُلوّ شأنه ، إلا أن إيراد الخبر مرَّة أخرى باسم مجهول ، يوحي بأسئلة من بينها ما دواعي ذكر الخبر بهذين الشكلين ، إن كان ذكره مع المشهور غير مؤكد ، من ذلك ما يرويه الأصفهاني ، نقلاً عن مولىً لِزياد ، وفيه «حَجَّ أبو الأسود الدُّؤلي ومعه امرأته وكانت جميلة . فبينا هي تطوف بالبيت إذ عَرَض لها عمر بن أبي ربيعة . فأتت أبا الأسو د فأخبرته ، فأتاه أبو الأسود فعاتبه. فقال له عمر : ما فعلت شيئاً . فلما عادت إلى المسجد عاد فكلَّمها ، فأخبرت أبا الأسود ، فأتاه في المسجد وهو مع قومٍ جالسٌ فقال له :

وإنِّي لَيُثْنِيني عن الجهل والخَنَا ... وعن شَتْمِ أقوامٍ خلائق أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وبُقْيَا وأنَّني ... كريمٌ ومثلي قد يضرُّ وينفعُ
فشتَّان ما بيني وبينك إنَّني ... على كل حالٍ أستقيم وتطلع

فقال له عمر : لست أعودُ يا عمُّ لكلامها بعد هذا اليوم . ثمَّ عاود فكلَّمها ، فأتت أبا الأسود فأخبرته ؛ فجاء إليه فقال له :

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى ... وسيِّدُنا لولا خلائقُ أربع

نُكـولٌ عـن الجُـلَّى وقُـرْبٌ مـن الخَنَـا وبخــلٌ عــن الجــدوى وأن تُبَّــعُ

ثمَّ خرجت وخرج معها أبو الأسود مشتملاً على سيف . فلما رآهما عمر أعرض عنها ؛ فتمثَّل أبو الأسود[1]:

تَعدُو الذِّئابُ على مَنْ لا كِلابَ لَهُ وتَتَّقي صَولَةَ المُستأسِدِ الحَامِي

هذا الخبر ينقله بشكل آخر يُخُلُّ بمصداقيته ، بل ينفيها نفياً ، فالأصفهاني يروي عن « الهيثم بن عدي عن إسحاق أنَّه قال : قدِمتْ امرأةٌ مكةَ وكانت من أجمل النساء . فبينا عمر بن أبي ربيعة يطوف إذ نظر إليها فوقعت في قلبه ؛ فدنا منها فكلَّمها ، فلم تلتفت إليه . فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها . فقالت له : إليك عنِّي يا هذا ، فإنَّك في حرم الله وفي أيامٍ عظيمةِ الحُرمةِ . فألحَّ عليها يُكلِّمُها حتى خافت أن يُشَهِّرها . فلما كان في الليلة الأخرى قالت لأخيها : اخْرُجْ معي يا أخي فأرني المناسك ، فإنِّي لست أعرِفُها ، فأقبلتْ وهو معها . فلما رآها عمر أراد أنْ يَعْرِضَ لها ، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها ؛ فتمثَّلت المرأةُ بقول النابغة :

تَعدُو الذِّئابُ على مَنْ لا كِلابَ لَهُ وتَتَّقي صَولَةَ المُستأسِدِ الحَامِي

قال إسحاق : فحدَّثني السِّنديّ مولى أمير المؤمنين أن المنصور قال وقد حُدِّثَ بهذا الخبر وَدِدْتُ أنه لم تبقَ فتاة من قريش في خِدرِها إلا سَمِعَتْ بهذا الحديث»[2].

---

(١) «الأغاني» ١ / ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٨٧ - ٨٨ .

وعن عُبيد بن حُنين الحيري ، قال : كان المغنون في عصر جدي أربعة نفر ثلاثة بالحجاز وهو وحده بالعراق والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد فكان يبلغهم أن جدي حنينا قد غنى في هذا الشعر :

هَلّا بَكَيتَ على الشباب الذاهبِ وكَفَفْتَ عن ذمِّ المشِيب الآئبِ
هذا ورُبَّ مُسَوّفٍ نَسَقَيْتُهُمْ من خمر بابل لَذَّةٍ للشاربِ
بَكَروا عَليَّ بِسُحْرَةٍ فَصَبَحتهم منذ اتكُ وبمثل قَعْبِ الحالِبِ
بزجاجَةٍ ملْءِ اليَدَين كأنَّها قِنْدِيلُ فِصْح في كنيسة راهِبِ[1]

قال : فاجتمعوا فتذاكروا أمر جدي وقالوا : ما في الدنيا أهلُ صناعةٍ شَرٌّ مِنَّا لنا أُخْب العراق ونحن بالحجاز ، لا نَزُوره ولا نَسْتَزِيرُهُ . فكتبوا إليه ووجهوا إليه نفقةً ، وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت أولى بزيارتنا ، فشخص إليهم فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يَتَلَقَّونَهُ ، فلم يُرَ يومٌ كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ ، ودخلوا ، فلما صاروا في بعض الطريق قال لهم عبد : صيروا إليَّ فقال له ابن سُرَيج : إن كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا إليك ، فقال : ما لي من ذلك شيء ، وعدلوا إلى منزل سكينة . فلما دخلوا إليها أذنت لنا إذنا عاماً فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ، ثم إنهم سألوا جدي حنيناً أن يغنيهم صوته الذي أوله:

هلّا بكيت على الشباب الذاهبِ

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٢ / ٢٤٨ - ٢٤٩ .

فغناهم إياه بعد أنْ قال لهم : ابدأوا أنتم ؛ فقالوا : ما كنا لنتقدمك ولا نغني قبلك حتى نسمع هذا الصوت ؛ فغناهم إياه ، وكان من أحسن الناس صوتاً ؛ فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه فسقط الرواق على من تحته فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحَّاء ، ومات حُنَينٌ تحت الهدم ؛ فقالت سكينة عليها السلام: لقد كدرعلينا حُنَيْنٌ سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة كأنا والله كنا نسوقه إلى منيته.

تمثَّل قول الشاعر :

وتَرَكْتُهُ جَـزَرَ الـسِّباعِ يَنُـشْنَهُ ... مـا بـينَ قُلَّـةِ رَأسـه والمِعْـصَمِ

إنْ تُغْـدِ في دُونِي القِنَـاعَ فـإنَّني ... طـبٌّ بِأخْـذِ الفـارسِ المُـسْتَلْئِمِ

والله . قالت عمَّتي ، قال لها أبي : لَعَمْرِي إنَّ ذلك على ما قالا .

ولابن سُريج في هذا الشعر لحنٌ عن جميلة وربَّما حُكِيَ بزيادة أو نقصان أو مثلاً بمثل»[1] .

يظهر الباطل المبهرج بصورة الحقيقة، فَيُمْنَحُ الباطل كِساءً من حقيقة مُهلهلة، تنكشف خيوطها القبيحة للمتلقِّي من أول وهلة ، فالغناء لجميلة وهي مغنية معروفة ، والخبر يرويه لها ، والموقف يناسبها ويناسب مهنتها ، إلا أنَّه يأبى إلا أنْ يُدخِلَ امرأة من أطهر بيوت الإسلام في الخبر ، فالخبر يرويه في جميلة،

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٢ / ٢٤٨ .

فيقول: « بلغني أن جميلة قعدت يوماً على كرسي لها وقالت لآذنتها : لا تحجبي عنا أحداً اليوم ، واقعدي بالباب ، فكل من يمر بالباب فاعرضي عليه مجلسي؛ ففعلت ذلك حتى غصت الدار بالناس ؛ فقالت جميلة : اصعدوا إلى العلالي؛ فصعدت جماعة حتى امتلأت السطوح . فجاءتها بعض جواريها فقالت لها: يا سيدتي إن تمادى أمرك على ما أرى لم يبق في دارك حائط إلا سقط ؛ فأظهري ما تريدين . قالت : اجلسي . فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الناس الماء فدعت لهم بالسويق ، فشرب من أراد ؛ فقالت : أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب ، فلم يبق في سُفْلِ الدار ولا علوها أحد إلا شرب ، وقام على رؤوسهم الجواري بالمناديل والمراوح الكبار ، وأمرت جواريها فقمن على كراسي صغار فيما بين كل عشرة نفر جارية تروح . ثم قالت لهم : إن يقدر أي تفي منامي شيئاً أفزعني وأرعبني ، ولست أعرف ما سبب ذلك ، وقد خفت أن يكون قرب أجلي ، وليس ينفعني إلا صالح عملي ، وقد رأيت أن أترك الغناء كراهة أن يلحقني منه شيء عند ربي . فقال قوم منهم : وفقك الله وثبَّت عزمك، وقال آخرون بل لا حرج عليك في الغناء . وقال شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة : قد تكلمت الجماعة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولم أعترض عليهم فيقول هم ولا شركتهم في رأيهم ، فاستمعوا الآن لقولي . فلما استمعوا لقوله، ثم طلب منهم الغناء فغنوه، فقال: الحمد لله لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء، وسلام عليكم ورحمة الله يا جميلة»[1].

---

(١) «الأغاني» ٨ / ٢٣٢ - ٢٣٤ .

ومن التناقض في ذكر الأسماء ، قوله نقلاً عن المدائني ، أنَّ «عبد الله بن جعفر[1] كان معه إخوان له في عشية من عشايا الربيع ، فراحت عليهم السماء بمطر جود فأسال كل شيء ، فانتهوا إليه فوقفوا على شاطئه وهو يرمي بالزبد مثل مدِّ الفرات ، فبينما ينظرون إذ هاجت السماء ، فقال عبدالله لأصحابه ليسمعنا جُنَّة ، وهذه سماء خليقة أن تبل ثيابنا ، فهل لكم في منزل طويس فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدثنا ويضحكنا ! وطويس في النظارة يسمع كلام عبدالله بن جعفر ، فقال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : جعلت فداءك وما تريد من طويس عليه غضب الله ، مخنث شائن لمن عرفه ،فقال له عبد الله : لا تقل ذلك؛ فإنه مليح خفيف لنا فيه أنس ، فعاد طويس وهيأ طعاماً ثم خرج ليدعو عبد الله بن جعفر ، فقال له طويس : بأبي أنا وأمي ، هذا المطر ، فهل لك في المنزل فتستكن فيه إلى أن تكف السماء ؟ قال: إياك أريد . قال : فامض يا سيدي على بركة الله ، وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا ، فتحدثوا حتى أدرك الطعام، فقال: بأبي أنت وأمي ، تكرمني إذ دخلت منزلي بأن تتعشى عندي؛ قال: هات ما عندك ، فجاءه بعناق سمينة ورقاق ، فأكل وأكل القوم حتى تملؤوا، فأعجبه طيب طعامه ، فلما غسلوا أيديهم قال : بأبي أنت وأمي أتمشى

---

(١) **عبد الله بن جعفر بن أبي طالب**: وأمه أسماء بنت عميس ، وهو آخر من رأى النبي ﷺ من بني هاشم وفاة ، سكن المدينة ، ولما استشهد أبوه جعفر في مؤتة ، دعا رسول الله ﷺ له ولإخوته بقوله: «**اللهم اخلف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقته**»، فكان يسمى بحر الجود لكرمه ، توفي في المدينة (٨٠هـ) . ينظر «البداية والنهاية» ابن كثير ، ٥ / ٣٥ - ٣٦ .

معك وأغنيك؟ قال : افعل يا طويس، فأخذ ملحفة فأتزر بها وأرخى لها ذنبين ثم أخذ المربع فتمشى وأنشأ يغنِّي:

يا خَلِيلي يا بني سُهْدِي لم تَنَمْ عيني ولم تَكَدِ
كيف تَلْحُو بي على رجلٍ آنست لُتَذُّهُ كبِدي
مثل ضوءِ البدرِ طلعَتُهُ ليس بالزُّمَّيْلة النَّكِدِ

فطرب القوم وقالوا: أحسنت والله يا طويس . ثم قال : يا سيدي أتدري لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله ما أدري لمن هو ، إلا أني سمعت شعراً حسناً، قال: هو لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت وهي تتعشق عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وتقول فيه هذا الشعر ؛ فنكس القوم رؤوسهم وضرب عبد الرحمن برأسه على صدره ، فلو شقت الأرض له لدخل فيها »[1] .

وعن المدائني أيضاً ، ينقل الخبر بشكل مغاير ، فأميرهم عمر بن عبد العزيز، والشعر لخولة بنت ثابت ، المُتَغَزِّلُ فيها هو عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، يقول: « خرج عمر بن عبد العزيز وهو على المدينة إلى السويداء وخرج الناس معه ، وقد أُخِذَت المنازلُ ، فلحق بهم يزيد بن بكر بن دأب الليثي وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري ، فلقيهما طويس فقال لهما: بأبي أنتما وأمي عَرِّجا إلى منزلي ، فقال يزيد لسعيد : مِل بنا مع أبي عبدالنعيم ، فقال سعيد : أين تذهب مع هذا المخنث ! فقال يزيد : إنما هو منزل ساعة فملا ، واحتمل طويس الكلام على سعيد ، فأتيا منزله فإذا هو قد نضحه ونصَّعه ،

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٣/ ٣٣ - ٣٤.

فأتاهما بفاكهة من فاكهة الماء ؛ ثم قال سعيد : لو أسمعتنا يا أبا عبدالنعيم ، فتناول خريطة فاستخرج منها دفًّا من قره وقال:

يا خليلي يا بني سُهُدِي لم تنم عيني ولم تكدِ
فشرابي ما أُسِيغ وما أشتكي ما بي إلى أحدِ
كيف تلحو بي على رجل آنستَ لُتَذُّهُ كَبِدِي
مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزُّمَّيْلَةِ النَّكِدِ
من بني آلالُ غِيرة لا خاملٍ نِكْسٍ ولا جَحَدِ
نظرتي وما فلا نظرتْ بعده عيني إلى أحدِ

ثم ضرب بالدف الأرض ؛ فقال سعيد : مارأيتك اليوم قط شعراً أجود ولا غناء أحسن منه ؛ فقال له طويس : يا ابن الحسام ، أتدري من يقوله ؟ قال : لا ، قال : قالته عمتك خولة بنت ثابت تشبب بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فخرج سعيد وهو يقول : ما رأيتك اليوم قط مثلما استقبلني به هذا المخنث ! والله لا يفلتني! فقال يزيد : دع هذا وأمته ولا ترفع به رأساً .

قال أبو الفرج الأصبهاني : هذه الأبيات فيها ذكر الحرمي بن أبي العلاء عن الزبير بن بكار ، لابن زهير المخنث »[1] .

تمّم الأصفهاني الخبر بقوله : الأبيات فيها ذكره الحرمي بن العلاء عن الزبير ابن البكّار هي (لابن زهير المخنث) ، وقوله هذا يفنّد ما تقدَّم جميعه ، ثمَّ لو أنَّنا

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٩ / ٣٦ .

حلَّلْنا الأبيات تحليلاً نقديًّا لوجدنا أبياتاً ليِّنة ، وألفاظها مولّدة لا تمتُّ إلى الجاهلية أو صدر الإسلام بصلة ، فمن الواضح أنَّ ألفاظ هذه الأبيات رقيقة تعتمد الأصوات قريبة المخارج ، كما أنَّها تعتمد ألفاظا واضحة المعنى تختلف بشكل تام عن الشعر الجاهلي أو المخضرم بين الجاهلية والإسلام على أبعد حدٍّ ، فهذا شعر لا ينتمي إلى ذلك العصر ، ويمكن الحكم على الشعر بسهولة بأنَّه شعر عباسي ؛ لأنَّ العصر الذي سبقه لم يعرف هذه الليونة ، وهذا الوضوح والرقة .

وعن محمد بن صالح الأسلمي ، أنَّه قال : « دخلت عزّة على عبد الملك بن مروان ، وقد عجزت ، فقال لها : أنت عزّة كثيّر ، فقالت: أنا عزّة بنت جميل ، قال: أنت التي يقول لك كثيّر :

لعــزّة نــار ما تــبوح كأنَّــها إذا ما رمقناها من البعد كوكب

فما الذي أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد كنت في عهده أحسن من النَّار في الليلة القرَّة ، وفي حديث محمد بن صالح الأسلمي : فقالت له : أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيَّروك خليفة ، قال : وكانت له سِنٌّ سوداء يُخْفيها، فضحك حتى بدتْ، فقالت له: هذا الذي أردت أنْ أبديه»[1].

ثم يناقض هذه الرواية ! فينقل عن سليمان بن زياد الثقفي : « أنَّ بثينة

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٩ / ٣٦ .

دخلت على عبد الملك بن مروان ، فرأى امرأة مولِّيَة ، فقال لها : ما الذي رأى فيك جميل ؟ قالت : الذي رأى فيك الناس حين استخلفوك ؛ فضحك عبد الملك حتى بدتْ له سِنٌّ سوداء كان يسترها »[1] .

من التي أدخلت على الخليفة ، أيُّ الخبرين نصدِّق ، إنَّ الاختلاف بين الاسمين يوضِّح كذب الخبر ، فلو صدق الخبر لذكر اسماً واحداً فقط ولما اختلف الخبر .

وعن علي بن طريف الأسدي ، أنَّه قال : « سمعت أبي يقول : بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى امرأة من أهل العراق فأعجبه جمالها ، فمشى معها حتى عرف موضعها ، ثم أتاها فحادثها وناشدها وناشدته وخطبها ، فقالت : إنَّ هذا لا يصلح ها هنا ، ولكن إن جئتني إلى بلدي وخطبتني إلى أهلي تزوجتك . فلما ارتحلوا جاء إلى صديق له من بني سهم وقال له : إن لي إليك حاجة أريد أن تساعدني عليها ؛ فقال له : نعم . فأخذ بيده ولم يذكر له ما هي ، ثم أتى منزله فركب نجيباً له وأركبه نجيباً [آخر] ، وأخذ معهما يصلحه ، وسار ألا يشك السهم في أنه يريد سفر يوم أو يومين ؛ فما زال يخفد حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق . فأقام أياماً ، ثم راسلها يتنجزها وعدها ؛ فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم وبماله إليها مال

---

(١) المصدر نفسه ٨ / ٢٣٠ .

متزوج ، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة ، وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت ؛ فردها عليها ورحل إلى مكة ؛ وقال في ذلك قصيدته التي أولها [١]:

نام صحبي ولم أنم   من خيال بنا ألَمْ
طافَ بالركبِ مُوهِنا   بين خاخٍ[٢] إلى إضَمْ[٣]
ثم نبّهتُ صاحباً   طيِّبِ الخِيَم والشِّيَم
أريحِيًّا مُساعِداً   غيرَ نِكْسٍ ولا بَرَمْ
قلتُ يا عَمْرُو شَفَّني   لاعجُ حُبِّ الألَمْ

يذكر في الخبر أنّها امرأة عراقية ، على إطلاق النسب من دون تحديد ، إلا أنّه يذكر الخبر بصيغة مختلفة تناقض ما أورده ، فيقول : « حَجّت بنتٌ لمحمدٍ بن الأشعث هكذا قال إسحاق وهو عندي الصحيح وكانت معها أمها وقد سمعت بعمر ابن أبي ربيعة فأرسلت إليه فجاءها فاستنشدته فأنشدها:

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١ / ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) إضم : بالكسر ثم الفتح ، وميم ، ذو إضم : ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة ، وقيل إضم واد بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة ، ينظر «معجم البلدان» ، ياقوت الحموي ، ١ / ٢٥٤ .

(٣) خاخ : بعد الألف خاء معجمة أيضاً : موضع بين الحرمين ، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة ، وذكر في أحياء المدينة ، ينظر ، المصدر نفسه ٢ / ٣٨٣ .

تَشُطُّ غداً دار جيراننا ولَلدَّارُ بعدَ غدٍ أبعدُ

وذكر القصة بطولها . قالوا قد كانت لما جاءها أرسلت بينها وبينه ستراً رقيقاً تراه من ورائه ولا يراها ، فجعل يحدثها حتى استنشدته ، فأنشدها هذه القصيدة . فاستخفها الشعر فرفعت السجف ، فرأى وجهاً حسناً في جسم حل ، فخطبها وأرسل إلى أمها بخمس مئة دينار ، فأبت وحجبته وقالت للرسول: تعود إلينا . فكأن الفتاة غمها ذلك ، فقالت لها أمها : قد قتلك الوجد به فتزوجيه . قالت : لا والله لا يتحدث أهل العراق عني أني جئت ابن أبي ربيعة أخطبه ، ولكن إن أتاني إلى العراق تزوجته ، قال : ويقال : إنها راسلته وواعدته أن تزوره ، فأجمر بيته وأعطى المبشر مئة دينار ، فأتته وواعدته إذا صدر الناس أن يشيعها ، وجعلت علامة ما بينهما أن يأتيها رسوله ينشدها ناقة له . فلما صدر الناس فعل ذلك عمر . وفيه يقول وقد شيعها[1] :

قال الخَلِيط غداً تَصَدُّعُنَا أو بعده أفلا تُشَيِّعُنَا

أَمَّا الرَّحيل فدونَ بعدِ غدٍ فمتى تقولُ الدارَ تَجْمَعُنَا

لِتَشُوقُنا هِنْدٌ وقد علمتْ علماً بأنَّ البين يُفْزِعُنَا

عجباً لِمَوقِفنا وموقِفها وبِسَمْعِ تِرْبَيْهَا تُرَاجِعُنا

ومَقَالِهَا سِرْ ليلةً معنا نَعْهَدْ فإنَّ البين فاجِعُنَا

قلتُ العيونُ كثيرةٌ معكم وأظنُّ أنَّ السَّيْرَ مانِعُنَا

الغرابة المضاعفة في الخبر أنَّ الاسم قد تغيَّر ، لكن أنْ يتغيَّر الشعر فهذا هو

---

(١) «الأغاني» ١ / ٩٨- ٩٩ .

الأغرب ، فلو كان الخبر صحيحاً لأورد الشعر كما هو في الخبرين .

ويروى عن القطراني ؛ أنَّه قال : « كان ابن جامع بارًّا بوالدته ، وكانت مقيمة بالمدينة وبمكة . فدعاه إبراهيم بن المهدي وأظهر له كتاباً إلى أمير المؤمنين فيه نعي والدته . قال : فجزع لذلك جزعاً شديداً ، وجعل أصحابه يعزونه ويؤنسونه ؛ ثم جاؤوا بالطعام فلم يتركوه حتى طعم وشرب ، وسألوه الغناء فامتنع . فقال له إبراهيم بن المهدي : إنك ستبذل هذا لأمير المؤمنين ، فابذله لإخوانك ؛ فاندفع يغني(١) :

كم بالدُّروب وأرض الروم مِنْ قَدَم ... ومِنْ جماجم صَرْعَى ما بها قُبِرُوا
بقُنْدُهَارَ ومَنْ تُقْدَر منيَّته ... بقُنْدُهَارَ يُرَجَّم دونه الخبر

ويروي عن ابن يحيى المكي ، أنَّه قال : « كان ابن جامع أحسن ما يكون غناء إذا حزن صوته ، فأحب الرشيد أن يسمع ذلك على تلك الحال ، فقال للفضل بن الربيع : ابعث خريطة فيها نعي أم ابن جامع وكان بارًّا بأمه ففعل . فوردت الخريطة على أمير المؤمنين وهو في مجلس لهوه ، فقال : يا ابن جامع! جاء في هذه الخريطة نعي أمك . فاندفع ابن جامع يغني بتلك الحرقة والحزن الذي في قلبه :

كم بالدُّروب وأرض الروم مِنْ قَدَم ... ومِنْ جماجم صَرْعَى ما بها قُبِرُوا
بقُنْدُهَارَ ومَنْ تُقْدَر منيَّته ... بقُنْدُهَارَ يُرَجَّم دونه الخبر

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٦ / ٣٥ .

قال فو الله ما ملكنا أنفسنا ، وأريت الغلمان يضربون برؤوسهم الحيطان والأساطين قال هارون : لا أشك أن ابن المكي قد حدث به عن رجل حضر ذلك فأغفله عبد الرحمن بن أيوب قال : ثم غنى بعد ذلك :

* يا صاحب القبر الغريب *

وهو لحن قديم . وفيه لحن لابن المكي فقال له الرشيد : أحسنت ! وأمر له بعشرة آلاف دينار »[1] .

ومن التناقض الظاهر أيضاً ، ما نقله الأصفهاني عن أبو هَفَّان ، أنَّه قال : «خرجت قبيحة إلى المتوكل يوم نَيروزٍ وبيدها كأس بلّورٍ بشراب صافٍ ، فقال لها: ما هذا فديتك ؟ قالت : هديتي لك في هذا اليوم ، عرَّفك الله بركته ! فأخذه من يدها، وإذا على خدِّها جَعْفَرٌ ، مكتوباً بالمسك ، فشرب الكأس وقبّل خدَّها ، وكانت فضل الشاعرة واقفة على رأسه فقالت :

وكاتبةٍ بالمسك في الخدِّ جعفرا   بنفسي سواد المسك من حيثُ أثَّرا

قال : وأمر عريب فغنَّت فيه »[2] .

ويناقضه ما نقله عن جعفر بن قدامة ؛ إذ يقول : « حدَّثني علي بن يحيى المنجم : كان علي بن الجهم يُقرَّب من المتوكل جدًّا ، ولا يكتمه شيئاً من سرِّه مع حرمه وأحاديث خلواته ، فقال له يوماً : إنِّي دخلت على قبيحة فوجدتها قد

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٦ / ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠ / ٣٢٣ - ٣٢٤ .

كتبت اسمي على خدِّها بغالية ، فلا والله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض من ذلك الخدِّ ، فقل في هذا شيئاً ، قال : وكانت محبوبة حاضرة للكلام من وراء الستر ، وكان عبد الله بن طاهر أهداها في جملة أربع مئة وصيفة إلى المتوكل، قال : فدعا علي بن الجهم بدواة إلى أن أتوه بها وابتدأ يفكر ، قالت محبوبة على البديهية من غير نكر ولا رويَّة :

وكاتبة بالمسك في الخدِّ جعفرا ... بنفسي مَخَطَّ المس كمن حيث أثرا

لئن كتبتْ في الخدِّ سَطْراً بكفِّها ... لقد أَوْدَعَت قلبي من الحبِّ أسطرا

فيا مَن لمملوك لملكِ يمينه ... مطيع له فيما أسرَّ وأظْهَرا

ويا من مُناها في السريرة جعفر ... سقى الله من سُقيا ثنايا كجعفرا

قال : وبقي علي بن الجهم واجماً ؛ لا ينطق بحرف ، وأمر المتوكل بالأبيات ، فبعث بها إلى عريب ، وأمر أن تُغني فيها »[1] .

وبين الخبرين تناقض ، ففي الخبر الأول من قال الشعر هي فضل الشاعرة ، وفي الخبر الثاني من قال الشعر محبوبة .

التناقض في رسم الشخصية

مما يرتبط بأسماء الأشخاص طريقة رسم شخصيتهم ، فلربما وصف الشخص نفسه بأوصاف متناقضة ، لا يمكن لهذه الأوصاف أن تجتمع فيه ، مما يجعل الشخص متناقض الملامح، يدفع بعضها بعضاً، يقول الأصفهاني:

---

(١) «الأغاني» ٢٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

«أخبرني أحمد قال : حدثني محمد بن القاسم قال : وكتب إليّ ابن أبي خيثمة يخبرني أن مصعب بن عبدالله أخبره قال : كان أشعب من القراء للقرآن ، وكان قد نسك وغزا ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، وربما صلى بهم القيام »[1] .

أخبرنا أحمد قال : حدثنا محمد بن القاسم ، قال : حدثني قعنب بن المحرز ، قال : حدثنا الأصمعي، قال: ولى المنصور زياد بن عبدالله الحارثي مكة والمدينة، قال : أشعب فلقيته بالجحفة فسلمت عليه ، قال : فحضر الغداء ، وأهدي إليه جدي فطبخهم ضيرة ، وحشيت القبة، قال: فأكلت أكلاً أتم لحبه ، وأنا أعرف صاحبي ، ثم أتي بالقبة ، فشققتها ؛ فصاح الطباخ :إن الله شقّ القبة ، قال : فانقطعت ، فلما فرغت قال: يا أشعب هذا رمضان قد حضر ، ولا بد أن تصلي بأهل السجن، قلت: والله ما أحفظ من كتاب الله إلا ما أقيم به صلاتي»[2].

وعن دعبل الخزاعي ، يروي ابن أخيه ، فيقول : «رأيت النبي ﷺ في النوم ، فقال لي : ما لك وللكميت بن زيد ؟ فقلت : يا رسول الله! ما بيني وبينه إلا كما بين الشعراء ، فقال :لا تفعل ، أليس هو القائل:

فلا زلتُ فيهم حيثُ يتَّهِمونني ولا زلتُ في أشْياعِهم أتقلَّبُ

فإنَّ الله قد غفر له بهذا البيت .قال : فانتهيت عن الكميت بعدها.

حدثني علي بن محمد ، قال :حدثني إسماعيل بن علي ، قال : حدثني إبراهيم

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩ / ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ١٩ / ١٥٢ .

ابن سعد الأسدي ، قال : سمعت أبي يقول :رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقال: من أي الناس أنت ؟ قلت : من العرب . قال : أعلم ، فمن أي العرب؟ قلت: من بني أسد ، قال :من أسد بن خزيمة ؟ قلت : نعم ، قال لي: أهلالٌّ أنت ؟ قلت : نعم ، قال :أتعرف الكميت بن زيد ؟ قلت : يا رسول الله! عمي ومن قبيلتي ، قال : أتحفظ من شعره شيئاً ،قلت :نعم ، قال أنشدني:

* طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطرَبُ *

قال :فأنشدته حتى بلغت إلى قوله (١):

فمـالِيَ إلا آلَ أحمـدَ شِيعةٌ ومالِيَ إلا مَشعبَ الحقِّ مَشْعَبُ

فقال لي :إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام ، وقل له :قد غفر الله لك بهذه القصيدة .

ويناقضه الخبر التالي ، وفيه : « وقال يعقوب بن إسرائيل في رواية عمّي خاصة عنه : حُدِّثْتُ عن المستهلّ بن الكُميت أنه قال : حضرتُ أبي عند الموت وهو يجود بنفسه ، ثم أفاق ففتح عينيه ، ثم قال :اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد، اللهم آل محمد – ثلاثاً–، ثم قال لي : يا بني! وددت أني لم أكن هجوت نساء بني كلب بهذا البيت:

مع العُضْر وطِوال عُسَفَاء ألْقَوْا بَـرَادِعَهُنَّ غـير مُحَصِّنينا

فعممتهن قذفاً بالفجور، والله ما خرجت بليل قط إلا خشيت أن أرمى بنجوم السماء لذلك .ثم قال : يا بني! إنه بلغني في الروايات أنه يُحفر بظهر

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٧ / ٢٨ - ٢٩ .

الكوفة خندقٌ يُخرَج فيه الموتى من قبورهم وينبشون منها ، فيحوَّلون إلى قُبورٍ غير قبورهم ، فلا تدفني في الظهر، ولكن إذا متّ فامضِ بي إلى موضع يقال له مكران ، فادفنِّي فيه . فَدُفِن في ذلك الموضع ، وكان أول من دُفِنَ فيه ، وهي مقبرة»[1] .

إنْ كانت الرواية الأولى ؛ التي تتحدَّث عن أنَّه قد غفر له ذنبه ، فلماذا الخشية من عذاب الله بهذا الشكل ؛ الذي نستطيع أنْ نسميه (مرض) لأنَّنا أُمِرْنا بالتوبة من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فلماذا يخشى أنْ يُنْبَشَ قبره وهو المغفور له ؟!! ومن التناقض أيضاً ، قول الأصفهاني ، يرويه عن محمد بن عبد الله المخزومي كما يدَّعي ؛ فيقول : « كان ابن جامع من أحفظ خلق الله لكتاب الله وأعلمه بما يحتاج إليه ، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلي الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس، ولا يصلي الناس الجمعة حتى يختم القرآن ثم ينصرف إلى منزله . قال هارون وحدثني علي بن محمد النوفلي قال حدثني صالح بن علي بن عطية وغيره من رجال أهل العسكر قالوا : قدم ابن جامع قَدْمَةً له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته ،وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء، ويركب حماراً مرِّيسيًّا في زيّ أهل الحجاز»[2].

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٧ / ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ٦ / ٣٠٦ .

إنَّ الخبر الأول وصف ابن جامع بصفات تعبدية رفيعة ، فهو من أحفظ خلق الله لكتاب الله ، وهو يصلي الفجر حتى طلوع الشمس ويقرأ القرآن كاملاً حتى صلاة الجمعة ، وكان كثير الصلاة ، يلبس لباس الفقهاء ، فهل تتلاءم هذه الصفات مع ما يذكره فيما يأتي ، يقول الأصفهاني : «وحدّث محمد بن الحسن قال : حدّثني أبو حارثة بن عبد الرحمن بن سعيد بن سَلْم عن أخيه أبي معاوية ابن عبد الرحمن قال : قال لي ابن جامع :لولا أنَّ القِمار وحبّ الكِلاب قد شغلاني لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبز.

أخبرني علي بن عبدالعزيز عن ابن خُرْدَاذْبَه قال :أهدى رجل إلى ابن جامع كلباً ، فقال :ما اسمه؟ فقال : لا أدري، فدعا بدفتر فيه أسماء الكلاب ، فجعل يدعوه بكل اسم فيه حتى أجابه الكلب » [1] .

مما ذكره من صفات هو لعبه القمار ، وهذا منهي عنه في الإسلام ، قال -تعالى- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [2]؛ ونلحظ في الآية تسمية الرجس التي أطلقت على هذه الكبائر مجتمعة، وقوله -تعالى-: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ وكأنّها مجموعها كُلّ واحد هو من عمل الشيطان.

ونهى الرسول الكريم ﷺ عن اقتناء الكلاب لقوله: «من اتخذ كلباً إلا كلب

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٦/ ٣٠٩ .

(٢) المائدة/ ٩٠ .

زرع أو غنم أو صيد ينقص من أجره كلَّ يوم قيراط» [(١)] ، ويقـول الأصـفهاني : كان إبراهيم يفضِّل ابن جامع ولا يقدِّم عليه أحـداً ، وابـن جـامع يميـل إليـه ، قال: كنَّا في مجلس الرشيد وقد غلب على ابن جامع النبيذ ، فغنَّى صـوتاً فأخطـأ في أقسامه ؛ فالتفت إليَّ إبراهيم الموصليُّ ، فقال : قد خَرِيَ فيه ؛ وفهمت قصده، قال : فقلت لابن جامعٍ : يا أبا القاسم ، أعِدِ الصوتَ وتحفَّظ فيه ، فانتبه وأعاده فأصاب . فقال إبراهيم[(٢)] :

أُعلِّمُهُ الرِّماية كلَّ يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعِدُهُ رَمَاني

ومن تتمة صفات ابن جامع التي تناقض صـفاته التـي ذُكِـرَتْ أولاً ، مـن حسن سمته وصلاته وعبادته ، يقول الأصفهاني : « وقال حماد عن مصعب بـن عبد الله قال :حدثني الطراز وكان بريد الفضل بن الربيع ، قال :لما مات المهدي وملك موسى الهادي أعطاني الفضل دنـانير ، وقـال : الْحَـقْ بمكـةَ فـأْتِني بـابن جامع واحْمِلْه في قبّة ولا تُعْلِمَنَّ بذا أحداً ؛ ففعلت فأنزلته عنـدي واشـتريت لـه جاريةً، وكان ابن جامع صاحبَ نساءٍ » [(٣)] ؛ فهو صاحب نساء .

وعن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق عن أبيه ؛ أنَّه قال : « كان سـبب عـزل العثماني أنَّ ابن جامع سأل الرشيد أنْ يأذن له في المهارشة بالديوك والكلاب ولا

---

(١) رواه مسلم «صحيح مسلم» كتاب المساقات ، بـاب الأمـر بقتـل الكـلاب ، ٥ / ٣٧، رقم الحديث (٤١١٢) .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٦ / ٣١٢ .

(٣) المصدر نفسه ٦ / ٣١٤ .

يُحَدُّ، في النبيذ فأذن له وكتب له بذلك كتاب إلى العثماني .فلما وصل الكتاب قال: كذبت! أمير المؤمنين لا يحل ما حرم الله ، وهذا كتاب مزور . والله لئن ثقفتك على حال من هذه الأحوال لأؤدبنك أدبك . قال :فحذره ابن جامع. ووقع بين العثماني وحماد اليزيدي ، وهو على البريد ، ما يقع بين العمال .فلما حج هارون ، قال حماد لابن جامع: أعني عليه حتى أعزله ؛ قال : أفعل. قال: فابدأ أنت وقل: إنه ظالم فاجر واستشهدني .فقال له ابن جامع : هذا لا يقبل في العثماني، ويفهم أمير المؤمنين كذبنا ، ولكني أحتال من جهة ألطف من هذه . قال: فسأله هارون ابتداءً فقال له :يا ابن جامع كيف أميركم العثماني ؟قال: خير أمير وأعدله وأفضله وأقومه بحق لولا ضعف في عقله .قال : وما ضعفه؟ قال : قد أفنى الكلاب، قال:وما دعاه إلى إفنائها، قال : زعم أن كلباً دنا من عثمان بن عفان[١] يوم ألقي على الكناس فأكل وجهه فغضب على الكلاب فهو يقتلها ، فقال :هذا ضعيف ، اعزلوه ، فكان سبب عزله»[٢].

إنَّ أخبار الأصفهاني تحمل مجموعة من الافتراءات ، فضلاً عمَّا تحمله من تناقضات في رسم شخصية ابن جامع ، فليس من صفة تعبدية إلا وألصقها به ، وليس من صفة سيئة نهى عنها الإسلام إلا وطغت على شخصيته ، فلم تعد

(١) أراد الطعن في الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بقوله: (أكل وجهه) ، وكأنَّما الخليفة يعتقد بصدق الحادثة ، فهو لا يعترض عليها ، وكأنَّما الخليفة هارون الرشيد بلا عقل ولا مستشار .

(٢) «الأغاني» ٦ / ٣١٩-٣٢٠ .

لشخصيته ملامح محددة ، بل أصبحت متحفاً غير منسجم في محتوياته .

ولربما ما أراده الأصفهاني هو أن يرسم شخصية متناقضة للمسلم ما بين صلاة وعبادة وقراءة قرآن ، وما يقابلها من انكباب على الشهوات والملذات ، ولكن هل يمكن أن يتخذ شخص مثل ابن جامع ليكون مقياساً للمسلمين ؟!!

ومن تناقض أقواله في النساء الشريفات، قول إسحاق بن الجصَّاص: « عن حماد الراوية قال :لما فرغت ليلى من شعرها أقبل الحجاج على جلسائه فقال لهم: أتدرون من هذه؟ قالوا : لا والله مارأينا امرأة أفصح ولا أبلغ منها ولا أحسن إنشاداً . قال :هذه ليلى صاحبة توبة . ثم أقبل عليها فقال لها :بالله يا ليلى أرأيت من توبة أمراً تكرهينه أو سألك شيئا يعاب ؟قالت :لا والله الذي أسأله المغفرة ماكان ذلك منه قط . فقال : إذا لم يكن فيرحمنا الله وإياه » [1] .

ويناقض هذا القول فينقل : «عن رجل يقال له ورقاء قال :سمعت الحجاج يقول لليلى الأخيلية :إن شبابك قد ذهب ، واضمحل أمرك وأمر توبة ، فأقسم عليك إلا صدقتني : هل كانت بينكما ريبة قط أو خاطبك في ذلك قط ؟ فقالت: لا والله أيها الأمير إلا أنه قال ليلة وقد خلونا كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له[2]:

وذي حاجة قلنا له لا تَبُحْ بها فليسَ إليها ما حييتَ سبيلُ

---

(١) المصدر نفسه ١١ / ٢٥٠ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١١ / ٢١٣ .

لنا صاحبٌ لاينبغي أن نخونَه وأنتَ لأُخرى فارغٌ وحليلُ

هناك تُقْسِم على أنَّه لم يطلب منها شيئاً يعاب ، وتقول قط ، فهذه الكلمة فيها تأكيد على قولها ، بل تأكيد قطعي ، يمنع كلَّ شيء بعده ؛ في حين أن الخبر الثاني فيه رغبة ، ورفض ، وشعر .

ومن النقول التي تشمئز منها النفوس السويَّة ، والتي نستشعر معها بالغضب والضيق لما نال تراثنا، وتأريخ أمتنا من افتراء وتشويه، ما يقوله الأصبهاني: «شهدتُ أهل المدينة إذا ذكروا الدلال وأحاديثه ، طوَّلوا رقابهم وفخروا به ، فعلمت أنَّ ذلك لفضيلة فيه »[١] .

والدَّلال يُقسم فيقول : «والله ما زنيت قط ولا زُنِيَ بي ، وإنِّي لأشتهي ما تشتهي نساؤكم ورجالكم »[٢] .

ينقل مثل هذه الأخبار التي تشير إلى مكانته وأن أهل المدينة يفاخرون به، وعن عفَّته في قسمه ، إلا أنَّه يأبى إلا أنْ يَسِمَ المجتمع جميعه بميسم خزيٍ وشنار، ففي الخبر التالي يخرج المجتمع عن عفته ، وعن فطرته السليمة النقيَّة ، ليرتضي أوضاعاً يأباها العقل السليم ، وكلُّ ذي لبٍ من الناس أجمعين ، فكيف بالعربي بما عُرِفَ عنه من عصبية وذود عن الشرف ، وسعيٍ نحو العفة والطهارة، محصناً بالإسلام ذاك الحصن المنيع ، أن ينتقل عنه كما يدَّعي ، عن

---

(١) المصدر نفسه ٤ / ٢٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٢٧٧ .

مصعب الزبيري في سبب العقوبة التي نالت الدَّلال ، فيقول : « أنا أعلم خلق الله بالسبب الذي من أجله خُصِيَ الدَّلال ؛ وذلك أنَّه كان القادم يقدم المدينة، فيسأل عن المرأة يتزوجها فَيُدَلُّ على الدَّلال ؛ فإذا جاءه قال له :صف لي من تعرف من النساء للتزويج ؛ فلا يزال يصف له واحدة بعد واحدة حتى ينتهي إلى ما يوافق هواه ؛ فيقول :كيف لي بهذه ؟ فيقول : مهرها كذا وكذا ، فإذا رضي بذلك أتاها الدلال ، فقال لها : إني قد أصبت لك رجلاً من حاله وقصته وهيئته ويساره ولا عهد له بالنساء ، وإنما قدم بلدنا آنفاً؛ فلا يزال بذلك يشوقها ويحركها حتى تطيعه؛ فيأتي الرجل فيعلمه أنه قد أحكم له ما أراد .فإذا سوي الأمر وتزوجته المرأة ، قال لها :قد آن لهذا الرجل أن يدخل بك ، والليلة موعده، وأنت مُغْتَلِمَةٌ شَبِقَةٌ جامَّة ؛ فساعة يدخل عليك قد دفقت عليه مثل سيل العرم، فيَقْذُرُكِ ولا يُعَاوِدُكِ ، وتكونين من أشأم النساءعلى نفسك وغيرك ، فتقول: فكيف أصنع ؟ فيقول :أنت أعلم بدواء[1]...ودائه وما يُسكِّن غُلْمتك، فتقول:أنت أعرف .فيقول :ما أجد له شيئاً أشفى من...فيقول لها : إن لم تخافي الفضيحة فابعثي إلى بعض الزنوج حتى يقضي بعض وطرك ويكف عادية... فتقول له: ويلك ! ولا كلَّ هذا ! فلا تزال المحاورة بينهما حتى يقول لها: فكما جاء علي أقوم : فأخففك وأنا والله إلى التخفيف أحوج . فتفرح المرأة فتقول: هذا أمر مستور... ؛ حتى إذا قضى لذته منها ، قال لها :أما أن تفقد ...وأمنت

---

(١) الفراغات في النص جميعها تدلُّ على كلمات فاحشة أو أجزاء من الجسد فاضحة .

العيب، وبقيت أنا .ثم يجيء إلى الزوج فيقول له : قد واعَدْتُها أن تدخل عليك الليلة ، وأنت رجل عزب ، ونساء المدينة خاصة يردن المطاولة في ... وكأني بك... فتبغضك وتمقتك ولا تعاودك بعدها ولو أعطيتها الدنيا، ولا تنظر في وجهك بعدها .فلا يزال في مثل هذا القول حتى يعلم أنه قد هاجت شهوته؛ فيقول له :كيف أعمل ؟قال :تطلب زنجية...حتى تسكن غلمتك ؛ فإذا دخلت الليلة إلى أهلك لم تجد أمرك إلا جميلاً . فيقول له ذاك : أعوذ بالله من هذه الحال، أزنا وزنجية ! لا والله لا أفعل ! فإذا أكثر محاورته قال له : فكما جاء عليّ قم ...حتى تسكن... ، فيفرح...فيقول له :قد استوى أمرك الآن وطابت نفسك، وتدخل على زوجتك...يملؤها سروراً ولذة...المرأة قبل زوجها،...الرجل قبل امرأته .فكان ذلك دأبه ، إلى أن بلغ خبره سليمان بن عبدالملك ، وكان غيوراً شديد الغيرة، فكتب بأنْ يخصيه وسائر المخنثين [بالمدينة ومكة] ، وقال :إن هؤلاء يدخلون على نساء قريش ويفسدونهن .فورد الكتاب على ابن حزم فخصاهم . هذه رواية إسحاق عن الزبيري .والسبب في هذا أيضاً مختلف فيه، وليس كل الرواة يروون ذلك كما رواه مصعب » [1] .

إنَّ قراءة في الخبر ، توضح بجلاء عمق استهدافنا بوصفنا مسلمين ، ففي الخبر مآخذ منها ، اختيار مصعب الزبيري راوية لمثل هذا الخبر ، ومنها فضح نساء ورجال المدينة أجمع ، وكأنَّما الدَّلال ينتقل في فضاء من الفحش غير المرئي ،

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٤ / ٢٦٧ - ٢٦٩ .

وكأنّما المرأة المدنية ليس لها إلا تلك الشهوة الفاضحة ، ثم أليس لها أهل أو أقرباء يقومون بأمر الخطبة ، حتى يدخل ويخرج هذا المخنث من دون رقيب أو حسيب أو حرس أو أهل يقومون على هؤلاء النسوة ، أهكذا تكون الخطبة أو الزواج ، فالأمر غير حاصل في عصرنا الراهن فكيف بقرن النبي ﷺ ، وهو خير القرون ، إنَّ ادِّعاءاته لَتُزْكِم الأنوف ، ولتصكّ الآذان ، وهو يشوه خير البلاد ، وخير القرون ؛ وذلك كله بأسلوب رخيص مفضوح لا يصعب اكتشاف زيفه وصنعته . ولا يصدِّقه إلا حاقد قد أعمى الحقد بصيرته ، أو معاند جاهل قد ارتمى في غباء التصديق بكلِّ ما يقرأ .

ومن التناقض ما يورده في بخل مسلم بن الوليد ، فهو يروي عن دعبل بن علي ، فيقول : « كان مسلم بن الوليد من أبخل الناس ، فرأيته يوماً وقد استقبل الرضا عن غلام له بعد موجدة ، فقال له : قد رضيت عنك وأمرت لك بدرهم»[1].

ويروي عن علي بن عمرو ، أنَّه قال : « حدَّثني مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغوائي ، قال : كنت يوماً جالساً في دكان خياط بإزاء منزلي ، إذ رأيت طارقاً ببابي ، فقمت إليه ، فإذا هو صديق لي من أهل الكوفة قد قدم من قم ، فسررت به ، وكأن إنساناً لطم وجهي ؛ لأنه لم يكن عندي درهم واحد أنفقه عليه ، فقمت فسلَّمت عليه ، وأدخلته منزلي ، وأخذت خُفّين كانا لي أتجمَّل بهما، فدفعتهما إلى جاريتي، وكتبت معهما رقعة إلى بعض معارفي في السوق ، أسأله أن

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩ / ٥١ .

يبيع الخفين ويشتري لي لحماً وخبزاً بشيء سميته ، فمضت الجارية وعادت إليَّ وقد اشترى لها ما قد حدَّدته له .... ثم جاء طارق وقال : إذا لقيت مسلم بن الوليد فادفع إليه هذه العشرة آلاف درهم ، يقول : فأخذت المبلغ ودخلت إلى منزلي والرجل معي، فأكلنا ذلك الطعام ، وازددت فيه وفي الشراب ، واشتريت فاكهة ، واتسمت ووهبت لضيفي من الدراهم ما يهدي به هدية لعياله »[1] .

هل ما جاء في الخبر هو فعل بخيل ، أم فعل عزيز النفس أبي كريم على نفسه وضيفه؟ الغريب أنَّ الخبرين يرويهما الأصفهاني ولا نعلم أيَّ الخبرين ينطبق على مسلم بن الوليد ، وهل هو بخيل أم كريم؟!

التناقض في رسم شخصية الخلفاء والنساء الشريفات

من تناقض الأصفهاني البيِّن ، ما وصف به الخليفة المهدي ، إذ يقول : «أخبرني حبيب بن نصر قال: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثني محمد بن الحجاج قال: قَدِمَ بشّار الأعمى على المهديّ بالرُّصافة فدخل عليه في البستان فأنشده مديحاً فيه تشبيب حسن ، فنهاه عن التشبيب لِغَيرةٍ شديدةٍ كانت فيه ، فأنشده مديحاً فيه ، يقول فيه :

كأنَّما جئتُه أُبَشِّرُهُ ولم أجِئ راغِباً ومُحتَلِبَا
يُزَيِّنُ المنبرَ الأشَمَّ بعِطْفِيهِ وأقوالُه إذا خَطَبَا
تشمُّ نَعْلاه في النَّدِيّ كما يُشَمُّ ماءُ الرّيحانِ مُنْتَهبا

---

(١) ينظر : المصدر نفسه ١٩ / ٤٢-٤٣ .

فأعطاه خمسة آلاف درهم وكساه وحمله على بغل وجعل له وِفَادةً في كلِّ سنةٍ ونهاه عن التشبيب البَتَّةَ »[١] .

ويقول : «أخبرني هاشم بن محمد قال: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثني خلاد الأرقط قال : لما أنشد المهدي قول بشار:

لا يُؤَيسنك من مُخَبَّأةٍ قولٌ تُغَلِّظه وإن جَرَحَا

عُسْرُ النساء إلى مُيَاسَرَةٍ والصَّعب يُمْكِنُ بعد ما جَمَحَا

فنهاه المهدي عن قوله مثل هذا »[٢] .

« ويضيف عمر بن شبه في الخبر ، أنَّه بعد أنْ بلغ الشعر الخليفة المهدي ثم قدم إلى الخليفة استنشده هذا الشعر فأنشده إياه ، وكان المهدي غيوراً ، فغضب وقال : تلك أمّك يا عاضّ[٣] ...أتحض الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبّآت ! والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في نسيبٍ لآتينَّ على روحك »[٤] .

يقول المسعودي : « إنَّ المهدي أمر بإحضار أبي العتاهية ، فأدخل إليه، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل في عتبة:

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصَّدَّ والملامات

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٣/ ٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٢١٨ – ٢١٩ .

(٣) عبارة قبيحة .

(٤) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٣/ ٢٣٨ .

ومتى وصلتك حتى تشكو صَدَّها عنك؟ قال: يا أمير المؤمنين! ما قلت ذلك بل أنا الذي أقول:

يا ناق حُثِّي بنا ولا تَهِني نفسك فيما ترين راحات
حتى تجيئي بنا إلى ملك تَوّجَهُ الله بالمَهابات
يقول للريح كلما عصفتَ هل لك ياريح في مُبَارَاتي
عليه تاجان فوق مفرقه تاج جمال وتاج إخباتِ

قال: فنكس المهديُّ رأسه، ونكت بالقضيب الذي كان في يده ثم رفع رأسه فقال: أنت القائل:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلتْ فأحْمِل إدلالها؟
وجارية من جواري الملو ك قد أُسْكِن الحسنُ سربالها

قال: وما علمك بما حواه سربالها. فأجابه معارضاً له فيه:

أتته الخلافة منقادة إليه تجررُ أذيالها
فلم تك تَصْلُحُ إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ثم سأله عن أشياء، فأفحم أبو العتاهية في الجواب، فأمر المهديُ بجلده نحواً من حد، وأخرج مجلوداً، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال، فقال:

بَخ بَخ يا عتب من أجلكم قد قَتَلَ المهديُّ فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناها، وفاض دمعها، وصادفت المهديَّ عند الخيزران، فقال: ما لعتبة تبكي؟ قالوا له: رأت أبا العتاهية مجلوداً، وقال لها: كيت وكيت، فأمر له

بخمسين ألف درهم، ففرقها أبو العتاهية على مَنْ كان بالباب، فكتب صاحب الخبر بذلك، فوجَّه إليه: ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها ؟ قال: ما كنت لآكل ثمن من أحببت، فوجَّهَ إليه بخمسين ألفاً أخرى، وحلف عليه أن لايفرقها، فأخذها وانصرف »[1] .

والمهدي معروف بورعه ، يروي ابن عبد ربه الأندلسي ، فيقول : « تخاصم أقوام عند أبي جعفر المنصور ، فاختاروا ابن أبي ذئب حكماً ، فقال له أبو جعفر المنصور: ما تقول في بني فلان؟ قال : أشرار من أهل بيت أشرار .قالوا: اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة. قال : ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال : يأخذ بالإحنة ، ويقضي بالهوى. فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ، والله لو سألتَه عن نفسك لرماك بداهية، أو وصفك بشرٍّ . قال : ما تقول فيّ ؟ قال : اعْفِني ، قال : لا بدّ أن تقول . قال: لا تعدلُ في الرعية ، ولا تقسم بالسوِيّة . قال : فتغيّر وجهُ أبي جعفر . فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل : طَهِّرْني بدمه يا أمير المؤمنين. قال : اقعد يا بنيّ ، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طَهور. قال : ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلامَ فقال : يا أمير المؤمنين! دعنا مما نحن فيه، بلغني أنّ لك ابناً صالحاً بالعراق -يعني: المهدي- قال : أما إنك قلت ذلك ، إنه الصوّام القوّام البعيد ما بين الطرفين »[2].

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » ٣ / ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٢) «العقد الفريد » ١ / ٧٨ .

ما أورده الأصفهاني والمسعودي وابن عبد ربه الأندلسي من أخلاق رفيعة للخليفة المهدي ينقضه الأصفهاني فيقول : أخبرني هاشم بن محمد قال: حدثنا الحسن بن علي العنزي قال: حدثني إبراهيم بن عقبة الرفاعي قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم التَّمار البصريّ قال: دخل المهدي إلى بعض حُجَر الحُرَم فنظر إلى جارية منهن تغتسل ، فلما رأته حصرت ووضعت يدها على[1]...فأنشأ يقول:

* نظرت عيني لحيني *

ثم ارتج عليه ، فقال : مَن بالباب من الشعراء ؟ قالوا : بشار، فأذن له فدخل، فقال له أجز:

* نظرت عيني لحيني *

فقال بشار:

نظرتْ عيني لحَيْني نَظَراً وافق شَيْني
سَتَرَتْ لما رأتني دونَهُ بالراحتَينِ
فَضلتْ منه فُضُولٌ تحت طَيِّ العُكْنَتَين

فقال له المهدي : قبحك الله ويحك ! أكنت ثالثنا ! ثم ماذا ؟فقال :

فتمنيت وقلبي للهوى في زفرتين
أنني كنت عليه ساعة أو ساعتين

---

(١) كلمة تدلُّ على عورة .

فضحك المهدي وأمر له بجائزة؛ فقال : يا أمير المؤمنين! أقنعت من هذه الصفة بساعة أو ساعتين ، فقال : اخرج عني قبحك الله ! فخرج بالجائزة »[١] .

ومن التناقض في رسم شخصية نساء بيت الخلافة ، قول الأصفهاني في علية: «وكانت علية حسنة الدين ، وكانت لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة ؛ فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب ، فلا تلذ بشيءٍ غير قول الشعر في الأحيان ، إلا أن يدعوها الخليفة إلى شيءٍ فلا تقدر على خلافه. وكانت تقول : ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حلَّل منه عوضاً ، فبأي شيءٍ يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته ! وكانت تقول : لا غفر الله لي فاحشةً ارتكبتها قط ، وما أقول في شعري إلا عبثاً »[٢] .

وعن سعيد بن إبراهيم ، قال : « كانت عِلِيَّةُ تُحبُّ أن تراسل بالأشعار من تختصُّه، فاختصت خادماً يقال له «طلٌّ » من خدم الرشيد، تراسله بالشعر، فلم تره أياماً؛ فمشت على ميزاب وحدثته وقالت في ذلك :

قد كان ما كلّفته زمنا يا طلّ من وجدٍ بكم يكفي
حتى أتيتك زائراً عجلاً أمشي على حتف إلى حتفي

فحلف عليها الرشيد ألا تكلِّم طلًّا ولا تسميه باسمه، فضمنت له ذلك .
واستمع عليها يوماً وهي تدرس آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله -عز

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٣ / ٢٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ / ٢٠٠ .

وجل -: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فأرادت أن تقول: « فَطَلٌّ » فقالت: فالذي نهى عنه أمير المؤمنين. فدخل الرشيد فقبل رأسها وقال: قد وهبت لك طلًّا ولا أمنعك بعدها من شيءٍ تريدينه. ولها في طَلّ هذا عِدَّةُ أشعارٍ فيها له صنعة. منها:

يا ربُّ إنّي قد غرضت بهجرها ... فإليكَ أشكو ذاكَ يا ربّاهُ
مولاةُ سوءٍ تستهينُ بعبدها ... نِعْمَ الغلامُ وبِئْسَتِ المولاهُ
طَلٌّ ولكنّي حُرِمْتُ نعيمَهُ ... وهَواهُ إنْ لمْ يُغِثْني اللهُ
يا رب إنْ كانتْ حياتي هكذا ... ضرّاً عليّ فما أريدُ حياهُ

الشعر والغناء لها خفيف ثقيل مطلق في مجرى الوسط. وقد ذكر ابن خرداذبه أن الشعر لِنُبَيهٍ الكوفي، وأنه هَوِيَ جارية تغنّي، فتعلّم الغناء من أجلها وقال الشعر، ولم يزل يتوصّل إليها بذلك حتى صار مقدّماً في المغنّين، وأن هذا الشعر له فيها والصنعة أيضاً »[1].

لننظر إلى الخبرين معاً، فهي حسنة الدِّين، إلا أنّها تغنّي، وتشرب النبيذ المسكر، وهي تعشق الغلمان، ثمَّ إن الخليفة هارون الرشيد، ذاك الخليفة الجبل المهيب، وهو من بيت النبوة، ومن الخلفاء المعدودين والذي انتهت بخلافته خلافة العرب للمسلمين. مثل هذا الخليفة يهب لأخته غلاماً تعشقه ؟!!! فمن يكون حينئذ؟!!!.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ٢٠١.

ثم يفند الأصفهاني خبره فيقول : « قد ذكر ابن خرداذبه أن الشعر والغناء هو (لنبيه الكوفي) ، إذن الشعر ليس لعليَّة ولا الغناء ، فالأبيات لشاعر في جارية يعشقها ، لا لعلية في غلام تعشقه ، وشتان ما بين الخبرين ، فما قاله تالياً نفى ما قاله أولاً نفياً قاطعاً ، إن أخبار الأصفهاني من وحي خيال مريض مُتْعَب شاقَّه غضبه وحنقه على المجتمع الإسلامي ، وهي حالة معروفة تصيب من لديه عاهة نفسيَّة أو جسدية يعكسها عداءً لمجتمعه ؛ ولربما هناك دواعٍ أخرى .

ومن التناقض في وصف شخصيَّة النساء ما نقله من : « أنَّ الثُّرَيَّا واعَدَتْ عمر بن أبي ربيعة أن تزوره ، فجاءت في الوقت الذي ذكرته ، فصادفت أخاه الحارث قد طرقه وأقام عنده ، ووجَّه به في حاجة له ونام مكانه وغطى وجهه بثوبه ، فلم يشعر إلا بالثريا قد ألقت نفسها عليه تُقَبِّلُهُ ، فانتبه وجعل يقول : اعْزُبِي عني فلست بالفاسق ، أخزاكما الله ! فلما علمت بالقصة انصرفت . ورجع عمر فأخبره الحارث بخبرها ؛ فاغْتَمَّ لما فاته منها، وقال: أما والله لا تمسُّكَ النارُ أبداً وقد ألقت نفسها عليك ، فقال له الحارث : عليك وعليها لعنة الله »[1] .

ثم تزوجت الثريا سهيلاً «فمات عنها سهيل أو طلقها ، فخرجت إلى الوليد ابن عبد الملك وهو خليفة بدمشق في دَيْنٍ عليها ، فبينا هي عند أُمِّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، إذ دخل عليها الوليد فقال : من هذه ؟ فقالت : الثريا جاءتني تطلب إليك في قضاء دين عليها وحوائج لها . فأقبل عليها الوليد فقال:

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١ / ٢٣١ .

أتروين من شعر عمر بن أبي ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعمْ ، أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً عفيف الشعر » [١] .

أين قولها: (أما إنَّه يرحمه الله كان عفيفاً، عفيف الشعر) من قول الأصفهاني في الخبر الذي يسبقه بما فيه من حبكة واضحة ، وخيال ينسج أحداثه ، فيقول : (فلم يشعر إلّا بالثريّا قد ألقت نفسها عليه تقبِّله) . إن بين الخبرين تناقض غريب يصوِّر شدَّة عنت الأصفهاني في إيراده الأخبار ، من دون تدقيق أو تمحيص .

التناقض المنطقي

لا بُدَّ للمتلقِّي أن يعرض ما يقرأ على عقله ، وأن يمحِّصَه تمحيصاً عقليًّا منطقيًّا للوصول إلى ما بُثَّ فيه من أفكار وآراء ، ومن ثم التعرُّف على ما أراده الباثُّ من وراء تلك الأفكار والآراء .

فإنَّا إذا ما عددنا القراءة من أولويات الثقافة ، فإن تلك القراءة يجب أن تكون واعية متأنية ، وأن يملك القارئ زمام ما يقرأ من اندفاع أو توجيه من قبل منشئ النص ، فبعضهم يتخذ من كتاباته مجالاً لترويج أفكار منحرفة ، أو آراء متطرفة ، فعلى القارئ أحيانا أن يملك موهبة تؤهِّله لقراءة ما بين السطور، فلربما تلك القراءة هي التي توصله إلى الغرض من وراء إنشاء النص، خاصة إذا ما كان مُنشئه ذكيًّا ؛ قد استطاع التلاعب بالألفاظ والمعاني والأفكار .

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٣٤ ٢٣٥ .

فالوعي بمضامين النص المُنشأ يُجنِّب المتلقي من السقوط في حبائل بعض المؤلفين ، حتى لا يكون إمَّعة تُعلَّق عليها أهداف ومقاصد بعيدة عن توجهات القارئ الحقيقية .

ولو أنَّنا استقرأنا بعض كتابات الأصفهاني في «الأغاني»، أو المسعودي في «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، لوجدنا من ذلك الكثير ، فمما يرفضه العقل والمنطق السليم ، ما ذكره من مهور للسيدة عائشة بنت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنها ، إذ أنَّ مهريها من زيجتين متتاليتين كان ألفي ألف درهم ، وقد انفرد الأصفهاني في روايته بمثل هذه المبالغ الكبيرة بوصفها مهوراً للسيدة عائشة بنت طلحة .

ثم هو يروي ، فيقول : « استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج ، فأذن لها وقال : ارفعي حوائجك واستظهري ؛ فإنَّ عائشة بنت طلحة تحجُّ ، ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها . فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها . ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا: عائشة عائشة ، فضغطهم، فسألت عنه فقالوا : هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذا إلى سننها . ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاث مئة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت : عاتكة ما عند الله خير وأبقى »[1].

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١١ / ١٩٤ .

يلحظ ما في الخبر من أُبَّهة بالغة ، لا يصدقها عقل ولا منطق ، ثم يأتي بما يناقض ذلك كله بعد سنوات قليلة ، ليجعلها تمدُّ يديها تطلب المعونة فيُنقل عن ابن عائشة ، يقول : وحدثني أبي أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام ، فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق . قال : فإني أبل رحمك وأعرف حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال : إن عائشة عندي، فاسمروا عندي الليلة فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته . فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة. فأمر لها بمئة ألف درهم وردها إلى المدينة »[1] .

ينثر في الخبر جملة من الافتراءات ، من أبرزها علم السيدة عائشة بنت طلحة بالنجوم ، والأدهى هو أن ذلك العلم أخذته من أمِّنا السيدة عائشة -رضوان الله عليها-؛ بوصفها خالتها ومن تربَّت في بيتها ، إنَّ وعينا بسيرة السيدة عائشة -رضوان الله عليها- يحتِّم رفضنا لمثل ما جاء به الأصبهاني ، ويحتِّم مراجعة ما يقوله هو وسواه طعناً في رموزنا وتأريخنا المجيد .

وعن عبد الله بن عيسى الماهاني قال : « دخلت يوماً على إسحاق بن إبراهيم الموصلي في حاجة ، فرأيت عليه مُطرَف خز أسود ما رأيت قطُّ أحسن منه ، فتحدثنا إلى أن أخذنا في أمر المطرف فقال : لقد كان لكم أيام حسنة ودولةٌ

---

(١) المصدر نفسه ١١/ ١٩٥ .

عجيبةٌ، فكيف ترى هذا ؟ فقلت له : ما رأيت مثله . فقال : إنَّ قيمته مائة ألف درهم ، وله حديث عجيب . فقلت : ما أُقوِّمه إلا نحواً من مئة دينار . فقال إسحاق : اسمع حديثه : شربنا يوماً من الأيام ، فبتُّ وأنا مثخنٌ ، فانتبهت لرسول محمد الأمين ، فدخل عليَّ فقال لي : يقول لك أمير المؤمنين عجل إليَّ وكان بخيلاً على الطعام فكنت آكلُ قبل أن أذهب إليه فقمتُ فتسوَّكتُ وأصلحت أمري ، وأعجلني الرسول عن الغداء . فقمت معه فدخلت عليه وإبراهيم بن المهدي جالس عن يمينه وعليه هذا المطرف وجُبَّةُ خزّ دَكْناء . فقال لي محمد : يا إسحاق تغدَّيتَ ؟ قلت: نعم يا سيدي. قال : إنك لَنَهِمٌ ، أهذا وقت غداء ! فقلت : أصبحت يا أمير المؤمنين وبي خمار ، فكان ذلك مما حَدَاني على الأكل . فقال لهم : كم شربنا ؟ فقالوا : ثلاثة أرطال . فقال : اسقوه مثلها . فقلت : إن رأيت أن تفرق عليَّ ! فقال : يسقى رطلينِ ورطلاً . فدفع إليّ رطلان فجعلت أشربهما وأنا أتوهم أن نفسي تسيل معهما ، ثم دفع إليّ رطل آخر فشربته فكأن شيئاً انجلى عني . فقال غنِّني :

كُلَيبٌ لَعَمْرِي كان أكثرَ ناصراً   وأَيْسَرَ جُرماً منك ضُرِّج بالدَّمِ

فَغنّيته ؛ فقال : أحسنت وطرب . ثم قام فدخل . وكان يفعل ذلك كثيراً ، يدخل إلى النساء ويَدَعُنَا . فقمت في إثر قيامه فدعوت غلاماً لي فقلت : اذهب إلى بيتي وجئني بِبِزْمَاوَرْدَتَيْنِ ولُفَّهُما في منديل واذهب رَكضاً وعَجِّل . فمضى الغلام فجاءني بهما. فلما وافى الباب ونزل عن الدابة وانقطع البِرْذَون فنفق من شدة ما ركضه، وأدخل إلي البِزْمَاوَرْدَتَيْنِ فأكلتُهما ورجعتْ إليّ نفسي وعُدْتُ إلى

مجلسي»[١].

إن ما ورد في الخبر يناقض منطقيًّا خُلُقَ البخل ، فالبخيل قد يبخل على الناس جميعاً ، وقد يكون بخيلاً على الناس دون أهله ، وقد يبخل على أهله دون نفسه ، غير أنَّ خليفة يوصف بالبذخ وأنَّه يمنح (ألف ألف درهم) من أجل ثلاثة أبيات مغناة [٢] لا يوصف بالبخل في الطعام ؛ وهل يصدق أنَّ منزل خليفة يكون فيه عشرات الساكنين والخدم والحرس ، ولا يوجد فيه ما يُطعم فمَ جائع واحد ، إنَّ المنطق والمعقولية يقفان بالضدِّ من هذا الافتراء الواضح .

التناقض في الأحداث

إن رواية «الأغاني» للأحداث لا يُعتدُّ بها للتناقض فيما بينها ، فهو يروي الحدث بشكلين ؛ ولربما بأشكال متعددة .

فمن التناقض الثنائي في إيراد الأحداث ، ما ينقله الأصفهاني عن عَون بن محمد الكندي، إذ يقول : «كان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يَهوَى جارِيَةً نصرانية، فجاءته يوماً تُودِّعهُ، فأعلمته أن أباها يريد الانحدار إلى بغداد والمضيّ بها معه، فقال في ذلك وغنّى فيه[٣]:

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٠ / ١٤٩- ١٥٠ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه ٥ / ٣٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٩ / ٢٧٠ .

أفـدي التـي قلـت لهـا والبَـينُ منـا قـد دَنَـا

فَقْـدُكِ قـد أنْحَـل جسمـ ـي وأذاب البَـدَنَا

قالـت: فمـاذا حِيلَـتي كـذاك قـد ذبْـتُ أنـا

باليَـأسِ بعـدي فـاقتنع قلـت :إذا قَـلَّ الغِنَـا

ثم ينقل عن شيبة بن هشام كلاماً يناقض الأول ، كما أنَّه يورد شعراً مخالفاً، يقول : «كان عبد الله بن العباس يوماً جالساً ينتظر هـذه النصرانية التـي كـان يهواها ، وقد وعدته بالزيارة ، فهو جالس ينتظرها ويتفقدها إذ سقط غُراب على بَرَّادَةِ دَارِه ، فَنَعِبَ مَرَّةً واحدة ثم طار فتطيَّر عبد الله من ذلك ولم يَـزَلْ ينتظرهـا يومه فلم يرها ، فأرسل رسوله عِشاءً يسأل عنها ، فعرف أنها قد انحـدرت مـع أبيها إلى بغداد ، فتنغَّص عليه يومه ، وتفـرَّق مـن كـان عنـده ، ومكـث مـدَّة لا يعرف لها خبراً ، فبينا هو جالس ذات يوم مع أصـحابه ، إذ سـقط هدهـد عـلى برادته ، فصاح ثلاثة أصوات وطار ، فقال عبد الله بن العباس : وأي شيء أبقى الغراب للهدهد علينا ؟وهل ترك لنا أحداً يؤذينا بفراقه ؟ وتطيّر من ذلك ، فـلما فرغ من كلامه حتى دخل رسولها يعلمه أنها قد قدمت منذ ثلاثة أيام ، وأنها قـد جاءته زائرة على إثر رسولها ، فقال في ذلك من وقته[1] :

سـقاكَ الله يـا هدهـدُ وسـمياً مـن القَطْـرِ

كـما بـشَّرْتَ بالوصـلِ ومـا أنـذَرْت بـالهَجْرِ

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩ / ٢٥١ - ٢٥٢ .

فكم ذلك من بُشرى أتتني منك في ستْرِ
كما جاءت سليمان فأوفت منه بالنذْرِ
ولا زالَ غرابُ البَيْن في قُفّاعَة الأسْرِ
كما صَرَّحَ بالبَيْن وما كُنتُ به أدري

ومن التناقض البيِّن أيضاً : «أنَّ الرشيد طلب من الناطفيِّ جاريته ، فأبى أنْ يبيعها بأقلَّ من مئة ألف دينار ، فقال : أعطيك مئةَ ألف دينار على أن تأخذ بالدينار سبعةَ دراهم، فامتنع عليه ، وأمر أن تحمل إليه ، فذكروا أنها دخلت مجلسه، فجلست في هيئتها تنتظره فدخل عليها ، فقال لها : ويلك إن هذا قد اعتاصَ عليَّ في أمرك ، قالت : وما يمنعك أنْ توفيه وترضيه ؟ فقال : ليس يقنع بما أعطيه ، وأمرها بالانصراف . فبلغني أنَّ الناطفي تصدق بثلاثين ألف درهم حين رجعت إليه ، فلم تزل في قلب الرشيد حتى مات مولاها ، فلما مات بعث مسروراً الخادم ، فأخرجها إلى باب الكرخ ، فأقامها على سرير وعليها رداء رشيديّ قد جلَّلَها ، فَنُودي عليها : من يزيد ؟ بعد أن شاور الفقهاء فيها ، وقال: هذه كَبِدٌ رَطِبَة ، وعلى الرجل دَيْنٌ ، فأشاروا ببيعها ، قال : فبلغني أنها كانت تقول وهي في المصطبة أهان الله من أهانني ، وأذلَّ من أذلَّني ، فلكزها مسرور بيده ، وبلغ بها مسرور مئتي ألف درهم ، فجاء رجل ، فقال : عليّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم ، فلكزه مسرور ، وقال : أتزيد على أمير المؤمنين! ثم بلغ بها مئتين وخمسين ألفاً ، وأخذها له قال : ولم يكن فيها شيء يعاب ، وطلبوا

لها عيباً لئلّا تصيبها العين ، فأوقعوا بخنصر رِجلها شيئاً . وأولدها ابنين قال : أظنهما ماتا صغيرين ثم خرج بها إلى خراسان ، فمات هناك وماتت عِنان بعده»[1].

ثم يقول : « أخبرني الحسن بن عليّ قال :حدثنا الحارث بن يحيى بن حمد بن أبي مية قال :حدثني يحيى بن محمد : أنَّ الرشيد كان يساوم بعِنان جارية النَّطَّاف، فبلغ ذلك أمَّ جعفر، فشقَّ عليها، فدسَّت إلى أبي نواس أن يحتالَ في أمرها فقال يهجوها :

إنَّ عِنان للنَّطَّاف جاريةٌ أصبح... [2].ميدانا
ما يشتريها إلا ابنُ زانية أو قَلْطَبَانٌ [3]يكون مَن كانا

فبلغ ذلك الرشيد فكان يقول: لعن الله أبا نواس وقبحه، فلقد أفسد عليّ لذتي في عنان بما قال فيها ومنعني من شرائها » [4] .

في الخبر الأول اشترى الخليفة الرشيد عنان ، وأنجب منها ، وفي الخبر الثاني، لم يقدر على شرائها ، ومنع منها ؟!!

ومن التناقض أيضاً ، ما يقوله في مروان بن أبي الجنوب: « أنَّه كان يمدح

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢٣ / ٩٩ .

(٢) عبارة فاحشة .

(٣) قلطبان : ديُّوث ، أصلها القلتبان ، لفظة قديمة عند العرب ، ثم قلبت إلى القرطبان ، ينظر «لسان العرب» ، ابن منظور ، ١ / ٦٨٩ ٦٩٠ ، مادة / قطب .

(٤) «الأغاني » ٢٣ / ١٠١ .

المتوكل ، ويتقرَّب إليه بهجاء آل أبي طالب ، فتمكَّن منه وقَرُب إليه ، وكسب معه مالا كثيراً ، فلمَّا أفضت الخلافة إلى المنتصر تجنَّب مذهب أبيه في كلِّ أمر ، فطرده وحلف ألا يدخل إليه أبداً لما كان يسمعه منه في أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه»(١) .

لكنَّه ينقض هذا السبب ، بسبب غيره يذكره في خبر آخر ؛ فيقول : «حدثني المرزبان بن الفرور أن حاجب المنتصر قال : إن مروان بن أبي حفصة الأصغر المكنى أبا السمط استأذن على المنتصر لما ولي الخلافة ، فقال : والله لا أذنت للكافر ابن الزانية ، أليس هو القائل:

وحكَّم فيها حاكمين أبوكُمُ   هما خَلَعاه خلع ذي النَّعْلِ للنَّعْل

قولوا له : والله لا وصلت إليَّ أبداً ، فلمّا بلغه هذا القول عَمِل هذا الشعر :

لقد طال عهدي بالإمام محمد   وما كنت أخشى أن يطول به عهدي

وذكر الأبيات كلها. قال :وسأل بنانَ بن عمرو ، فصنع فيه لحناً وغنّى به المنتصر ، فلما سمعه سأل عن قائلها ، فأخبرتُه ، فقال : أما الوصول إليَّ فلا سبيل إليه» (٢) .

ومن التناقض أيضاً ، قوله : «أخبرني محمد بن عمران الصيرفي قال :حدثنا العنزي قال: حدثنا علي بن منصور المؤدب أن صديق المطيع دعاه إلى بستان له

(١) المصدر نفسه ٢٣ / ٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢٣ / ٢١٩ .

بِكَلْواذى ، فمضى إليها ، فلم يَسْتَطِبْها ، فقال يهجوها: (خفيف) [١]

بلـدةٌ تُمْطِـر الـترابَ عـلى النـا　　س كـما يمطـر الـسماءُ الـرَّذَاذَا

وإذا مـــا أعـــاذ ربي بـــلاداً　　من خرابٍ كبعض ما قد أعـاذا

خربت عاجلاً ولا أمهلـت يـو　　مـاً ولا كـان أهلهـا كَلْـواذى

وفيما يقول نقلاً عن الهيثم بن عدي « كان مطيع بن إياس منقطعاً إلى جعفـر ابن المنصور ، فطالت صحبته له بغير فائدة ، فاجتمع يوماً مطيع وحماد عجـرد ويحيى بن زياد ، فتذاكروا أيام بني أمية وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفـادوا فيهـا، وحسْنَ مملكتهم وطيب دارهم بالشام ، وما هم فيه ببغداد مـن القحـط في أيـام المنصور، وشدَّة الحرِّ وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثروا ، فقال مطيـع بـن إياس، قد قلت في ذلك شعراً فاسمعوا قالوا : هات ، فأنشدهم (خفيف) [٢]:

حبّـذا عيـشنا الـذي زال عنـا　　حبـــذا ذاك حـين لا حبّـــذا ذا

أين هذا مـن ذاك ؟ سـقياً لهـذا　　ك ولـــسنا نقـــول سَـــقياً لهـــذا

زاد هـــذا الزمـــان عُـــسراً وشرًّا　　عنـــدنا إذا حلّنـــا بغـــداذا

بلدةٌ تُمطرُ الـترابَ عـلى النـاس　　كـما يُمطـرُ الـسماءُ الـرذاذا

خَرِبَتْ عاجلاً وأخرب ذو العر　　ش بـأعمال أهلهـا كلـواذى

في الأبيات ضعف ، وتركيب ركيك ، وفيها مباشرة تخلو من الشعرية ، فـلا

---

(١) المصدر نفسه ١٣ / ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) «الأغاني» ١٣ / ٣٤٤ - ٣٤٥ .

تزيد عن كونها أفكاراً سطرتْ شعراً، ولو قيلت نثراً لما زادت على النثر شيئاً، وهي لا تدلُّ على شعرية شاعر مثل مطيع بن إياس، وإنْ سلَّمنا بأنَّ الأبيات له، فإنَّ وصفها للحدث تتناقض مع وصفها للأحداث في الخبر السابق.

وقد تتعدد الروايات للحدث الواحد، وتتناقض مشاهده فلربما ينسج الأصفهاني حول الخبر أحداثاً جديدة ومُلفَّقة تتلاءم مع رغباته وأهدافه في النيل من شخصيات إسلامية لها مكانتها الكبيرة في صدر الإسلام، يقول الأصفهاني: «أنَّ عبد الملك بن مروان خيَّره في سنة خمس وسبعين هجرية بين مئة ألف درهم، أو قضاء دينه أو أن يولِّيه مكة سنة، فولَّاه مكة، ثم حج الناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذٍ، وكان يهواها، فأرسلت إليه: أخِّر الصلاة حتى أفرغ من طوافي، فأمر المؤذنين فأخَّروا الصلاة حتى فرغت من طوافها، ثم أقيمت الصلاة؛ فصلَّى الناس، وأنكر أهل الموسم ذلك من فعل، وأنَّبه، فقال: ما أهون والله غضبه إذا رَضِيَتْ، والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل، لأخَّرت الصلاة إلى الليل، ثم أرسل إليها: يا ابنة عمي! ألـمِّي بنا أوعدينا نتحدَّث فيه، فقالت: في غدٍ أو بعد غدٍ، ثم رحلت من ليلتها، فقال الحارث[1]:

ما ضرّكم لو قلتم سدداً إنَّ المطايا عاجلٌ غَدُهَا

ولها علينا نعمةٌ سَلفتْ لسنا على الأيام نَجْحَدُهَا

ويرويها بشكل آخر، فيقول: «أخبرني محمد بن مزيد والحسين بن يحيى

(١) ينظر: «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٣/ ٣١٤ - ٣١٥.

قالا: أخبرنا حماد بن إسحاق عن أبيه عن الزبيري قال:

أذّن المؤذن يوماً وخرج الحارث بن خالد إلى الصلاة ، فأرسلتْ إليه عائشة ابنة طلحة : إنَّه بقيَ عليَّ شيءٌ من طوافي لم أُتِمَّهُ ، فقعد وأمر المؤذنين فكفُّوا عن الإقامة وجعل الناس يصيحون حتى فَرَغَتْ من طوافها ، فبلغ ذلك عبد الملك ابن مروان ، فعزله وولى مكة عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وكتب إلى الحارث : ويلك! أتركت الصلاة لعائشة بنت طلحة ! فقال الحارث : والله لو لم تَقضِ طوافها إلى الفجر لَمَا كَبَّرْتُ ؛ وقال في ذلك[1]:

لم أُرَحِّبْ بأنْ سَخِطَتْ ولكن مرحباً أن رضيتِ عنَّا وأهلا
إنَّ وجهاً رأيتُه ليلةَ البد ر عليه انثنى الجمالُ وحلَّا
وجهُهَا الوجهُ لو يُسال بها المُز نُ من الحسن والجمال استهلَّا
إن عندَ الطَّواف حين أتته لَجَمالاً فعمَّا وخُلْقاً رِفَلاً

كم كان عمر السيدة عائشة بنت طلحة بن عبد الله -رضوان الله عليهم- سنة خمس وسبعين ، ليهواها والي مكة ؟؟! وأين ذلك من شرفها ومنزلتها ؟!! وكيف له التلاعب بالعبادات ؟!! هذه الأحداث تناقضها رواية أخرى ، يقول فيها : « أخبرني محمد بن خلف بن المَرْزُبان قال: حدثنا أبو الحسن المَرْوَزِيّ قال: حدثنا محمد بن سلام عن يونس قال : لما حجّت عائشة بنت طلحة أرسل إليها الحارث بن خالد وهو أمير مكة : أنعم الله بك عيناً وحيّاك ، وقد أردت زيارتك فكرهت ذلك إلا عن أمرك ، فإن أذِنْت فيها فعلتُ ؛ فقالت لمولاة لها جَزْلَةٍ :

(١) «الأغاني» ٣/ ٣٣٥ .

وما أَرُدُّ على هذا السفيه ؟ فقالت لها: أنا أكفيك ، فخرجت إلى الرسول وقالت له : اقرأ عليه السلام، وقل له : وأنت أنعم الله بك عيناً وحياك ، نَقْضِي نُسكَنَا ثم يأتيك رسولنا إن شاء الله ، ثم قالت لها : قومي فطُوفي واسْعَيْ واقْضِي عُمْرَتَكِ واخرجي في الليل ، ففعلتْ ؛ وأصبح الحارث فسأل عنها فَأُخْبِرَ خبرها، فوجَّه إليها رسولاً بهذه الأبيات ، فوجدها قد خرجت عن عمل مكة ، فأوصل الكتاب إليها ، فقالت لمولاتها : خذيه فإنِّي أَظُنُّهُ بعض سفاهاته، فأخذته وقرأته وقالت له : ما قلنا إلا سَدَداً وأنت فارغ للبطالة ، ونحن عن فراغك في شغل»[1].

الأحداث تتناقض ، والأشخاص تختلف ، والقصة لتضخم حتى لتغدو حكايات متراكبة ، فيها غرائب ، وطرائف ، وفيها نساء من أشرف بيوت مكة ، هذا كله والموقف موقف عبادة وحجٌّ وطواف وسعيٌ ؛ وكأنها لم يعد لنساء مكة من حديث سوى حديث الغزل ، وسماع الغناء ، وهنَّ من أشرفِ بقعة في الأرض .

يقول : «لما أن قدِمتْ عائشة بنت طلحة أرسل إليها الحارث بن خالد وهو أمير على مكة : إنِّي أريد السلام عليك ، فإذا خفّ عليك أَذِنْتِ ، وكان الرسول الغريض ، فقالت له : إنّا حُرُمٌ ، فإذا أحللنا أَذِنَّاك ، فلَمَّا أَحَلَّتْ سَرَتْ على بغلاتها ، ولَحِقَها الغريضُ بعُسفان أو قريب منه ، ومعه كتاب الحارث إليها :

***ما ضركم لو قلتم سددا ***

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٣/ ٣٢١ .

- الأبيات المذكورة - ؛ فلما قرأت الكتاب قالت : ما يدع الحارث باطِلَهُ ! ثم قالت للغريض : هل أحدثت شيئاً ؟ قال : نعم ، فاسمعي ، ثم اندفع يغني في هذا الشعر؛ فقالت عائشة : والله ما قلنا إلا سَدَدًا ، ولا أردنا إلا أن نشتري لسانَهُ ؛ وأتى على الشعر كله ، فاستحسنته عائشة ، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب، وقالت: زِدْنِي ، فغناها في قول الحارث بن خالد أيضاً :

زَعَموا بأَنَّ البَيْن بعد غَدٍ ... فالقلبُ ممَّا أَحْدَثُوا يَجِفُ

والعَينُ منذُ أُجِدّ بينهمُ ... مثل الجُمان دموعُها تَكِفُ

ومقالها ودموعها سُجُمٌ ... أَقْلِلْ حنينَك حين تَنْصَرِفُ

تشكو ونشكو ما أَشَتَّ بنا ... كلٌّ بوَشْك البَيْن مُعْتَرِفُ

قال : فقالت له عائشة : يا غريض ! بحقي عليك أهو أَمَرَكَ أن تغنيني في هذا الشعر ؟ فقال : لا ، وحياتك يا سيدتي ! فأمرت له بخمسة آلاف درهم ، ثم قالت له : غَنِّنِي في شعر غيره ؛ فغنّاها [قول عمر فيها] :

أَجْمَعتْ خُلّتي مع الفجر بينا ... جَلّلَ الله ذلك الوجهَ زَيْنَا

أجمعتْ بينَها ولم نَكُ منها ... لَذَّةَ العيشِ والشباب قَضَيْنا

فتولت حُمُولُها واستقلّت ... لم نَنَلْ طائلاً ولم نُقْضَ دَيْنا

ولقد قلتُ يومَ مكةَ لمّا ... أرسلتْ تقرأُ السلامَ علينا

أنعم اللهُ بالرسول الذي أُر ... سِل والمُرسِل الرسالةَ عيْنا

الشعر لعمر بن أبي ربيعة ، والغناء للغريض خفيف ثقيل بإطلاق الوتر في

مجرى البنصر عن إسحاق ، وغيره ينسبه إلى ابن سريج . وفيه لمعبد خفيف ثقيل بالوسطى عن عمرو ، وأظنه هذا اللحن قال : فضَحِكَتْ ثم قالت : وأنت يا غريض فأنعم الله بك عيناً ، وبابن أبي ربيعة عيناً ، لقد تَلَطَّفْتَ حتى أدَّيتَ إلينا رسالته ، وإن وفاءك له لَـمِمَّا يزيدنا رغبة فيك وثقة بك . وقد كان عمر سأل الغريض أن يغنيها هذا الصوت لأنه قد كان ترك ذِكرها لما غضبت بنو تَيْم من ذلك ، فلم يحبّ التصريح بها وكره إغْفال ذِكرها ، وقال له عمر : إنْ أَبْلَغْتَها هذه الأبيات في غناء فلك خمسةُ آلاف درهم ، فوفَّى له بذلك، وأمرت له عائشة بخمسة آلاف درهم أخرى؛ ثم انصرف الغريض من عندها فلقي عاتكة بنت يزيد بن معاوية امرأة عبد الملك بن مروان ، وكانت قد حجّت في تلك السنة فقال لها جواريها: هذا الغريضُ؛ فقالت لهنّ : عَلَيَّ به ، فجيء به إليه ؛ قال الغريض : فلما دخلتُ سَلَّمْتُ فردّت عليّ وسألتني عن الخبر ، فقَصَصْتُهُ عليها ؛ فقالت : غنّني بما غنّيتها به ، ففعلتُ فلم أرها تهش لذلك ، فغنّيْتُها مُعرِّضاً لها ومذكِّراً بنفسي في شعر مُرَّة بن مُحْكان السَّعديّ يخاطب امرأته وقد نزل به أضيافٌ :

أقول والضيفُ مخشيٌّ ذَمَامَتُه ... على الكريم وحقُّ الضَيف قد وَجَبَا
يا رَبَّةَ البيت قُومِي غيرَ صاغرةٍ ... ضُمِّي إليك رحالَ القومِ والقِرَبَا
في ليلةٍ من جُمَادَى ذاتِ أَنْدِيَةٍ ... لا يُبْصر الكلبُ من ظَلْمائها الطُّنُبا
لا ينبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ ... حتى يَلُفَّ على خَيْشومه الذَّنَبا

الشعر لـمُرَّة بن مُحْكان السَّعْديّ ، والغناء لابن سريج . ذكر يونس أن فيه ثلاثة ألحان ، فوجدت منها واحداً في كتاب عمرو بن بانة رَمَلاً بالوسطى ،

والآخر في كتاب الهشاميّ خفيف ثقيل بالوسطى ، والآخر ثاني ثقيل في كتاب أحمد بن المكيّ قال : فقالت وهي متبسمة : قد وجب حقُّك يا غريض ، فغنّني فغنّيتها :

يا دهرُ قد أكثرتَ فَجْعَتَنَا بسَراتنا ووَقَرْتَ في العَظْمِ
وسَلَبتنا ما لستَ مُخْلِفَهُ يا دهرُ ما أنصفتَ في الحُكْمِ
لو كان لي قِرنٌ أناضِله ما طاش عند حَفِيظةٍ سَهْمي
لو كان يُعْطي النّصْفَ قلتُ له أحرزتَ سهمك فالْهُ عن سهمي

فقالت : نعطيك النصف ولا نضيع سهمك عندنا ، ونُجزِل لك قسمك ، وأمرتْ لي بخمسة آلاف درهم وثياب عَدَنِيَّة وغير ذلك من الألطاف ، وأتيت الحارث بن خالد فأخبرته الخبر وقصصت عليه القصة ؛ فأمر لي بمثل ما أمرتا لي به جميعاً ، فأتيت ابن أبي ربيعة وأعلمته بما جرى ، فأمر لي بمثل ذلك ، فما انصرف واحد من ذلك الموسم بمثل ما انصرفت به : بنظرة من عائشة ونظرة من عاتكة وهما من أجمل نساء عالمهما ، وبما أمرتا لي به ، وبالمنزلة عند الحارث وهو أمير مكة ، وابن أبي ربيعة ، وما أجازاني به جميعاً من المال »[1].

التناقض في التواريخ والأعداد

إنَّ الأعداد والتواريخ تكَذِّب غير الصادق ، وتبيِّن كذبه وتزويره ، من ذلك ما يرويه الأصفهاني فيقول : «وتوفي إسحاق ببغداد في أول خلافة المتوكل.

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٣/ ٢١٧ - ٢٢٠ .

فأخبرني الصُّوليّ قال: ذكر إبراهيم بن محمد الشَّاهينيّ : أن إسحاق كان يسأل الله ألا يبتليه بالقُوْلَنْج لما رأى من صعوبته على أبيه ؛ فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له : قد أجيبت دعوتك ولست تموت بالقولنج ، ولكنك تموت بضده ، فأصابه ذَرَبٌ في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومئتين ؛ فكان يتصدق في كل يوم أمكنه أن يصومه بمئة درهم ، ثم ضعف عن الصوم فلم يُطِقْهُ ومات في شهر رمضان .

أخبرنا الحسن بن علي قال : حدثني يزيد بن محمد المهلَّبيّ قال : نعي إسحاق إلى المتوكل في وسط خلافته ، فغمّه وحَزُن عليه ، وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ؛ ثم نعي إليه بعده أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب -صلوات الله عليه-، فقال : تكافأت الحالتان، وقام الفتح بوفاة أحمد وما كنت آمَنُ وَثْبَتَهُ عليَّ مقام الفجيعة بإسحاق؛ فالحمد لله على ذلك »[1] .

يقول توفي إسحاق أول خلافة المتوكل وكانت خلافة المتوكل سنة (٢٣٢هـ)، ووفاة إسحاق الموصلي سنة (٢٣٥هـ) ، فهي فعلاً في أول خلافته ؛ غير أنَّه يدَّعي أنَّه فَرِحَ بوفاة أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب وهو قد توفي سنة (٢٤٧هـ) في سنة وفاة المتوكل ، فهل يمكن لصادق أنْ يورد قولاً للمتوكل يقول فيه قد تكافأت الحالتان ، وبين الحالتين اثنا

---

(١) «الأغاني» ٥ / ٤٤٥ .

عشر عاماً[1]؟!!

ويتحدَّث عن أشعب فيقول « هو أشعب بن جُبير واسمه شعيب ... منشأ أشعب بالمدينة في دور آل أبي طالب وتولَّت تربيته وكفلته عائشة بنت عثمان بن عفَّان ، وأنَّ أمَّه كانت تدخل على أزواج النبي ﷺ فيَستظرِفْنَها ، ثم إنَّها فارقت ذلك وصارت تنقل أحاديث بعضهنَّ إلى بعض وتغري بينهنَّ ، فدعا النبي ﷺ عليها فماتت » [2] .

إذن فهي ماتت في عهد الرسول ﷺ ؛ « وكان أشعب مع عثمان رضي الله عنه في الدار فلمَّا حُصِرَ جرَّد مماليكه السيوف ليقاتلوا ، فقال لهم عثمان : من أغمد سيفه فهو حرٌّ ، قال أشعب : فلمَّا وقعت والله في أذني كنت أول من أغمد سيفه ، فأعتقت » [3] .

فهو الآن شاب يحمل السلاح في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه حين استشهاده؛ وأمُّه قد توفيت في عصر الرسول ﷺ ، ثم يقول : «أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثني إسحاق الموصلي قال : حدثني الفضل بن الربيع قال : كان أشعب عند أبي سنة أربع وخمسين ومئة ، ثم خرج إلى المدينة فلم يلبث أن جاء نَعْيُه . وهو أشعب بن جبير ، وكان أبوه مولى لآل

(١) ينظر : «سنوات الوفاة في الأعلام» ١ / ١٩١- ١٩٢ ، ٢ / ١٢٧ .

(٢) ينظر : «الأغاني» ١٩ / ١٤٤- ١٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ١٩ / ١٤٥ .

الزُّبير ، فخرج مع المختار ، فقتله مصعب صبراً مع من قتل »[١] .

وعن محمد بن الحسين ، قال : حدَّثني أبي ، قال : «نظرت إلى أشعب يسلم على رسول الله ﷺ قال : وهو يدعو ويَتَضَرَّع ، قال : فأدمْت نظري إليه ، فكلما أدمت النظر إليه كلح وبثَّ أصابعه في يده بحذائي حتى هربت فسألت عنه فقالوا : هذا أشعب »[٢] .

إن كان شاهد النبي ﷺ ، فلا بدَّ أن يكون بالغاً واعياً ، لِيُسَلِّم على النبي ﷺ ويدعو ويتضرَّع ، فكيف تكون وفاته (١٥٤هـ)[٣] ؟! .

عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يسألوني عن الساعة ، وإنَّما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مئة سنة**»[٤] .

فكيف به وقد عاش مئة وخمسين .

وفي «الإصابة» هو: « أشعب بن أم حميدة ، المعروف بالطمع ، ذكره مغلطاي في «حاشية أسد الغابة»، فقال ولد سنة تسع من الهجرة ، وكانت أمُّه

---

(١) المكان نفسه .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩ / ١٥٤ .

(٣) «الأعلام» الزركلي ، ١ / ٣٣٢ .

(٤) رواه مسلم «صحيح مسلم» باب لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة ، ٧ / ١٨٧ ، رقم الحديث (٦٦٤٤) .

تدخل على زوجات النبي ﷺ ، ذكره أبو الفرج الأصبهاني. انتهى .

يريد بذلك أنَّه ولد في عهد الرسول ﷺ ، فيعدُّ في القسم الثاني ، ولم يتَّجه لي صحة ذلك ؛ لأنَّ أبا الفرج ذكره من طريق وهبة عن عبيدة بن أشعب عن أبيه ، لكن روى ابن عساكر في ترجمته من طريق نصر بن علي الجهضمي ، عن الأصمعي ، قال : قال لي أشعب : ولدت يوم قتل عثمان ، وأما ما رواه وكيع القاضي في «غرر الأخبار»، عن محمد بن علي بن حمزة ، عن المازني عن الأصمعي، قال : حدَّثني أشعب قال : سمعت طويساً يغني بهذين البيتين في عرس مروان بن الحكم بأم عبد الملك ، فذكر قصة ، ففيه نظر أيضاً ؛ لأنَّ عبد الملك ولد في خلافة عثمان ، فالظاهر أنَّه لا يوثق بأشعب فيما يقول ، ولو صحَّ ذلك لَروى عن أكابر الصحابة ، ولم نقف له على رواية عن صحابي إلا عن ابن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وروايته عن التابعين كثيرة كسالم والقاسم وفاطمة بنت الحسين ، ويكفي في الاستدراك على بطلان القول الأول أنَّهم اتفقوا على أنَّه مات سنة أربع وخمسين ومئة ، وقد قدَّمنا أنَّه لم يتأخر عن سنة عشر ومئة أحد ممن أدرك النبي ﷺ »[1] .

فالواضح أنَّ أسلوب ابن حجر العلمي يرفض أنْ تكون ولادته في زمن النبي ﷺ وعاش حتى بلغ عام (١٥٤هـ) لعلمه بالحديث ولعلمه بأنَّ آخر

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة » الحافظ ابن حجر العسقلاني ، ١ / ١٨٨ ، وينظر «مجمع الأمثال» ، الميداني ، ١ / ٤٣٩ .

الصحابة لم تتأخر وفاته عن (١١٠هـ) فكيف بروايات الأصبهاني التي تجعله معاصراً للنبي ﷺ كما في الخبر السابق عن الأصفهاني ؟!! .

ومن التناقض العددي ؛ الذي يدع القارئ في حيرة من الأخذ بالخبر ، يقول الأصفهاني : « نزل العجير بقوم فأكرموه وأطعموه وسقوه ؛ فلما سكر قام إلى جمله فعقره ، وأخرج كبده وجب سنامه ، فجعل يشوي ويأكل ويطعم ويغني : (رمل)

علـلاني إنـما الـدنيا عَلَـلْ   واسـقياني عَلَـلاً بعـد نَهَـلْ
وانشلا لي اللحم من قِدْرَيْكما   واصـبحاني أبعـد اللهُ الجَمَـلْ

فلما أفاق سأل عن جمله فأُخبر ما صنع به ، فجعل يبكي ويصيح: واغربتاه! وهم يضحكون منه . ثم أعطوه جَملاً وزوّدوه ، فانصرف حتى لحق بقومه » [1] .

في الخبر أعطوه جملاً واحداً ، وهذا ممكن ومقبول غير أنَّه يعود فيذكر خبراً آخر وفيه يقول نقلاً عن الحكم بن موسى بن الحسين بن يزيد السلولي ، عن أبيه عن عمه : « مر العجير بفتيان من قومه يشربون نبيذاً لهم فشرب معهم ، وذكر باقي القصة نحواً مما ذكر ابن حبيب ، ولم يقل فيها : فلما أصبح جعل يبكي ويصيح : واغربتاه ! ولكنه قال : فلما أصبح ساق قومه إليه ألف بعير مكان بعيره»[2] .

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٣ / ٨١ -٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٣ / ٨٢ .

إنَّ عشيرة كاملة قد لا تمتلك هذا العدد من الجِمال ، فكيف يهيؤوها له في صباح واحد ، ولماذا ألف ، والسؤال هو كيف يعود بها إلى قومه وهو وحيد في صحراء لا يمكن أن يسيطر فيها على عدَّة جِمال لا جِمال بهذا العدد ، إنَّ فقدان المنطقية في إيراد الخبر أوضحت الصنعة في بنائه .

ومن التناقض العددي أيضاً ، ما نقله الأصفهاني عن « أحمد عن عمه إبراهيم قال : كنت مع المأمون في بلد الروم ، فبينا أنا في ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح وإلى جانبي قبة ، فبرقت برقة وإذا في القبة عريب . قالت : إبراهيم ابن اليزيدي؟ فقلت : لبيك ! فقالت : قل في هذا البرق أبياتاً ملاحاً لأغني فيها، فقلت:

ماذا بقلبي من أليم الخَفْق ... إذا رأيت لمعان البرق
مِنْ قِبَلِ الأُردُن أو دمشق ... لأنّ مَن أهوى بذاك الأفْق
فارقته وهو أعز الخلق ... عليّ والزُّور خلاف الحق
ذاك الذي يملك مِنِّي رقِّي ... ولست أبغي ما حَيِيْتُ عِتقِي

قال : فتنفست نفساً ظننته قد قطع حيازيمها ، فقلت : ويحك على من هذا؟ فضحكت ثم قالت : على الوطن . فقلت : هيهات ! ليس هذا كله للوطن، فقالت : ويلك ! أفتراك ظننت أنك تستفزني ؟ والله لقد نظرت نظرة مريبة في مجلس، فادعاها أكثر من ثلاثين رئيساً ، والله ماعلم أحد منهم لمن كانت إلى هذا اليوم»[1].

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢١ / ٩٥ .

نظرة يتوهمها ثلاثون رئيساً ، والسؤال هل يمكن أنْ يُجمع ثلاثون رئيساً في مكان واحد تسلط عليهم نظرة واحدة ، مما لا شك فيه أنَّ النظرة قد تتجه إلى جهة معينة ، وقد يتوهمها اثنان أو ثلاثة إلا أنَّ الخبر يذكر أنَّه قد توهمها ثلاثون وكلهم رؤساء ؟!! .

ثم يعود ، فيذكر الخبر مع عشرين ، فيقول : « حدثني محمد بن أحمد الحكيمي قال :أخبرني ميمون بن هارون قال :قال لي ابن اليزيدي :حدثني أبي قال : خرجنا مع المأمون في خروجه إلى بلد الروم ، فرأيت عريب في هودج ، فلما رأتني قالت لي : يا يزيديّ! أنشدني شعراً قلته حتى أصنع فيه لحناً فأنشدتها:

ماذا بقلبي من أليم الخَفْق ... إذا رأيت لمعان البرق

مِنْ قِبَلِ الأُردُن أو دمشق ... لأنّ مَن أهوى بذاك الأفْق

فارقته وهو أعز الخلق ... علي والزُّور خلاف الحق

ذاك الذي يملك مِنِّي رقِّي ... ولست أبغي ما حَيِيْتُ عِتقِي

قال : فتَنَفَّسَتْ تنفساً ظنَنْتُ أن ضلوعها قد تَقَصَّفَتْ منه ، فَقُلْتُ : هذا والله تنفس عاشق ، فقالت ، اسكت يا عاجز أنا أعشق ، والله لقد نظرت نظرة مريبة في مجلس فادّعاها من أهل المجلس عشرون رئيساً طريفاً » [1] .

ومن التناقض الظاهر ، ما ذكره في كأس أم حكيم ، فيقول « عن إسماعيل ابن مجمع قال : كنا نخرج ما في خزائن المأمون من الذهب والفضة ، فنزكّي

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢١ / ٩٤ .

عنه، فكان فيما يُزَكَّى عنه قائم كأس أم حكيم ، وكان فيه من الذهب ثمانون مثقالاً. قال محمد بن موسى : سألت إسماعيل بن مجمع عن صفته ، فقال : كأس كبير من زجاج أخضر، مقبضه من ذهب . هكذا ذكر إسماعيل »[١] .

قد ذكرنا قصة أم حكيم سابقاً ، وأوضحنا ما في الخبر من طعن في هذه المرأة وهي زوجة خليفة ، وهنا التناقض يصعد من جَوِّ التصنيع في الخبر ، حينما يُزَكَّى عن كأس وفيه ثمانون مثقالاً ، والغرابة في ذكره كلمة مثقال والمعروف أن الزكاة تُقَوَّمُ بالدينار ، وكذا أن يزكى الكأس وهو ضمن خزائن المأمون بما تحتويها من ذهب وفضة ، لا أنْ يُفْرَدَ الكأسُ ليُزَكَّى وهذا أغرب ما قيل في الخبر ، وكذا فإنَّ الخبر يتناقض مع خبر آخر عن الكأس ، مع الخليفة المعتمد وليس المأمون ، وفيه الكأس ولم يقوَّم بأكثر من أربعة دراهم ، يقول الأصفهاني : « حدثني علي بن صالح بن الهيثم بمثله ، قال : حدثنا إبراهيم بن أحمد المادرائي قال : لما أخرج المعتمد ما في الخزائن ليباع ، في أيام ظهور الناجم بالبصرة ، أخرج إلينا كأس أم حكيم ، فكان كأساً مدوَّراً على هيئة القِحْف ، يسع ثلاثة أرطال ، فَقُوِّمَ بأربعة دراهم، فعجبنا من حصول مثله في الخزانة ، مع خساسة قدره ، فسألنا الخازن عنه . فقال : هذا كأس أم حكيم ، فرددناه إلى الخزانة . ولعل الذهب الذي كان عليه أخذ منه حينئذ ، ثم أخرج ليباع »[٢] .

---

(١) المصدر نفسه / ٣٠١ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني.

وفي ذكر المبالغ تتضارب الأخبار، وتتناقض الروايات، فلا يستطيع المتلقي الاطمئنان إلى أي منها لتعارضها الشديد، فقد تروى حادثة واحدة بأشكال مختلفة، وبمبالغ متباينة، فمع كلِّ رواية تتغير الأحداث، وربما الأشخاص، وكذا المبالغ.

يروي الأصفهاني عن القحذمي، فيقول: «قال يَزيدُ بن مَزْيد: أرسل إليَّ الرشيد يوماً في وقت لا يُرسَل فيه إلى مثلي فأتَيتُه لابساً سلاحي، مستعدًّا لأمر إن أراده، فلما رآني ضحك إليَّ ثم قال: يا يزيد! خَبِّرْني من الذي يقول فيك:

تَراهُ في الأمن في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ ... لا يأمَنُ الدَّهر أنْ يُدْعَى على عَجَلِ

صافي العيان طَمُوحُ العين هِمَّتُه ... فَكُّ العُنَاةِ وأَسْرُ الفَاتِك الخَطِلِ

لله من هاشم في أرضه جَبَلٌ ... وأنت وابنك رُكْنَا ذلك الجَبلِ

فقلت: لا أعرفه يا أمير المؤمنين. قال: سَوْءَةً لك من سَيّد قومٍ يُمْدَحُ بمثل هذا الشعر ولا تَعْرِفُ قائِلَهُ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائِلَهُ، وهو مسلم بن الوليد. فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته»[1].

في هذا الخبر هنا، لم يحدد قيمة صلة مسلم بن الوليد ثم يروي الخبر بشكل آخر، عن أبي عبد الله أحمد بن محمد بن سليمان الحنفي عن أبيه، أنَّه قال: «دخل يزيد بن مزيد على الرشيد فقال له: يا يزيد! من الذي يقول فيك:

لا يَعبَقُ الطِّيبُ خَدَّيه ومفرِقَه ... ولا يُمسِّح عينيه من الكحلِ

(١) «الأغاني» ١٩ / ٤٠.

قد عَوَّدَ الطَّير عاداتٍ وَثِقْنَ بها فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كُل مُرْتَحَلِ

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين . فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده خجلاً ، فلما صار إلى منزله دعا حاجبه فقال له : من بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ، فقال : وكيف حجبته عني فلم تعلمني بمكانه ؟ قال : أخبرته أنك مضيق ، وأنه ليس في يديك شيء تعطيه إياه ، وسألته الإمساك والمقام أياماً إلى أن تتسع .قال: فأنكر ذلك عليه وقال : أدخله إليَّ . فأدخله إليه ، فأنشده قوله:

أَجرَرْت حبلَ خَليع في الصِّبَا غَزِل وشَمَّرتَ هِمَمَ العُذَّال في عَذَلي

ردُّ البُكاء على العين الطَّمُوحِ هَوىً مُفرَّقٌ بين تَوديعٍ ومُرْتَحَلِ

أَمَا كفى البَيْنُ أنْ أرْمَى بأَسْهُمِه حتى رماني بلَحْظِ الأعينِ النُّجُلِ

مما جنت لي وإن كانت مُنىً صَدَقَتْ صبَابَةُ خُلَسُ التَّسليم بالمُقَلِ

فقال له : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم ، فاقبضها واعذر. فخرج الحاجب فقال لمسلم : قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مئة ألف درهم، خمسون ألفاً لك خمسون ألفاً لنفقته ، وأعطاه إياها ، وكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأمر ليزيد بمئتي ألف درهم وقال : اقضِ الخمسين الألف التي أخذها الشاعر وزده مثلها. وخذ مئة ألف لنفقتك. فافتكّ ضيعته، وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى »[1].

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩ / ٤١ -٤٢ .

وفي خبر آخر يختلف يقول فيه البيدق الراوية « إنه دخل دار يزيد بن مزيد، فوجد خلقاً كثيراً منهم شاب عرّف نفسه بأنه مسلم بن الوليد ، وقال شعراً ، وطلب أن يوصله إلى يزيد بن مزيد ، يقول ، فقلت له : أنشدني بعضه ، فأنشدني:

مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذي رَهَجٍ كأنّه أَجَلٌ يسعى إلى أَمَلِ
يَقرِي السيوف نفوس الناكثين به ويجعل الروس تيجان القَنَا الذُّبَّلِ
لا يَعبَق الطِّيب خَدّيه ومَفْرِقَه ولا يُمَسّحُ عينيه من الكُحلِ
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه مسالك الموت في الأجسام والقلل
وإن خلت بحديث النفس فكرته عاش الرجاء ومات الخوف من وجَلِ
كالليث إن هجتهُ فالموت راحَتُه لا يستريحُ إلى الأيّام والدُّوَلِ
لله من هاشم في أرضِه جَبَلٌ وأنت وابنُك رُكْنا ذلك الجَبَلِ
صَدَّقْتَ ظنّي وصدقت الظُّنُونَ به وحَطَّ جُودُك عَقْدَ الرَّحْل عن جَمَلي

قال : فأنشدت هذه الأبيات يزيد بن مزيد ، فأمر له بخمس مئة درهم ، ثم ذكرته بالرِّقّة فقلت له : هذا الشاعر الذي قد مدحك فأحسن ، يقتصر به على خمس مئة درهم ! فبعث إليه بخمس مئة درهم أخرى ، قال : فقال لي مسلم : جاءتني وقد رهنت طيلساني على رؤوس الإخوان ، فوقعت مني أحسن موقع »[1].

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٩ / ٤٥-٤٦ .

هنا تضاءل المبلغ ، واختلفت الأحداث ، وافترق الخبر عما سبقه ، ثم يقول في خبر آخر عن علي بن عمر ، أنه قال : «حدثني مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني قال : كنت يوماً جالساً في دكان خياط بإزاء منزلي ، إذ رأيت طارقاً ببابي ، فقمت إليه فإذا هو صديق لي من أهل الكوفة قد قدم من قمّ ، فسررت به ، وكأن إنساناً لطم وجهي ؛ لأنه لم يكن عندي درهم واحد أنفقه عليه . فقمت فسلمت عليه ، وأدخلته منزلي ، وأخذت خفين كانا لي أتجمل بهما، فدفعتهما إليّ جاريتي ، وكتبت معهما رقعة إلى بعض معارفي في السوق ، أسأله أن يبيع الخفين ويشتري لي لحماً وخبزاً بشيء سميته . فمضت الجارية وعادت إلي وقد اشترى لها ما قد حددته له ، وقد باع الخفين بتسعة دراهم ، فكأنها إنما جاءت بخفين جديدين . فقعدت أنا وضيفي نطبخ ، وسألت جاراً لي أن يسقينا قارورة نبيذ ، فوجه بها إليَّ ، وأمرت الجارية بأن تغلق باب الدار مخافة طارق يجيء فيشركنا فيما نحن فيه ، ليبقى لي وله ما نأكله إلى أن ينصرف. فإنا لجالسان نطبخ حتى طرق الباب طارق، فقلت لجاريتي: انظري من هذا . فنظرت من شق الباب فإذا رجل عليه سواد وشاشية ومنطقة ومعه شاكري ، فخبرتني بموضعه فأنكرت أمره ، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: لست بصاحب دعارة ، ولا للسلطان عليَّ سبيل . ففتحت الباب وخرجت إليه ، فنزل عن دابته وقال : أأنت مسلم بن الوليد ؟ قلت : نعم . فقال : كيف لي بمعرفتك ؟ قلت : الذي دلَّك على منزلي يصحح لك معرفتي . فقال لغلامه : امض إلى الخياط فسله عنه. فمضى فسأله عني فقال : نعم هو مسلم بن الوليد . فأخرج إليَّ كتاباً من خُفِّهِ ،

وقال : هذا كتاب الأمير يزيد بن مزيد إليَّ ، يأمرني ألا أفضه إلا عند لقائك، فإذا فيه : إذا لقيت مسلم بن الوليد فادفع إليه هذه العشرة آلاف درهم ، التي أنفذتها تكون له في منزله وادفع ثلاثة آلاف درهم نفقة ليتحمل بها إلينا فأخذت الثلاثة والعشرة ودخلت إلى منزلي والرجل معي ، فأكلنا ذلك الطعام ، وازددت فيه وفي الشراب ، واشتريت فاكهة ، واتسعت ووهبت لضيفي من الدراهم ما يهدي به هدية لعياله . وأخذت في الجهاز ، ثم ما زلت معه حتى صرنا إلى الرقة إلى باب يزيد ، فدخل الرجل وإذا هو أحد حجابه ، فوجده في الحمام ، فخرج إلي فجلس معي قليلاً ، ثم خبر الحاجب بأنه قد خرج من الحمام ، فأدخلني إليه، وإذا هو على كرسي جالس، وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة ، وبيده هو مرآة ، ومشط يسرح لحيته، فقال لي : يا مسلم! ما الذي بطأ بك عنا ؟ فقلت : أيها الأمير ، قلة ذات اليد . قال : فأنشدني . فأنشدته قصيدتي التي مدحته فيها :

أجْرَرْتُ حَبل خَلِيع في الصِّبَا غزِلِ   وشَمّرتْ هِمَمُ العُذّال في عَذَلِي

فلما صرت إلى قولي :

لا يعبَقُ الطِّيبُ خَدّيه ومفرِقَه   ولا يُمَسِّحُ عينيه من الكُحُلِ

وضع المرآة في غلافها ، وقال للجارية : انصرفي . فقد حرم علينا مسلم الطّيب . فلما فرغت من القصيدة قال لي : يا مسلم! أتدري ما الذي حداني إلى أن وجهت إليك ؟ فقلت : لا والله ما أدري قال : كنت عند الرشيد منذ ليال أُغَمِّزُ رِجْلَيْهِ، إذ قال لي : يا يزيد! من القائل فيك :

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بَنِي مطرٍ يَمضي فَيَخْتَرِمُ الأجْسَاد والهاما
كالدَّهر لا ينثني عمّا يَهُمّ به قد أوسَعَ الناسَ إنعاماً وإرغاما

فقلت: لا والله ما أدري . فقال لي الرشيد : يا سبحان الله ! أنت مقيم على أعرابيتك، يقال فيك مثل هذا الشعر ولا تدري من قائله ! فسألت عن قائله ، فأخبرت أنك أنت هو ، فقم حتى أدخلك على أمير المؤمنين . ثم قام فدخل على الرشيد ، فما علمت حتى خرج عليّ الإذْنُ فأُذِنَ فدخلت على الرشيد ، فأنشدته ما لي فيه من الشعر ، فأمر لي بمئتي ألف درهم ، فلما انصرفت إلى يزيد أمر لي بمئة وتسعين ألفاً ، وقال : لا يجوز لي أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين . وأقطعني إقطاعات تبلغ غَلَّتُهَا مئتي ألف درهم »[1] .

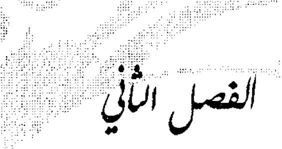
نلحظ الحبكة الروائية في الخبر الآخر ، وهذا هو عهدنا بالأصفهاني ، فهو يغلِّفُ أخباره بهالة من الحبكة ، فينسج أحداث الخبر نسيجاً مختلفاً عن واقعيته ، ويضيف إليه ما يشاء من مؤثرات مادية ومكانية ، ويرسم شخوص أخباره بالطريقة التي تلائم غرضه من إيراد الخبر ؛ لذا وجدنا أن الخبر الواحد يشتت فيه المقال وتختلف فيه الشخوص ، وتنتشر فيه الأموال بطريقة تختلف في كل مرَّة، ما يدعو إلى استغراب فعله ، وعدم الأخذ بأخباره على محمل الجد ، بل يمكن أن تكون أخباره قصص تشبه قصص ألف ليلة وليلة ، في خيالها وبعدها عن الواقع ، وعن العلمية وعن المنطق ، فالأصفهاني وأمثاله هم قصَّاص لا

---

(١) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩ / ٤٢- ٤٤ .

رواة ، بما في قصصهم من خيال جامح ، وشخصيات وهمية ، وأقوال خرافية ، ومنطق يبعد عن الواقع ، غير أنَّ أدهى ما في «الأغاني» وأمثاله من الكتب هو إلْبَاس الخيال لِبَاس الحقيقة ، واختيار شخصيات نعدُّها رموزاً ومنارات هدىً؛ لكي ينالوا منها ، من دون أن يستطيع التأريخ أنْ يصرخ فيهم ويصدَّهُم عن افترائهم .





الفصل الثاني

المبالغة



الفصل الثاني

المبالغة

هي « أنْ يُدَّعى الوصف بلوغه في الشدَّة والضعف حدًّا مستحيلاً أو مستبعداً، لئلا يُظَنَّ أنه غير متناهٍ في الشدَّة أو الضعف »(١) .والمبالغة تتعدد وتتنوع أشكالها ، على وفق المراد منها .

من تلك الأشكال :

المبالغة في أموال العطاء

إن المبالغة المبثوثة في بعض كتب التراث العربي ، ومنها «الأغاني» و«مروج الذهب ومعادن الجوهر»، قد عقَّدت مسارات التأريخ العربي وأفاضت عليه الكثير من مظاهر الافتراء والكذب المكشوف ؛ الذي لا يصمد أمام حساب العقل والمنطق ، فأفقد ذلك كله تأريخنا نصاعته وشفافية رؤيتنا عنه ، وبياض صفحته ؛ التي لطالما حلمنا بها ، واهتدينا بذكرها ؛ ليولِّدوا أثراً مشوَّهاً نفقد القدرة على التواصل معه ، أو التفاخر بأمجاده .

---

(١) «الإيضاح في علوم البلاغة » الخطيب القزويني ، ص٢٧٥ ، وينظر «جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع» ، السيد أحمد الهاشمي ، ص٤٠٦ .

ومن المبالغات ما وصل حدَّ الغلو ، وربما الامتناع التام ، فما عاد للحقيقة عنوان ، وما عاد للخيال في جموحه حدود ، فغدونا نسبح في أنهار من الأموال ، تنثر من دون وعيٍ بدورها أو حجمها ، أو قدرة العصر أجمع على حيازتها في حين أنَّ ما سنورده يوضح بعضاً من قدرة الدرهم والدينار الشرائية، فمما رواه الأصفهاني، قال: « أخبرنا يحيى قال : حكى أبو غسان عن أبي عبيدة عن جهم ابن خلف قال : أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبي حفصة ، فأطعمنا تمراً ، وأرسل غلامه بفلس وسُكُرُّجَة [1] ليشتري له زيتاً . فلما جاء بالزيت قال لغلامه: خُنْتَنِي ! قال : من فَلْس كيف أخونك ؟ قال : أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت » [2] ، يرسل فلساً واحداً لشراء زيت ، فالفلس له قيمة شرائية .

« وتحمَّل الكميت دية رجلين ، فأعانه في الدية عبد الرحمن بن عنبسة فمدحه ، ثم أعانه زياد بن المُغَفَّل الأسدي ، فمدحه بقصيدته التي أولها :

هل للشباب الذي قد فات من طلب؟

ثم جلس الكميت وقد خرج العطاء ، فأقبل الرجل يعطي الكميت المئتين، والثلاث المئة ، وأكثر وأقلَّ ، قال : وكانت دية الأعرابي حينئذ ألف بعير ، ودية

---

(١) سكرجة: « سكرج في الحديث لا أكل في سُكُرُّجَة ، وهي بضم السين والكاف والراء مع التشديد ، إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأُدْمِ ، وهي فارسية » ينظر «لسان العرب» ، ابن منظور ، ٢ / ٢٩٩ ، مادة / سكرج .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٠ / ٩٨ .

الحضري عشرة آلاف درهم ، وكانت قيمة الجمل عشرة دراهم ، فأدى الكميت عشرين ألفاً عن قيمة ألفي بعير» (١) .

قيمة الجمل عشرة دراهم فقط ؟!! .

ومن أخباره عن محمد بن الفضل بن محمد بن منصور ، أنه قال : « لما افتتح عبد الله بن طاهر مصر ونحن معه ، سَوَّغَه المأمون خراجها . فصعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف دينار أو نحوها ، فأتاه مُعَلَّى الطَّائيُّ وقد أعلموه ما قد صنع عبد الله بن طاهر بالناس في الجوائز » (٢) .

خراج مصر لا يتجاوز ثلاثة آلاف دينار ؟!!

وعن محمد بن محمد الأبزاريّ قال « كنَّا عند زلبهزة النخّاس ومعنا رجل هاشمي من ولد عبد الصمد بن علي ، فلما وثبنا للانصراف قال لنا وقد اشتد الحر : أقيموا عندي . فوجهت غلاماً معي وأعطيته ديناراً وقلت له: ابتع فراريج بعشرة دراهم وثلجاً بخمسة دراهم وعَجِّلْ ، فجاء بذلك فدفعه إلى زلبهزة وأمره بإصلاح الفراريج ألواناً ، وكتبت إلى علويه فعرفته خبرنا ، فجاءنا وأقام ، وأفطرنا عند زلبهزة ، وشرب منا من كان يستجيز الشراب » (٣) .

دينار واحد له قدرة شرائية كبيرة ، ما بين فراريج وثلج وسواهما وفي

---

(١) ينظر ، المصدر نفسه ٢١ / ١٠٢-١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢ / ١٢٢ .

(٣) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١١ / ٣٥٥-٣٥٦ .

«مقدمة ابن خلدون»: « يذكر مبالغ الخراج في زمن المأمون ، فالأردن خراجها سبعة وتسعون ألف دينار ، وخراج الحجاز ثلاث مئة ألف دينار فقط »[(١)] .

هذا كله يدلُّ على قيمة الأموال ، وصعوبة استحصالها ، ولقد كان أوائل خلفاء بني العباس يتحرَّون الحرص والدّقة في العطاء ، فهذا أبو جعفر المنصور، يوبِّخ وليَّ عهده المهديّ ، يقول الشاعر المؤمّل بن أُميل المحاربي : « قدمت على المهدي وهو بالرّي ، وهو إذ ذاك وليُّ عهد ، فامتدحته بأبيات ، فأمر لي بعشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى أبي جعفر المنصور ، وهو بمدينة السلام يخبره أن الأمير المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ، فكتب إليه يعذله و يلومه ، ويقول له : إنما ينبغي أن تعطي لشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم ، وكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه بالشاعر ، فطلب ، ولم يقدر عليه ، وكتب إلى أبي جعفر أنه قد يوجه إلى مدينة السلام ، فأجلس قائداً من قوّاده على جسر النهروان ، وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً ، فجعل لا يمر به قافلة ، إلا تصفح من فيها ، حتى مرت به القافلة التي فيها المؤمّل ، فتصفحهم ، فلما سأله من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل المحاربي الشاعر ، أحد زوار الأمير المهدي ، فقال : إياك طلبت ، قال المؤمل : فكاد قلبي ينصدع خوفاً من أبي جعفر . فقبض عليَّ ، وأسلمني إلى الربيع ، فأدخلني إلى أبي جعفر ، و قال له : هذا الشاعر الذي أخذ من المهدي عشرين ألفاً ، قد ظفرنا به»[(٢)].

---

(١) ينظر «المقدمة» ابن خلدون ، ص١٩٠ .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢٢ / ٢٤٨ .

الأخبار التي مرَّت تؤكـد تأكيداً قاطعاً على أنَّ قيمة الدرهم والدينار الشرائية مرتفعة جدًّا ، وأن مدنا كاملة أو مناطق شاسعة لا يصل خراجها إلا عشرات أو مئات الآلاف ، وهذا يدعونا والقارئ إلى التأنّي في قبول الأخبار التي سنوردها ، والتي تظهر عليها مظاهر المبالغة الشديدة من ذلك :

المبالغة في العطاء

إن أكثر المبالغات أصابت الخلفاء في عطائهم لإظهارهم بمظهر اللّامبالي؛ الذي لا يضع الأمور في نصابها ، فحينما وجدنا أن خليفة متزناً قد عوتب أبوه في عشرين ألفاً (إن كان الخبر حقيقيًّا) يبذخ فيدفع لمغنٍّ ألف ألفَ درهم ، ينقل الأصفهاني ؛ فيقول : « قال جِحْظة عن هبة الله عن إبراهيم قال : كان الرشيد يحب أن يسمعني ، فخلا بي مرات إلى أن سمعني . ثم حضرته مرة وعنده سليمان بن أبي جعفر ؛ فقال لي : عمُّك وسيد ولد المنصور بعد أبيك وقد أحب أن يسمعك؛ فلم يتركني حتى غنَّيت بين يديه :

إذ أنت فينا لمن يَنهاك عاصيةٌ وإذ أجرُّ إليكم سادراً رَسَني

فأمر لي بألف ألف درهم ، ثم قال لي ليلة ولم يبق في المجلس إلا جعفر بن أبي يحيى : أنا أُحبُّ أن تُشَرِّف جعفراً بأن تغنِّيه صوتاً . فغنَّيته لحناً صنعته في شعر الدَّارميّ[1] :

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٠ / ١٢٣ .

كأنَّ صورتها في الوصف إذ وُصِفَتْ   دينارُ عينٍ من المصريَّة العُتُقِ

والسؤال : هل أن الأصفهاني ، تفكَّر ولو قليلاً بهذا المبلغ ، ألا يرى المبالغة فيه ، فلو قمنا بعملية حسابية للمبلغ لوجدناه على النحو التالي :

ألف ألف = ١٠٠٠٠٠٠ مليون درهم من الفضة

وزن الدرهم هو : ٣,٢٥ غم

وبعملية حسابية نجد أن الوزن الكلي للدراهم هو :

١٠٠٠٠٠٠ × ٣,٢٥ = ٣,٢٥٠٠٠٠ غم

٣,٢٥٠٠٠٠ ÷ ١٠٠٠ = ٣,٢٥٠ كغم

٣,٢٥٠÷١٠٠٠= ثلاثة أطنان وربع الطن من الفضة في زمن عزَّت فيه المسكوكات، وصعب فيه استخراج المعادن وكذا فإن خراج الحجاز جميعه لا يتجاوز أربعة أضعاف هذا المبلغ الذي يدفعه الخليفة المتزن إلى مغنٍّ يغنيه في ليلة، «وهل ذلك الخراج إلا بعض الكور »[1] هذا ما يقوله الأمين فعن حمَّاد بن إسحاق عن أبيه : « غنَّى إبراهيم بن المهدي ليلة محمداً الأمين صوتاً لم أرْضَه في شعر لأبي نواس وهو :

يا كثيرَ النَّوْحِ في الدِّمَنِ   لا عليها بل على السكنِ

ظنَّ بي مَنْ قد كَلِفْتُ به   فهو يجفوني على الظَّنَنِ

رشا لولا ملاحته   خَلتْ الدنيا من الفتنِ

---

(١) «العقد الفريد » ابن عبد ربه الأندلسي ، ٤٨ / ٤٩ .

فأمر له بثلاث مئة ألف درهم . قال إسحاق : فقال إبراهيم له : يا أمير المؤمنين! قد أجزْتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف درهم[1]، فقال: هل هي إلا خراج بعض الكُوَر!. هكذا ذكر إسحاق . وقد روى محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر هذه الحكاية عن إبراهيم فقال : لَمَّا أردت الانصراف قال : أوقروا زورق عمي دنانير، فانصرفت بمال جليل » [2] .

لم يكتف الأصفهاني بالمبالغة ، بأن جعل مبلغ العطاء ثلاث مئة ألف درهم ، بل إنَّه أتمَّ مبالغته ليصل إلى الإحالة بأن يوقِّروا زورق إبراهيم بن المهدي بدنانير ، لو أجرينا عملية حسابية للمبلغ لوجدنا أنَّ :

٣٠٠٠٠٠ × ٣،٢٥٠ غم = ٩٧٥٠٠٠٠ أي : ما يقرب من الطن ويقول أوقروا زورقة ، ونحن نتساءل ما حمولة هذا الزورق فلو أنه أعمل عقله ، وتفكَّر قليلاً ؛ لوجد استحالة الخبر تماماً ، مع العلم أن هذه المبالغ كلها قد تحوَّلت عند ابن عبد ربه الأندلسي إلى ثلاثة آلاف فقط ، وهو يروي الخبر نفسه ، يقول : «غنى إبراهيم الموصلي محمد بن زبيدة الأمين بقول الحسن بن هانئ فيه:

رشَا لولا مَلاحتُه خلَت الدنيا من الفِتَنِ
كلَّ يومٍ يَسترِقُّ له حُسنُه عبْداً بلا ثَمَنِ
يا أمين الله عِشْ أبداً دُمْ على الأيام والزَّمَنِ

---

(١) الصواب : بعشرين ألف ألف درهم ، وقد سقطت الألف الثانية سهواً .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٠ / ١٧١ .

أنتَ تبقى والفَناءُ لنا فإذا أفنيْتَنا فكُنِ
سَنّ للناسِ القِرى فقَرَوْا فكأنَّ البُخلَ لم يكنِ

قال : فاستخفَّه الطرب حتى قام من مجلسه ، وأكبَّ على إبراهيم يُقبِّل رأسه، فقام إبراهيم من مجلسه يقبل أسفل رجليه ، وما وَطِئتَا من البساط . فأمر له بثلاثة آلاف درهم . فقال إبراهيم : يا سيدي! قد أجَزْتَنِي إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : وهل ذلك إلا خراجُ بعض الكور»[1].

ويناقض خبر الزورق أيضاً، ما يرويه الأصفهاني نفسه في «الأغاني» إذ يقول: «قال أبو محمد التيمي : دخلت على محمد الأمين لما ولي الخلافة ، فقال :يا تيميّ ، وددت أنه قيل في مثل قول طريح بن إسماعيل في الوليد بن يزيد:

طوبى لفرعيك من هنا وهنا طوبى لأعراقك التي تَشِجُ

فإني والله أحقب ذلك منه ، فقلت :أنا أقول ذلك يا أمير المؤمنين ، ثم دخلت إليه من غد فأنشدته قصيدتي:

لا بد من سَكرة على طرب لعل روحاً يديل من كُرب

حتى انتهيت إلى قولي :

أَكْرِم بفرعين يَجريان به إلى الإمام المنصور في النسب

فتبسَّم ، ثم قال لي : يا تيمي! قد أحسنت ، ولكنه كما قيل : مرعى ولا

(١) «العقد الفريد» ١ / ٤٨- ٤٩ .

كالسَّعدان ، ثم التفت إلى الفضل بن الربيع فقال : بحياتي أوقر له زورقهما لا . فقال : نعم يا سيدي . فلما خرجت طالبت الفضل بذلك . فقال : أنت مجنون ؟ من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ ثم صالحني على مئة ألف درهم »[1] .

غير أنه يصور الأمين وهو ينثر الأموال نثراً، فعن جحظة يحدث الأصفهاني، فيقول : « أن محمداً الأمين لما غناه إسحاق لحنه الذي صنعه في شعره وهو الثقيل الأول :

يا أيها القائم الأمين فَدَتْ نفسَك نفسي بالمال والوَلَدِ
بَسَطْتَ للناس إذ وليتهم يداً من الجود فوق كل يدِ

فأمر له بألف ألف درهم ؛ فرأيتها قد وصلت إلى داره يحملها مئة فرّاش»[2].

وعن هبة الله بن إبراهيم عن أبيه قال: «غضب عليَّ محمد الأمين في بعض هَنَاته، فسلَّمني إلى كوثر، فحبسني في سرداب وأغلقه عليَّ فمكثت فيه ليلتي. فلما أصبحت إذا أنا بشيخ قد خرج عليَّ من زاوية السرداب ، ودفع إليَّ وسطا وقال : كُلْ . فأكلْتُ ، ثم أخرج قنينة شراب فقال : اشْرَبْ . فشربتُ ، ثم قال لي: غَنِّ :

لي مــدَّةٌ لا بــدَّ أبلغها معلومةٌ فإذا انقضتْ مِتُّ

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٢٠ / ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ٥ / ٣٧٨- ٣٧٩ .

لو ساورتني الأُسد ضارية   لغلبتها ما لم يَجِ الوقتُ

فغنَّيته . وسمعني كوثر فصار إلى محمد وقال : قد جُنَّ عمُّك وهو جالس يغنِّي بكيت وكيت . فأمر بإحضاري فأُحْضِرتُ وأخبرته بالقصة ، فأمر لي بسبع مئة ألف درهم ورضي عنِّي »[1] .

والخلفاء جميعاً على طريق البذخ سائرون ، فعن الفضل بن العباس بن المأمون قال : « قال كنت مع المعتز في الصيد ، فانقطع عن الموكب وأنا ويونس ابن بُغا معه ، ونحن بقرب قَنْطَرَةِ وَصِيف ، وكان هناك دَيْرٌ فيه دَيرانيٌّ يعرفني وأعرفه ، نظيف ظريف مليح الأدب واللفظ ، فشكا المعتز العطش . فقلت : يا أمير المؤمنين! في هذا الدير ديراني أعرفه خفيف الروح لا يخلو من ماء بارد ، أفترى أن نميل إليه ؟ قال : نعم . فجئناه فأخرج لنا ماءً بارداً ، وسألني عن المعتز ويونس فقلت : فتيان من أبناء الجند ؛ فقال : بل مُفْلِتَانِ من حور الجَنَّة؛ فقلت له : هذا ليس في دينك . فقال : هو الآن في ديني . فضحك المعتز . فقال لي الديراني : أتأكلون شيئاً ؟ قلت : نعم . فأخرج شطيرات وخبزاً وإداماً نظيفاً ، فأكلنا أطيب أكل ، وجاءنا بأطراف أُشْنَانٍ . فاستظرفه المعتز وقال لي : قل له فيما بينك وبينه : من تحب أن يكون معك من هذين لا يفارقك . فقلت له ، فقال : كلاهما وتمراً ، فضحك المعتز حتى مال على حائط الدير ، فقلت للديراني : لا بد من أن تختار . فقال : الاختيار والله في هذا دمار ، وما خلق الله عقلاً يميز بين هذين . ولحقهما الموكب، فارتاع الديراني . فقال له المعتز : بحياتي لا تنقطع عما كنا فيه ، فإني لمن ثم مولى ولمن هاهنا صديق . فمزحنا ساعة ، ثم أمر له بخمس

(١) المصدر نفسه ١٠ / ١٣٠ .

مئة ألف درهم ، فقال : والله ما أقبلها إلا على شرط . قال : وما هو ؟ قال: يجيب أمير المؤمنين دعوتي مع من أراد . قال : ذلك لك . فاتّعدنا ليوم جئناه فيه، فلم يبق غاية ، وأقام للموكب كله ما احتاج إليه ، وجاءنا بأولاد النصارى يخدموننا . ووصله المعتز يومئذ صلةً سنيّةً ؛ ولم يزل يعتاده ويقيم عنده»[1] .

إن إظهار الخلفاء بمظهر البذخ والسَّفَه ، وعدم الحرص على أموال الرعية ؛ لهو المراد من مثل هذه الأخبار المصنوعة ؛ التي تعلوها شبهة الريبة ، وتكتسي برداء غليظ من المبالغة التي تصل إلى حد الإحالة ، حتى ليصعب بعد مراجعتها حسابيًّا بل يستحيل تطابقها مع الواقع .

والمبالغة في العطاء لم تنحصر على الخلفاء ، بل غدت موجة تلطم بلججها القادة والأعيان ، ووجوه الناس ، من ذلك ما ينقله الأصفهاني فيقول : « قال أحمد ابن أبي طاهر حدثني أحمد بن يحيى الرازي عن محمد بن المثنى عن الحجاج ابن قتيبة بن مسلم قال : قال إسحاق : بعث إلي طلحة بن طاهر[2] وقد انصرف من وقعة للشراة وقد أصابته ضربة في وجهه ؛ فقال لي الغلام : أجب ؛ فقلت : وما يعمل ؟ قال : يشرب ؛ فمضيت إليه فإذا هو جالس قد عصب ضربته وتقلنس بقلنسوة ؛ فقلت له : سبحان الله أيها الأمير ! ما حملك على لبس هذا ؟

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٩ / ٣٦٤ .

(٢) **طلحة بن طاهر**: توفي سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م . هو طلحة بن طاهر بن الحسين الخزاعي : أمير خراسان ، وابن أميرها . ولاه عليها المأمون العباسي بعد وفاة أبيه طاهر (سنة٢٠٧هـ) فاستمر فيها إلى أن توفي . وكان جواداً عاقلاً وكانت وفاة أبيه في بلخ ، ينظر «الأعلام»، الزركلي ، ٣ / ٢٩٩ .

قال : التبرم بغيره ، ثم قال : غَنِّ :

إنّي لأَكْني بأَجْبال عن اجْبُلها

قال : فغنيته إياه ، فقال : أحسنت والله ! أعد ! فأعدت وهو يشرب حتى صلى العتمة وأنا أغنّيه ؛ فأقبل على خادم له بالحضرة وقال له : كم عندك ؟ قال : مقدار سبعين ألف درهم ؛ قال : تحمل معه . فلما خرجت من عنده تبعني جماعة من الغلمان يسألونني ، فوزعت المال بينهم ؛ فرفع الخبر إليه فأغضبه ولم يوجه إلي ثلاثاً ؛ فجلست ليلاً وتناولت الدواة والقرطاس فقلت :

علّمني جُودُك السّماحَ فما أبقيتُ شيئاً لديّ من صِلَتِك
لم أُبق شيئاً إلّا سمحتُ به كأنّ لي قُدرةً كمقدرتِك
تُتلِف في اليوم بالهباتِ وفي الساعة ما تجتنيه في سَنتِك
فلستُ أدري من أين تُنفق لو لا أنّ ربّي يَجزي على صِلتِك

فلما كان في اليوم الرابع بعث إليّ ، فصرت إليه ودخلت عليه فسلمت ؛ فرفع بصره إلي وقال : اسقوه رطلاً فسقيته ، وأمر لي بآخر وآخر فشربت ثلاثاً ؛ ثم قال لي : غَنِّ :

إني لأكني بأجبال عن أجبلها

فغنيته ثم أتبعته بالأبيات التي قلتها ، وقد كنت غنيت فيها لحناً في طريقة الصوت ؛ فقال : ادْنُ فدنوت ، وقال : اجلس فجلست ، فاستعاد الصوت الذي صنعته فأعدته . فلما فهمه وعرف معنى الشعر قال لخادم له : أحضرني

فلاناً فأحضره ؛ فقال : كم قبلك من مال الضياع ؟ قال : ثمان مئة ألف درهم ؛ فقال : احضر بها الساعة ؛ فجيء بثمانين بدرة ؛ فقال للخادم : جئني بثمانين غلاماً مملوكاً ، فأحضروا ؛ فقال : احملوا هذا المال ؛ ثم قال : يا أبا محمد! خذ المال والمماليك حتى لا تحتاج أن تعطي لأحد منهم شيئاً »[1] .

والخبر يثير مجموعة من الأسئلة ، فإن كان دار ذاك الأمير تتسع هؤلاء الغلمان ، فكيف بدار إسحاق أن تتسع لثمانين غلاماً ، إن حساب المساحة مفقود لدى الأصفهاني ، وكذا حساب المال ؛ لأن ثمان مئة ألف درهم في الحساب العددي تساوي ٨٠٠٠٠٠ × ٣,٢٥ = ٢,٤٧٥.٠٠٠ ، فهي طنان ونصف من الفضة ، وهذا المبلغ من الصعوبة الشديدة امتلاكها ، فإنَّ من الإحالة أن تبذخ على مغنٍّ مهما كانت منزلته أو كان أداؤه ؟!!! .

وقد تنسج أخبار العطاء بشكل درامي مؤثر، فتدخل الخبر أحداث وشخوص، وأماكن وأزمنة ، حتى لنشعر بالتكلف في نسج الخبر ، فكيف لعائلة مثل البرامكة أن تنشغل بخدمها وغلمانها ووكلائها ؛ بأمر يخص مغن قد سخر حياته في خدمتهم وخدمة غيرهم.

من ذلك ما ذكره إسحاق بن إبراهيم الموصلي في فضل البرامكة عليه يقول: «وأما البرامكة وملازمتي لهم فأشهر من أن أجحده ، وإني لحقيق فيه بالمعذرة ، وأحرى أن أشكرهم على صنيعهم وبأن أذيعه وأنشره ، وذلك والله أقل ما

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ٢٤٥ ٢٤٧ .

يستحقونه مني .ثم أقبل على الفضل وقد غاظه مدحه لهم فقال : اسمع مني شيئا أخبرك به مما فعلوه ليس هو بكبير في صنائعهم عندي ولا عند أبي قبلي ، فإن وجدت لي عذراً وإلا فلم : كنت في ابتداء أمري نازلاً مع أبي في داره ، فكان لا يزال يجري بين غلماني وغلمانه وجواري وجواريه الخصومة، كما تجري بين هذه الطبقات، فيشكونهم إليه ، فأتبين الضجر والتنكر في وجهه ؛ فاستأجرت داراً بقربه وانتقلت إليها أنا وغلماني وجواري ، وكانت داراً واسعة ، فلم أرض ما معي من الآلة لها ولا لمن يدخل إليّ من إخواني أن يروا مثله عندي ؛ ففكرت في ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكري حتى خطر بقلبي قبح الأحدوثة من نزول مثلي في دار بأجرة ، وأني لا آمن في وقت أن يستأذن عليَّ [صاحب داري] ، وعندي من أحتشمه ولا يعلم حالي ، فيقال صاحب دارك ، أو يوجه في وقت فيطلب أجرة الدار وعندي من أحتشمه ؛ فضاق بذلك صدري ضيقاً شديداً حتى جاوز الحد ؛ فأمرت غلامي بأن يسرج لي حماراً كان عندي لأمضي إلى الصحراء أتفرج فيها مما دخل على قلبي ، فأسرجه وركبت برداء ونعل ؛ فأفضى بي المسير وأنا مفكر لا أميز الطريق التي أسلك فيها حتى هجم بي على باب يحيى ابن خالد ، فتواثب غلمانه إليَّ ؛ وقالوا : أين هذا الطريق ؟ فقلت: إلى الوزير ؛ فدخلوا فاستأذنوا لي ، وخرج الحاجب فأمرني بالدخول، وبقيت خجلاً ، قد وقعت في أمرين فاضحين : إن دخلت إليه برداء ونعل وأعلمته أني قصدته في تلك الحال كان سوء أدب ، وإن قلت له : كنت مجتازاً ولم أقصدك فجعلتك طريقاً كان قبيحاً ؛ ثم عزمت فدخلت ؛ فلما رآني تبسم وقال : ما هذا الزي يا أبا محمد؟! احتبسنا لك بالبر والفصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقاً ؛ فقلت:

لا والله يا سيدي ، ولكني أصْدقُك ؛ قال : هات ؛ فأخبرته القصة من أولها إلى آخرها ؛ فقال : هذا حق مستو، أفهذا شغل قلبك ؟ قلت : أي والله ! وزاد فقال: لا تشغل قلبك بهذا، يا غلام! ردوا حماره وهاتوا له خلعة ؛ فجاؤوني بخلعة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلت ووضع النبيذ فشربت وشرب فغنيته ، ودعا في وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع ظننت بعضها توقيعاً لي بجائزة ، فإذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع إليه الرقاع وسارَّهُ، بشيء فزاد طمعي في الجائزة؛ ومضى الرجل وجلسنا نشرب وأنا أنتظر شيئاً فلا أراه إلى العتمة ؛ ثم اتكأ يحيى فنام ، فقمت وأنا منكسر خائب فخرجت وقدم لي حماري ؛ فلما تجاوزت الدار قال لي غلامي : إلى أين تمضي ؟ قلت: إلى البيت ؛ قال : قد والله بيعت دارك وأشهد على صاحبها، وابتيع الدرب كله ووزن ثمنه ، والمشتري جالس على بابك ينتظرك ليعرفك ، وأظنه اشترى ذلك للسلطان ، لأني رأيت الأمر في استعجاله واستحثاثه أمراً سلطانيًّا ؛ فوقعت من ذلك فيما لم يكن في حسابي ، وجئت وأنا لا أدري ما أعمل ؛ فلما نزلت على باب داري إذ أنا بالوكيل الذي ساره يحيى قد قام إلي فقال لي : ادخل أَيَّدَكَ الله دارك حتى أدخل إلى مخاطبتك في أمر أحتاج إليك فيه ، فطابت نفسي بذلك، ودخلت ودخل إلي فأقرأني توقيع يحيى :«يطلق لأبي محمد إسحاق مائة ألف درهم يبتاع له بها داره وجميع ما يجاورها ويلاصقها».

والتوقيع الثاني إلى ابنه الفضل «قد أمرت لأبي محمد إسحاق بمئة ألف درهم يبتاع له بها داره ، فأطلق إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهي».

والتوقيع الثالث إلى جعفر : « قد أمرت لأبي محمد إسحاق بمئة ألف درهم يبتاع له بها منزل يسكنه ، وأمر له أخوك بدفع مئة ألف درهم ينفقها على بنائها ومَرَمَّتها على ما يريد ، فأطلق له أنت مئة ألف درهم يبتاع بها فرشاً لمنزله » .

والتوقيع الرابع إلى محمد : « قد أمرت لأبي محمد إسحاق أنا وأخواك بثلاث مئة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقة ينفقها عليه وفرش يبتذله ، فمر له أنت بمئة ألف درهم يصرفها في سائر نفقته».

وقال الوكيل : قد حملت المال واشتريت كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم ، وهذه كتب الابتياعات باسمي والإقرار لك ، وهذا المال بورك لك فيه فاقبضه ؛ فقبضته وأصبحت أحسن حالاً من أبي في منزلي وفرشي وآلتي ؛ ولا والله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لي ، أفألام على شكر هؤلاء ! فبكى الفضل بن الربيع وكل من حضر، وقالوا: لا والله لا تلام على شكر هؤلاء »[1].

ويروي قصة أخرى مشابهة تماما لما سبق ، فيقول نقلاً عن إسحاق بن إبراهيم عن أبيه : «أتيت الفضل بن يحيى يوماً ، فقلت له : يا أبا العباس! جعلت فداك ! هب لي دراهم فإن الخليفة قد حبس يده ؛ فقال : ويحك يا أبا إسحاق! ما عندي مال أرضاه لك ، ثم قال : هاه ! إلا أن ها هنا خصلة أتانا رسول صاحب اليمن فقضينا حوائجه ، ووجه إلينا بخمسين ألف دينار يشتري لنا بها محبتنا ؛ فما فعلت ضياء جاريتك ؟ قلت : عندي ؛ جعلت فداك ! قال : فهو ذا ، أقول لهم يشترونها منك لا تنقصها من خمسين ألف دينار ؛ فقبلت رأسه

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ٣٢٠ ٣٢٢ .

ثم انصرفت ؛ فبكر علي رسول صاحب اليمن ومعه صديق لي ، فقال : جاريتك فلانه عندك ؟ فقلت : عندي ؛ فقال : اعرضها علي ، فأخرجتها ؛ قال : بكم ؟ قلت : بخمسين ألف دينار ولا أنقص منها ديناراً واحداً ، وقد أعطاني بها الفضل بن يحيى أمس هذه العطية ، فقال لي : أريدها له ؛ فقلت له : أنت أعلم ، إذا اشتريتها فصيرها لمن شئت ؛ فقال لي : هل لك في ثلاثين ألف دينار مسلمة لك ؟ قال : وكان شراء الجارية على أربع مئة دينار ، فلما وقع في أذني ذكر ثلاثين ألف ارتج عليّ ولحقني زَمَع ، وأشار عليّ صديقي الذي معه بالبيع ، وخفت والله أن يحدث بالجارية حدث أو بي أو بالفضل بن يحيى ، فسلمتها وأخذت المال ؛ ثم بكرت على الفضل بن يحيى ، فإذا هو جالس وحده ؛ فلما نظر إلي ضحك ، ثم قال لي : يا ضَيِّق الحَوصَلَة ! حرمت نفسك عشرين ألف دينار ؛ فقلت له : جعلت فداك ، دع ذا عنك ، فوالله لقد دخلني شيء أعجز عن وصفه وخفت أن تحدث بي حادثة أو بالجارية أو بالمشتري أو بك، أعاذك الله من كل سوء ، فبادرت بقبول الثلاثين ألف دينار ؛ فقال : لا ضير ، يا غلام! جئ بالجارية، فجاء بجاريتي بعينها ؛ فقال : خذها مباركاً لك فيها ، فإنما أردنا منفعتك ولم نرد الجارية ؛ فلما نهضت ، قال لي : مكانك ، إن صاحب إرمينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونفذنا كتبه ، وذكر أنه قد جاءنا بثلاثين ألف دينار يشتري لنا بها ما نحب ، فاعرض عليه جاريتك هذه ولا تنقصها من ثلاثين ألف دينار ؛ فانصرفت بالجارية وبكر إلي رسول صاحب إرمينية ومعه صديق لي آخر ، فقاولني بالجارية ، فقلت : لست أنقصها من ثلاثين ألف دينار ؛ فقال لي : معي على الباب عشرون ألف دينار تأخذها مسلمة ، بارك الله لك فيها ؛

فدخلني والله مثل الـذي دخلنـي في المـرة الأولى وخفـت مثـل خـوفي الأول ، فسلمتها وأخذت المال ؛ وبكرت على الفضل بن يحيى فإذا هو وحده ؛ فلما رآني ضحك وضرب برجله الأرض وقـال: ويحـك ! حرمـت نفـسك عـشرة آلاف دينار ؛ فقلت : أصلحك الله ، خفت والله مـا خفـت في المـرة الأولى ؛ قـال : لا ضير ، أخرج يا غلام جاريته ؛ فجاء بجاريتي بعينها ، فقال : خذها ، ما أردناها ولا أردنا إلا منفعتك ؛ فلما ولت الجارية صحت بها : ارجعي فرجعت ؛ فقلت: أشهدك ، جعلت فداك ، أنها حرة لوجه الله وأني قد تزوجتها عـلى عـشرة آلاف درهم ، كسبت لي في يومين خمسين ألف دينـار ، فـما جزاؤهـا إلا هـذا ؛ فقـال : وفقت إن شاء الله » [1] .

ومن القصص الدرامية الغريبة ، التي تضارع القصتين الـسابقتين وتتفـوق عليهما في بنائها ونسجها الحكائي ، ما يرويه الأصفهاني في قصة إبراهيم الموصلي والبرامكة ، ولطول القصة اختصرناها ما وجدنا إلى ذلك سـبيلاً ، فـيروي عـن مخارق قوله : « اشتغل الرشيد يوماً واصطبح مع الحـرم وقـد أصـبحت الـسماء متغيمـة ، فانـصرفنا إلى منزلنـا ... فقلـت : والله لأذهـبنَّ إلى أسـتاذي إبـراهيم فأعرف خبره ... فجئت إلى إبراهيم الموصلي فإذا البـاب مفتـوح والـدهليز قـد كنس والبواب قاعد؛ فقلت: ما خبر أستاذي ؟ فقال : ادخل ، فدخلت فإذا هو جالس في رواق له وبين يديه قدور تغرغر وأبـاريق تزهـر ، والـستارة منـصوبة والجواري خلفها ، وإذا قدامه طست فيه رطلية وكوز وكأس ، فـدخلت أتـرنم

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ٢١١ .

ببعض الأصوات ، وقلت له : ما بال الستارة لست أسمع من ورائها صوتاً ؟ فقال : اقعد ويحك ! إني أصبحت على الذي ظننت؛ فأتاني خبر ضيعة تجاورني ، قد والله طلبتها زماناً وتمنيتها فلم أملكها ، وقد أعطي بها مئة ألف درهم ؛ فقلت: وما يمنعك منها ؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعاف هذا المال وأكثر ؛ قال : صدقت ، ولكن لست أطيب نفساً أن أخرج هذا المال ؛ فقلت : فمن يعطيك الساعة مئة ألف درهم ؟ والله ما أطمع في ذلك من الرشيد ، فكيف بمن دونه ثم صنع له صوتاً ، وقال له : امض الساعة إلى باب الوزير يحيى بن خالد فإنك تجد الناس عليه وتجد الباب قد فتح ولم يجلس بعد فاستأذن عليه قبل أن يصل إليه أحد ، فإنه سينكر عليك مجيئك ويقول : من أين أقبلت في هذا الوقت ؟ فحدثه بقصدك إياي وما ألقيت إليك من خبر الضيعة ، وأعلمه أني صنعت هذا الصوت وأعجبني ، ولم أر أحداً يستحقه إلا فلانة جاريته ، وأني ألقيته عليك حتى أحكمته لتطرحه عليها ؛ فسيدعو بها ويأمر بالستارة أن تنصب ويوضع له كرسي ويقول لك: اطرحه عليها بحضرتي ، فافعل وائتني بالخبر بعد ذلك .

قال : فجئت باب يحيى فوجدته كما وصف ، وسألني فأعلمته ما أمرني به ، ففعل كل شيء قاله لي إبراهيم، وأحضر الجارية فألقيته عليها ؛ ثم قال لي : تقيم عندنا يا أبا المهنأ أو تنصرف ؟ فقلت : أنصرف أطال الله بقاءك فقد علمت ما أذن لنا فيه ، قال : يا غلام! احمل مع أبي المهنأ عشرة آلاف درهم ، واحمل إلى أبي إسحاق مئة ألف درهم ثمن هذه الضيعة ، فحملت العشرة الآلاف الدرهم إلي، وأتيت منزلي فقلت : أسر يومي هذا وأسر من عندي ، ومضى الرسول إليه

بالمال ، فدخلت منزلي ونثرت على من عندي من الجواري دراهم من تلك البدرة ، وتوسدتها وأكلت وشربت وطربت وسررت يومي كله ؛ فلما أصبحت قلت : والله لآتين أستاذي ولأعرفنَّ خبره ، فأتيته فوجدت الباب كهيئته بالأمس ، ودخلت فوجدته على مثل ما كان عليه ، فترنمت وطربت فلم يتلق ذلك بما يجب ؛ فقلت له : ما الخبر ؟ ألم يأتك المال ؟ قال : بلى ! فما كان خبرك أنت بالأمس ؟ فأخبرته بما كان وهب لي وقلت : ما ينتظر من خلف الستارة، فقال : ارفع السجف فرفعته فإذا عشر بِدَر ؛ فقلت : وأي شيء بقي عليك في أمر الضيعة ؟ قال : ويحك ! ما هو والله إلا أن دخلت منزلي حتى شححت عليها فصارت مثل ما حويت قديماً ؛ فقلت : سبحان الله العظيم ! فتصنع ماذا ! قال : قم حتى ألقي عليك صوتاً صنعته يفوق ذلك الصوت ؛ فقمت وجلست بين يديه ، فألقى عليَّ :

ويَفْـرَح بـالمولود مـن آل بَرْمَـكٍ بُغاةُ النَّدَى والسيفُ والرمحُ ذو النصل
وتَنْبـسط الآمـالُ فيـه لفـضله ولا سيما إن كـان مـن وَلَـدِ الفَضل

ثم قال: انهض الساعة إلى الفضل بن يحيى ، فإنك تجده لم يأذن لأحد بعد، وهو يريد الخلوة مع جواريه اليوم ، فاستأذن عليه وحدثه بحديثنا أمس ، وما كان من أبيه إلينا وإليك ، وأعلمه أني قد صنعت هذا الصوت وكان عندي أرفع منزلة من الصوت الذي صنعته بالأمس ، وأني ألقيته عليك حتى أحكمته ووجهت بك قاصداً لتلقيه على فلانة جاريته ؛ فصرت إلى باب الفضل فوجدت الأمر على ما ذكر ، فاستأذنت فوصلت ؛ وسألني : ما الخبر ؟ فأعلمته بخبري

في اليوم الماضي وما وصل إلي وإليه من المال ؛ فقال : أخزى الله إبراهيم فما أبخله على نفسه ! ثم دعا خادماً فقال : اضرب الستارة فضربها ، فقال لي : ألقه، فلما غنيته لم أتمه حتى أقبل يجر مطرفه ، ثم قعد على وسادة دون الستارة ، وقال: أحسن والله أستاذك وأحسنت أنت يا مخارق ؛ فلم أخرج حتى أخذته الجارية وأحكمته ، فسُرّ بذلك سروراً شديداً ، وقال: أقم عندي اليوم ؛ فقلت : يا سيدي! إنما بقي لنا يوم واحد، ولولا أني أحب سرورك لم أخرج من منزلي ؛ فقال : يا غلام! احمل مع أبي المهنأ عشرين ألف درهم واحمل إلى إبراهيم مئتي ألف درهم ؛ فانصرفت إلى منزلي بالمال، ففتحت بدرة فنثرت منها على الجواري وشربت وسررت أنا ومن عندي يومنا؛ فلما أصبحت بكرت إلى إبراهيم أتعرف خبره وأعرفه خبري ، فوجدته على الحال التي كان عليها أولاً وآخراً فبخل بالمال كالأولى ثم صنع صوتاً ، وأرسل مخارقاً يغنيه ، وقال له : امض إلى جعفر فافعل به كما فعلت بأخيه وأبيه ؛ قال : فمضيت ففعلت مثل ذلك وخبرته ما كان منهما وعرضت عليه الصوت ، فسُرّ به ودعا خادماً فأمره بضرب الستارة وأحضر الجارية وقعد على كرسي ، ثم قال : هات يا مخارق ؛ فاندفعت فألقيت الصوت عليها حتى أخذته ؛ فقال : أحسنت والله يا مخارق وأحسن أستاذك ، فهل لك في المقام عندنا اليوم ؟ فقلت : يا سيدي! هذا آخر أيامنا ، وإنما جئت لموقع الصوت مني حتى ألقيته على الجارية ؛ فقال : يا غلام! احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلي ثلاث مئة ألف درهم ؛ فصرت إلى منزلي بالمال ، فأقمت ومن معي مسرورين نشرب بقية يومنا ونطرب ، ثم بكرت إلى إبراهيم

فتلقاني قائماً وقال لي : أحسنت يا مخارق ؛ فقلت : ما الخبر ؟ فقال : اجلس فجلست ، فقال لمن خلف الستارة : خذوا فيما أنتم فيه ، ثم رفع السجف فإذا المال ؛ فقلت: ما خبر الضيعة ؟ فأدخل يده تحت مسورة هو متكئ عليها فقال : هذا صك الضيعة ، سئل عن صاحبها فوجد ببغداد ، فاشتراها منه يحيى بن خالد ، وكتب إلي : قد علمت أنك لا تسخو نفساً بشراء الضيعة من مال يحصل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها لك من مالي ووجهت لك بصكها؛ ووجه إلي بصكها وهذا المال كما ترى ؛ ثم بكى وقال لي: يا مخارق! إذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، وإذا خنكرت فخنكر لمثل هؤلاء ؛ هذه ست مئة ألف وضيعة بمئة ألف وستون ألف درهم لك ، حصلنا ذلك أجمع وأنا جالس في مجلسي لم أبرح منه، فمتى يدرك مثل هؤلاء»[1].

لأهمية الخبر ذكرناه بهذا الإسهاب ، مع أننا اختصرناه بشدة فالخبر يوضح بقوة أن الصنعة ، والحبكة الدرامية ، والبناء القصصي هو ما سيطر على مثل هذه الأخبار ، فأخرجها عن كونها أخباراً حقيقية لتكون مجرد قصص تحبك بشكل درامي مؤثر .

وهذه القصة قد تغنَّت بشدة بآل برمك ، ووصفتهم بصفات الكرم فضلاً عن الإنسانية العظيمة التي تَحَلَّو بها ، فقد سخروا أنفسهم ومن حولهم في خدمة مغنٍّ بخيل ، وهو يرغب رغبة ساذجة في امتلاك ضيعة ، إن السبب غير مقنع ،

---

(١) ينظر : «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ١٩٣ ١٩٩ .

والأداء تعلوه ملامح المبالغة والتصنع في إيراد الأحداث ، وتكرارها في مشاهد تمثيلية توضح جليًّا روح القصص التي بثَّها الأصفهاني في روايته للخبر ، فاستحال الخبر مشاهد متتالية من قصص ألف ليلة وليلة لا غير ، مع هدف واضح هو تجلية صورة البرامكة ووضعهم في منزلة أعلى من منزلة الخلفاء ، فبعد يأسه من الخليفة لاذ بالبرامكة المنقذين .

المبالغة في ذكر الأعداد

الأعداد لا تقبل المبالغة الشديدة ، فذلك لا يصمد أمام العمليات الحسابية الرياضية ، وقد تنوعت تلك المبالغات فيما بين الإحالة، أو الغلو، أو الإغراق .

الإحالة

من الإحالة ، ما يذكره الأصفهاني ؛ إذ يقول : « كانت بذل من أحسن الناس غناء في دهرها ، وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة ، وكانت صفراء مدنية، وكانت أروى خلق الله -تعالى- للغناء ، ولم يكن لها معرفة . وكانت لجعفر بن موسى الهادي ، فوصفت لمحمد بن زبيدة ، فبعث إلى جعفر يسأله أن يريه إياها، فأبى ، فزاره محمد إلى منزله ، فسمع شيئاً لم يسمع مثله ، فقال لجعفر: يا أخي! بعني هذه الجارية . فقال : يا سيدي! مثلي لا يبيع جارية ، قال : فهبها لي، قال : هي مُدَبَّرَةٌ . فاحتال عليه محمد حتى أسكره ، وأمر ببذل فحملت معه إلى الحراقة، وانصرف بها. فلما انتبه سأل عنها فأخبر بخبرها . فسكت ، فبعث إليه محمد من الغد ، فجاءه ؛ وبذل جالسة فلم يقل شيئاً ؛ فلما أراد جعفر أن

ينصرف قال : أوقروا حراقة ابن عمي دراهم ، فأوقرت . قال : فحدثني عبد الله بن الحنيني وكان أبوه على بيت مال جعفر بن موسى أن مبلغ ذلك المال كان عشرين ألف ألف درهم . قال : وبقيت بذل في دار محمد إلى أن قتل ، ثم خرجت ، فكان ولد جعفر وولد محمد يدعون ولاءها ، فلما ماتت ورثها ولد عبد الله بن محمد بن زبيدة »[1] .

إن بمراجعة حسابية لما ذكر من مبالغ مالية وهي عشرون ألف ألف نجد التالي :

٢٠٠٠٠٠٠٠ × ٣,٢٥ = ٦٥٠٠٠٠٠٠ مليون غم

٦٥٠٠٠٠٠٠ ÷ ١٠٠٠ = ٦٥٠٠٠ كغم

٦٥٠٠٠ كغم ÷ ١٠٠٠ = ٦٥ طنًّا من الفضة

هذه الكمية الكبيرة توضع في حرّاقة ، وهي سفينة صغيرة جدًّا لا تحمل مثل هذا الوزن ، نتساءل هل إن الفضة نوع من التراب لتوقر به الحراقة أليس له بيت مال يحفظ فيه ؟ وهل أن بيت المال قرب حراقة جعفر ليقوموا بنقل هذه الكمية الكبيرة إلى حراقته . إن من يورد مثل هذا الخبر لا يحسب حساب العقل أو المنطق، ثم الغريب أنه لسذاجته أو ربما لاندفاعه الشديد نحو تشويه صورة ذلك الخليفة ، يعتقد أن المتلقي غائب عن الوعي ليصدق مثل هذه المبالغات ، وهو في خبر سابق يذكر « أن الفضل بن الربيع صالح التيمي الشاعر على مئة

(١) «الأغاني» ١٧ / ٨٠ ـ ٨١ .

ألف درهم ؛ لقوله له بعد أن أمر الأمين بأن يوقر زورقه دراهما ، أأنت مجنون ؟! من أين لنا ما يملأ زورقك »[١] ، والزورق أصغر بكثير من الحراقة ، فكما يقال (إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً) ، فهو يكذب وينسى كذبه ، ليورد أخباراً غير ما أورده سابقاً .

ومن الإيغال في المبالغة ، بل هي الإحالة المحضة ، « أن بذل وهي مغنية قد غضبت على المأمون فأرسل علي بن هشام يسترضيها ، فقالت بذل وما أصنع به، وكانت تظنه الخليفة جاء يسترضيها ، فقامت إليها وشيكة جاريتها وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره في حوائجها فأكبت على رجلها ، وقالت : الله ، الله ! أتحجبين علي بن هشام ! فدعت بمنديل فطرحته على رأسها ولم تقم إليه ، فقال : إني جئتك بأمر سيدي أمير المؤمنين ، وذلك أنه سألني عنك ، فقلت : لم أرها منذ أيام ، فقال : هي عليك غضبى فبحياتي لا تدخل منزلك حتى تذهب إليها فتسترضيها .فقالت : إن كنت جئت بأمر الخليفة فأنا أقوم . فقامت فقبلت رأسه ، ويديه وقعد ساعة وانصرف ، فساعة خرج قالت : يا وشيكة! هاتي دواة وقرطاساً ، فجعلت تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت اثني عشر ألف صوت»[٢].

لننظر إلى الخبر ونتمعن فيه ، ولنعرضه على حسابات علمية دقيقة ، لا يمكن لها أن تخطئ ، فاليوم والليلة هما أربع وعشرون ساعة ، وهي قد صنعت

(١) ينظر: «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٢٠ / ٦٠ .

(٢) ينظر المصدرنفسه ، ١٧ / ٨٢ .

اثني عشر ألف صوت ، ولو احتسبنا أن الصوت الواحد يحتاج إلى عشر دقائق لكتابته لا لتأليفه أو تذكره فإنَّ مجموع الساعات التي تحتاجها هذه الأصوات هي :

١٢٠٠٠ صوت × ١٠ دقيقة = ١٢٠٠٠٠ دقيقة

١٢٠٠٠٠ ÷ ٦٠ = ٢٠٠ ساعة

٢٠٠ ساعة ÷ ٢٤ = ٨،٣٣ أيام

هذا من دون حساب لأي مشاغل أخرى ، أو نوم أو راحة ، أو الحاجات الإنسانية الأخرى ؛ مع الأخذ بالنظر عدم وجود الإنارة ، وكذا صعوبة توفر الورق ، وصعوبة التدوين ، وصعوبات أخرى جمة ؟!!! .

ويقول الأصفهاني في بذل أيضاً : « كانت بذل صفراء مولدة من مولدات المدينة ، وربيت بالبصرة ، وهي إحدى المحسنات المتقدمات ، الموصوفات بكثرة الرواية ، يقال : إنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب في الأغاني منسوب الأصوات غير مجنس ، يشتمل على اثني عشر ألف صوت ، يقال : إنها عملته لعلي بن هشام . وكانت حلوة الوجه ، ظريفة ، ضاربة متقدمة، وابتاعها جعفر بن موسى الهادي ، فأخذها منه محمد الأمين ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، فولدهما جميعاً يدعون ولاءها ، فأخذت بذل عن أبي سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وابن جامع وإبراهيم ، وطبقتهم »[1] .

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ١٧ / ٨٠ .

ولو سألنا أي مغنٍّ في عصرنا الراهن كم تحفظ من ألحان ، لما تجاوز المئات بل ربما لا يتجاوز العشرات ؟!! بينما تغني ثلاثين ألف صوت ؟!! .

وعن المعتمر بن سليمان قال : « قلت لهلال بن أسْعَر : ما أكلة أكلتها بلغتني عنك ؟ قال : جعت مرة ومعي بعيري فنحرته وأكلته إلا ما حملت منه على ظهري ، قال أبو عبيد في حديثه عن فضل : ثم أردت امرأتي فلم أقدر على ... [1] فقالت لي : ويحك ! كيف تصل إليّ وبيني وبينك بعير ! قال المعتمر : فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ قال : أربعة أيام. وحدثني به ابن عمار قال حدثني عبد الله ابن أبي سعد قال حدثني أحمد بن معاوية عن الأصمعي عن معتمر بن سليمان عن أبيه قال : قلت لهلال بن الأسعر هكذا قال ابن أبي سعد : معتمر عن أبيه وقال في خبره : فقلت له كم تكفيك هذه الأكلة ؟ فقال :خمساً » [2] .

لنتأمل الخبر بعناية ودقة ، هل يمكن لإنسان أن يأكل بعيراً بالغاً ، قد يصل وزنه إلى ٥٠٠ كغم ، بينما جسم الإنسان الطبيعي لا يتجاوز مئتي كغم في أقصى حدوده ، وأن المعدة محدودة الاستيعاب لا يتجاوز سعتها عشرين كغم كحد أقصى ، فهل أن الأصفهاني يصف إنساناً ، أم حيواناً مفترساً قد انقرض ولم يخلق -تعالى- غيره ؟!!! .

ثم ألم يسمع ما ورد في الأثر « حينما نزل رسول الله ﷺ قريباً من بدر ، فبعث نفراً من أصحابه يلتمسون خبر قريش ، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم

(١) عبارة فاحشة .

(٢) «الأغاني» ٣ / ٦٧ .

غلام بني الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان ، فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه ، ثم سلم وقال : إذا أصدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ؟ صدقا والله إنهما لقريش . أخبراني عن قريش ؟ قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما رسول الله ﷺ : «**كم القوم ؟**» قالا : لا ندري . قال: «**كم ينحرون كل يوم ؟**» قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : «**القوم فيما بين التسعمئة والألف**» [1] .

ويقول د . وهبة الزحيلي « إن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد لبني الحجاج عن عدة قريش ، قال : كثير ، قال : «**كم تنحرون كل يوم ؟**»، قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، قال النبي –عليه الصلاة والسلام– : «**القوم ما بين تسع مئة إلى ألف** » [2] .

هل بعد قول الرسول ﷺ قول لشاك أو متردد ، فعليه الصلاة والسلام قد حدد قريش بتسعمئة أو ألف على ما ينحرون من الإبل ، لكل واحد مئة من قريش فكيف بالأصفهاني يقول غير ذلك ، ويجعل للبعير فماً واحداً يأكله ؟!! .

---

(١) «تهذيب سيرة ابن هشام » تحقيق : عبد السلام هارون ، ١ / ١٤٤ ١٤٥ .

(٢) «تفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج » ٣ / ١٦١ .

وفي حديث تُبَّع لما أرادوا هدم الكعبة المشرفة مثل ذلك من المبالغة، إذ يقول:«قال هشام : وحدثني أبي عن صالح عن ابن عباس قال : لما أقبل تُبّع يريد هدم البيت وصرف وجوه العرب إلى اليمن ، بات صحيحاً فأصبح وقد سالت عيناه على خديه ، فبعث إلى السحرة والكهان والمنجمين ، فقال : ما لي ، فوالله لقد بت ليلتي ما أجد شيئاً ، وقد صرت إلى ما ترون . فقالوا : حدث نفسك بخير . ففعل فارتد بصيراً ، وكسا البيت الخصف .

هذه رواية جعفر بن محمد عن أبيه . وفي رواية ابن عباس : فأتي في المنام فقيل له : اكسه أحسن من هذا . فكساه الوصائل قال : وهي برود العصب ، سميت الوصائل لأنها كانت يوصل بعضها ببعض قال : فأقام بمكة ستة أيام يطعم الطعام ، وينحر في كل يوم ألف بعير ، ثم سار إلى اليمن »[1] .

إن ألفاً تنحر تكفي لمئة ألف ، كما هو حساب الرسول ﷺ، ولم يكن في مكة حينئذ مثل هذه الأعداد لتنحر لهم هذه الألاف .

أيظن الأصفهاني المتلقي ساذجاً ليلقى على مسامعه مثل هذه الأكاذيب ؟!!

و«قال المسعودي: وقد قيل: إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل.ويُقال: إنه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري أكْثَرَ من مئة ألْف ألْف درهم، هذا مع كَثرة الموالي والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه في كُل شهر من الجوائز والهبات.

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٥ / ٤٤ ٤٥ .

ويُقال: إنه كان له أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن، ومات وفي بيوت الأموال أربعة آلاف ألْف دينار وسبعة آلاف ألْف درهم، ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل إلا وقد حَظِيَ في دولته، وسعد بأيامه، ووصل إليه نصيب وافر من ماله »[١].

أربعة ألاف سرية كلهن زوجات لـه ، فأين أبناؤه منهن ؟ وهل يمكن لخلافته القصيرة أن تستوعب هذا العدد من النساء ، ثم أين كنَّ يسكنَّ، ألا يحتجن إلى خدم، وحراس ، وخدمات ومؤونة ، إن من يتحدث بهذا الحديث ، لهو يسخر من نفسه أولاً ثم من المتلقي ، فالأمر محال ، ولا يمكن أن يكون ، ولكنها افتراءات وأكاذيب حاولا تسويقها على رموز الأمة وخلفائها ؟!! .

ومن الأخبار الأخرى ، عن إبراهيم عن أبيه قال : « افتصد سعيد بن حميد، فسألتني فضل الشاعرة وسألت عريب أن نمضي إليه ، ففعلنا ، وأهدت إليه هدايا ، فكان منها ألف جدي وحمل وألف دجاجة فائقة ، وألف طبق ريحان وفاكهة ، ومع ذلك طيب كثير وشراب وتحف حسان ، فكتب إليها سعيد : إن سروري لا يتم إلا بحضورك ، فجاءته في آخر النهار »[٢] .

أي دار يتسع لهذه الأعداد من الأنعام ، والدجاج ؟!!

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٤ / ١٤١ .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٨ / ١٧١ .

وعن موسى بن سعيد بن سلم قال : « قدم الحجاج على عبد الملك ، فمر بخالد بن يزيد بن معاوية ، ومعه بعض أهل الشام ، فقال الشامي لخالد : من هذا ؟ فقال خالد -كالمستهزئ -: هذا عمرو بن العاصي ، فعدل إليه الحجاج ، فقال : إني والله ما أنا بعمرو بن العاصي ولا ولدت عمراً ولا ولدني ؛ ولكني ابن الغطاريف من ثقيف والعقائل من قريش ، ولقد ضربت بسيفي هذا أكثر من مئة ألف ، كلهم يشهد أنك وأباك من أهل النار ، ثم لم أجد لذلك عندك أجراً ولا شكراً . وانصرف عنه ، وهو يقول : عمرو بن العاصي ، عمرو بن العاصي ! »[1] .

إن الحَجّاج بما عُرف عنه من بطش وقسوة ، لهو يقف مذهولاً أمام هذا العدد من قتلاه ، فأين عمره من قتل مئة ألف ، إن مدينة عظيمة يشغلها سكان وتدار من ملك أو أمير؛ قد يصل نفوسها إلى مئة ألف ، فكيف وهو إنسان واحد مفرد يقتل هذا العدد .

ولو فرضنا أن عمر حمل السيف هو أربعون سنة ، وأن قتلاه مئة ألف . فلو أننا قسمنا :

١٠٠٠٠٠ ÷ ٤٠ سنة = ٢٥٠٠ شخص سنوياً

ولو قسمنا :

٢٥٠٠ ÷ ٣٦٥ يوما . لوجدنا = ٧ أشخاص

(١)المصدر نفسه ١٧ / ٣٤٦ .

يقتل بسيفه يوميًّا ، من دون أن يترك جمعة ولا عيداً ولا راحةً ولا مرضاً ، إن ذلك محال ولا يمكن لإنسان أن يقوله ، لا ندَّعي بياض صفحته ، أو طهارة يده من الدماء ولكن الواقع الحسابي يرفض مثل هذه الأخبار .

ومن المبالغات الأخرى ، ما رواه الأصفهاني عن الأصمعي إذ يقول: «قال حماد الراوية : أرسل إلي أمير الكوفة فقال لي : قد أتاني كتاب أمير المؤمنين الوليد ابن يزيد يأمرني بحملك . فَحُمِلتُ فقدمت عليه وهو في الصيد ، فلما رجع أذن لي ، فدخلت عليه وهو في بيت منجد بالأرمني أرضه وحيطانه ؛ فقال لي : أنت حماد الراوية ؟ فقلت له : إن الناس ليقولون ذلك ؛ قال : فما بلغ من روايتك ؟ قلت : أروي سبع مئة قصيدة أول كل واحدة منها : بانت سعاد »[1] .

إن كان حقًّا ما يقوله ، فأين تلك القصائد ، وفي محفوظات الناس ، قصيدة بانت سعاد في مدح الرسول ﷺ ، لكعب بن زهير ؟!

ومن الإحالة في المبالغة ما يقوله عن أبي هِفّان أنه قال : «أهديت للرشيد جاريةٌ في غاية الجمال والكمال؛ فخلا معها يوماً وأخرج كل قينة في داره واصطبح ؛ وكان من حضر من جواريه الغناء والخدمة في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زيّ من كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر . واتصل الخبر بأم جعفر فعظم عليها ذلك ؛ فأرسلت إلى علية تشكو إليها . فأرسلت إليها علية : لا يهولنك هذا ، والله لأردّنّه إليك . قد عزمت أن أضع شعراً وأصوغ فيه لحناً

---

(١) «الأغاني» ٦ / ١٠١ .

وأطرحه على جواري ، فلا تبقي عندك جاريةً إلا بعثت بها إلي وألبسيهن أنـواع الثياب ليأخذن الصوت مع جواري ؛ ففعلت أم جعفر ما أمرتها بـه . فلـما جـاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد إلا وعلية وأم جعفر قـد خرجتـا إليـه مـن حجرتيهما معهما زهاء ألفي جارية من جواريهما وسائر جـواري القـصر علـيهن غرائب اللباس وكلهن في لحن واحد هزجٍ صنعته علية وهو :

منفـصلٌ عنّـي ومـا   قلبـي عنـه منفـصل
يا هاجري اليوم لمـن   نويت بعدي أن تـصل

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر وعلية وهو على غاية السرور ، وقال : لم أر كاليوم قط . يا مسرور ، لا تبقين في بيـت المـال درهمـاً إلا نثرته . فكان ما نثر يومئذ ستة آلاف [١] درهـم ، ومـا سـمع بمثـل ذلـك اليـوم قط »[٢].

إن للقصر وردهاته سعة محدودة ، فمهما بلغ حجمه ، فلا يمكن أن نـصدِّق أن الخليفة أحيط بألفي جارية فهذا محال ، فأي غرفة أو ردهـة يمكـن أن تتـسع لهذين الألفين ، إن الخليفة حينما يفرح لا يحتاج إلى مثل هذا العدد ، هـل وضـع الأصفهاني نفسه بين ألفين من الناس وأحس بما في ذلك من ضيق ، سواء أكـان ذلك من حرارة تطلقها أجسادهم ، أو رائحـة تفرزهـا أو نفـس تتنفـسها ، إنـه

---

(١) ربما سقطت ألف أخرى ، فالمبلغ هو ألف ألف .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٠ / ٢١٠ ٢١١ .

يطلق العنان لكلماته فيذكر أعداداً لا حقيقة لها ، ثم إن العدد لم يتوقف عند ذاك، فقد خرجت علية مع جواريها ، وخرجت زبيدة معها زهاء ألفي جارية ، وهن يغنين بصوت واحد صنعته علية ، هل يمكن أن نرسم هذه الصورة الخيالية ، أين الممرات التي تتخذ مثل هذه الأعداد ، وكيف لهن أن ينطقن بصوت واحد ، فهذا محال ويعلم بذلك العاملون في مجال الغناء ، فلا يمكن أن يتوافقن على صوت واحد ، وهن لم يتدربن إلا منذ وقت قريب ، إن مجموع ما نثره الأصفهاني من جوارٍ وحرس وخدم وأهل بيت الخلافة يقترب من خمسة ألف شخص ، وهذا يكفي لملء ملعب لكرة قدم ؟؟!! فكيف يجتمعون في وقت واحد والجمع هو جمع سرور وفرح وغناء .

إن حساب العقل والمنطق يرفض مثل هذا الطرح ، ويعده من الأكاذيب التي شوهت صورة الخلفاء المسلمين .

الإيغال

الإيغال لغة: « السير السريع ، وقيل: الشديد والإمعان في السير »[1] ومثله الإيغال في المبالغة أي: الشدة والإمعان ، ينقل الأصفهاني عن هبة الله بن إبراهيم ابن المهدي في طول الرطبة ، فيقول : « قلت للمعتصم : كانت لأبي أشياء لم يكن لأحد مثلها . فقال : وما هي ؟ قلت : شارية وزامرتها مَعْمَعَة .

---

(١) ينظر «لسان العرب» ابن منظور ، مادة / وغل ، ١١ / ٧٣٣ .

فقال : أما شارية فعندنا ، فما فعلت الزامرة ؟ قلت : ماتت . قال : وماذا ؟ قلت: وساقيته مكنونة ، ولم ير أحسن وجهاً ولا ألين ولا أظرف منها . قال : فما فعلت ؟ قال : ماتت . قال: وماذا ؟ قلت : نخلة كانت تحمل رطباً طول الرطبة منها شبر . قال: فما فعلت ؟ قلت : جمرتها بعد وفاته . قال : وماذا ؟ قلت : قدحه الضحضاح . قال: وما فعل؟ قلت : الساعة والله حجمني فيها أبو حرملة فسألته أن يهبه لي ففعل، ووجهت به إلى منزلي فغُسِل ونُظِّف وأعيد إلى خزنتي، فرأيت أبي فيما يرى النائم في ليلتي تلك وهو يقول لي :

أَيَتْرَعُ ضَحْضَاحي دماً بعد ما غَدَتْ عليّ به مكنونةٌ مُتْرَعاً خمرا
فإن كنت مني أو تُحبُّ مسرَّتي فلا تُغْفِلَن قبل الصباح له كسرا

فانتبهتُ فزعاً وما فرق الصبح حتى كسرته »[1] .

ومن الإيغال أيضاً ، ما نقله الأصفهاني عن ميمون بن هارون وهو يقول لغريب : « رأيت في النوم كأني سألت علية بنت المهدي عن أغانيها فقالت لي : هي نيِّف وخمسون صوتاً . فقالت لي عريب : هي كذلك . وقد أخبرني بنحو هذا الخبر عبد الله بن الربيع الربيعي قال: حدثني وسواسة وهو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثتني خشف الواضحية أنها تمارت هي وعريب في غناء علية بحضرة المتوكل أو غيره من الخلفاء . فقلت أنا : هي ثلاثة وسبعون صوتاً ، وقالت عريب : هي اثنان وسبعون صوتاً . فقال المتوكل : غنيا غناءها ؛ فلم أزل أغني غناءها حتى مضى اثنان وسبعون صوتاً ، ولم أدر الثالث والسبعين .

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٠ / ١٧٤ ١٧٥ .

قالت: فقطع بي واستعلت عريب وانكسرت . قالت خشف: فلما كان الليل رأيت علية فيما يرى النائم ، فقالت : يا خشف! خالفتك عريب في غنائي . قلت: نعم يا سيدتي . قالت : الصواب معك ، أفتدرين ما الصوت الذي أنسيتيه؟ قلت : لا والله ، ولوددت أني فديت ما جرى بجميع ما أملك . قالت : هو :

بني الحبّ على الجور فلو أنصف المعشوقُ فيه لسمج
ليس يُسْتَحْسَنُ في وصف الهوى عاشقٌ يُحْسِنُ تأليف الحجج
وقليلُ الحبّ صرفاً خالصاً لك خيرٌ من كثيرٍ قد مزج

وكأنها قد اندفعت تغنيني به ، فما سمعت أحسن مما غنته ، وقد زادتني فيه أشياء في نومي لم أكن أعرفها ، فانتبهت وأنا لا أعقل فرحاً به . فباكرت الخليفة وذكرت له القصة . فقالت عريب : هذا شيء صنعته أنت لما جرى أمس ، وأما الصوت فصحيح . فحلفت للخليفة بما رضي به أن القصة كما حكيت . فقال : رؤياك والله أعجب ، رحم الله علية ؟ فما تركت ظرفها حية ولا ميتة . وأجازني جائزة سنية »[1] .

غنَّت اثنين وسبعين صوتاً ، ولم يأت وقت النوم ، ثم تنام وتحلم وتباكر الخليفة بحلمها ، إن حساب الزمن مفقود في هذا الخبر ، وكذا قدرة الإنسان ، فللإنسان قدرة محدودة ، حتى وإن كان غناءً ، ولا يمكن أن تستمر مغنية لتغني اثنين وسبعين صوتاً في ليلة واحدة فلو فرضنا أن الصوت الواحد يستغرق عشر

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١٠ / ٢١٢ ٢١٣ .

دقائق لاحتاجت إلى وقت هو :

٧٢ × ١٠ + ٧٢٠ دقيقة ولو قسمناها على الساعات لوجدناها :

٧٢٠ ÷ ١٠ = ١٢ اثنتا عشرة ساعة من الغناء المتواصل

وهذا لعمري من الأوهام التي سوقها الأصفهاني، والتي لا تصمد أمام الحساب العددي الدقيق .

ومن الإيغال أيضاً ، ما أورده الأصفهاني في قوله : « أخبرني الحسن بن علي الخفاف قال : حدثني محمد بن القاسم بن مهرويه قال : حدثني عبد الله بن عمرو قال : حدثني أبو توبة صالح بن محمد عن محمد بن جبير عن عبد الله بن العباس الربيعي قال : حدثني إبراهيم ابن المهدي قال : قال لي جعفر بن يحيى : ذكر حكم الوادي ، أنه غنى الوليد بن يزيد ذات ليلة وهو غلام حديث السن ، فقال:

إكليلُها ألوانُ ووجْهُها فتّانُ

وخالها فريدٌ ليس لها جِيرانُ

إذا مشَتْ تثنَّتْ كأنّها ثعْبانُ

فطرب حتى زحف عن مجلسه إليّ ، وقال أعد فديتك بحياتي . فأعدته حتى صَحِلَ صوتي ، فقال لي : ويحك! من يقول هذا ؟ فقلت : عبد لك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك . فقال : ومن هو فديتك ؟ فقلت : مطيع بن إياس الكناني. فقال : وأين محله ؟ قلت : الكوفة . فأمر أن يحمل إليه على البريد ، فحمل إليه ، فما أشعر يوماً إلا برسوله قد جاءني ؛ فدخلت إليه ومطيع بن إياس

واقف بين يديه، وفي يد الوليد طاس من ذهب يشرب به ، فقال له : غنِّ هذا الصوت يا وادي فغنيته إياه ، فشرب عليه ، ثم قال لمطيع : من يقول هذا الشعر؟ قال : عبدك أنا يا أمير المؤمنين . فقال له : ادنُ مني . فدنا منه ، فضمه الوليد[1].. بين عينيه ، وقبل مطيع رجله والأرض بين يديه ، ثم أدناه منه حتى جلس أقرب المجالس إليه ، ثم تم يومه فاصطبح أسبوعاً متوالي الأيام على هذا الصوت »[2] .

أن ينبهر الخليفة بغناء ، فلربما كان ، وأن يشرب بطاس من ذهب فلربما كان، غير أن يصبح أسبوعاً متوالي الأيام على هذا الصوت ، فهذا حقُّ الإيغال في المبالغة ، فأين الخلافة وأمور الحكم حتى يصطبح أسبوعاً على صوت لربما يمله أي إنسان في الإعادة الثانية أو الثالثة ، إن إيراد الخبر على هذه الصورة ليوحي بدقة أن راويه قد صنعه ؛ من دون أن يراعي طبائع الإنسان .

المبالغة في ذكر الأحداث

إن للأحداث التأريخية أبعاداً ؛ لا بد أن نعرضها على واقعنا المعيش ، مع وعينا بالاختلاف بين واقع المسلمين اليوم ، وواقع المسلمين حين ظهور الإسلام ، فلا شك في أن واقع المسلمين حينئذٍ هو الأنقى والأطهر ، والأشد تواصلاً مع تعاليم الدين الحنيف ، خاصة وأن الصحابة وآل البيت بينهم

---

(١) عبارة فاحشة .

(٢) «الأغاني» ١٣ / ٣٠٤ ٣٠٥ .

يدعوهم إلى الخير ، وينهوهم عن كل منكر بنفوس أشربتْ حبّ الإسلام والذود عنه .

في حين أن الأصفهاني والمسعودي وسواهما ، قد بالغوا في وصف الأحداث في عصر صدر الإسلام وما تلاه ، حتى أخرجوها من نطاق المعقول والمقبول ؛ ليغرقوهم في بحار من اللهو والترف والمتع الدنيوية الزائلة ؛ التي لا شك في أنهم كانوا الأشد بُعداً عنها .

المبالغة في العلاقة بالمشاعر المقدسة والعبادات

المشاعر المقدسة هي أنقى مظهر على الأرض يبرز العلاقة مع الخالق -تعالى- ؛ ففيه طهر للنفس ، وصفاء للخاطر ، فلطالما أحس الحاج أو المعتمر بفيض من أحاسيس النقاء والصفاء ؛ التي تجتاح مشاعره بعد أدائها فكأنما أزاح عن عاتقه ثقل الذنوب ؛ التي كان ينوء بها ؛ لتتجلى روحه ، نقية صافية ؛ ويمتد ذلك لمدة بعد الحج أو العمرة .

أمّا الأصفهاني مثلاً فهو قد رسم المشاعر المقدسة وكأنها لوحة قبيحة ، ترتشف ألوان المجون والخلاعة ، والغزل ، والغناء ، والعبث والابتذال ، فما عادت لها قدسية ، بل غدت ميداناً لتباري العابثين والمغنين ، وسوقاً رائجة لفنون الطرب والغزل ، يقول : «أخبرنا وكيع قال قال حماد حدثني أبي عن أبي الخطاب قال وحدثني ابن كناسة عن سليمان بن داود -مولى ليحيى-، وأخبرني بهذا الخبر الحسن بن علي عن ابن مهرويه عن قعنب بن المحرز الباهلي عن

المدائني قالوا جميعاً : حج هشام بن عبد الملك وعديله الأبرش الكلبي ، فوقف له حنين بظهر الكوفة ومعه عوده وزامر له ، وعليه قلنسية طويلة ، فلما مر به هشام عرض له ؛ فقال: من هذا ؟ فقيل : حنين ؛ فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره ، وسير به أمامه وهو يتغنى:

أَمِن سَلْمَى بِظَهر الكو فَةِ الآياتُ والطَّلَلُ
يلوحُ كما تلوحُ على جفون الصَّيقل الخِلَلُ

فأمر له هشام بمئتي دينار ، وللزامر بمئة »[1] .

وللنساء النصيب الأوفر من ذلك ، لمنهجيته الواضحة في إظهار المرأة بمظهر متحلل من الأخلاق والمبادئ والقيم، وهو يختار النساء الرموز كلهن ، فهو ينسب خبراً إلى مصعب الزيدي ، وفيه : « اجتمع نسوة فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن مجلسه وحديثه ، فتشوقن إليه وتمنينه . فقالت سكينة : أنا لكن به ، فبعثت إليه رسولاً ووعدته الصورين ليلة سَمَّتْها ، فَوَافَاهُنَّ على رَوَاحِلِهِ ، فحدثهن حتى طلع الفجر وحان انصرافهن ، فقال لهن : إني والله لمحتاج إلى زيارة قبر النبي ﷺ والصلاة في مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئاً . ثم انصرف إلى مكة وقال في ذلك[2] :

أَلِمْ بزينب إنَّ البينَ قد أفدا

---

(١) «الأغاني» ٢ / ٣٣٥ ٣٣٦ .

(٢) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١ / ١١٣ .

هو يستهين بزيارة قبر النبي -عليه الصلاة والسلام- ، لقوله: (لا أخلط بزيارتكنَّ شيئاً) وكأنها زيارة قبر الرسول ﷺ شيء من الأشياء ، وهو لا يعدله بلقائهنَّ ؟!!! .

وعن حماد عن أبيه عن ابن سلام عن جرير ، قال : «أن سكينة بنت الحسين عليها السلام حجت فدخل إليها ابن سريج والغريض وقد استعار ابن سريج حلة لامرأة من قريش فلبسها ؛ فقال لها ابن سريج : يا سيدتي! إني كنت صنعت صوتاً وحسنته وتَنَوَّقْتُ فيه ، وخبأته لك في حريرة في درج مملوء مسكاً فنازعنيه هذا الفاسق -يعني: الغريض- فأردنا أن نتحاكم إليك فيه ، فأَيُّنَا قَدَّمْتِهِ فيه تقدم ، قالت: هاته ؛ فغناها :

عُوجِي علينا رَبَّةَ الهَوْدَجِ   إنّكِ إلّا تَفْعَلِي تَحْرَجِي

فقالت : هاته أنت يا غريض ؛ فغناها إياه ؛ فقالت لابن سريج : أعده ، فأعاده، وقالت: يا غريض! أعده، فأعاده؛ فقالت: ما أشبهكما إلا بالجدين» [1] .

ويروي الأصفهاني منتقياً سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف وهو أحد المبشرين بالجنة -رضوان الله عليه-، فيقول : « كانت سعدى بنت عبد الرحمن ابن عوف جالسة في المسجد الحرام ، فرأت عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت ، فأرسلت إليه : إذا فرغت من طوافك فائتنا ، فأتاها ، فقالت : ألا أراك يا ابن أبي ربيعة إلا سادراً فيحرم الله ! أما تخاف الله ! ويحك إلى متى هذا السفه ؟ قال : أي

---

(١) المكان نفسه.

هذه ، دعي عنك هذا من القول ، أما سمعت ما قلت فيك ؟ قالت : لا ، فما قلت ؟ فأنشدها قوله:

قالت سُعَيْدَةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ   منها على الخدَّينِ والجِلْبابِ
ليت المغيري الذي لم أَجِزْه   فيما أطال تصيُّدي وطِلابي
كانت تردّ لنا المُنَى أيامُنا   إذ لا نُلامُ على هوىً وتَصابي
أسُعَيدَ ما ماءُ الفراتِ وطِيْبُه   منّي على ظمأ وحُبِّ شراب
بألذّ منك وإن نأيْتِ وقلَّما   يَرْعَى النساء أمانة الغُيَّابِ

عروضه من الكامل ، غناه الهذلي رملاً بالوسطى ، عن الهشامي ، وغناه الغريض خفيف ثقيل بالوسطى ، عن عمرو .فقالت : أخزاك الله يا فاسق ، ما علم الله أني قلت مما قلت حرفاً ، ولكنك إنسان بهوت .

وهذا الشعر تغني فيه :

قالت سكينة والدموعُ ذوارفٌ

وفي موضع :

أسعيد ما ماءُ الفرات وبَرْده

أسكَيْن . وإنما غيره المغنون : ولفظ عمر ما ذكر فيه في الخبر. وقد أخبرني إسماعيل بن يونس ، عن ابن شبة ، عن إسحاق ، قال : غنيت الرشيد يوماً بقوله:

قالت سُكَيْنَة والدموعُ ذَوَارِفٌ   منها على الخدَّيْن والجِلْبابِ

فوضع القدح من يده وغضب غضباً شديداً ، وقال : لعنه الله الفاسق، ولعنك معه. فسقط في يدي، وعرف ما بي، فسكن ثم قال: ويحك! أتغنيني بأحاديث الفاسق ابن أبي ربيعة في بنت عمي ، وبنت رسول الله ﷺ ! ألا تتحفظ في غنائك »(١) .

ومن الافتراء على الصحابة الكبار ، في رواية تكاد تضحك لسذاجة الطرح فيها ، ومظاهر التصنيع البادية عليها ، يقول عن عبد الله بن سلم قال : «قال عبد الله بن عمر العمري : خرجت حاجًّا ، فرأيت امرأةً جميلة تتكلم بكلام أرفثت فيه ، فأدنيت ناقتي منها ، ثم قلت لها : يا أمة الله! ألست حاجّة ! أما تخافين الله ! فسفرت عن وجهٍ يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت : تأمل يا عم ! فإنني ممن عنى العرجي بقوله :

أماطَتْ كِسَاءَ الخزِّ عن حُرّ وجْهِها   وأدْنَتْ على الخَدَّين بُرْداً مُهَلْهَلا

مِن اللَاءِ لم يَحْجُجْنَ يبغين حِسْبَةً   ولكن لِيَقْتُلْنَ البَرِيءَ المُغَفَّلا

قال : فقلت لها : فإني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار . قال : وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها : أعزبي قبحك الله ! ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز »(٢) .

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٧ / ١٦١ ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٣٨٩ ٣٩٠ .

وعن ابن مودود عن الجُرمازِيّ ، قال : «كان الدارمي المكي شاعراً ظريفاً وكانت فتيات أهل مكة لا يطيب لهن متنزه إلا بالدارمي ، فاجتمع جماعة منهن في متنزه لهن ، وفيهن صديقة له ، وكل واحدة منهن قد واعدت هواها ، فخرجن حتى أتين الجحفة وهو معهن ؛ فقال : بعضهن لبعض ، كيف لنا أن نخلو مع هؤلاء الرجال من الدارمي ؟ فإنّا إن فعلنا قطعنا في الأرض ! قالت لهن صاحبته : أنا أكفيكنه ؛ قلن : إنا نريد ألا يلومنا ؛ قالت : علي أن ينصرف حامداً ، وكان أبخل الناس ، فأتته فقالت : يا دارمي! إنا قد تفلنا فاجلب لنا طيباً ؛ قال: نعم هو ذا ، آتي سوق الجحفة آتيكن منها بطيب ؛ فأتى المكارين فاكترى حماراً فصار عليه إلى مكة وهو يقول :

أَنَــا بــالله ذي العِــزِّ وبــالرُّكنِ وبالــصَّخْرَةْ
من اللّائــي يُـرِدنَ الطِّيــ ــب في اليُسر وفي العُسْرَةْ
ومــا أقــوَى عــلى هــذا ولــو كنــتُ عــلى البَـصْرَةْ

فمكث النسوة ما شئن . ثم قدم من مكة فلقيته صاحبته ليلة في الطواف ، فأخرجته إلى ناحية المسجد وجعلت تعاتبه على ذهابه ويعاتبها ، إلى أن قالت له: يا دارمي! بحق هذه البنية أتحبني ؟ فقال : نعم ، فبربها أتحبيني ؟ قالت : نعم ، قال : فيا لك الخير فأنت تحبيني وأنا أحبك ، فما مدخل الدراهم بيننا »[(١)] .

وقد صدق د. شوقي ضيف إذ يقول : « من يقرأ (الأغاني) يُخَيَّل إليه أن

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٣ / ٤٨ ، ٤٩ .

الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورطوا في إثمها تورطاً »[١] .

والخبر يوضح هذا الرأي بشكل تام ، فهو يصور الشابات وهن كثيرات متخذات أخدان ، وهن فاسقات يخلون مع أخدانهن ، وأين ذلك إنه في مكة ، وأي لقاء وعتب لا يكون إلا في الطواف ؟!! .

وطعنه في مكة وأهلها مستمر ، يقول : «أخبرني علي بن صالح بن الهيثم قال أخبرني أبو هفان عن إسحاق بن إبراهيم عن الزبيري والمدائني ومحمد بن سلام والمسيّبيّ : أن بنتاً لعبد الملك بن مروان حجت ، فكتب الحجاج إلى عمر بن أبي ربيعة يتوعده إن ذكرها في شعره بكل مكروه ، وكانت تحب أن يقول فيها شيئاً وتتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج . فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له : من أين أنت ؟ قال : من أهل مكة ؛ قالت : عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله ! قال : ولم ذاك ؟ قالت : حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن ، فلم يستطع ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا ! قال : فإني لا أراه إلا قد فعل ! قالت : فأتنا بشيء إن كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير ؛ فمضى إليه فأخبره ؛ فقال : لقد فعلت ، ولكن أحب أن تكتم علي ؛ قال : أفعل ؛ فأنشده[٢] :

رَاعَ الفؤادَ تَفَرُّقُ الأحبابِ   يَومَ الرحيل فهاجَ لي أَطْرابي

فكيف يمكن لمسلمة قد انتهت من الحج أن تلعن أهل مكة ، التي بارك الله

---

(١) «العصر العباسي الأول » ص٧٥ .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢ / ٣٥٠ ٣٥١ .

-تعالى- في بيتها، قال -تعالى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١).

ومن التلاعب بالمقدسات الإسلامية، والعبادات خاصة، يقول: «قال حماد: حدثني أبي قال: حدثني أبو الحسن المدائني قال: قال معبد: أتيت أبا السائب المخزومي وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة فلما رآني تجوّز وقال ما معك من مبكيات ابن سريج؟ قلت قوله:

ولهُنَّ بالبيتِ العَتِيقِ لُبانَةٌ والبيتُ يَعْرِفُهنّ لو يَتكلَّمُ

لو كان حَيًّا قبلَهن ظَعَائناً حَيّا الحَطِيمُ وجوهَهنّ وزَمْزَمُ

لَبِثُوا ثلاثَ مِنىً بمنزلِ غِبْطَةٍ وهُمُ على سَفَرٍ لعَمْرُكَ ما هُمُ

مُتجاوِرِينَ بغير دار إقامةٍ لو قد أجدّ تفرّقٌ لم يَنْدَمُوا

فقال لي: غنه، فغنيته. ثم قام يصلي فأطال، ثم تجوّز إلي فقال: ما معك من مطرباته ومشجياته، فقلت: قوله:

لسنا نُبَالِي حين نُدرِكُ حاجةً ما بات أو ظَلَّ المَطِيُّ مُعَقَّلاَ

فقال لي: غنه، فغنيته، ثم صلى وتجوّز إلي وقال: ما معك من مرقصاته؟ فقلت:

فلم أَرَ كالتَّجْمِيرِ منْظَرَ ناظرٍ ولا كَلَيالي الحجِّ أَفْتَنَّ ذا هَوى

---

(١) آل عمران / ٩٦ .

فقال : كما أنت حتى أتحرم لهذا بركعتين »(1) .

أبو السائب المخزومي يصلي ألف ركعة في كل يوم وليلة ، كما يروي الأصفهاني ، مع هذه الركعات الألف لم يسلم من أن يخلط الغناء والمرقصات بصلاته، فأين ذلك من العبادة وما تتطلبه من خشوع وقنوت وخضوع للخالق -تعالى-؟!.

ومن التلاعب بالأذان يقول إن سعيد بن حميد كان له صديق : «فغاب عنه مدة ، ثم جاءه مسلماً ، فقال له : غبت عني هذه المدة ثم تجيئني فلا تقيم عندي ! فقال له : قد أمسينا ، فقال : تبيت ؟ قال : لا والله لا أقدر ، ولم يزل به حتى اتفقا على أنه إذا سمع أذان العتمة انصرف ، فقال له : قد رضيت . ووضع النبيذ ، فجعل سعيد يحث السقي بالأرطال ، فلما قرب وقت العتمة ، أخذ رقعة فكتب فيها إلى إمام المسجد وهو مؤذنه قوله :

قل لداعي الفِراق أخِّرْ قليلا قد قَضيْنا حَقَّ الصَّلاةِ طويلا
أخر الوقْتَ في الأذانِ وقدِّم بعدها الوقتُ بكرةً وأصيلا
ليس في ساعةٍ تُؤخِّرها وِزْرٌ فنحيا بها وتأتي جميلا
فتُراعي حقَّ الفُتُوَّةِ فينا وتُعافَى من أن تكون ثقيلا

فلما قرأ المؤذن الرقعة ضحك وكتب إليه يحلف أنه لا يؤذن ليلته تلك العتمة، وجعل الفتى ينتظر الأذان حتى أمسى وسمع صوت الحارس ، فعلم

---

(1) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١ / ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

أنها حيلة وقعت عليه وبات في موضعه »[١].

بينما يقول -تعالى-: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٢].

والأصفهاني يجعلها ألعوبة وسخرية ، وملعب للسكارى والعابثين ، ولا يتورع فيها المؤذن عن الاشتراك في تلك اللعبة ، بل هو يضحك ويحلف بالامتناع عن الأذان ، إننا إذ نذكر مثل هذه الأخبار لنشعر بالأسى مما أصاب مقدساتنا وعباداتنا على يد هؤلاء المدسوسين ؛ الذين يحاولون بمنهجية واضحة النيل من مقدساتنا جميعاً.

المبالغة في البعد عن المألوف

إن القياس هو أحد مصادر الشريعة ، أقيم للترابط بين الأحداث القريبة ، والإنسان بطبعه ينزع نحو متابعة المتشابه من الأشياء ؛ وفي عالمنا اليوم ومن قبل نظر الإنسان في الأحداث فوجدها تعتمد نسقاً منسجماً ، لا ينفصل الحدث فيها عن واقعه ، وما يخرج منها عن المألوف يظهر على شكل معجزات تكون للأنبياء والرسل ، وعلى شكل خوارق للعادة لمن يرتضيه الله -سبحانه- من أوليائه .

---

(١) «الأغاني» ١٨ / ١٦١ .

(٢) النساء / ١٠٣ .

مع ذلك كله فإن الخالق -تعالى- القادر على كل شيء ، الموجد ، القائل في محكم كتابه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[١] مع هذه القدرة المطلقة فهو -تعالى- قد سبب الأشياء ، وهو القادر على أن يقول للشيء كن فيكون ، بينما أخذ الأقوام الكافرة المنحرفة عن أنبيائها بظواهر طبيعية ، فهاهم قوم عاد يؤخذون بالريح العقيم ، قال -تعالى-: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[٢] .

وقوم لوط أخذهم بحجارة من سجيل ، قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[٣] .

وأخذ قوم صالح بالصيحة ، قال -تعالى- : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِمِينَ﴾[٤] .

إن القدرة المطلقة لله دعته -جل جلاله- أن يأخذ بالنواميس الكونية ؛ فيعاقب بظواهر طبيعية ، حتى أن قوم عاد رأوا العذاب فظنوه عارضاً ممطرهم ، قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا

(١) القمر / ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) الذاريات / ٤١ ٤٢ .

(٣) هود / ٨٢ ٨٣ .

(٤) هود / ٦٧ .

بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1] ، اتخذ الخالق -تعالى- الظواهر الطبيعية وسيلة لعذاب الكفار ، لكن أن تخرج الأحداث عن نواميس الكون ، بعيدة عن المألوف والمشاهد ، وعن التسلسل المنطقي ، ذلك كله كما يزعم بسبب يمين غموس حلفه أحد أحفاد الزبير بن العوام ، فكان جزاؤه ما لم يشاهد عند الكفار ، والمنافقين وأعداء الإسلام ؟؟!!! .

يروي الأصفهاني فيقول: «وذكر الفضل بن الربيع قال: صار إلي عبدُ الله ابن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، فقال: إن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي قد أراداني على البَيعة له، فجمع الرشيد بينهما، فقال الزبيري لموسى: سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا، فالتفت إليه موسى فقال: ومَنْ أنتم؟ فغلب على الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف حتى لا يظهر منه، ثم قال موسى: يا أمير المؤمنين! هذا الذي ترى المُشَنع عليَّ خرج والله مع أخي محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن علي على جدك المنصور، وهو القائل من أبيات:

قوموا ببيعتكم ننْهَضْ بطاعتنا   إن الخلافة فيكم يا بني حسن

في شعر طويل، وليس سعايته يا أمير المؤمنين حُبًّا لك، ولا مراعاة لدولتك، ولكن بُغْضاً لنا جميعاً أهل البيت، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعاً لكان معه،

---

(١) الأحقاف / ٢٤ ٢٥ .

وقد قال باطلاً وأنا مستحلفه، فإن حلف إني قلت ذلك فدمي لأمير المؤمنين حلال فقال الرشيد احلف له يا عبد الله، فلما أراده موسى على اليمين تلكأ وامتنع، فقال له الفضل: لم تمنع وقد زعمت آنفاً أنه قال لك ما ذكرته، قال عبد الله: فأنا أحلف له، قال موسى: قل تَقَلّدْتُ الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولي وقوتي إن لم يكن ما حكيته عني حقًّا، فحلف له، فقال موسى: الله أكبر، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده عليٍّ عن رسول الله ﷺ إنه قال: «**ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجّل الله له العقوبة قبل ثلاثة**» والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفي قَبْضَتك، فتقدم بالتوكيل عليّ، فإن مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمي لأمير المؤمنين حلال، فقال الرشيد للفضل: خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر في أمره.

قال الفضل: فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعتُ الصُّرَاخَ من دار عبد الله بن مصعب، فأمرت من يتعرف خبره، فعرفت إنه قد أصابه الجُذَام، وإنه قد تورم واسْود، فصرت إليه، فوالله ما كدت أعرفه لأنه صار كالزِّقِّ العظيم ثم اسودَّ حتى صار كالفحم، فصرت إلى الرشيد فعرفته خبره، فما انقضى كلامي حتى أتى خبر وفاته، فبادرت بالخروج، وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه، وتوليت الصلاة عليه، فلما دَلّوْه في حفرته لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحة مفرطة النتن، فرأيت أحمال شوك تمر في الطريق فقلت: علي بذلك الشوك، فأتيت به، فطرح في تلك الوهدة، فما استقر حتى انخسفت ثانية، فقلت عليَّ بألواح ساج، فطرحت على موضع قبره، ثم

طرح التراب عليها، وانصرفت إلى الرشيد فعرفته الخبر وما عاينت من الأمر فأكثر التعجب من ذلك، وأمرني بتخلية موسى بن عبد الله رضي الله عنه، وإن أعطيه ألف دينار، وأحضر الرشيد موسى فقال له: لم عَدَلْت عن اليمين المتعارفة بين الناس؟ قال: لأنّا رَوَيْنَا عن جَدِّنا رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**منْ حلف بيمين مجد الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته. وما من أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حَوْلَه وقوته إلا عَجَّلَ الله له العقوبة قبل ثلاث**»[1].

ومن المظاهر الأخرى، نرى مظهراً غريباً آخر، وهو تحكم الأحلام في الأحداث، من ذلك: « قال جرير لما بلغه موت الفرزدق: قلما تصاول فحلان، فمات أحدهما إلا أسرع لحاق الآخر به.

ورثاهما جماعة، فمنهم أبو ليلى الأبيض، من بني الأبيض بن مجاشع فقال فيهما:

لعمري لئن قَرْمَا تميم تتابعا ... مُجِيبينَ للداعي الذي قد دعاهما

لَرُبَّ عدوٍّ فرّق الدهر بينته ... وبينهما لم تُشْوِهِ ضَغْمَتَا هُمَتَا

أخبرني ابن عمار، عن يعقوب بن إسرائيل، عن قعنب بن المحرز الباهلي، عن الأصمعي، عن جرير -يعني أبا حازم- قال: رئي الفرزدق وجرير في النوم، فرئي الفرزدق بخير وجرير معلق، قال قعنب: وأخبرني الأصمعيُّ، عن روح الطائي، قال: رئي الفرزدق في النوم، فذكر أنه غفر له بتكبيرة كبرها في المقبرة عند قبر غالب.

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي، ٣/ ٤١٧ ٤١٩.

قال قعنب : وأخبرني أبو عبيدة النحوي وكيسان بن المعروف النحوي ، عن لَبَطَة بن الفرزدق، قال : رأيت أبي فيما يرى النائم ، فقلت له : مافعل الله بك؟ قال: نفعتني الكلمة التي نازعنيها الحسن على القبر »[١] .

ومن غرائب الأخبار أيضاً ، ما ينقله عن المدائني ، يقول : « كان الدلال ملازماً لأم سعيد الأسلمية وبنت ليحيى بن الحكم بن أبي العاصي، وكانتا من أمجن النساء، كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما ، فقال معاوية لمروان بن الحكم : اكفني بنت أخيك ؛ فقال : أفعل . فاستزارها ، وأمر ببئر فحفرت في طريقها ، وغطيت بحصير ، فلما مشت عليه سقطت في البئر فكانت قبرها . وطلب الدلال فهرب إلى مكة . فقال له نساء أهل مكة : قتلت نساء أهل المدينة وجئت لتقتلنا ! فقال : والله ما قتلهن إلا ...[٢]»[٣] .

وهذه قصة لا شك في أنها ضرب من الخيال الجامح ، والانتقاء الفاسد ، ومن الأخبار الغريبة أيضاً لقاء الدلال المغني برجل شامي،، ثم قوله له : «أريد وصيفة ولدت في حجر صالح ، ونشأت في خير ، جميلة الوجه مجدولة ، وضيئة، جعدة في بياض ، مشربة حمرة ، حسنة القامة ، سبطة ، أسيلة الخد ، عذبة اللسان، لها شكل ودل ، تملأ العين والنفس . فقال له الدلال : قد أصبتها لك ،

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢١ / ٣٩٣ .

(٢) عبارة فاحشة .

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٢٧٦ ٢٧٧ .

فما لي عليك إن دللتك ؟ قال : غلامي هذا . قال : إذا رأيتها وقبلتها فالغلام لي؟ قال : نعم . فأتى امرأة كنى عن اسمها ، فقال لها : جعلت فداك ! إنه نزل بقربي رجل من أهل الشام من قواد هشام له ظرف وسخاء ، وجاءني زائـراً فأكرمتـه ، ورأيت معه غلامين كأنهما الشمس الطالعة والقمر المنير والكواكب الزاهرة ، ما وقعت عيني على مثلهما ولا ينطلق لساني بوصفهما ، فوهب لي أحدهما والآخـر عنده ، وإن لم يصل إلي فنفسي خارجة . قالت : فتريد ماذا ؟ قـال : طلـب مني وصيفة يشتريها على صفة لا أعلمها في أحد إلا في فلانة بنتك ، فهل لك أن تريها له ؟ قالت : وكيف لك بأن يدفع الغلام إليك إذا رآها ؟ قال: فإني قـد شرطـت عليه ذلك عند النظر لا عند البيع. قالت : فشأنك ولا يعلم أحد بذلك . فمضى الدلال فجاء الشامي معه . فلما صار إلى المرأة أدخلته ، فإذا هـو بحجلـة وفيهـا امرأة على سرير مشرف برزة جميلة ، فوضع له كرسي فجلس ، فقالت لـه : أمـن العرب أنت ؟ قال : نعم ، قالت : من أيهم ؟ قال : من خزاعة ، قالـت : مرحبـاً بك وأهلاً ، أي شيء طلبت ؟ فوصف الصفة ؛ فقالـت : أصـبتها وأصـغت إلى جارية لها فدخلت فمكثت هنيهة ثم خرجت ؛ فنظرت إليها المـرأة فقالـت لهـا: أي حبيبتي! اخرجي ، فخرجت وصيفة ما رأى الـراؤون مثلهـا. فقالـت لهـا : أقبلي فأقبلت ، ثم قالت لها : أدبري ، فأدبرت تملأ العين والنفس ؛ فما بقي منهـا شيء إلا وضع يده عليها . فقالت : أتحب أن نؤزرها لك ؟ قال : نعم . قالـت : أي حبيبتي! ائتزري . فضمها الإزار وظهرت محاسنها الخفية ، وضرب بيده على عجيزتها وصدرها . ثم قالت : أتحب أن نجردها لك ؟ قال : نعـم. قالـت : أي

حبيبتي! وضحي ؛ فألقت إزارها فإذا أحسن خلق الله كأنها سبيكة . فقالت: يا أخا أهل الشام كيف رأيت ؟ قال : منية المتمني . قال : بكم تقولين ؟ قالت : ليس يوم النظر يوم البيع ، ولكن تعود غداً حتى نبايعك ولا تنصرف إلا على الرضا، فانصرف من عندها . فقال له الدلال : أرضيت ؟ قال : نعم ، ما كنت أحسب أن مثل هذه في الدنيا ؛ فإن الصفة لتقصر دونها . ثم دفع إليه الغلام الثاني . فلما كان من الغد قال له الشامي : امض بنا ، فمضيا حتى قرعا الباب ؛ فأذن لهما ، فدخلا وسلما ، ورحبت المرأة بهما ، ثم قالت للشامي :أعطنا ما تبذل؛ قال : ما لها عندي ثمن إلا وهي أكبر منه ، فقولي يا أمة الله . قالت : بل قل ؛ فإنا لم نوطئك أعقابنا ونحن نريد خلافك وأنت لها رضا . قال : ثلاثة آلاف دينار . فقالت : والله لقبلة من هذه خير من ثلاثة آلاف دينار . قال : بأربعة آلاف دينار. قالت : غفر الله لك ! أعطنا أيها الرجل ، قال : والله ما معي غيرها ولو كان لزدتك إلا رقيق ودواب وخرثي أحمله إليك . قالت : ما أراك إلا صادقاً ، أتدري من هذه ؟ قال : تخبريني . قالت : هذه ابنتي فلانة بنت فلان ، وأنا فلانة بنت فلان ، وقد كنت أردت أن أعرض عليك وصيفة عندي ، فأحببت إذا رأيت غدا غلظ أهل الشأم وجفاءهم ، ذكرت ابنتي فعلمت أنكم في غير شيء ، قم راشداً . فقال للدلال : خدعتني! قال: أوَلا ترضى أن ترى ما رأيت من مثلها وتهب مئة غلام مثل غلامك؟ قال : أما هذا فنعم . وخرجا من عندها»[1].

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٤ / ٢٨٤ ٢٨٦ .

أيمكن أن يوثق بكلام فاضح مثل هذا ؟! ألم يجبل الآباء على حفظ أبنائهم ، وأي ضياع هو أكبر من عرضها لابنتها بهذا الشكل المذلّ الفاضح ، وهي تقول (إنها فلانة بنت فلان ، وأنا فلانة بنت فلان) ما يدل على أن منزلتها عالية ، وهي في علية من القوم .

إن ما رسمه الأصفهاني لهو صورة شائنة من وحي خيال مريض أفّاك لا يتورع عن المساس بالقيم جميعاً ، فلم يكن هناك دين مانع ، أو عقل رادع ، أو سلطان حاكم ، أو أب وأخوة حتى يفعلن مثل هذا الفعل ؟! .ولأي غرض هو أنه لكي تباهي أهل الشام ؟! .

إن من يتحدث بمثل هذا المنطق ، لا بد وأنه مصاب بعقدة نفسية تدفعه إلى أن يرمي الناس جميعاً بإتيان هذه الرذائل والإغراقات .

ومن المشاهد التمثيلية الدرامية ، قول الأصفهاني : «أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثني مسلمة بن إبراهيم بن هشام المخزومي عن أيوب بن مسلمة أنه أخبره أن عمر بن أبي ربيعة كان مسهباً بالثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية الأصغر ، وكانت عرضة ذلك جمالاً وتماماً وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو عليها كل غداة إذا كانت بالطائف على فرسه ، فيسأل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قبلهم ، فلقي يوماً بعضهم فسأله عن أخبارهم ، فقال : ما استطرفنا خبراً إلا أنني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم في السماء وقد سقط عني اسمه ، فقال عمر :الثريا ؟

قال: نعم .وقد كان بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه على وجهه إلى الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كداء وهي أخشن الطرق وأقربها حتى انتهى إلى الثريا وقد توقعته وهي تتشوف له وتشرف ، فوجدها سليمة عميمة ومعها أختاها رضيا وأم عثمان ، فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالي عندك ، فقال عمر في ذلك هذا الشعر[1]:

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرْيَ لـمَّا جَهَدْتُه وبَيَّنَ لو يستطيع أن يَتكَلَّما
فقلت له إن أَلْقَ للعَين قُرَّةً فَهَان عليّ أن تَكِلّ وتَسْأَمَا

ومن المشاهد التمثيلية ؛ التي يرفضها المسلمون وإن كان في حق السوقى ، ما ذكره من أن مصعب بن الزبير أدخل الشعبي على أهله ؛ التي هي عائشة بنت طلحة بن عبد الله ، ليراها وينشر في قريش أنها جميلة وفيها محاسن كثيرة ، والقصة هي في مصعب بن الزبير ، وأبوه الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأمه ذات النطاقين ، وزوجه عائشة ، وأبوها طلحة بن عبد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وجدها لأمها أبو بكر الصديق وهو أحد المبشرين بالجنة ، فالقصة توضح منهجية الأصفهاني في الطعن في رموز الأمة وأهم رجالها بعد رسول الله ﷺ ، يقول : «حدثني أبي قال : قال الشعبي : دخلت المسجد فإذا أنا بمصعب بن الزبير على سرير جالس والناس عنده ، فسلمت ثم ذهبت لأنصرف ، فقال لي : ادن فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه ، ثم

---

(١) «الأغاني» ١ / ٢١٥ .

قال: إذا قمت فاتبعني فجلس قليلاً ثم نهض فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فتبعته ، فلما طعن في الدار التفت إلي فقال : ادخل ، فدخلت معه ، ومضى نحو حجرته وتبعته ، فالتفت لي فقال : ادخل فدخلت معه ، فإذا حجلة ، وإنها لأول حجلة رأيتها لأمير ، فقمت ودخل الحجلة فسمعت حركة ، فكرهت الجلوس ولم يأمرني بالانصراف ، فإذا جارية قد خرجت فقالت : يا شعبي! إن الأمير يأمرك أن تجلس ، فجلست على وسادة ورفع سجف الحجلة ، فإذا أنا بمصعب ابن الزبير ، ورفع السجف الآخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة ، قال : فلم أر زوجاً قط كان أجمل منهما : مصعب وعائشة ، فقال مصعب : يا شعبي! هل تعرف هذه؟ فقلت : نعم أصلح الله الأمير ؛ قال : ومن هي؟ قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة ، قال : لا ، ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

ومازِلتُ من ليلى لَدُنْ طَرَّ شاربي

وذكر البيتين . ثم قال : إذا شئت فقم ، فقمت . فلما كان العشي رحت واذا هو جالس على سريره في المسجد فسلمت ، فلما رآني قال لي : ادن ، فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه ، فأصغى إلي فقال : هل رأيت مثل ذلك لإنسان قط ؟ قلت : لا والله ؛ قال : أفتدري لم أدخلناك ؟ قلت : لا ؛ قال : لتحدث بما رأيت ، ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة فقال : أعطه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً ، فما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به ، بعشرة آلاف درهم وبمثل كارة

القصار ثياباً وبنظرة من عائشة بنت طلحة »[١] .

الأغلاط العلمية

إذا ما كان للأصفهاني الكأس المعلى فيما أوردناه من مبالغات ، فإن للمسعودي في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» أخباراً لا تقل انحرافاً وتشويهاً مما أوردناه من مبالغات ؛ غير أنها قد اتخذت منحىً آخر يفرط في الانحراف عن المسارات العلمية الدقيقة ، يقول شارح كتاب «المروج» د. محمد مفيد قميحة في حديثه عن رأي ابن خلدون في كتابه «المروج»، فيقول : « وهكذا فإن ابن خلدون يدعو إلى التحقق في كتابة التأريخ ، وعدم الاعتماد على النقل الموقع في الخطأ الذي لم يسلم منه المسعودي في بعض جوانب كتابه ، وخاصة في حديثه عن الأمم القديمة ؛ لأن هذا الحديث يعتمد أساساً على النقل ، وليس على المعاينة ؛ ولذلك كان واجباً على المسعودي أن يعير هذا الجانب التبصُّر، والوعي ليكون وقوفه على الأحداث والوقائع والحكايات ملتزماً بالدقة والحيطة والفهم لطبائع الكائنات وعلائق البشر »[٢] .

ثم يناقض نفسه ، فيقول « وهكذا نرى المسعودي في مجمل موضوعاته ، وفي آرائه الأدبية والنقدية على وجه الخصوص عالماً متجرداً يحاول جهده أن يسير في الخط العقلي وضمن المنهج العلمي قدر استطاعته ، ولذلك فإننا نراه

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢ / ٣٧٣ ٣٧٤ .

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ١ / ز .

يجدد لنا هذا المسار الذي اختطه لنفسه فيقول : وليعلم من نظر فيه -أي كتابه- أني لم أنتصر فيه لمذهب ولا تحيزت إلى قول ، ولا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك ، وهذا ما يظهر بشكل قاطع حيادية المسعودي وتجرده ، فقد طرح الرجل كل أهوائه وميوله ومعتقداته الخاصة به ، ولم يترك لها أن تؤثر فيه خوفاً من أن تحيد به عن جادة الصواب والواقعية ، وتنعته بالغرضيّة والذاتية .

نعود فنؤكد القول ، بأن المسعودي كان باحثاً متجرداً قفز بكتابة التاريخ قفزة نوعية ممتازة ، بحيث وإن ارتكز في بعض جوانبها على النقل من المصادر السابقة له ، فإنه بإمكاننا أيضاً أن نلمح ظهوراً لمسار جديد في كتابة التاريخ نلمح اكتماله عند ابن خلدون ، ولذلك يرى فازيليف أن كتب المسعودي مما يقرؤه المسلمون والأوروبيون على السواء فيجدونه ممتعاً وطلياً ، وذلك راجع إلى تنوع الأخبار التي يسوقها المؤلف وإلى قدرته على جعل سرده حيًّا في كتبه»[1].

التناقض يبدو واضحاً في أقوال شارح «المروج»، فبينما ينقل رأي ابن خلدون في منهجيته ، نراه يعود فيدافع عن المسعودي فيصفه بأنه عالم متجرد يحاول جهده أن يسير في خط العقلي وضمن المنهج العلمي قدر استطاعته، وما سنورده من أخبار يفند تمام مثل هذا القول ، فالمسعودي أبعد ما يكون عن

---

(١) المصدرنفسه ، ١ / ل م .

المنهج العلمي ، وهو لم يكن حياديًّا قط ، ولنا في أخباره دليل على ذلك ، أمَّا أنه قد قفز بالتاريخ قفزة ، فأظنها قفزة نحو الهاوية ، ففي «مروج الذهب ومعادن الجوهر» مخالفات تأريخية كبيرة ، من ذلك قوله حينما «**ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين** البيوت المضاف بناؤها إلى مَنْ سلف من اليونانيين ثلاثة بيوت:

بيت انطاكية : فبيت منها كان بانطاكية من أرض الشام، على جبل بها داكاً المدينة، والسور محيط بها، وقد جعل المسلمون في موضعه مَرْقَباً لِيُنْذِرهم مَنْ قد رتب فيه من الرجال بالروم إذا وردوا من البر والبحر، وكان يعظمونه، ويقربون فيه القرابين، فخرب عند مجيء الإِسلام، وقد قيل: إن قسطنطين الأكبر ابن هيلاني الملكة المُظْهِرة لدين النصرانية هو المخرب لهذا البيت، وكانت فيه الأصنام والتماثيل من الذهب والفضة وأنواع الجواهر، وقد قيل: إن هذا البيت هو بيت بمدينة انطاكية على يَسرة الجامع اليوم، وكان هيكلاً عظيماً، والصابئة تزعم أن الذي بناه سقلابيوس، وهو في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة سوق بسوق الجزارين، وقد كان ثابت بن قرة بن كراني الصابئ الحراني حين وافى المعتضد بالله في سنة تسع وثمانين ومئتين في طلب وصيف الخادم أتى هذا الهيكل وعظمه، وأخبر من شأنه ما وصفنا.

الأهرام بمصر : والبيت الثاني من بيوت اليونانيين هو بعض تلك الأهرام التي بمصر وهو يُرى من الفُسْطاط على أميال منها.

بيت المقدس : والبيت الثالث هو بيت المقدس، على ما زعم القوم، وأهل

الشر إنما تخبر أن داود عليه السلام بناه وأتمه سليمان بعد وفاة أبيه »[١] .

إن الأهرام لم يبنها اليونانيون، فكما هو معروف أن من بنى الأهرام ، هم الفراعنة ، وهم أقوام عاشوا قبل اليونانيين في مصر وليس لأصولهم علاقة باليونانيين .

و « تتركز النظرية بأن الأهرام التي بناها المصريون القدماء إنما بنيت لكي تكون قبوراً للملوك »[٢] .

أمَّا الرومان فقد غزوا مصر بعد قرون طويلة من الفراعنة ، ولهم معابد ما زالت قائمة مثل معبد (ادفو) .

وفسر سيد قطب قوله -تعالى-: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[٣] ، بقوله : «وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان، وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار »[٤] .

ومن الأغلاط العلمية التي ظهرت بشكل فاضح في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، ما يرويه في صفات المغناطيس ، إذ يقول : « وحجر المغناطيس إذا أصابته رائحة الثوم بطل فعله في الحديد ، وإذا غسل بشيء من

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٢ / ٢٥٨ ٢٥٩ .

(٢) «أهرام مصر قلاع لا قبور » زهير علي شاكر ، ٢١٣ .

(٣) الفجر / ١٠ .

(٤) «في ظلال القرآن » ٨ / ٣٤ .

الخل أو ناله شيء من عسل النحل ، عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد »[١] .

من المعروف أن المغناطيس يفقد خصائصه بالطرق الشديد ، وقد يتحول معدن الحديد إلى معدن ممغنط من خلال مرور التيار الكهربائي فيه ، ومنه المغانط الكبيرة المستعملة في معامل الحديد والصلب .

أما الأغلاط في وصف أسماك البحر ، فيشترك في تلك الأغلاط المسعودي وسواه، ففي كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، يقول مؤلفه: « حكى بعض التجار ، قال : مرَّت علينا سمكة فانتظرنا انقطاعها أربعة أيام حتى انتهى ذنبها ، ومن السمك ما لا يدركه الطرف لصغره »[٢] .

ولو أننا تابعنا التاجر في خياله ، وفرضاً أن سرعة السمكة عدة عقد في الساعة ، لوجدنا أن السمكة ربما كانت بطول يتجاوز مئات آلاف الأمتار وهذا كلام خرافي ، ينم عن سذاجة قائله ولربما عن سذاجة .. ؟؟؟!! ؟

أما المسعودي فيقول : «وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخز والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرةً، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج الذي قدمنا ذكره، وفيه السمك المعروف بأفال طول السمكة نحو من أربع مئة ذراع إلى خمس مئة ذراع العمرية، وهي ذراع

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ١ / ٣٧٧ .

(٢) «مسالك الأبصار في ممالك الأبصار » شهاب الدين أحمد بن يحيى ، تحقيق ، كامل سلمان الجبوري ، ٢٠ / ١٥٦ .

ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع، وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه، فيكون كالقلع العظيم، وهو الشّرَاع، وربما يظهر رأسه، وينفخ الصُّعَدَاء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم، والمراكب تفزع منه في الليل والنهار، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه، وقد فَغَرَ فاهُ، وذلك السمك يهوي إلى جَوْفه جرياً، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللّشك فتلصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص، فتطلب قعر البحر، وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم، وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللّشك بالمركب فلا يدنو الأفال مع عظمتها من المركب، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة، إذ كانت آفة له وقاتلته »[١].

في الخبر أغلاط علمية كثيرة ، منها ، (أن طول السمكة أربع مئة ذراع) وهو يحدد الذراع في موضع آخر من كتابه فيقول : « إن استدارة الأرض في خط الاستواء ست وثلاثون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، والفرسخ إثنا عشر ألف ذراع ، والذراع اثنان وأربعون أصبعاً[٢] ، والأصبع ست حبات وتسعان مصفوفة بعضها إلى بعض ، يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ » [٣] .

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٢ / ٢٣٢ .

(٢) «في مقدمة ابن خلدون » الذراع هو أربعة وعشرون أصبعا ، والأصبع هو ستُّ حبات شعير ملصق بعضها إلى بعض ظهرا لبطن » ، ص٥٥ .

(٣) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » ١ / ١٠٧ ١٠٨ .

فالذراع كما يصفه هو يقارب خمسين سنتمتراً ؛ لقوله الذراع اثنان وأربعون أصبعاً ، والسمكة حينئذ مئتا متر ، وهذا محال ، إذ أن طول الحيتان الزرقاء وهي أعظم الكائنات البحرية لا يتجاوز ثلاثين متراً ؟!!! .

أما عن سمكة اللّشك ، فهي سمكة تلتصق بالحيتان لتنظيفها مما علق بها من أحياء بحرية دقيقة ، وليست لقتلها ، أو أن الحيتان تخافها ؟!! .

ومن الأغلاط العلمية التي يذكرها المسعودي ، يقول أن : « بأرض الهند آفة عظيمة نوع من الحيوان يعرف بالزبرق، وهي دابة أصغر من الفهد أحمر ذو زَغَب وعينين براقتين عجيبة سريع الوثبة، يبلغ في وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعاً، وأكثر من ذلك، فإذا أشرف على الفيل رش عليه بوله بذنبه فيحرقها. وربما لحق الإنسان فأتى عليه، وفي الهند من إذا أشرفت عليه هذه الدابة تعلق بأكبر ما يكون من شجر الساج، وهي أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز، تكِنّ الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان على حسب ما يحمل إلى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج في طوله، فإذا تعلق الإنسان بأعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن إدراكه لصق بالأرض ووثب إلى أعلى الشجرة، فإن لم يلحق الإنسان في وثبته رشش من بوله إلى أعلى الشجرة، وإلا وضع رأسه في الأرض وصاح صياحاً عجيباً، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته، وأي موضع من الشجرة سقط عليه بوله أحرقه، وإن أصاب الإنسان شيء من بوله أتلفه، وكذلك سائر الحيوان »[1] .

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ٢ / ٨ .

إن ما يذكره من صفات في هذا الحيوان لهو غريب كل الغرابة عن عالم الحيوان من أن يرش بالبول ، ويصيح صياحاً عجيباً ، وتخرج قطع من الدم في حالة غضبه ليموت ، وإذا رشَّ أحداً ببوله مات ، وإذا كان شجراً أحرقه ، وهذا كله مخالف لطبائع الحيوانات ، ولو وجد مثل ذلك لظهر أثره لدى علماء الحيوان الذين يعتمدون الملاحظة الدقيقة والطرق الدقيقة في متابعة حياة الحيوان .

ويقول في التمساح كلاماً أغرب من ذلك ، فيذكر أن : « التمساح يموت من دويبة تكون في ساحل النيلِ وجزائره . وذلك أن التمساح لا دبر له وما يأكله يتكون في بطنه دوداً، وإذا آذاه ذلك الدود خرج إلى البر فاستلقى على قَفَاه فاغراً فاه، فيُقَيِّضُ الله إليه طير الماء كالطيطوى والحصافي وغير ذلك من أنواع الطيور وقد اعتادوا ذلك منه، فيأكل ما ظهر في جوفه من ذلك الدود، وتكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل تراعيه، فتدب إلى حلقه، وتصير في جوفه، فيخبط بنفسه في الأرض فيطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حُشْوَة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج، وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته، وهذه الدويبة تكون نحواً من ذراع على صورة ابن عُرْس، ولها قوائم شتى ومخَالب»[1].

والتمساح يربى في الأسر ، وله دبر ومخرج ، وما قيل فيه خرافة لا غير والحقائق الطبية يذكرها بشكل يغاير الحقيقة ، فكلامه مغالطات علمية بحتة، فهو يذكر الهضم فيقول : «وقد زعم جماعة ممن تقدم وتأخر من الأطباء

---

(١) المصدرنفسه ، ١ / ٨ .

ومصنفي الكتب في الطبيعيات وغيرها أن للطعام ثلاثة انهضامات: أما الأول فهي المعدة ، فإن المعدة تهضم الطعام فتأخذ قوته فيصير مثل ماء الكشك، ثم تدفعه إلى الكبد ، ثم يدفعه الكبد في العروق إلى جميع الجسد كاندفاع الماء من النهر إلى السواقي والمشارب . فتهضمه أعضاء الجسد التالية، فتصيره إلى شبهها اللحم لحماً والشحم شحماً، وكذلك العروق والعصب وما سوى ذلك وأن إقتارها إذا استوت استوت أقدار القوى وإذا استوت القوى استوى الجسد واعتدل ويصح بإذن الله -تعالى- »[1].

إن الهضم لا يجري إلا في المعدة ، والامتصاص يكون في الأمعاء ، والدم يوصل الغذاء الممتص إلى أجزاء الجسم ، وتحويل البروتينات إلى يوريا لتدفع نحو الكليتين حتى تخرج من الجسم ، أما أن يكون للطعام ثلاثة انهضامات ويكون مثل ماء الكشك ليدفع في سواقي ، فهذه أغلاط علمية متتالية .

وفي حديث غير علمي عن التناسل بين أصناف الحيوانات المختلفة ، أن الزرافة بين الناقة من نوق الحبش وبين البقرة الوحشية ، وبين الضبعان واسمها (اشتركا ويلنك) ببلاد الحبشة ، يسفد فتجيء بولد خلقه بين خلق الناقة والضبعان ؛ فإذا كان ولد تلك الناقة ذكراً عرض للمهاة فألحقها زرافة ، وسميت زرافة لأنها جماعة وهي واحدة ، كأنها جمل وبقرة وضبع »[2] ، بينما الأحياء تقسم إلى خمس ممالك (البدائيات ، والطلائعيات ، والفطريات ، ومملكة

(١) المصدر نفسه ٢ / ٢٤٦ .

(٢) «العقد الفريد» ابن عبد ربه الأندلسي، ٦ / ٢٣٤ .

النبات ، والمملكة الحيوانية) وكل مملكة تقسم إلى عدد من القبائل ، وكل قبيلة إلى عدد من الطوائف ، وكل طائفة إلى عدد من الرتب ، وكل رتبة إلى عدد من العائلات ، وكل عائلة إلى أجناس ، وكل جنس إلى أنواع ، وكل نوع إلى أصناف، وكل صنف إلى سلالات ، وكل سلالة إلى عدد من الأفراد » (١) ، «وعلى ذلك فإن الأفراد من نوعين مختلفين من أنواع الأحياء لا يمكن أن يتم بينهما تلاقح يؤدي إلى سلالة خصبة أبداً » (٢) .

يقول المسعودي : «وكجمعنا في النتاج بين الفرس الأنثى والحمار فتحدث بغلاً، ولو نتج دابة على أتان لخرج منها بغل أفطس ذو خبث ودهاء يسمى الكودن.

وقد ذكرنا النتاج الذي كان بصعيد مصر مما يلي الحبشة، وما كان ينتج من الثيران على الأتن، والحمير على البقر، وما كان يحدث من ذلك من الدواب العجيبة التي ليست بحمير ولا بقر كالبغل التي ليس بدابة ولا حمار . وقد ذكرنا ضروب التوليدات في أنواع الحيوان والنبات » (٣) .

ويذكر الأصفهاني : « إن هلال بن الأسعر كان يأكل ويشرب حينما ترد الإبل ، ولا يتزود طعاماً ولا شراباً حتى يرجع يوم ورودها لا يذوق فيما بين

---

(١) ينظر «الحيوان في القرآن الكريم» د. زغلول النجار ، ص٤٨ ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ص٥١ .

(٣) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » ١ / ٣٧٨ .

ذلك طعاماً ولا شراباً »[١] ، الإبل قد ترد كل خمسة أيام فكيف يمكن لإنسان لا يحمل قدرة الإبل على احتمال ذلك وعلى البقاء حيًّا ، وهو يفعل ذلك بإرادته ، وليس لمرة واحدة فقط ؟!

والأغرب في حديث المسعودي أنه يمكن : « أن تكون هذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدثة في العالم للحركات مما وصفنا والدافعة والمانعة والمنفردة والجاذبة والفاعلة في الحيوان وغير ذلك مثل الطرد والجذب ، كانت دلالة لبعض الأنبياء في الأمم الخالية، جعلها الله كذلك لذلك النبي دلالة ومعجزة تدل على صدقه وتنبيئه من غيره ليؤدي عن الله أمره ونهيه وما فيه من الصلاح لخلقه في ذلك الوقت، ثم رفع الله ذلك النبي، وبقيت علومه، وما أبانه الله -عز وجل- مما ذكرنا، في أيدي الناس، وأصل ذلك إلهي كما وصفنا، إذ كان ما ذكرنا ممكناً غير واجب ولا ممتنع في القدرة »[٢].

وفي حديثه عن النيل يقول: « ونهرها النيل من سادات الأنهار ، وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة ، على حسب (كذا) ما ورد به خبر الشريعة أن النيل وسيحان ... الفرات ... وأنه يخرج من الجنة ، وكذلك دجلة وغيرها مما اشتهر من الأنهار الكبار »[٣] .

---

(١) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٣ / ٥٤ ٥٥ .

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » ١ / ٣٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣٥٣ .

غير أن القاضي عياض يوجه الحديث فيقول: « ويحتمل أن المراد بذلك أن الإيمان عمَّ بلادها وفاض عليها ، وأن الأجسام المتغذية بهذه صائرة إلى الجنة ، ويحتمل أنه على ظاهره ، وأن لها مادة من الجنة إذ الجنة موجودة مخلوقة عند أهل السنة ، وأنها التي أُنْزِلَ منها آدم »[1] .

وفي المد والجزر يتحدث بحديث غريب ، فيقول : «أرضها أولاً فأولاً، وغلبت الرياح عليها، وأكثر ما يكون هذا في ساحل البحار والجزائر. وقد تنازع الناس في علة المد والجزر؛ فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء، وهو يسخنه، فينبسط، وشبهوا ذلك بالنار إذا أسخنت ما في القدر وأغْلَتْه، وإن الماء يكون فيها على قمر النصف أو الثلثين، فإذا غلا الماء انبسط في القدر وارتفع وتدافع حتى يفر فتتضاعف كميته في الحس، وينقص في الوزن ؛ لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام، ومن شرط البرودة أن تضمها، وذلك أن قعور البحار تحمي فتتولّد في أرضها عقبة وتستحيل وتحمى كما يعرض ذلك في البلاليع والآبار، فإذا حمي ذلك الماء انبسط، وإذا انبسط زاد، وإذا زاد ارتفع، فدفع كل جزء منه صاحبه، فَطَفَا على سطحه وبان عن قعره، فاحتاج إلى أكثر من وهدته.

وإن القمر إذا امتلأ حمي الجو حمياً شديداً فظهرت زيادة الماء، فسمي ذلك المد الشهري، وإن هذا البحر تحت معدل النهار أخذاً من جهة المشرق إلى المغرب ودور الكواكب المتحيرة عليه مع ما يساميه من الكواكب الثابتة إذا

---

(١) «إكمال المعلم شرح صحيح مسلم » القاضي عياض ، ٨/ ١٨٥ .

كانت المتحيرة في القدر مثل الميل على تجاوزه، وإذا زالت عنه كانت منه قريبة فاعلة فيه من أوله إلى آخره في كل يوم وليلة، وهي مع ذلك في الموضع المقابل الحمي، فقليل ما يعرض فيه من الزيادة ويكون في النهر الذي يعرض فيه المد بينا من أطرافه وما يصب إليه من سائر المياه.

وقالت طائفة أخرى: لو كان الجزر والمد بمنزلة النار إذا أسخنت الماء الذي في القِدْر وبسطته فيطلب أوسع منها فيفيض حتى إذا خلا قعره من الماء طلب الماء بعد خروجه منه عمق الأرض بطبعه فيرجع اضطراراً بمنزلة رجوع ما يغلي من الماء في المرج والقمقم إذا فاض وتتابعت أجزاء النار عليه بالحمي، لكان في الشمس أشد سخونة، ولو كانت الشمس علة مَده لكان يمد مع بدء طلوع الشمس، ويجزر مع غيبتها استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل، وإنما القمر علة لكثرة المد، لا للمد نفسه، لأنه قد يكون والقمر في محاقه، والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع الفجر في الأغلب من الأوقات.وقد ذهب كثير من نواجذة هذا البحر وهم أرباب المراكب، من السيرافيين والعمانيين ممن يقطعون هذا البحر ويختلفون إلى عمائره من الأمم التي في جزائره وحوله إلى أن المد والجزر لا يكون في معظم هذا البحر إلا مرتين في السنة: مرة يمد في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر، فإذا كان ذلك طغا الماء في مشارق الأرض وبالصين وما وراء ذلك الصقع وانحسر بالصين من مغارب البحر، ومرة يمد في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ستة أشهر، فإذا كان الصيف طغا الماء في مغارب البحر وانحسر بالصين، وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح، وإن الشمس إذ كانت في الجهة الشمالية تحرك الهواء إلى الجهة الجنوبية لعلل ذكروها فيسيل ماء

البحر بحركة الهواء إلى الجهة الجنوبية، فكذلك تكون البحار في جهة الجنوب في الصيف لهبوب الشمال طامية عالية، وتقلُّ المياه في جهة البحار الشمالية.

وكذلك إذا كانت الشمس في الجنوب وسال الهواء من الجنوب إلى جهة الشمال سال معه ماء البحر من الجهة الجنوبية إلى الجهة الشمالية، فقلَّتِ المياه في الجهة الجنوبية منه، وينتقل ماء البحر في هذين الميلين أعني في جهتي الشمال والجنوب فيسمى جزراً ومداً »[١] .

ويقسم البحار إلى ثلاثة أنواع من حيث المد والجزر ، يقول : « وذلك أن البحار على ثلاثة أنواع: منها ما يتأتى فيه الجزر والمد ويظهر ظهوراً بيّناً، ومنها ما لا يتبين فيه الجزر والمد ويكون خفيفاً مستتراً، ومنها ما لا يجزر ولا يمد. فالبحار التي لا يكون فيها الجزر والمد امتنع منها الجزر والمد لعلل ثلاث، وهي على ثلاثة أصناف: فأولها ما يقف الماء فيه زماناً فيغلظ وتَقْوَى مُلوحته، وتتكيف فيه الرياح، لأنه ربما صار الماء إلى بعض المواضع ببعض الأسباب فيصير كالبحيرة وينقص في الصيف ويزيد في الشتاء، ويتبين فيه زيادة ما ينصبُّ فيه من الأنهار والعيون، والصنف الثاني البحار التي تبعد عن مدار القمر ومسافاته بعداً كثيراً، فيمتنع منه المد والجزر، والصنف الثالث المياه التي يكون الغالب على أرضها التخلخل؛ لأنه إذا كانت أرضها مخلخلة نفذ الماء منها إلى غيرها من البحار وتخلخل »[٢] .

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي، ١ / ١١٥ ١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ١١١ .

والمعروف أن المد والجزر هو بفعل جاذبية القمر ، فليس له من علاقة بالحرارة ، والمد والجزر ظاهرة يومية وليست نصف سنوية كما يذكر المسعودي .

الخرافة

« الخرافة تعني الحديث المستملح الكذوب . خرافة اسم رجل من بني عذرة أو من جهينة يقال أن الجن قد اختطفته . ثم رجع إلى قومه فكان يحدث الناس بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ثم أجروه على كل ما يكذبونه من الأحاديث ، وعلى كل ما يستملح ويتعجب منه . ولعله لم يسم خرافة إلا أن معنى الخرف فساد العقل من الكبر . وصار هذا اللفظ يطلق على كل اعتقاد باطل أو ضعيف »[1] .

إذن الخرافة هي الأحاديث الكاذبة ، وهي تختلف عن الأسطورة ، إذ أنها أحاديث مدونة ، قال -تعالى-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] .

الخرافة في ذكر الحيوان

من الخرافات التي تخالف العقل ، ويرفضها المنطق العلمي السليم ، ما قاله

---

(١) ينظر «المعجم الفلسفي» د. جميل صليبا ، ١ / ٥٢٧ .

(٢) الأنعام / ٢٥ .

المسعودي من « أن الرشيد خرج ذات يوم إلى الصيد ببلاد الموصل، وعلى يده باز أبيض فاضطرب على يده فأرسله فلم يزل يحلق حتى غاب في الهواء ثم طلع بعد الإياس منه وقد علق شيئاً فهوى به يشبه الحية أو السمكة وله ريش كأجنحة السمك فأمر الرشيد فوضع في طست ؛ فلما عاد من قَنصِهِ أحضر العلماء فسألهم: هل تعلمون للهواء ساكناً؟ فقال مقاتل: يا أمير المؤمنين! روينا عن جدك عبد الله بن عباس أن الهواء معمور، بأمم مختلفة الخلق، فيها سكان أقربها منا دوَاب تبيض في الهواء تفرخ فيه، يرفعها الهواء الغليظ وَيربيها حتى تنشأ في هيئة الحيَّاتِ أو السمك، لها أجنحة ليست بذات ريش تأخذها بُزَاة بيض تكون بأرمينية، فأخرج الطست إليهم، فأراهم الدابة، وأجاز مقاتلًا يومئذ»[1].

الكلام غير منطقي فليس هناك من هواء غليظ يحمل الأشياء وتتولد فيه الأحياء فهذا ضرب من الاستحالة ، بل هو محض خرافة أوردها المسعودي .

ومما ذكر من خرافة ، وأدخل الحيوان فيها أيضاً ؛ ما ذكروه في سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء ، فيذكرون أنه : « ولد الحجاج بن يوسف مشوهاً لا دُبُرَ له، فثقب عن دبره، وأبى أن يقبل ثَدْيَ أمه أو غيرها، فأعياهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصورَ لهم في صورة الحارث بن كلدة، فقال: ما خبركم؟ فقالوا: ابن ولد ليوسف من الفارعة، وكان اسمها، وقد أبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها، فقال: اذبحوا جَدْياً أسود وأَوْلِغُوه دمه، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي ، ١ / ٢١٠ .

كذلك، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأوْلِغُوه دمه، ثم اذبحوا له أسْود سالخاً فأولغوه دمه واطْلوا به وجهه، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع، قال: ففعلوا به ذلك، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بَدْء أمره، هذا، وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لَذّاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يُقْدم عليها غيره، ولا سبق إليها سواه » [1].

إنَّ أُمَّةً أفنت شبابها في حفظ دينها ، وفي نشره ، وفي الجهاد في سبيل الله ، ومن ثم أضحت ميداناً للعلم والعلماء ونشر الثقافة والوعي عن الإنسانية جمعاء؛ لا يمكن أن تقبل بمثل هذه الخرافات التي تساق للإساءة إلى تأريخنا وإنسانيتنا ، وإن يكن الحجاج دمويًّا فلا تعلق هذه الصفة على مشجب الخرافة، واجترار الخزعبلات .

ومن الخرافة ما ذكر عن ليلى الاخيلية مع توبة بن الحمير ، فقد ذكر حماد الراوية (وهو مشهور بالكذب والنحل) : « أن زوج ليلى حلف عليها وقد اجتازوا بقبر تَوْبَة ليلاً أن تنزل وتأتي قبره وتسلم عليه وتكذبه حيث يقول : وأَبَتْ أن تفعل، فأقسم عليها زوجُهَا، فنزلت حتى جاءت إلى القبر ودموعها على صدرها كغر السحاب فقالت: السلام عليك يا تَوْبَة، فلم تستتم النداء حتى انفرج القبر عن طائر كالحمامة البيضاء، فضربت صدرها فوقعت ميتة، فأخذوا في جهازها وكفنها، ودفنت إلى جانب قبره » [2] .

---

(١) ينظر ، المصدر نفسه ٣/ ١٢٥ ١٢٦ .

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٣/ ١٤٠ ١٤١ .

ومن الأساطير المكتوبة ما قالوه في بناء الإسكندرية من قبل الإسكندر من أن الإسكندرية لـمَّا « أحكم بنيانها وأثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان، فقال الإسكندر حين أصبح: هذا بدء الخراب في عمارتها، وتحقق مراد الباري في زوالها، وتطير من فعل الدواب، فلم يزل البناءُ يُثنَى في كل يوم ويحكم، يوكل به من يمنع الدواب إذا خرجت من البحر، فيصبحون وقد أخرب البنيان، فقلق الإسكندر لذلك، وراعه ما رأى، فأقبل يفكر ما الذي يصنع، وأي حيلة تنفع في دفع الأذية عن المدينة، فسنحت له الحيلة في ليلته عند خلوته بنفسه وإيراده الأمور وإصدارها، فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتاً من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمس، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها، وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء، حذراً من دخول الماء إلى التابوت، وقد جعل فيها مواضع للحبال، ودخل الإسكندر في التابوت هو ورجلان معه من كتابه ممن له علم بإتقان التصوير ومبالغة فيه وأمر أن تسد عليهم الأبواب، وأن تطلى بما ذكرنا من الأطلية، وأمر فأتي بمركبين عظيمين، فأخرجا إلى لجة البحر، وعلق على التابوت من أسفل مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوي بالتابوت سفلاً إذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب في أسفله، وجعل التابوت بين المركبين، فألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا، وشد حبال التابوت إلى المركبين

وطَوَل حباله، فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر، فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر؟ فإذا هم بشياطين على مثال الناس ورؤوسُهم على مثال رؤوس السباع، وفي أيدي بعضهم الفؤوس، وفي أيدي بعض المناشير والمقاطع، يحاكون بذلك صناع المدينة والفعَلة وما في أيديهم من آلات البناء، فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور وأحكموها بالتصوير في القراطيس، على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم، ثم حرك الحبال، فلما أحس بذلك مَنْ في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت، فلما خرج الإسكندر من التابوت وسار إلى مدينة الإسكندرية أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فصنعوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صورة الإسكندر ومن معه ، فلما فرغوا منها وضعت الصور على العُمُد بشاطئ البحر، ثم أمرهم فبنوا، فلما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات من البحر، فنظرت إلى صورها على العمد مقابلة إلى البحر، فرجعت إلى البحر ولم تعد بعد ذلك »[1] .

« قال المسعودي : فقال لي قائل ممن حضر: إن أعجب ما في الدنيا طير يكون بأرض طبرستان على شاطئ الأنهار شبيه بالبَاشِق، وأهل طبرستان يسمونه بالكيكم، وهو صياحه الذي يصيح به، ولا يصيح في السنة إلا في هذا الفصل يعني الربيع فإذا صاح اجتمعت عليه العصافير وصغار الطيور مما يكون

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ١ / ٤١٢ ٤١٤ .

في المياه وغيرها؛ فتزقه من أول النهار، حتى إذا كان في آخره أخذ واحداً مما قرب من الطير فأكله، وكذلك يفعل في كل يوم إلى أن ينقضي هذا الفصل الربيعي فإذا انقضى ذلك انعكست عليه الطيور فلا تزال تجتمع عليه وتضربه وتطرده، وهو يَهْرُبُ منها ولا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعي، وهو طير حسن موشى حسن العينين، قال: وذكر علي بن زيد الطبيب الطبري صاحب كتاب «فردوس الحكمة» أن هذا الطائر ليس يكاد يُرَى، ولم ترَ قط قدماه على الأرض معاً، بل يطأ على الأرض بإحدى قدميه على البدل لا يطأ الأرض بهما معاً في حالة واحدة، قال: وقد ذكر الجاحظ أن هذا الطير من إحدى عجائب الدنيا، وذلك أنه لا يطأ الأرض بقدميه، بل بإحداهما، خوفاً على الأرض أن تنخسف به من تحته »(١) .

ويتحدثون عن الهام « فيزعمون أنَّ هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم وهي أبداً تتوحش وتَصْدَع، وتوجد أبداً في الديار المعطلة والنواويس، وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى.ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محلته بفنائهم، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه(٢):

هامِي تخبِّرني بما تستشعروا   فتجنبوا الشنعاء والمكروها

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي، ٢ / ٢٣٨ ٢٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٣ .

وفي حديثه عن التنين يقول : «منهم من قال أنها دوَاب تكون في قعر البحر، فتعظم وتؤذي دواب البحر، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها، وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص، لا تمر بمدينة إلا أتت على ما لا يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل، وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة فيلقيه السحاب في بلد يأجوج ومأجوج، ويمطر السحاب عليهم، فيقتل التنين، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج »[(١)] .

أما الغول فوصفه غريب ، يقول المسعودي : «وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان مُشَوّه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً في نفسه وهيئته توحَّش من مسكنه، فطلب القفار، وهو يناسب الإِنسان والحيوان البهيمي في الشكل، وقد ذهبت طائفة من الهند إلى أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان غائباً من الكواكب عند طلوعها، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار، وهي: الشعرى العبور، وأن ذلك يحدث داء في الكلاب، وسهيل في الحمل والذئب في الدب وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر في الصحاري، وغيرها من العامر والخرائب، فتسمية عوام الناس غولاً، وهي ثمانية وأربعون كوكباً »[(٢)] .

أما النسناس فحديثه فيه من الغرابة والخرافة المضحكة، يقول الجاحظ:

---

(١) المصدر نفسه ١ / ١٣٩ .

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٢ / ١٣٥، ١٣٦ .

«وزعموا أن النَّسْنَاسَ تركيب ما بين الشِّق والإنسان ويزعمون أن خلقا من وراء السد تركيب من النَّسْنَاسِ والناس والشقِّ ويأجوج ومأجوج وذكروا عن الواق واق والدوالب أي أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النَّباتِ والحيوان »[1] .

أما المسعودي « فهو يتحدث عن أقوام خرجوا إلى صيد النسانيس فأمسك أحدهم نسناساً ، فقال له : أنا بالله وبك، فقلت لهم: خلوه، فخلوه، فلما حضر الغداء قال: هل اصطدتم منها شيئاً ؟ قالوا: نعم؛ولكن خلا ضيفك، قال: استعدوا فإنّا خارجون في قَنَصِه، فلما خرجنا إلى ذلك في الشَحَر خرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه الإنسان وشَعَرات في ذقنه، ومثل الثدي في صدره، ومثل رجلي الإنسان رجلاه، وقد ألظ به كلبان، وهو يقول:

الويل لي مما به دهاني ... دهري من الهموم والأحزان

قفا قليلاً أيها الكلْبَانِ ... واستمعا قولي وصدّقاني

إنكما حين تحاربان ... ألفيتماني حضرا عِناني

لولا سُبَاتي ما ملكتماني ... حتى تموتا أو تفارقاني

لست بخوّار ولا جبان ... ولابنكس رَعش الجنان

لكن قضاء الملك الرحمن ... يُذِل ذا القوة والسلطان

قال: فالتقيا به فأخذاه، ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناساً، فقال قائل منها: سبحان الله، ما أشد حمرة دمه فذبحوه أيضاً، فقال نسناس آخر من شجرة: كان

(١) ينظر «الحيوان» ٦ / ٢٢٠ ٢٢١ .

يأكل السماق، قال: فقالوا نسناس آخر خذوه، فأخذوه وذبحوه، فقالوا: لو سكت هذا لم يعلم بمكانه، فقال نسناس من شجرة أخرى: أنا صمت قالوا: نسناس، خذوه ، فأخذوه ، فذبحوه فقال نسناس من شجرة أخرى: يا لسان احفظ رأسك، فقالوا: نسناس خذوه، فأخذوه، وزعم من روى هذا الخبر أن المهرة تصطادها في بلادها وتأكلها » [(١)].

غير أن النسناس حقيقة هو «نوع من القردة صغير الحجم، طويل الذنب»[(٢)].

والنسناس ليس من الأنواع المتطورة من القرود ، فأعلى أنواع القرود هو الشنبانزي « والقرود من الرئيسيات (كذا) أكلة الأعشاب واللحوم ، وتحيا غالباً فوق الأشجار في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية ، وهي حيوانات تتمتع بقدر من الذكاء وبقدرة على التعلم » [(٣)] .

إن هذا كله لا يستدعي أن يكون حيواناً ناطقاً وبأي لغة ينطق ، ثم كيف به وهو يقول الشعر ، وأن الغرابة قد لازمت الخبر جميعه ، فأضحى ضرباً من الخرافة المحضة .

ومن الخرافات الأخرى ، قول المسعودي : «ومن الناس من رأى أن الضحاك ذا الأفواه المقدَّم ذكره في هذا الكتاب الذي تنازعت فيه الفرس

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٢ / ٢٣٨ ، ٢٤٠ .

(٢) «المعجم الوسيط » إبراهيم أنيس وآخرون ، مادة (نسنس) .

(٣) «الحيوان في القرآن الكريم » د. زغلول النجار ، ص٤٧١ .

والعرب من أي الفريقين هو، أنه خرج بكتفيه حَيّتان فكانتا لا تغذيان إلا بأدمغة الناس، فأفنى خلقاً كثيراً من فارس، واجتمعت إلى حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم وقد شالوا راية من الجلود تسميها الفرس درفش كاوان، فأخذ أفريدون الضحاك وقيدهُ في جبل دنباوند على ما ذكرنا، وقد كان وزير الضحاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلاً ويخلط أدمغتهما، ويطعم تينك الحيّتين اللتين كانتا في كتفي الضحاك، ويطرد من تخلّص إلى الجبال، فتوحشوا وتناسلوا في تلك الجبال فهم بدء الأكراد، وَهؤلاء من نسلهم، وتشعبوا أفخاذاً»[1] .

الخرافة في علاقة الإنسان بالحيوان

إن التعرف على أحاديث الحيوان، هو من المعجزات مثلما اشتكى الجمل من صاحبه لرسول الله ﷺ، وقوله -تعالى- في سليمان عليه السلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]، وقوله -تعالى-: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ

---

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي، ٢ / ١٣٤ .

(٢) النمل / ١٨ ١٩ .

وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[١] .

فالحديث مع الحيوان معجزة للأنبياء ، وهي قد تكون محض خيال « كما في قصة خراف العيد لمصطفى صادق الرافعي ، وفيه حديث للخرافة وهي تساق في اليوم التالي أضحية في العيد »[٢] .

أما أن تتحدث الحيوانات ، ويعلم حديثها أُمَيَّة ، فهو حديث خرافة ، فعن عبد الرحمن بن أبي حماد والمنقري ، قال : «كان أمية جالساً معه قوم فمرت بهم غنم فثغت منها شاة ؛ فقال للقوم : هل تدرون ما قالت الشاة ؟ قالوا : لا . قال: إنها قالت لِسَخْلَتِهَا : مُرِّي لا يجيء الذئب فيأكلك كما أكل أختك عام أول في هذا الموضع . فقام بعض القوم إلى الراعي فقال له : أخبرني عن هذه الشاة التي ثغت ألها سخلة ؟ فقال : نعم . هذه سخلتها . قال : أكانت لها عام أول سخلة ؟ قال : نعم ، وأكلها الذئب في هذا الموضع »[٣] .

« دخل يوماً أمية بن أبي الصلت على أخته وهي تهيِّئ أدماً لها ، فأدركه النوم فنام على سرير في ناحية البيت .قال فانشق جانب من السقف في البيت ، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما على صدره ووقف الآخر مكانه ، فشق الواقع صدره فأخرج قلبه فشقه ، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره : أوعى ؟ قال :

---

(١) النمل / ١٦ .

(٢) ينظر «وحي القلم» مصطفى صادق الرافعي ، ٧٨ ٨٨ .

(٣) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٤ / ١٣٢ .

وعى . قال : أقَبِل ؟ قال : أبى . قال : فرد قلبه في موضعه فنهض ، فأتبعهما أمية طرفه فقال:

لَبَّيْكُمَا لَبَّيْكُمَا هأنذا لَدَيْكُمَا

لا بريء فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر ، فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه، ثم أخرج قلبه فشقه ؛ فقال الطائر الأعلى : أَوَعَى ؟ قال : وعى . قال: أقبل؟ قال : أبى ، ونهض ؛ فأتبعهما بصره وقال :

لَبَّيْكُمَا لَبَّيْكُمَا هأنذا لَدَيْكُمَا

لا مال يغنيني ، ولا عشيرة تحميني . فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه ، ثم أخرج قلبه فشقه ؛ فقال الطائر الأعلى : أوعى ؟ قال : وعى ، قال : أقبل ؟ قال: أبى .ونهض ، فأتبعهما بصره وقال:

لَبَّيْكُمَا لَبَّيْكُمَا هأنذا لَدَيْكُمَا

محفوف بالنعم ، محوط من الريب . قال : فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه وأخرج قلبه فشقه؛ فقال الأعلى : أوعى ؟ فقال : وعى ، قال : أقبل ؟ قال: أبى .قال :ونهض فأتبعهما بصره وقال:

لَبَّيْكُمَا لَبَّيْكُمَا هأنذا لَدَيْكُمَا
إنْ تَغْفِرِ اللهمَّ تَغْفِرْ جمّا وأيّ عبدٍ لك لا ألَمَّا

قالت أخته :ثم انطبق السقف وجلس أمية يمسح صدره، فقلت : يا أخي!

هل تجد شيئاً ؟ قال :لا، ولكني أجد حرًّا في صدري »[1] .

والكلاب تتحدث ، وتشرب النبيذ ، وتستمع إلى الغناء ، يقول الأصفهاني: «أخبرني عمي ، قال : حدثني عبد الله بن أبي سعد : قال : حدثني محمد بن عبد الله العبدي ، قال :حدثني سيف الكاتب ، قال : وليت ولاية ، فمررت بصديق لي في بعض المنازل ، فنزلت به ، قال : فنلنا من الطعام والشراب ، ثم غلب علينا النبيذ ، فنمنا ، فانتبهت من نومي ، فإذا أنا بكلب قد دخل على كلب الرجل فجعل يبش به ويسلم عليه لا أنكر من كلامهما شيئاً ، ثم جعل الكلب الداخل عليه يخبره عن طريقه بطول سفره ، وقال له : هل عندك شيء تطعمنيه ؟ قال : نعم ، قد بقي لهم في موضع كذا وكذا طعام ، وليس عليه شيء ، فذهبا إليه ، فكأني أسمع ولوغهما في الإناء حتى أكلا ما كان هناك فيه ، ثم سأله نبيذاً ، فقال: نعم ، لهم نبيذ في إناء آخر ليس له غطاء ، فذهبا إليه فشربا . ثم قال له : هل تطربني بشيء ؟ قل : إي وعيشك ، صوت كان أبو يزيد يغنيه ، فيجيده ، ثم غناه في شعر عبيد بن الأبرص .

طاف الخيال علينا ليلة الوادي لآل أسماء لم يُلْمِمْ لميعاد

أنَّى اهتديت لركبٍ طال سيرهُم في سَبسبٍ بين دَكْدَاكٍ وأعقاد

قال : فلم يزل يغنيه هذا الصوت ، ويشربان مليًّا ، حتى فني ذلك النبيذ ، ثم خرج الكلب الداخل ، فخفت والله على نفسي أن أذكر ذلك لصاحب المنزل،

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٤ / ١٣٤ ١٣٥ .

فأمسكت ، وما أذكر أني سمعت أحسن من ذلك الغناء »[1] .

هل يمكن أن نثق بمن يروي مثل هذه الخرافات ، إن كلامه هو استهزاء بعقول المتلقين، وهو تلاعب لفظي ، في قوله (أخبرني ، حدثني) وكأنما هو الموثوق الذي لا ينطق بالكذب ، وهو يغير ظالماً على منهج المحدثين في روايتهم للحديث .

ويستمرئ كذبه ، فيدعي ألحاناً تعلمان إبراهيم الموصلي؛ إذ يقول: «أخبرني عمي قال : حدثني عبد الله بن أبي سعد قال : حدثتني نشوة الأشنانية قالت : أخبرني أبو عثمان يحيى المكي قال : تشوق يوماً إبراهيم الموصلي إلى سرداب له، وكانت فيه بركة ماء تدخل من موضع إليه وتخرج إلى بستان ، فقال : أشتهي أن أشرب يومي وأبيت ليلتي في هذا السرداب ففعل ذلك ، فبينا هو نائم في نصف الليل فإذا سنورتان قد نزلتا من درجة السرداب ، بيضاء وسوداء ، فقالت : إحداهما أتراه نائماً ؟ فقالت السوداء : هو نائم ؛ فاندفعت السوداء فغنت بأحسن صوت :

عَفَا مُزْج إلى لَصَقٍ   إلى الهَضَبات من هَكِر
إلى قاع النَّقِير إلى   قرار جِلال ذي حَدَر

قال : فمات إبراهيم فرحاً وقال : يا ليتها أعاداه ! فأعاداه مراراً حتى أخذه ، ثم تحرك فقامت السنورتان ، وسمع إحداهما تقول للأخرى : والله لا طرحه

(١) المصدر نفسه ٢٢ / ٩٨ .

على أحد إلا جُنَّ ، فطرحه من غد على جارية له فَجُنَّتْ »[١] .

الخرافة في ذكر الجن

الجن من مخلوقات الله -تعالى- ، وقد قال -تعالى- فيهم: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[٢] .

إن ما ينقل عن علمها الغيب هو ضرب من المحال لما تقدم من قوله -تعالى-: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، يروي الأصفهاني فيقول: «وقد أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال : حدثنا عمر ابن شبة قال : حدثنا شهاب ابن عباد قال : حدثنا محمد بن بشر قال : حدثنا مسعر عن عبد الملك بن عمير عن الصقر بن عبد الله عن عروة عن عائشة قالت: ناحت الجن على عمر قبل أن يقتل بثلاث فقالت :

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمت ... له الأرض تهتزُّ العِضَاهُ بأسْؤق

جزى الله خيراً من إمامٍ وباركت ... يدُ الله في ذاك الأديم الممزَّق

فمن يَسْعَ أو يركب جَنَاحَي نَعامةٍ ... ليُدرك ما حاولتَ بالأمس يُسبَق

قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها ... بَوائقَ في أكمامها لم تُفَتَّقِ

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) سبأ / ١٤ .

وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته ... بكَفَّي سَبَنتَى أزرقِ العين مُطْرِقِ

أخبرني أحمد قال : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثنا سليمان بن داود الهاشمي قال : أخبرنا إبراهيم بن سعد الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن أبي ربيعة عن أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق : أن عائشة حدثتها أن عمر أذن لأزواج النبي ﷺ أن يحججن في آخر حجة حجها عمر . قال: فلما ارتحل عمر من المحصب أقبل رجل متلثم فقال وأنا أسمع : هذا كان منزله ، فأناخ في منزل عمر ثم رفع عقيرته يتغنى :

عليك سلامٌ من أميرٍ وباركتْ ... يَدُ الله في ذاك الأديم الممزَّقِ

فمن يَجْرِ أو يركبْ جَنَاحَي نَعَامةٍ ... ليدرك ما قَدَّمتَ بالأمس يُسْبَقِ

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائِقَ في أكمامها لم تفتَّقِ

قالت عائشة : فقلت لبعض أهلي : اعلموا لي علم هذا الرجل ، فذهبوا فلم يجدوا في مناخه أحداً . قالت عائشة : فوالله إني لأحسبه من الجن فلما قتل عمر نحل الناس هذه الأبيات للشماخ بن ضرار أو جماع بن ضرار هكذا في الخبر ، وهو جزء بن ضرار »[1] .

ومن أخبار الجن أيضاً ، ما ينقله ابن الأعرابي نقلاً عن ابن دأبٍ ، أنه قال: «خرج ركب من ثقيف إلى الشام ، وفيهم أمية بن أبي الصلت ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلاً ليتعشوا بعشاء ، إذ أقبلت عضاءة حتى دنت منهم ،

---

(١) «الأغاني» ٩ / ١٨٥ ١٨٧ .

فحصبها بعضهم بشيء في وجهها فرجعت ؛ وكفتوا سفرتهم ثم قاموا يرحلون ممسين ؛ فطلعت عليهم عجوز من وراء كثيب مقابل لهم تتوكأ على عصا ؛ فقالت : ما منعكم أن تطعموا رجيمة الجارية اليتيمة التي جاءتكم عشية ؟ قالوا: ومن أنت ؟ قالت : أنا أم العوام ، إمت منذ أعوام ؛ أما ورب العباد ، لتفترقن في البلاد ؛ وضربت بعصاها الأرض ثم قالت : بطئي إيابهم ، ونفري ركابهم ؛ فوثبت الإبل كأن على ذروة كل بعير منها شيطاناً ما يملك منها شيء ، حتى افترقت في الوادي . فجمعناها في آخر النهار من الغد ولم نكد . فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز فضربت الأرض بعصاها ثم قالت كقولها الأول ؛ ففعلت الإبل كفعلها بالأمس ، فلم نجمعها إلا الغد عشية . فلما أنخناها لنرحلها أقبلت العجوز ففعلت كفعلها في اليومين ونفرت الإبل . فقلنا لأمية : أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك ؟ فقال : اذهبوا أنتم في طلب الإبل ودعوني . فتوجه إلى ذلك الكثيب الذي كانت العجوز تأتي منه حتى علاه وهبط منه إلى واد ، فإذا فيه كنيسة وقناديل ، وإذا رجل مضطجع معترض على بابها ، وإذا رجل أبيض الرأس واللحية ؛ فلما رأى أمية قال : إنك لمتبوع ، فمن أين يأتيك صاحبك ؟ قال : من أذني اليسرى . قال : فبأي الثياب يأمرك ؟ قال : بالسواد . قال: هذا خطيب الجن ؛ كدت والله أن تكونه ولم تفعل ؛ إن صاحب النبوة يأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى ، ويأمره بلباس البياض ، فما حاجتك ؟ فحدثه حديث العجوز ؛ فقال : صَدَقَتْ ، وليست بصادقة ! هي امرأة يهودية من الجن هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لن تزال تصنع ذلك بكم حتى تهلككم إن استطاعت . فقال أمية : وما الحيلة ؟ فقال : جمعوا ظهركم ، فإذا جاءتكم

ففعلت كما كانت تفعل فقولوا لها : سبع من فوق وسبع من أسفل ، باسمك اللهم ؛ فلن تضركم ، فرجع أمية إليهم وقد جمعوا الظهر . فلما أقبلت قال لها ما أمره به الشيخ ، فلم تضرهم . فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت : قد عرفت صاحبكم ، وليبيضن أعلاه ، وليسودن أسفله ؛ فأصبح أمية وقد برص في عذاريه وأسود أسفله . فلما قدموا مكة ذكروا لهم هذا الحديث ؛ فكان ذلك أول ما كتب أهل مكة (باسمك اللهم) في كتبهم »[1] .

وقد تخصص الجن بقتل بني أمية في جاهليتهم ، فقد «ذكروا عن علقمة بن صفوان بن أمية بن محرب الكناني جد مروان بن الحكم لأمه أنه خرج في بعض الليالي يريد مالاً له بمكة، فانتهى إلى الموضع المعروف إلى هذا الوقت بحائط حرمان؛ فإذا هو بشق قد ظهر له في أوصاف ذكرها فقال شق:

علقم إني مقتول وإن لحمي مأكولْ

أضربهم بالمسلولْ ضَرْبَ غلامٍ مَشمولْ

رَحْبَ الذراع بهلُولْ

فقال علقمة :

يا شِق، مالي ولك اغمد عني مُنْصُلَكْ

تَقْتُل مَنْ لا يَقْتُلك؟

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٤ / ١٣٣ ١٣٤ ، وينظر ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي، ١ / ٦٨ ٧٠ .

فقال شق:

عَلْقَم، غنيت لك كيما أبيحُ مَعْقَلَكْ

فاصبر لِما قد حُمَّ لَكْ

فضرب كل منهما صاحبه، فخرّا ميتين، وهذا مشهور عندهم، وأن علقمة ابن صفوان قتلته الجن »[١].

وهذا حرب بن أمية تقتله الجن أيضاً ، فقد : «وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما في حرب بن أمية حين قتلته الجن وهما:

وقبر حربٍ بمكان قفرٍ وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

واستدلوا على أن هذا الشعر من قول الجن بأن أحداً من الناس لا يتأتى له أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متواليات لا يتتعتع في إنشادهما؛ لأن الإنسان قد ينشد العشرين بيتاً والأكثر والأقل أشد من هذا الشعر وأثقل منه ولا يتتعتع فيه»[٢].

ونلحظ بدقة تفاهة السبب في نسبة الأبيات إلى الجن ؛ لأن المسألة صوتية فقط .

إذ أن الثقل في الشطر الثاني (قرب قبر حرب قبر) والجذور الصوتية

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٢ / ١٧٤ .

(٢)المصدر نفسه ٢ / ١٧٤ – ١٧٥.

للكلمات الأربع هي (القاف ، والراء ، والباء ، والحاء) وهذه الأصوات تتكرر ، ولو حلَّلْناها صوتيًّا لوجدنا أن :

القاف : حرف لهوي المخرج ، مفخَّم وهو مستعل ، انفجاري .

الراء : حرف لثوي المخرج ، مكرر ، مفخم في موضعه، بين الشدة والرخاوة.

الحاء : حرف حلقي المخرج ، مهموس ، مرقق .

الباء : حرف شفوي ، مجهور ، مرقق [1] .

نلحظ بعناية أن الأصوات الأربعة هي من مخارج متباعدة ، وقد تكررت لأكثر من مرة في كلمات متتالية ، مع أنها تحمل صفات مختلفة مما أدى إلى ثقل واضح جلي في نطقها أدى إلى صعوبة في تكرار الجملة لأكثر من مرة ، وقد نصَّ البلاغيون على أن ذلك من الثقل .

« والتنافر : منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة ، كما في البيت الذي أنشده الجاحظ [2] :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

---

(١) ينظر «مهارت الإملاء والتلفظ والإلقاء» د. يوسف طارق السامرائي ، ص٥١ . ٦١

(٢) «الإيضاح » الخطيب القزويني ، ص١٦ .

« وهو تنافر شديد »[١] .

« والأصفهاني يؤكد على مقتل مرداس بن أبي عامر ، وحرب بن أمية أبو أبي سفيان من قِبَلِ الجن ، ويرفض رواية في أن مرداس بن أبي عامر كان مجاوراً بكر بن وائل في وقعة ذي قار ، وأنه خرج عنهم مع عياله حينما قدم جيش الفرس، فيقول الأصفهاني : «هذه الحكاية عندي في أمر مرداس بن أبي عامر خطأ ؛ لأن وقعة ذي قار كانت بعد هجرة النبي -صلّى الله عليه وآله وسلم- وكانت بين بدر وأحد ومرداس بن أبي عامر ، وحرب بن أمية أبو أبي سفيان ماتَا في وقت واحد ، كانَا مرّا بالقُرَيَّة ، وهي غيضة ملتفة الشجر ، فأحرقَا شجرها ليتخذاها مزرعة ، فكانت تخرج من الغيضة حيات بيض فتطير حتى تغيب ، ومات حرب ومرداس بعقب ذلك ، فتحدث قومهما أن الجن قتلتهما لإحراقهما منازلهم من الغيضة ، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ بحين . ثم كانت بين أبي سفيان وبين العباس بن مرداس منازعة في هذه القرية ، ولهما في ذلك خبر ليس هذا موضعه . وأظن أن هذه الأبيات للعباس بن مرداس بن أبي عامر»[٢].

الغريب أن الأصفهاني يتجنب ، بل ويرفض المنطق السليم لتسلسل الأحداث، ويعد خبر خروج مرداس عن بكر بن وائل مع بدايات معركة ذي

---

(١) ينظر «البلاغة الاصطلاحية» د. عبده عبد العزيز قلقيلة ، ص٢٧ .

(٢) الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، ٢٤ / ٦٤ ٦٥ .

قار هو غلط قد وقع فيه الرواة ، ثم يعتمد رواية خرافية غريبة ؛ من أن الجن هي التي قتلت مرداس بن أبي عامر ، وحرب بن أمية ، وإذا ما كانت الجن تقتل آل أمية ، فإنهم أنفسهم ينتصرون لأعدائهم ، يحدث دعبل الخزاعي ، فيقول : «لما هربت من الخليفة بت ليلة بنيسابور وحدي ، وعزمت على أن أعمل قصيدة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة ، فإني لفي ذلك إذ سمعت والباب مردود عليَّ : السلام عليكم ورحمة الله ، انجُ يرحمك الله ، فاقشعر بدني من ذلك ، ونالني أمر عظيم ، فقال لي : لا تُرع عافاك الله ؛ فإني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليمن طرأ إلينا طارئ من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك :

مدارس آياتٍ خلَت من تلاوة ومنزلُ وحي مقفرُ العرَصات

فأحببت أن أسمعها منك ، قال : فأنشدته إياها ، فبكى حتى خر ، ثم قال : رحمك الله ! ألا أحدثك حديثاً يزيد في نيتك ويعينك على التمسك بمذهبك ؟ قلت : بلى قال : مكثت حيناً أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة فسمعته يقول : حدثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله قال : علي وشيعته هم الفائزون ، ثم ودعني لينصرف ، فقلت له : يرحمك الله ، إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل ، قال : أنا ظبيان بن عامر»[1] .

قال -تعالى- في مثل هذا الفعل وسواه من الاستعانة بالجن : ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

(١) المصدر نفسه ٢٠ / ١٥٥ .

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

وما يذكره الأصفهاني من حديث الجن كثير ، ومنه ما نقله عن حماد عن أبيه عن جدِّه إبراهيم الموصلي ، إذ يقول : «سألت الرشيد أن يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعث فيه إلي بوجه ولا بسبب ، لأخلو فيه بجواري وإخواني ، فأذن لي في يوم السبت ، وقال لي : هو يوم أستثقله ، فالْهُ فيه بما شئت ؛ فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمت في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجت إليه ، وأمرت بوابي فأغلق الأبواب وتقدمت إليه ألا يأذن علي لأحد ؛ فبينا أنا في مجلسي والخدم قد حفوا بي وجواري يترددن بين يدي ، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال ، عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة لاطئة ، وبيده عكازة مقمعة بفضة ، وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار ؛ فداخلني بدخوله علي مع ما تقدمت فيه غيظ ما تداخلني قط مثله ، وهممت بطرد بوابي ومن حجبني لأجله ؛ فسلم علي أحسن سلام فرددت عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس ، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سلى ما بي من الغضب ، وظننت أن غلماني تحروا مسرتي بإدخالهم مثله علي لأدبه وظرفه ؛ فقلت : هل لك في الطعام ؟ فقال : لا حاجة لي فيه ؛ فقلت : هل لك في الشراب ؟ فقال : ذلك إليك ، فشربت رطلاً وسقيته مثله ؛ فقال لي : يا أبا إسحاق ، هل لك أن تغني لنا شيئاً من صنعتك وما قد نفقت به عند الخاص

---

(١) الجن / ٦٤ .

والعام ؟ فغاظني قوله ، ثم سهلت على نفسي أمره فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت ؛ فقال : أحسنت يا إبراهيم ؛ فازداد غيظي ، وقلت ما رضي بما فعله من دخوله علي بغير إذن واقتراحه أن أغنيه حتى سماني ولم يكنني ولم يجمل مخاطبتي ! ثم قال : هل لك أن تزيدنا ؟ فتذممت فأخذت العود فغنيت ؟ فقال : أجدت يا أبا إسحاق ! فأتم حتى نكافئك ونغنيك ؛ فأخذت العود وتغنيت وتحفظت وقمت بها غنيته إياه قياماً تامًّا ما تحفظت مثله ولا قمت بغناء كما قمت به له بين يدي خليفة قط ولا غيره ، لقوله لي : أكافئك ؛ فطرب وقال : أحسنت يا سيدي ، ثم قال : أتأذن لعبدك بالغناء ؟ فقلت : شأنك ، واستضعفت عقله في أن يغنيني بحضرتي بعد ما سمعه مني ؛ فأخذ العود وجسه وحبسه ، فوالله لخلته ينطق بلسان عربي لحسن ما سمعته من صوته ، ثم تغنى :

ولي كَبِدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كَبِدا ليستْ بذاتِ قُروح
أباها عليّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا عِلَّة بصحيح
أئِنُ من الشوق الذي في جوانبي ... أنينَ غصيصٍ بالشراب جَريح

قال : إبراهيم فوالله لقد ظننت الحيطان والأبواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله أني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة لما خالط قلبي ؛ ثم غنى :

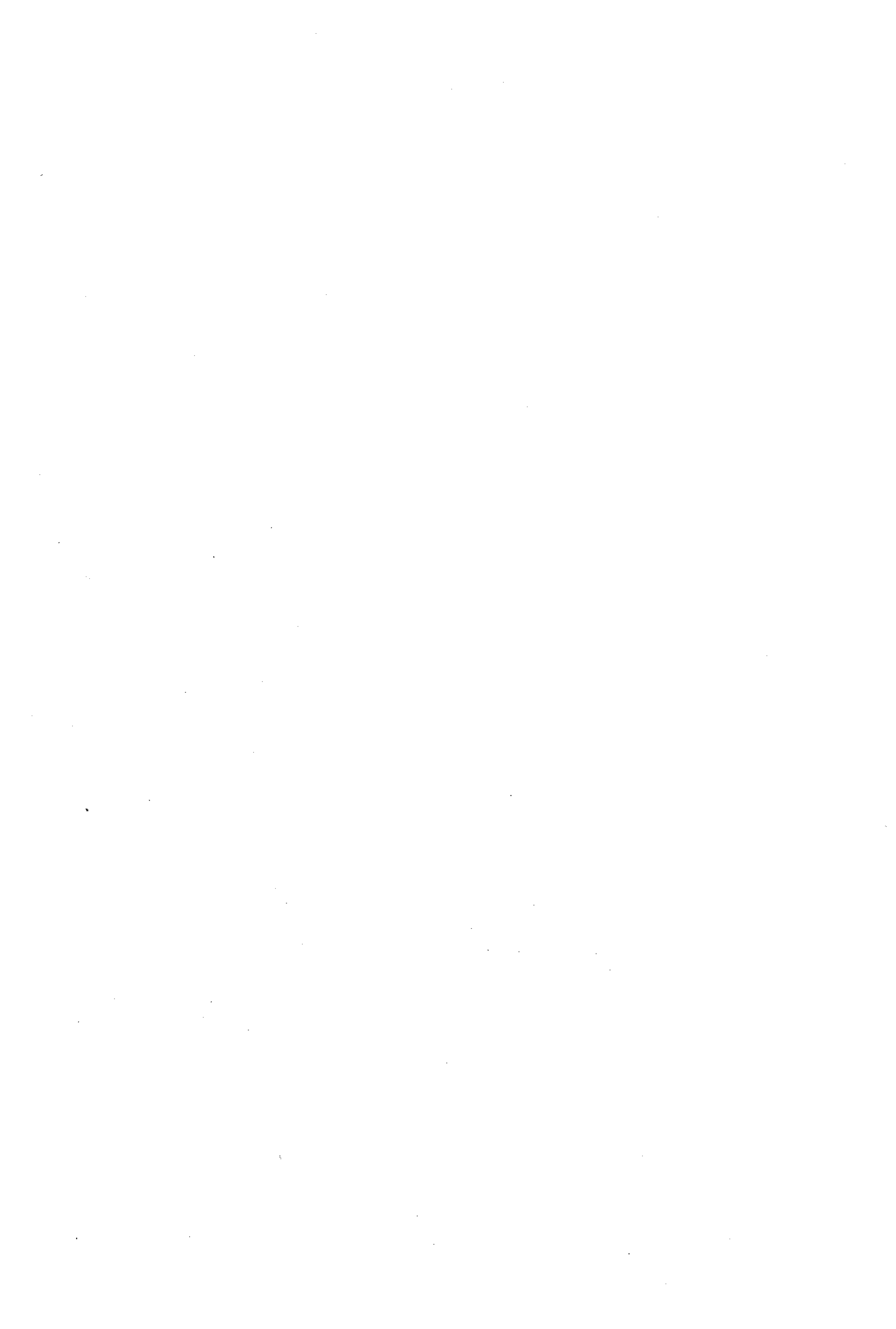
ألا يا حماماتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً ... فإنّي إلى أصواتكنّ حزينُ
فعُدْنَ فلما عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَنَي ... وكدتُ بأسراري لهنّ أُبِينُ

ثم قال : يا إبراهيم! هذا الغناء الماخوري فخذه وانحُ نحوه في غنائك وعلمه جواريك ؛ فقلت : أَعِدْهُ عليّ ، فقال : لست تحتاج ، قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين يدي ؛ فارتعت وقمت إلى السيف فجردته ، وعدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجواري : أي شيء سمعتن عندي ؟ فقلن : سمعنا أحسن غناء سمع قط ؛ فخرجت متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً ، فسألت البواب عن الشيخ ؛ فقال لي : أي شيخ هو ؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد ؛ فرجعت لأتأمل أمري ، فإذا هو قد هتف بي من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا إسحاق ، أنا إبليس وأنا كنت جليسك ونديمك اليوم ، فلا تَرُعْ . فركبت إلى الرشيد وقلت : لا أطرفه أبداً بطرفه مثل هذه ، فدخلت إليه فحدثته بالحديث ؛ فقال : ويحك ! تأمل هذه الأصوات ، هل أخذتها ؟ فأخذت العود أمتحنها ، فإذا هي راسخة في صدري كأنها لم تزل ؛ فطرب الرشيد عليها وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب ، وأمر لي بصلة وحملان وقال : الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغت منها، فليته أمتعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك »[1] .

الرشيد الخليفة المسلم ، بل خليفة المسلمين جميعاً ، يطلب مجالسة إبليس ، هل رأى أحد باطلاً مثل هذا قط ؟!!! .



(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ٢٤٤ ٢٤٧ .





الفصل الثالث

ألف ليلة وليلة في الأغاني والمروج



الفصل الثالث

ألف ليلة وليلة في الأغاني والمروج

إن أكثر ما يؤلم في تأريخنا ، هو طغيان خيال ألف ليلة وليلة على ملامح الحياة العربية الإسلامية ، فلطالما شُوِّهَ تأريخنا بملامح غريبة على مجتمعنا العربي والإسلامي ، فمظاهر من الترف والأبَّهة ، والمجون والغناء والخيانة والإباحية ، فَقد طُحِنَ الرجال والنساء ، فلا أستار ولا حدود ، بل لقاءات مريبة ، وأجسام تعلوها الصغار ، خلوات وقراع كؤوس ، غنج ودلال ، شهوة تعلوها شهوة ، غناء ورقص وطبول ، رجال بلا عقول ، ونساء بلا احتشام ، خائنات لعوبات يبعن مفاتنهن في غفلة من دين أو رادع من ضمير .

فلم تعد للقيم الدينية وجود ، فنهر ألف ليلة وليلة قد غطَّى على ملامح الحياة العربية في مثل كتب «الأغاني» و«المروج» فما عدنا نجد لها ملامح ، إلا ملامح مغتربة عن واقعنا لا تمتُّ إلى ديننا أو أخلاقنا بصلة .

فالشخصية الأبرز في ألف ليلة وليلة هو الخليفة هارون الرشيد فقد ورد اسمه صراحة في أكثر من خمس وعشرين قصة من قصص ألف ليلة وليلة ، واسم زبيدة ، ولم يدع الأمين إلا بقولهم (الأمين بن زبيدة) ولم يسموا المأمون باسم أمّه ، وكان مسروراً سياف الرشيد حاضراً في عدد كبير من القصص وكذا بعض البرامكة ، وذكر خلفاء حكموا قبل الرشيد مثل الخليفة الأموي معاوية

ابن أبي سفيان ، وسليمان بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وذكر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- وشخصيات من أمراء وقادة بارزين مثل حاتم الطائي ، والحجاج ، وخزيمة بن بشر فقد تداخل الخيال بالواقع في تلك القصص ، ليظهر هذا التأثير جليًّا في «الأغاني» و«مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وبعض الكتب الأخرى مثل «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي ، ومثل «الكامل في الأدب» وسواها ، مع أن «ألف ليلة وليلة» هي ترجمة حرفية لـ (هزار أفسان) أي : ألف خرافة وخرافة .

إن هذا الالتقاء بين تلك الكتب التي تحدثت في تأريخنا وتأريخ الأدب وكتاب «ألف ليلة وليلة» هو الذي شوَّه صفحات تأريخنا المجيد ، والأغرب فيما قام به الأصفهاني ، هو إغارته على الحديث الشريف ومنهجه في الإسناد ، ليقول: حدثني، أخبرني ، فلان عن فلان ، ليوحي للمتلقي بصدق ما ينقل من أخبار .

تطابق القصص

أن تنسحق الحقيقة بالخيال ، مع انعدام الطرق التي توصلنا إلى البرزخ بينهما؛ فهذا مما يدعو إلى الشفقة على تلك الحقيقة ، وعلى ذاك التأريخ الوادع الذي ضيعته منهجيات سقيمة ، أنهكت خصائص روحه العزيزة ، وأحالتها رمادا من خيال مريض ممسوخ ، حطَّم صفوان الحقيقة بمعاول هدم ، فغدت رمالا مشوَّهَةً ، تدوسها أقدام المندسين والحاقدين .

من القصص التي وجدناها تتردد في أكثر من موضع ، قصة الزنبيل ؛ ولبيان مدى التداخل بين الكتب التي تدَّعي أنها تنقل أخباراً ، وبين كتاب الخيال والخرافة ألف ليلة وليلة ، فإننا سنذكر قصة الزنبيل من دون الإشارة إلى المصدر؛ وذلك لبيان الامتزاج التام لفظاً وفكراً وخيالاً بين تلك الكتب وألف ليلة وليلة .

« مما يحكى أن إسحاق الموصلي قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجهاً إلى بيتي فضايقني حصر البول ، فعمدت إلى زقاق وقمت أبول خوفاً أن يضرّ بي شيء إذا جلست في جانب الحيطان فرأيت شيئاً معلقاً من تلك الدور ، فلمسته لأعرف ما هو فوجدته زنبيلاً كبيراً بأربع آذان ملبساً ديباجاً، فقلت في نفسي: لا بد لهذا من سبب ، وصرت متحيراً في أمري ، فحملني السكر على أن أجلس فيه، إذا بأصحاب الدار جذبوه بي وظنوا أنني الذي يرتقبونه . ثم رفعوا الزنبيل إلى رأس الحائط وإذا بأربع جوار يقلن لي انزل على الرحب والسعة ، ومشت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار فيها مجالس مفروشة لم أر مثلها إلا في دار الخلافة ، فجلست فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت في ناحية من الجدار وإذا بوصائف تمشين وفي أيديهن الشموع ومجامر البخور من العود الغافقي، وبينهن جارية كأنها البدر الطالع فنهضت وقالت : مرحباً بك من زائر. ثم أجلستني وسألتني عن خبري فقلت لها : إني انصرفت من عند بعض إخواني ، وغرني الوقت وحصرني البول في الطريق ، فملت على هذا الزقاق فوجدت زنبيلاً ملقى فأجلسني النبيذ في الزنبيل ، ورفع بي الزنبيل إلى هذا

الدار. هذا ما كان من أمري . فقالت : لا ضير عليك وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك . ثم قالت لي : فما صنعتك ؟ فقلت : تاجر في سوق بغداد . فقالت : هل تروي من الأشعار شيئاً ؟ قلت : شيئاً ضعيفاً . قالت : فذاكرنا فيه وأنشد شيئاً منه . فقلت : إن للداخل دهشة ولكن تبدئين أنت قالت : صدقت . ثم أنشدت شعراً قديماً من كلام العلماء والمحدثين وهو من أجود أقاويلهم ، وأنا أسمع ولا أدري أأعجب من حسنها وجمالها أم من حسن روايتها ، ثم قالت : هل ذهب ما كان عندك من الهشة ؟ قلت : إي والله . قالت : إن شئت فانشد شيئاً من روايتك . فأنشدتها شعراً لجماعة من القدماء ما فيه الكفاية ، فاستحسنت ذلك ثم قالت : والله ما ظننت أنه يوجد في أبناء السوقة مثل هذا . ثم أمرت بالطعام . فما غابت عنا شيئاً حتى قدّمت إلينا مائدة لطيفة ، قد جمع عليها غرائب الطعام السري ، فقالت : إن المالحة أول الرضاع فدونك . فتقدمت ، فأقبلت أعتذر بعض الاعتذار وهي مع ذلك تحثني وتضع بين يدي ، وإني لمتقسم القلب لما أرى من ظرفها وعقلها ، وحسن خفرها ، وكثرة أدبها حتى رفعت المائدة ، وأحضرت آنية النبيذ ، فوضعت بين يدي صينية وقنينة وقدح مغسل ، وبين يديها مثل ذلك ، وفي وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لم أره اجتمع لأحد ، إلا لولي عهد أو سلطان ؛ قد عبئ أحسن تعبئة ، وهيئ بأحسن تهيئة . قال إسحاق : فتثاقلت عن الشرب لتكون هي التي تبتدئ . فقالت : ما لي أراك متوقفاً عن الشرب؟ فقلت : انتظاراً لك ، جعلت فداك . فسكبت قدحاً فشربت ثم سكبت قدحاً آخر فشربت، ثم قالت : هذا أوان المذاكرة فإن المذاكرة بالأخبار وذكر أيام الناس مما يطرب . قلت لعمري إن هذا

لمن أوقاته . فاندفعت فقلت : أنه بلغني كذا وكذا ، وكان رجل من الملوك يقال له فلان بن فلان ، وكان من قصته كذا وكذا ، حتى مررت بعدة أخبار حسان من أخبار الملوك ما لا يحدث به إلا عند ملك أو خليفة فسرت بذلك سروراً شديداً ، ثم قالت : والله لقد حدثتني بأحاديث حسان ، ولقد كثر تعجبي من أن يكون أحد من التجار يحفظ مثلها . إنما هي من أحاديث الملوك ، وما لا يتحدث به إلا عند ملك أو خليفة . فقلت لها : جعلت فداك ، إنه كان لي جار ينادم بعض الملوك وكان حسن المعرفة، كثير الحفظ . فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب فيها على دار صاحبه لشغل يمنعه من ذلك ، أو لأمر يقطع، فأمضي عليه ، وأعزم عليه وأصير به إلى منزلي ، فربما أخبرني من هذه الأحاديث شيئاً ، إلى أن صرت من خاصة أخدانه ، وممن كان لا يفارقه . فما سمعت مني فمنه أخذته ، وعنه استفدته . فقالت : يجب أن يكون هذا كذا . ولعمري لقد حفظت فأحسنت الحفظ ، وما هذا إلا لقريحة جيدة ، وطبع كريم .

قال إسحاق : وأخذنا في شيء من الشراب والمذاكرة أبتدئ الحديث فإذا فرغت ابتدأت هي في آخر أحسن منه ، حتى قطعنا بذلك عانة الليل ، والند والعود وفائق البخور في المجلس يجدد ويسجر . وأنا في حالة لو توهمها المأمون وتأملها لاستطار فرحاً وسروراً. ثم قالت لي: يا ابن فلان! -وكنت قد غيرت اسمي وكنيتي- والله إني لأراك كاملاً ، وفي الرجال فاضلاً ، وإنك لوضيء الوجه، مليح الشكل ، بارع الأدب، وما كان بقي عليك إلا شيء واحد حتى تكون قد برعت وبرزت . فقلت: وما هو يا سيدتي دفع الله عنك الأسواء ؟ قالت : لو كنت تحرك بعض الملاهي ، أو تترنم ببعض الأشعار . فقلت : والله

لقدما اشتهيته ، وطالما كلفت به ، وحرصت عليه ، فلم أرزقه ، ولا وجدتني ممن تعلق بشيء منه ، فلما طال عنائي به ، وكلما تقدمت في طلبه كنت منه أبعد وعنه أذهب ، تركته وأعرضت عنه . وإن في قلبي من ذلك لحرقة وحرارة ، وإني لمستهتر به مائل إليه ، وما أكره أن أسمع في مجلسي هذا من جيده شيئاً لتكمل ليلتي ، ويطيب عيشي . قالت : كأنك قد عرَّضت بنا . فقلت : لا والله ، ما هو تعريض ، ولا هو إلا تصريح، وقد بدأت بالفضل ، وأنت حرية باستتمام ما بدأت به . فقالت : يا جارية! عود . فأحضرت العود فأخذته ، فما هو إلا أن جسته حتى ظننت أن الدار قد سار بي وبمن فيها ، واندفعت تغني بصوت ما ظننت أن أحداً يغني به ، مع صحة إيماء، وجودة ضرب ، فقلت : والله لقد أكمل الله فيك خلال الفضل ، وحباك بالكمال الرائع ، والعقل الوافر ، والأخلاق المرضية ، والأفعال السنية . فقالت : هل تعرف لمن هذا الصوت ، ومن غنى به ؟ فقلت : لا والله . قالت : الغناء لفلان ، والشعر لفلان ، وكان من سببه كذا وكذا . فقلت : هذا والله أحسن من الغناء . فلم تزل تلك حالها في كل صوت تغنيه ، وهي مع ذلك تشرب وأشرب ، حتى إذا كان عند انشقاق الفجر أو قبله جاءت عجوز كأنها داية لها ، فقالت : أي بنية! إن الوقت قد حضر، فإذا شئت فانهضي .

قال : فلما سمعت مقالها فقالت : عزمت ؟ قلت : إي والله . فقالت : مصاحباً ، عليك بستر ما كنت فيه ، فإن المجالس بالأمانة . فقلت : جعلت فداك ، أوَأحتاج إلى وصية في ذلك ، فودعتها وودعتني ، وقالت : يا جارية! بين يديه . فأتى بي باب في ناحية الدار ، ففتح لي وخرجت إلى طريق مختصرة ،

وبادرت البيت ، فصليت الصبح ووضعت رأسي ، فما انتبهت إلا برسل الخليفة على الباب ، فقمت وقد أسرج لي ، فركبت إلى الدار ، فسرت إليه فلما مثلت بين يدي المأمون ، قال : يا إسحاق! أخروجاً على الطاعة ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين . فقال : فما قصتك ؟ أصدقني الخبر . فقلت : نعم ولكن في خلوة . فأومأ إلى من بين يديه فتنحوا فحدثته الحديث وقلت له إني وعدتها بحضورك . قال : أحسنت . ثم أخذنا في لذتنا ذلك اليوم والمأمون متعلق بالقلب ، فما صدقني بمجيء الوقت وسرنا وأنا أوصيه وأقول لها تجنب أن تناديني باسمي قدامها ، بل أنا تبع لك في حضرتها ، واتفقنا على ذلك . ثم سرنا إلى أن أتينا مكان الزنبيل فوجدنا زنبيلين فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود ، فأقبلت وسلمت علينا ، فما رآها المأمون تحير في حسنها وجمالها ، وأخذت تذاكره الأخبار ، وتناشده الأشعار . ثم أحضرت النبيذ فشربنا وهي مقبلة عليه بسرور به ، وهو أيضاً مقبل إليها مسرور بها ثم أخذت العود وغنت طريقة ، وبعد ذلك قالت لي : وهل ابن عمك من التجار ؟ وأشارت إلى المأمون . قلت : نعم . قالت : لقريبا الشبه من بعضكما ، قلت : نعم . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والكرب فصاح وقال : يا إسحاق! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : غن بهذه الطريقة . فلما علمت أنه الخليفة وإني إسحاق . فنهضت وقال : هاهنا . وأومأ إلى كلة مضروبة . فدخلتها ثم فرغت من ذلك الصوت وشرب رطلاً وقال لي : ويحك يا إسحاق ، انظر من هذه الدار ومن ربها ؟ فخرجت

فلقيت تلك العجوز ، فقلت لها : من صاحب المنزل ومن مولاكم ؟ قالت : الحسن بن سهل . قلت: ومن هذه منه ؟ قالت : ابنته بوران . فرجعت وأعلمته فقال: عليَّ به الساعة . قال : فقلت لها : امضي فأحضريه ، وأعلميه أن أمير المؤمنين يطلبه . قال : فغابت عني هنيهة ثم جاءت وهو في إثرها . فوقف بين يديه فقال : ألك بنت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ثم نهض وفتح لنا الباب وخرجنا . فلما صرنا إلى الدار قال : يا إسحاق! لا يقفن أحد على ما وقفت عليه ؛ فإن المجالس بالأمانة . قلت : يا أمير المؤمنين! ومثلي يحتاج إلى وصية بهذا الأمر ؟ قال إسحاق : فما أصبحنا حتى أمر بحمل المال ، ونقلت إليه من يومها» (١) .

ما رويناه تنقلنا فيه بين «ألف ليلة وليلة» وبين كتب تُعَدُّ كتب أدب ، مع هذا نلحظ انعدام الحدود بين مصدري القصة على اختلافهما ، أما «الأغاني» فالقصة تروى ولكن من يحمل مع إبراهيم هو هارون الرشيد ، مع إضافات ، منها كلمات سوقية ، وأسلوب أكثر خلاعة ، وصياغة مبتذلة للأحداث ، وفي القصة إبراهيم الموصلي يمر بفناء قصر «وإذا زنبيل كبير مستوثق منه بحبال وأربع عرى أدم وقد دلي من القصر ، وجارية قائمة تنتظر إنسانا قد وعد ليجلس فيه ، فنازعتني نفسي إلى الجلوس فيه ثم قلت : هذا خطأ ، ولعله أن

(١) «ألف ليلة وليلة » ٥٢٣ ٥٢٦ ، وينظر ، العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي ، ٤٤٦ ٤٥٧ .

يجري سبب يعوقني عن الخليفة فيكون الهلاك ، فلم أزل أنازع نفسي وتنازعني حتى غلبتني فنزلت فجلست فيه ومد الزنبيل حتى صار في أعلى القصر ، ثم خرجت فنزلت، فإذا جوارٍ كأنهن المها جلوس ، فضحكن وطربن ، وقلن : قد جاء والله من أردناه ؛ فلما رأينني من قريب تبادرن إلى الحجاب وقلن : يا عدو الله! ما أدخلك إلينا ؟ فقلت : يا عدوات الله! ومن الذي أردتن إدخاله ولم صار أولى بهذا مني ؟ فلم يزل هذا دأبنا وهن يضحكن وأضحك معهن ؛ ثم قالت إحداهن : أما من أردناه فقد فات ، وما هذا إلا ظريف ، فهلم نعاشره عشرة جميلة ؛ فأخرج إلي طعام ودعيت إلى أكله ، فلم يكن في فضل إلا أني كرهت أن أنسب إلى سوء العشرة ، فأصبت منه إصابة معذِّر، ثم جيء بالنبيذ فجعلنا نشرب ، وأخرجن إلي ثلاث جوار لهن فغنين غناءً مليحاً ، فغنت إحداهن صوتاً لمعبد فقالت إحدى الثلاث من وراء الستر : أحسن إبراهيم ، هذا له ؛ فقلت : كذبت ليس هذا له ، هذا لمعبد ؛ فقالت : يا فاسق! وما يدريك الغناء ما هو؟! ثم غنت الأخرى صوتاً للغريض ، فقالت تلك : أحسن إبراهيم ، هذا له أيضاً؛ فقلت :كذبت يا خبيثة ، هذا للغريض ؛ فقالت : اللهم أخزه ، ويلك ! وما يدريك ! ثم غنت الجارية صوتاً لي ، فقالت تلك : أحسن ابن سريج ، هذا له ؛ فقلت : كذبت هذا لإبراهيم ، وأنت تنسبين غناء الناس إليه وغناءه إليهم ؛ فقالت: ويحك! وما يدريك! فقلت : أنا إبراهيم ، فتباشرن بذلك جميعاً وطربن كلهن وظهرهن كلهن لي وقلن : كتمتنا نفسك وقد سررتنا ؛ فقلت : أنا الآن أستودعكن الله ؛ فقلن : وما السبب ؟ فأخبرتهن بقصتي مع الرشيد ؛ فضحكن

وقلن : الآن والله طاب حبسك علينا وعلينا إن خرجت أسبوعاً ؛ فقلت: هو والله القتل ؛ قلن : إلى لعنة الله . فأقمت والله عندهن أسبوعاً لا أزول ، فلما كان بعد الأسبوع ودعنني وقلن : إن سلمك الله فأنت بعد ثلاث عندنا ، قلت: نعم؛ فأجلسنني في الزنبيل وسُرِّحتُ ؛ فمضيت لوجهي حتى أتيت دار الرشيد ، وإذا النداء قد أشيع ببغداد في طلبي وأن من أحضرني فقد سوغ ملكي وأقطع مالي ؛ فاستأذنت فتبادر الخدم حتى أدخلوني على الرشيد ؛ فلما رآني شتمني وقال: عليهن فحبسهن في ذلك القصر؛ ثم وجه من غد بخدم فردوهن إلى قصره، ووهب لي مئة ألف درهم، وكانت الهدايا والألطاف تأتيني بعد ذلك منهن»[1].

إنها قصص لا يقبلها العقل مهما اضمحل ذلك العقل ، فهي خيالية محضة ولربما أساء إليها الأصفهاني ، بما أدخله من ألفاظ الفسق ، والخبث ، ثم هل من يصدق أن ابنة وزير المأمون تفعل ذلك على علو وجلال قدر أبيها ، وما هذه المصادفة في جلوسه في الزنبيل ، ثم الأغرب أنهما يخرجان صباحاً من باب القصر؟!! .

ونرى ابن خلدون يرفض مثل هذه الخزعبلات ويقول : « ومن أمثال هذه الحكايات : ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل ، في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران ، وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٥ / ٢٥٦ ٢٥٨ .

الفتل من الحرير، فاعتقده وتناول المعالق ، فاهتزت وذهب به صعداً إلى مجلس شأنه كذا . ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس، وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن ، فحيته ودعته إلى المنادمة ، فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ، ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره ، وقد شغفته حبًّا بعثه على الإصهار إلى أبيها ، وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه ؟ وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ، ومناظرته العلماء وحفظه لحدود الله -تعالى- في صلواته وأحكامه ؟ فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الأعراب؟ وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها ، وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف ؟ وأمثال هذه الحكايات كثيرة ، وفي كتب المؤرخين معروفة ، وإنما يبعث على وضعها الحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة ، وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم ، فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار، وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين ، ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون »[1] .

ويقول الأصفهاني: « أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن المدائني عن جويرية بن أسماء عن عمه قال : حججت ، فإني لفي رفقة قومي إذ نزلنا

---

(١) «المقدمة » ٢٨ ٢٩ .

منزلاً ومعنا امرأة ، فنامت وانتبهت وحية مطويَّة عليها ، قد جمعت رأسها وذنبها بين ثدييها ، فهالنا ذلك وارتحلنا ، فلم تزل منطوية عليها لا تضيرها حتى دخلنا الحرم فانسابت فدخلنا مكة وقضينا نسكنا ، فرآها الغريض ، فقال : أي شقية! ما فعلت حيتك ؟ فقالت : في النار ، قال : ستعلمين من أهل النار ؟ ولم أفهم ما أراد ، وظننت أنه مازحها ... ثم طلب من الغريض الغناء فغناه ورافقه طيلة مدة حجه ثم حان موعد الرحيل ، فيقول : ونهضت فركبت وتخلف الغريض وصاحبه في موضعهما ، وأتيت أصحابي وقد أبطأت ، فرحلنا منصرفين حتى إذا كنا في المكان الذي رأيت فيه الحية منطوية على صدر المرأة ونحن ذاهبون ، رأيت المرأة والحية منطوية عليها ، فلم ألبث أن صفّرت الحية ، فإذا الوادي يسيل علينا حيات فنهشنها حتى بقيت عظاماً . فطال تعجبنا من ذلك ، وأرينا ما لم نر مثله قط . فقلت لجارية كانت معها : ويحك ! أخبرينا عن هذه المرأة ، قالت : نعم أثكلت ثلاث مرات ، كل مرة تلد ولداً : فإذا وضعته سجرت التنور ثم ألقته : فذكرت قول الغريض حين سألها عن الحية ، فقالت : في النار . فقال : ستعلمين من في النار »[1] .

إن نداء الحيات أو وادي الحيات لطالما تتكرر في «ألف ليلة وليلة» كما في قصة السندباد ، وفي قصص أخرى ، منها قصة ملكة الحيات ، ففي « قصة السندباد تروى حكايته مع طير الرخ حينما أنزله في وادي الحيات وكانت تلك الحيات تظهر في الليل ، وتختفي في النهار ؛ خوفاً من طير الرخ أو النسر أن

---

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٢٠ / ٣٨٤ ٣٨٦ .

يختطفها ، يقول : وقد بتُّ في مغارة ، ثم نظرت في داخلها فوجدت حية عظيمة نائمة في صدر المغارة على بيضها ، ويروي حكايته مع التجار وكيف أنهم رموا بخراف عظيمة في ذاك الوادي ؛ ليعلق بها بعض ما موجود فيه من ماس وكيف أنه تخلص من تلك الحيات بأن تعلق بالذبيحة ، ثم نجا من الوادي بتلك الطريقة ومعه ماس كثير ، ثم صار ينظر إلى الوادي وفيه حيات كثيرة »[1] .

ومن التطابق أيضاً: « وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس، وأنها مدينة ، كل بنائها نحاس بصحراء سِجِلْمَاسَة ، ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب ، وأنها مغلقة الأبواب ، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر ، في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص . وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر . ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة ، مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها ، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي، وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد»[2].

وفي كتاب ألف ليلة وليلة « أن الأمير موسى طلب من العسكر أن يدبروا

(١) «ألف ليلة وليلة » ٣ / ٤٨ ، ٥٠ .

(٢) «المقدمة » ابن خلدون ، ٤٧ ، وينظر ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي، ١ / ١٦٩ .

حيلة في دخول مدينة النحاس ، فأشاروا إليه أن يعملوا سلما حتى يصلوا إلى أعلى السور ويتسلطوا على أحد أبوابها من الداخل ، ومكثوا في عمله شهراً كاملاً ، فأقاموا وألصقوه بالسور وطلب الأمير من يصعد على السور ، فقال أحدهم : أنا أصعد ، فلما صعد ، وشخص على المدينة وصفَّق بيديه وصاح بأعلى صوته ، ورمى بنفسه إلى داخل المدينة ، فتمزَّق جسده واندقَّ عظمه ، وانهرس لحمه ، ثم صعد آخرون حتى مات الكثير منهم »[1] .

تطابق المظاهر

أن تتشابه بل تتطابق مظاهر بين كتاب يدعي روايته الحقيقة ، وبين كتاب خيالي يروي الخرافة وما يخالف المنطق ، فذاك أمر يدعو إلى التساؤل عن أسباب ذاك التطابق أو التشابه ، وما هي الدوافع من وراء ذلك ، فمن المظاهر المتطابقة:

١ - **الإغماء** : يحدث غالباً في قصص العشق المصنوعة من قبل الرواة والقصاصين ، من ذلك قصة عمر بن أبي ربيعة وسبيعة ، إذ يقول : «لما كان أوان الحج استأذنت سبيعة أباها في الحج ، فأبى عليها وقال لها : قد حججت حجة الإسلام . قالت له : تلك الحجة هي التي أسهرت ليلي وأطالت نهاري وتوقتني إلى أن أعود وأزور البيت وذلك القبر ، وإن أنت لم تأذن لي مت كمداً وغمًّا ، وذلك أن بقائي إنما كان لحضور الوقت ، فإن يئست فالموت لا شك نازل بي ، فلما رأى ذلك أبوها رق لها وقال : ليس يسعني منعها مع ما أرى بها ، فأذن

---

(١) ينظر «ألف ليلة وليلة» ٣ / ١٨٥ ١٨٩ .

لها . ووافى عمر المدينة ليعرف خبرها ؛ فلما قدمت علم بذلك . وسألها أن تأتي منزل جميلة ، وقد سبق إليه عمر ، فأكرمتها جميلة وسرت بمكانها . فقالت لها سبيعة : جعلني الله فداك ! أقلقني وأسهرني صوتك بشعر عمر فيّ ، فأسمعيني إياه . قالت جميلة : وعزازة لوجهك الجميل ! فغنتها الصوت ، فأغمي عليها ساعة حتى رش على وجهها الماء وثاب إليها عقلها . ثم قالت : أعيدي عليّ ، فأعادت الصوت مراراً في كل مرة يغشى عليها . ثم خرجت إلى مكة وخرج معها . فلما رجعت مرت بالمدينة وعمر معها ، فأتت جميلة فقالت لها : أعيدي علي الصوت ففعلت ؛ وأقامت عليها ثلاثاً تسألها أن تعيد الصوت . فقالت لها جميلة : إني أريد أن أغنيك صوتاً فاسمعيه . قالت : هاتيه يا سيدتي ؛ فغنتها :

أبتِ المليحةُ أن تُوَاصلَني وأظنُّ أني زائرٌ رَمْسِي

لا خيرَ في الدنيا وزِينتِها ما لم تُوَافِقْ نفسُها نفسِي

لا صبرَ لي عنها إذا حسَرتْ كالبدر أو قَرْنٍ من الشمسِ

ورمتْ فؤادَكَ عند نظرتها بمَلاحةِ الإيثار والأُنْسِ

قالت سبيعة : لولا أن الأول شعر عمر لقدمت هذا على كل شيء سمعته . فقال عمر: فإنه والله أحسن من ذلك فأما الشعر فلا . قالت جميلة: صدقت»[1].

وفي ألف ليلة وليلة قصة أبي الحسن والملك إذ يقول : « فأعطاني مالاً كثيراً وقال لي : اذهب إلى الشيخ ليعمل لها قرص تعويذة عوضاً عن هذا القرص . فسافرت إليه فوجدته قد مات ، فرجعت إلى الملك وأخبرته ، فبعثني أنا وعشرة

(١) «الأغاني» ٨ / ٢٣١ .

أشخاص نطوف في البلاد لعلنا نجد لها دواء ، فأوقعني الله به عندك . قال الفتى: ثم بعد ذلك يا أمير المؤمنين أخذ مني قرص التعويذة وانصرف ، فكان ذلك الأمر سبباً للاصفرار الذي في وجهي ، ثم توجهت إلى بغداد ومعي جميع مالي وسكنت في الدار التي كنت فيها ، فلما أصبح الصباح لبست ثيابي وجئت إلى بيت طاهر بن العلاء ، لعلي أرى زوجتي ، فإن حبها لم يزل يتزايد في قلبي ، فلما وصلت إلى داره رأيت الشباك قد انهدم ، فسألت غلاماً وقلت له : ما فعل الله بالشيخ ؟ فقال : يا أخي! إنه قدم عليه في سنة من السنين رجل يقال له أبو الحسن العماني وتزوج بابنته وأقام معها مدة من الزمان، ثم بعد أن ذهب ماله أخرجه الشيخ من عنده مكسور الخاطر، وكانت الصبية تحبه حبًّا شديداً ، فلما فارقها مرضت مرضاً شديداً حتى بلغت الموت، وعرف أبوها بذلك فأرسل خلفه في البلاد وقد ضمن لمن يأتي به مئة ألف دينار ، فلم يره أحد ، ولم يقع له على أثر ، وهي الآن مشرفة على الموت . قلت للفتى: وكيف حال أبيها ؟ فقال الفتى : باع الجواري من عظم ما أصابه . فقلت له: هل أدلك على أبي حسن العماني ؟ فقال : بالله عليك يا أخي أن تدلني عليه . فقلت له: اذهب إلى أبيها وقل له البشارة عندك أبا الحسن العماني واقف على الباب. فذهب الرجل يهرول كأنه بغل انطلق من طاحون ، ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ ، فلما رآني رجع إلى داره وأعطى الرجل مئة ألف دينار ، فأخذها وانصرف وهو يدعو لي ثم أقبل الشيخ وعانقني وبكى وقال : يا سيدي! أين كنت في هذه الغيبة، قد هلكت ابنتي من أجل فراقك ، فادخل معي إلى المنزل . فلما دخلت سجد شكراً لله -تعالى- وقال : الحمد لله الذي جمعنا بك !! ثم دخل إلى ابنته وقال لها : قد

شفاك الله من هذا المرض . فقالت : يا أبت! ما أبرأ من مرضي إلا إذا نظرت إلى وجه أبي الحسن !! فقال : إذا أكلت أكلة ودخلت الحمام جمعت بينكما . فلما سمعت كلامه قالت : أصحيح ما تقول ؟ قال لها : إن الذي قلت لك صحيح . فقالت : والله إن نظرت في وجهه ما احتاج إلى أكل . فقال لغلامه: أحضر سيدك . فلما دخلت يا أمير المؤمنين ونظرت إليَّ وقعت مغشيًّا عليها ، فلما أفاقت أنشدت هذا البيت :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ثم استوت جالسة وقالت : والله يا سيدي ما كنت أظن أني أرى وجهك إلا إن كان مناماً .ثم عانقتني وبكت وقالت : يا أبا الحسن! الآن آكل وأشرب ، فأحضروا الطعام والشراب . ثم صرت عندهم يا أمير المؤمنين مدة من الزمان ، وعادت لما كانت عليه من الجمال ، ثم إن أباها استدعى بالقاضي والشهود وجدد كتابها علي وعمل وليمة وهي زوجتي إلى الآن »[1] .

وتتكرر في مواضع أخرى ، يحدث ابن عائشة فيقول : «لقد حدثني اليوم بعض الأعراب حديثاً يأكل الأحاديث ، فإن شئتم حدثتكم إياه ، قالوا : هات ؛ قلت : حدثني هذا الرجل أنه مر بناحية الربذة فإذا صبيان يتغاطسون في غدير ، وإذا شاب جميل منهوك الجسم عليه أثر العلة ، والنحول في جسمه بَيِّن ، وهو جالس ينظر إليهم ، فسلمت عليه فرد علي السلام وقال : من أين وضح الراكب ؟ قلت : من الحِمى ؛ قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحاً ؛ قال : وأين

---

(١) «ألف ليلة وليلة» ٤ / ٦٠٥ ٦٠٦ .

كان مبيتك ؟ قلت : ببني فلان ؛ فقال : أوه ! وألقى بنفسه على ظهره وتنفس الصعداء تنفساً قلت إنه خرق حجاب قلبه ؛ ثم أنشأ يقول :

سَقَى بلداً أمستْ سُلَيْمَى تحله مِنَ المُزْنِ ما يَرْوى به ويُسيمُ
وإن لم أكن من قاطِنِيه فإنْه يَحُلّ به شخصٌ عليّ كَريمُ
ألا حَبّذا مَنْ لَيْسَ يَعْدِلُ قُرْبَهُ لَدَيَّ وإن شَطَّ المزارُ نَعِيمُ
ومَنْ لامَنِي فيهِ حَمِيمٌ وصاحبٌ فَرُدَّ بغَيظٍ صاحِبٌ وحَمِيمُ

ثم سكن كالمغشي عليه ، فصحت بالصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه ، فأفاق »[1] .

وشبيه به ، ما في «ألف ليلة وليلة» من قصة الخصيب صاحب مصر وفيها :
«قالت شهرزاد: ومما يحكى أيضاً أيها الملك السعيد أن الخصيب صاحب مصر ، كان له ولد لم يوجد أجمل منه ، وكان من خوفه عليه لا يمكنه من الخروج إلا لصلاة الجمعة، فمر وهو خارج من صلاة الجمعة على رجل كبير وعنده كتب كثيرة، فنزل عن فرسه وجلس عنده ، وقلب الكتب وتأملها فرأى فيها صورة امرأة تكاد تنطق لم ير أحسن منها على وجه الأرض ، فسلبت عقله وأدهشت لبه فقال له : يا شيخ! بعني هذه الصورة . فقبّل الأرض بين يديه ثم قال : يا سيدي! بغير ثمن . فدفع له مئة دينار وأخذ الكتاب الذي فيه الصورة ، وصار ينظر إليها ويبكي ليله ونهاره ، وامتنع عن الطعام والشراب والمنام ، وقال في

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٢ / ٢٢٥ .

نفسه : لو سألت الكتبي عن صانع هذه الصورة من هو لربما أخبرني، فإن كانت صاحبتها في الحياة خطبتها من أهلها، وإن كانت صورة مطلقة تركت التولع بها ولا أعذِّبُ نفسي بشيء لا حقيقة لـه . وأدرك شـهرزاد الـصباح فـسكتت عـن الكلام المباح» (١) .

٢- **الموت المفاجئ** : يروي في ذلك الأصفهاني عن الزبير بن البكار يحـدث عبيد الله بن طاهر ، فيقول : « فبينا أنا بأثاية العـرج ، إذا أنـا بجماعـة مجتمعـة ، فأقبلت إليهم وإذا رجل كان يقنص الظباء وقد وقـع ظبـي في حبالتـه فذبحـه، فانتفض في يده فضرب بقرنه صدره فنشب القرن فيه فمات . وأقبلت فتاة كأنهـا المهاة ، فلما رأت زوجها ميتاً شهقت ثم قالت :

يـا حُـسْنُ لـو بَطَـلٌ لكنّـه أجـل   عـلى الأُثايـة مـا أَوْدَى بـه البطـلُ

يـا حُـسن جمَّـع أحـشائي وأَقلقهـا   وذاك يـا حـسن لـولا غـيرُه جَلَـلُ

أضـحتْ فتـاةُ بنـي نَهْـدٍ عَلانِيَـةً   وبعلُهـا بـين أيـدي القـوم محتَمَـلُ

قال : ثم شهقت فماتت . فما رأيت أعجب مـن الثلاثـة : الظبـي مـذبوح ، والرجل جريح ميت ، والفتاة ميتة [حَرَّى] » (٢) .

أما عن «مروج الذهب ومعـادن الجـوهر»، ففيهـا مـا يـشبه تلـك القـصة، فالمسعودي يحدث عن موسى لجعفر الطيار يدعي أبـو البيـضاء وقـد اسـتدعاه

(١) «ألف ليلة وليلة » ٤ / ٦٠٧ .

(٢) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ٩ / ٥٣ ٥٤ .

الخليفة المستعين ليحدثه ، فيقول : «فقلت: يا أمير المؤمنين! إن عُرْوَة بن حزام لما انصرف من عند عفراء بنت عقال توفي وَجْداً بها وصبابة إليها، فمر به رَكْبٌ فعرفوه، فلما انتهوا إلى منزل عفراء صاح صائحٌ منهم:

ألا أيها القصرُ المغفل أهله نَعينا إِلَيْكُمْ عروة بن حزام

ففهمت صوته، وأشرفت عليه، وقالت:

أَلَا أيها الرَّكْب المجدُّونَ وَيْحَكُم بِحَقٍّ نعيتم عروة بن حزام

فأجابها رجل من القوم، فقال:

نعم قد تركناه بأرض بعيدة مقيماً بها في سَبْسَبٍ وأكام

فقالت لهم:

فإن كان حَقًّا مَا تَقُولُونَ فاعْلَمُوا بأن قد نعيتم بَدرَ كل ظلام

فلا لَقِيَ الفتيانُ بَعْدكَ لَذَّةً ولا رجعوا من غيبة بسلام

ولا وضعت أنثى شريفاً كمثله ولا فرحت من بعده بغلام

ولا بلغتم حيث وجهتم له ونغصتم لذات كُلّ طعام

ثم سألتهم: أين دفنوه؟ فأخبروها، فصارت إلى قبره، فلما قاربته قالت: أنزلوني فإني أريد قضاء حاجة، فأنزلوها فانسلتْ إلى قبره فأكَبّتْ عليه، فما راعهم إلا صوتها، فلما سمعوه بادروا إليها، فإذا هي ممتدة على القبر قد خرجت نَفْسُهَا، فدفنوها إلى جانب قبره » [1].

(١) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي، ٤ / ١٧٨ - ١٨٠ .

أما «ألف ليلة وليلة» في قصة العذري إذ دخل على ابن عمه قائلاً « لقد فجعت في ابنة عمي هذه الليلة لأنها قد توجهت إلينا فتعرض لها في طريقها أسد فافترسها ولم يبق منها إلا ما ترى ثم طرح ما كان على يده ، وأخذ كيساً على يده ثم قال لي : لا تبرح إلى أن آتيك إن شاء الله -تعالى- ، ثم سار فغاب عني ساعة، ثم عاد وبيده رأس أسد فطرحه عن يده وجعل يبكي وزاد حزنه عليها وجعل ينشد هذه الأبيات :

ألا يا أيُّها الليث المغرُّ بنفسه   هلكت وقد هيجت لي بعدها حزنا

وصيرتني فرداً وقد كنت آلفها   وصيرت بطن الأرض لها رهنا

أقول لدهرٍ ساءني يفارقها   معاذ إليها أن تريني لها خدعا

ثم قال : يا ابن العم! سألتك بالله وبحق القرابة والرحم التي بيني وبينك أن تحفظ وصيتي ، فتراني الساعة ميتاً بين يديك ، فإذا كان ذلك فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من عظام ابنة عمي في هذا الثوب وادفنّا جميعاً في قبر واحد ... ثم بكى بكاءً شديداً ، ثم دخل الخباء وغاب عني ساعة وخرج وصار يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة ففارق الدنيا ... ثم كفنتهما جميعاً ودفنتهما في قبر واحد»[1].

٣- **السقوط بسبب السكر** : دعا هشام بن عبد الملك حماد الراوية ، فدخل عليه بعد سفر يقول « وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما ، فسأله عن حاله وعن بيت خطر بباله لم يعرف قائله وهو :

---

(١) «ألف ليلة وليلة » ٣/ ٢٤١ .

فدعَوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءت قَيْــنةٌ في يميــنها إبــريقُ

قلت : هذا يقوله عدي بن زيد في قصيدة له ؛ قال :فأنشدنيها، فأنشدته :

بكَــر العــاذلون في وَضَــح الــصبح يقولــون لي ألاَ تــستفيق

ويلومــون فيــك يــا ابنــةَ عبـد الله والقلــب عنــدكم مَوْهــوق

لست أدري إذ أكثروا العذلَ عنـدي أعــدوٌّ يلــومني أو صــديق

زانهــا حــسنُها وفَــرْع عَمِــيم وأثيــثٌ صَــلْتُ الجبـين أنيــق

وثنايــا مُفلّجــات عــذاب لا قــصارٌ تُــرى ولا هُــنّ رُوق

فــدعَوْا بالــصَّبُوح يومــاً فجــاءت قيْنــةٌ في يمينهــا إبريــق

قدّمْتــه عــلى عُقــار كعــين الــديــك صــفًّى سُـلافَها الـرَّاووق

مُــرّة قبـل مزجهـا فـإذا مـا مُزجـت لــذّ طعمهــا مــن يــذوق

وطفَــت فوقهــا فقــاقيعُ كالــدرّ صــغار يُثيرهــا التَّــصْفيق

ثــم كــان المِــزاج مــاء ســماء غــير مــا آحــن ولا مَطْــروق

قال : فطرب ، ثم قال : أحسنت والله يا حماد يا جارية اسقيه فسقتني شربة ذهبت بثلث عقلي . وقال : أعد ، فأعدت ، فاستخفه الطرب حتى نزل عن فرشه ، ثم قال للجارية الأخرى : اسقيه ، فسقتني شربة ذهبت بثلث عقلي . فقلت : إن سقتني الثالثة افتضحت ، فقال : سل حوائجك ، فقلت : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم؛ قلت : إحدى الجاريتين ؛ فقال لي : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما ، ثم قال للأولى : اسقيه ، فسقتني شربة سقطت معها ، فلم أعقل حتى

أصحبت فإذا بالجاريتين عند رأسي ، وإذا عدة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة، فقال لي أحدهم: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : خذ هذه فانتفع بها ، فأخذتها والجاريتين وانصرفت » (١) .

وفي ليلة (٣٦ و ٣٧) من ليالي «ألف ليلة وليلة»، من حديث الخمر والجواري، من قصة الجارية أنيس الجليس ، ونور الدين مع الشيخ إبراهيم ، وفيها قال الشيخ إبراهيم : « ما لي أقعد بعيداً عنهما كيف أقعد عندهما وأي وقت اجتمع في قصرنا مثل هذين الاثنين اللذين كأنهما قمران . ثم إن الشيخ إبراهيم تقدم وقعد في طرف الإيوان فقال له علي نور الدين : يا سيدي! بحياتك أن تتقدم عندنا . فتقدم الشيخ إبراهيم عندهما فملأ نور الدين قدحاً ونظر إلى الشيخ إبراهيم وقال له : اشرب حتى تعرف لذة طعمه فقال الشيخ : أعوذ بالله إن لي ثلاث عشرة سنة ما فعلت شيئاً من ذلك . فتغافل عنه نور الدين وشرب القدح ورمى نفسه على الأرض وأظهر أنه غلب عليه السكر فعند ذلك نظرت إليه أنيس الجليس وقالت له : يا شيخ إبراهيم! انظر هذا كيف عمل معي قال لها: يا سيدتي! ماله قالت : دائماً يعمل معي ساعة هكذا فيشرب ساعة وينام ، وأبقى أنا وحدي فلا أجد لي نديماً ينادمني على قدحي فإذا شربت فمن يعاطيني وإذا غنيت فمن يسمعني . فقال لها الشيخ إبراهيم وقد مالت نفسه إليها من كلامها: لا ينبغي من نديم أن يكون هكذا . ثم أن الجارية ملأت قدحاً ونظرت إلى الشيخ إبراهيم وقالت : بحياتي أن تأخذه وتشربه ولا ترده فاقبله واجبر

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني، ٦ / ٨٥ ٨٧ .

خاطري . فمد الشيخ إبراهيم يده وأخذ القدح وشربه وملأت له ثانياً ومدت إليه يدها به . فقالت له : والله لا بد من .. فأخذ القدح وشربه ثم أعطته الثالث فأخذه وأراد أن يشربه وإذا بنور الدين همّ قاعداً وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

« قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد أن علي نور الدين همّ قاعداً وقال: يا شيخ إبراهيم! أي شيء هذا ما حلفت عليك من ساعة فأبيت وقلت أن لي ثلاثة عشر عاماً ما فعلته . فقال الشيخ إبراهيم : وقد استحى مالي ذنب فإنما هي شددت عليّ ، فضحك نور الدين وقعدوا للمنادمة فالتفتت الجارية وقالت لسيدها سرًّا : يا سيدي! اشرب ولا تحلف على الشيخ إبراهيم حتى أفرجك عليه فجعلت الجارية تملأ وتسقي سيدها وسيدها يملأ ويسقيها ولم يزالا كذلك مرة بعد مرة فنظر لهما الشيخ إبراهيم وقال لهما : أي شيء هذا وما هذه المنادمة ألا تسقياني وقد صرت نديمكما ؟ فضحكا من كلامه ثم شربا وسقياه وما زالوا في المنادمة إلى ثلث الليل فعند ذلك قالت الجارية : يا شيخ إبراهيم! عن إذنك هل أقوم وأوقد شمعة من هذا الشموع المصفوف ؟ فقال لها: قومي ولا توقدي إلا شمعة واحدة فنهضت على قدميها وابتدأت من أول الشمع ، إلى أن أوقدت ثمانين شمعة ثم قعدت وبعد ذلك قال نور الدين : قم وأوقد قنديلاً واحداً ولا تتنافل أنت الآخر . فقام وابتدأ من أولها إلى أن أوقد ثمانين قنديلاً فعند ذلك رقص المكان . فقال لهما الشيخ إبراهيم وقد غلب عليه السكر : أنتما أشجع مني ثم نهض على قدميه وفتح الشبابيك جميعاً وجلس

معهما يتنادمون ويتناشدون الأشعار وابتهج بهم المكان»[1] .

٤ – **مدح البرامكة** : ومن التشابه بين «ألف ليلة وليلة» وما هو موجود في «الأغاني» و«مروج الذهب» من مشاهد ، هو مدح البرامكة وإظهارهم بمظهر الكرم ، وصعوبة استغناء العامة عنهم ، من ذلك قصة إبراهيم الموصلي مع البرامكة وكيف وهبوا له أموال الضيعة واحداً تلو الآخر ، حتى بخل بهذه الأموال ، فاشتروها له ، فيقول : «يا مخارق! إذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، وإذا خنكرت فخنكر لمثل هؤلاء ، هذه ست مئة ألف وضيعة بمئة ألف وستون ألف درهم لك ، حصَّلنا ذلك اجمع وأنا جالس في مجلسي لم أبرح منه ، فمتى يدرك مثل هؤلاء »[2] .

وفي الليلة (٣٣٨) من ألف ليلة وليلة منها قصة يحيى بن خالد البرمكي مع الرجل الفقير « يحكى أن يحيى بن خالد البرامكي خرج من دار الخلافة متوجهاً إلى داره ، فرأى على باب الدار رجلاً ، فلما قرب منه نهض الرجل قائماً وسلم عليه ، وقال له : يا يحيى! أنا محتاج إلى ما في يدك ، وقد جعلت الله وسيلتي إليك، فأمر يحيى أن يفرد له موضع في داره ، وأمر خازن داره أن يحمل إليه في كل يوم ألف درهم ، وأن يكون طعامه من خاص طعامه فاستمر الرجل على ذلك الحال شهراً كاملاً وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عنه .

قالت شهرزاد : بلغني أيها الملك السعيد أن الرجل استمر على هذا الحال

---

(١) «ألف ليلة وليلة » ١ / ١٥٤ ١٥٥ .

(٢) ينظر «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ٥ / ١٩٣ ١٩٩ ، ومثلها ٥ / ٣٢٠ ٣٢٢.

شهراً كاملاً ، فلما انقضى الشهر كان قد وصل إليه ثلاثون ألف درهم ، فخاف الرجل أن يأخذ منه يحيى الدراهم لكثرتها ، فانصرف خفية ، فأخبروا يحيى بذلك فقال : والله لو أقام عندي عمره وطول دهره لما منعته صلتي ، ولا قطعت عنه إكرام ضيافتي ، وفضائل البرامكة لا تحصى ، ومناقبهم لا تستقصى ، وخصوصاً يحيى بن خالد ، فإنه جم المفاخر ، كما قال فيه الشاعر [1] :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد .. ليحيى بن خالد
فقلت : شراء ؟ قال : حاشا وإنما توارثني من والد بعد والد

٥- **التطير** : إن الإسلام نهى عن التطير قال الرسول ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ، والشؤم في ثلاث في المرأة ، والدار ، والدابة**»[2] .

أما أن يجعل الخليفة حياته رهن إشارات ، وإيحاءات ، أو حركة حيوان ، فهذا مما يخالف الشرع ، يذكر المسعودي في خبر وفاة المأمون ، أنه عاد من إحدى غزواته «المعروفة بالقشيرة على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب، فأقام هنالك حتى ترجع رُسُله من الحصون، فوقف على العين ومنبع الماء، فأعجبه بَرْدُ مائِها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة، فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر، وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق

---

(١) «ألف ليلة وليلة» ٢ / ٦٢٩ ـ ٦٣٠ .

(٢) رواه البخاري «صحيح البخاري» كتاب الطب ، باب الطيرة ، ١٠٦٩ ، رقم الحديث (٥٧٥٣) .

الشجر، وجلس تحت الكنيسة التي قد عقدت لـه والمـاء تحتـه، وطـرح في المـاء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء، ولم يقدر أحد يدخل يده في الماء من شدة بَرْده، فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة، فجعل لمن يخرجها سَبْقاً، فبحر بعـض الفراشـين فأخـذها وصـعد، فلـما صارت على حرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضـطربت وأفلتـت من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجرفنضح من الماء على صدر المأمون ونحـره وتَرْقُوتِهِ فبلّتْ ثوبه، ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المـأمون في منديل تضطرب، فقال المأمون: تُقْلَى الساعة، ثم أخذته رعدة من ساعته، فلم يقدر يتحرك من مكانه، فغطى بـاللحف والـدواويج، وهـو يرتعـد كالـسعفة، ويصيح: البرد البرد، ثم حول إلى المضرب ودثر وأوقدت النـيرانُ حولـه، وهـو يصيح: البرد البرد، ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلـم يقـدر عـلى الـذوق منها، وشَغَله ما هو فيه عن تناول شيء منها، ولَمَّا اشتد به الأمـر سـأل المعتـصم بختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت، وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره؟ وهل يمكن بـرؤه وشـفاؤه؟ فتقـدم ابـن ماسويه، فأخذ إحدى يديه وبختيشوع الأخرى، وأخذا المجسة من كلتـا يديـه، فوجدا نبضة خارجاً عن الاعتدال، مُنْذِراً بالفناء والانحلال، والتصقت أيديهما ببشرته لِعَرَقٍ كان يظهـر منـه مـن سـائر جـسمه، كالزيـت، أو كلعـاب بعـض الأفاعي، فأخبر المعتصم بذلك، فسألهما عن ذلك، فأنكرا معرفته، وأنهما لم يجـدا في شيء من الكتب، وأنه دال على انحلال الجسد، وأفـاق المـأمون مـن غَـشْيته، وفتح عينيه من رَقْدته، فأمر بإحضار أناس من الروم، فسألهم عن اسم الموضـع

والعين، فأحضر له عدة من الأسارى والأدلة، وقيل لهم: فسروا هذا الاسم القشيرة، فقيل له: تفسيره مُدّ رجليك، فلما سمعها اضطرب من هذا الفال وتَطَيَّرَ به، وقال: سَلُوهم ما اسم الموضع بالعربية، فقالوا: الرقة، وكان فيما عمل من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقّة[1]، وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فرقاً من الموت، فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وُعِدَ فيه فيما تقدَّم من مولده، وأن فيه وفاته »[2] .

ويروي الأصفهاني ، فيقول : بعد أن هرب الكميت من السجن ، وهو متخفٍّ أنه : «سقط غراب على الحائط فنعب . فقال الكميت لأبي وضاح : إني لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط . فقال : سبحان الله ! هذا ما لا يكون إن شاء الله . فقال له : لا بد من أن تحولني . فخرج به إلى بني علقمة وكانوا يتشيعون فأقام فيهم ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب »[3] .

ويقول نقلاً عن شيبة بن هشام : «كان عبد الله بن العباس يوماً جالساً ينتظر هذه النصرانية التي كان يهواها ، وقد وعدته بالزيارة فهو جالس ينتظرها

---

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده ، وأصلها كل أرض إلى جانب واد ينبسط عليها الماء . وقال الأصمعي : الرقاق الأرض اللينة من غير رمل ، والرقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، معدودة في بلاد الجزيرة ، فتحت (١٧هـ) على يد سعد ابن أبي وقاص ، ينظر ، معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ٣ / ٥٨.

(٢) «مروج الذهب ومعادن الجوهر » المسعودي ، ٤ / ٥١ ٥٢ .

(٣) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ، ١٧ / ٨ .

ويتفقدها إذ سقط غراب على برّادة داره فنعب مرة واحدة ثم طار ، فتطير عبد الله من ذلك ولم يزل ينتظرها يومه فلم يرها ، فأرسل رسوله عشاء يسأل عنها ، فعرف أنها قد انحدرت مع أبيها إلى بغداد ، فتنغص عليه يومه ، وتفرق من كان عنده ، ومكث مدة لا يعرف لها خبراً . فبينا هو جالس ذات يوم مع أصحابه ، إذ سقط هدهد على برادته ، فصاح ثلاثة أصوات وطار ، فقال عبد الله بن العباس : وأي شيء أبقى الغراب للهدهد ؟ علينا وهل ترك لنا أحداً يؤذينا بفراقه ؟ وتطير من ذلك ، فما فرغ من كلامه حتى دخل رسولها يعلمه أنها قد قدمت منذ ثلاثة أيام ، وأنها قد جاءته زائرة على إثر رسُولِها ، فقال في ذلك من وقته[1]:

سقاكَ اللهُ يا هُدهدُ ... وَسميّا من القَطْرِ
كما بَشَّرتَ بالوَصْلِ ... وما أنْذَرْت بالهَجْرِ
فكم ذا لكَ من بُشْرَى ... أَتَتني منك في سِتْرِ
كما جاءت سُليمانَ ... فأوفت منه بالنّذْرِ
ولا زال غُرابُ البيْن ... في قُفاعَةِ الأسْرِ
كما صَرّح بالبَيْنِ ... وما كُنتُ به أَدْرِي

أما في «ألف ليلة وليلة» من قصة الجواري المختلفة الألوان ، ففيها قالت

---

(١) المصدر نفسه ١٩ / ٢٥١ ٢٥٢ ، وينظر ، ٢ / ٢٦٨ و ٩ / ٢١٦ ، وفيها أخبار التطير أيضا .

البيضاء : « وسوف أبتدئ بذمك يا سوداء ، يا لون المداد وهباب الحداد ، ووجه الغراب ، المفرِّق للأحباب »[١] ، ثم حديث الصفراء وفيه تقول للسمراء : «وسوف أبتدئ بذمك يا سمراء اللون ، فإنك في لون الجاموس تشمئز عند رؤيتك النفوس ، إن كان لونك في شيء فهو مذموم »[٢] .

٦- **مظاهر البذخ والترف** : إن أبرز ما توافق بين «الأغاني» و«مروج الذهب» من جهة ، وبين «ألف ليلة وليلة»، هو مظاهر البذخ والترف ؛ التي رسم بها الخلفاء والوزراء وقادة الدولة والأغنياء ، وهي مظاهر لا شك في أنها غريبة عن واقعنا العربي والإسلامي ، فمن المعروف أن الإسلام نهى عن الكثير من مظاهر الترف فنهى عن لبس الحرير ، والذهب ، والأكل في صحاف الذهب والفضة ، وأن يجر المسلم ذيل ثوبه في الأرض ، ولبس القلائد والحلي للرجال ، فالإسلام دين ينمي علاقة الإنسان بربه من خلال السمو بروحه ، ومظاهر البذخ والترف هي مما يحجز الإنسان عن ربه .

فمن مظاهر البذخ المبثوثة في «ألف ليلة وليلة»، قصة التاجر ونزهة الزمان والقصة تذكر أنه « لما استيقظ من نومه أيقظ نزهة الزمان وأحضر لها قميصاً رفيعاً وكوفية بألف دينار وبدلة تركية مزركشة بالذهب وخفًّا مزركشاً بالذهب الأحمر مرصعاً بالدر والجواهر وجعل في أذنيها حلقاً من اللؤلؤ بألف دينار ووضع في رقبتها طوقاً من الذهب وقلادة من العنبر تضرب تحت نهديها وفوق

(١) «ألف ليلة وليلة » ٢ / ٥٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٨٩ .

سرتها تلك القلادة فيها عشر أكر وتسعة أهلة كل هلال في وسطه فص من الياقوت وكل أكرة فيها فص البلخش وثمن تلك القلادة ثلاثة آلاف دينار فصارت الكسوة التي كساها بها بجملة بليغة من المال ثم أمر التاجر أن تتزين بأحسن الزينة ومشت ومشى التاجر قدامها فلما عاينها الناس بهتوا في حسنها وقالوا : تبارك الله أحسن الخالقين هنيئاً لمن كانت هذه عنده . وما زال التاجر يمشي وهي تمشي خلفه حتى دخل على الملك شركان فلما دخل على الملك قبل الأرض بين يديه وقال : أيها الملك السعيد! أتيت لك بهدية غريبة الأوصاف عديمة النظير في هذا الزمان قد جمعت بين الحسن والإحسان »[1] .

وفي قصة الحمال والبنات ، أن إحدى البنات قالت للحمال : « احمل القفص واتبعني فحمل القفص وتبعها به إلى أن أتت داراً مليحة ، وقدامها رحبة فسيحة ، وهي عالية البنيان مشيدة الأركان ، بابها بغلقتين من الأبنوس مصفَّح بصفائح الذهب الأحمر ، فوقفت الصبية على الباب ، ودقت دقًّا لطيفاً وإذا بالباب انفتح بمصراعيه فنظر الحمال على من فتح الباب ، فوجدها صبية رشيقة القد ... ذات حسن وجمال ، وقد واعتدال ، وجبين كغرة الهلال وعيون كعيون الغزلان وحواجب كهلال رمضان ، وخدود مثل شقائق النعمان ، وفم كخاتم سليمان ... فلما نظر الحمال إليها سلب عقله ، وكاد القفص أن يقع من فوق رأسه »[2] .

وينقل الأصفهاني فيقول « لما استخلف الوليد بن يزيد دخل عليه عطرد

---

(١) «ألف ليلة وليلة» ١ / ٢١٥ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٣٤ .

المغني ، فوجده وهو جالس في قصره على شفير بركة مرصَّصَة مملوءة خمراً ، يدور الرجل فيها سباحة ، فغنَّاه فلما أنهى غناءه شقَّ حلَّة وشي فجعلها نصفين ، وهكذا يوماً بعد يوم حتى جلس خلف الستور وهدده أن يبوح بكلمة » [1] .

٧- **البناء الدرامي** : نلحظ التشابه الدقيق في البناء الدرامي بين «ألف ليلة وليلة» وكتاب «الأغاني» مثلاً ، إذ أن البناء الدرامي الذي يعتمد المبالغات الواضحة والمظاهر الخارجة عن الواقع ، ومظاهر الأبهة الكثيرة ، الأعداد والأحجام والمبالغ التي تكاد تطفح على المتلقي لكثرتها ، والإيغال في المبالغة فيها ؛ من ذلك ما يرويه الأصفهاني عن أحمد بن المزربان يحدثه بعض كتاب السلطان : «أن الرشيد هبّ ليلة من نومه ، فدعا بحمار كان يركبه في القصر أسود قريب من الأرض فركبه ، وخرج في دراعة وشي متلثماً بعمامة وشي ملتحفاً بإزار وشي ، بين يديه أربع مئة خادم أبيض سوى الفراشين ، وكان مسرور الفرغاني جريئاً عليه لمكانه عنده ، فلما خرج من باب القصر قال : أين يريد أمير المؤمنين في هذه الساعة ؟ قال : أردت منزل الموصلي . قال مسرور : فمضى ونحن معه وبين يديه حتى انتهى إلى منزل إبراهيم ؛ فخرج فتلقاه وقبل حافر حماره وقال له : يا أمير المؤمنين! أفي مثل هذه الساعة تظهر ! قال : نعم ، شوق طرق لك بي ؛ ثم نزل فجلس في طرف الإيوان وأجلس إبراهيم ؛ فقال له إبراهيم : يا سيدي! أتنشط لشيء تأكله ؟ فقال : نعم ، خاميز ظبي ، فأتي به كأنما كان معدًّا له ، فأصاب منه شيئاً يسيراً ، ثم دعا بشراب حمل معه ؛ فقال الموصلي:

---

(١) ينظر «الأغاني» ٣/ ٣٠٥-٣٠٦ .

يا سيدي! أؤغنيك أم تغنيك إماؤك ؟ فقال : بل الجواري ؛ فخرج جواري إبراهيم فأخذن صدر الإيوان وجانبيه ؛ فقال : أيضربن كلهن أم واحدة ؟ فقال: بل تضرب اثنتان اثنتان وتغني واحدة فواحدة ، ففعلن ذلك حتى مر صدر الإيوان وأحد جانبيه والرشيد يسمع ولا ينشط لشيء من غنائهن ، إلى أن غنت صبية من حاشيته :

يا مُورِيَ الزَّند قد أعيتْ قوادحُه اقْبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمقباسِ
ما أقبحَ الناسَ في عيني وأسمجَهم إذا نظرتُ فلم أُبصرك في الناسِ

قال : فطرب لغنائها واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالاً ، ثم سأل الجارية عن صانعه فأمسكت ، فاستدناها فتقاعست ، فأمر بها فأقيمت حتى وقفت بين يديه، فأخبرته بشيء أسرته إليه ؛ فدعا بحماره فركبه وانصرف ، ثم التفت إلى إبراهيم فقال: ما ضرك ألا تكون خليفة ! فكادت نفسه تخرج ، حتى دعا به وأدناه بعد ذلك. قال : وكان الذي خبرته به أن الصنعة في الصوت لأخته علية بنت المهدي ، وكانت الجارية لها وجهت بها إلى إبراهيم يطارحها ، فغار الرشيد »[1] .

هذا البناء يشبه بناءً دراميًّا غريباً ، موجود في «ألف ليلة وليلة» من ذلك قصة « الشيخ إبراهيم مع علي نور الدين والجارية ، وكيف أنه شرب الخمر حتى سكر ، ثم إنه أمر علي نور الدين بإيقاد قناديل منزل الخليفة هارون الرشيد

(١) «الأغاني » أبو الفرج الأصفهاني ،٧/ ٢١٣

المهجور إلا في مناسبات مهمة ، ثم قام الشيخ إبراهيم بفتح شبابيك القصر جميعها ، فقدر الله السميع العليم الذي جعل لكل شيء سبباً ، أن الخليفة كان في تلك الساعة جالساً في الشبابيك المطلة على ناحية دجلة في ضوء القمر ، فنظر إلى تلك الجهة فرأى ضوء القناديل والشموع في البحر ساطعاً ، فلاحت من الخليفة التفاتة إلى القصر الذي في البستان فرآه يلهج من تلك الشموع والقناديل فقال: عليّ بجعفر البرمكي !!! فما كان إلا لحظة وقد حضر جعفر بين يدي أمير المؤمنين فقال له : يا كلب الوزراء! أتخدمني ولم تعلمني بما يحصل في مدينة بغداد؟ فقال له جعفر : وما سبب هذا الكلام ؟ فقال هارون الرشيد : لولا أن مدينة بغداد أخذت مني ما كان قصر الفرجة مبتهجاً بضوء القناديل والشموع ولما تفتح شبابيكه ، ويلك من الذي يكون له قدرة على هذه الفعال إلا إذا كانت الخلافة أخذت مني .. ؟ فقال جعفر وقد ارتعدت فرائصه؟ ومن أخبرك بأن قصر الفرجة أوقدت فيه القناديل والشموع وفتحت شبابيكه؟ فقال له : تقدم عندي وانظر فتقدم جعفر عند الخليفة ونظر ناحية البستان فوجد القصر كأنه شعلة نار ، ونوره غلب على نور القمر ، فأراد جعفر أن يعتذر عن الشيخ إبراهيم الخولي ربما هذا الأمر بأذنه لما رأى فيه من المصلحة فقال : يا أمير المؤمنين! كان الشيخ إبراهيم في الجمعة التي مضت قال لي : يا سيدي جعفر! إني أريد أن أفرح أولادي في حياتك وحياة أمير المؤمنين ، فقلت له : وما مرادك بهذا الكلام ؟ فقال لي : أن آخذ لي إذن من الخليفة بأن أطاهر أولادي في القصر ، فقلت له : افعل ما شئت من فرح أولادك وإن شاء الله أجتمع بالخليفة وأعلمه

بذلك . فراح من عندي على هذا ونسيت أن أعلمك ..! فقال : يا جعفر! كان لك عندي ذنب واحد فصار لك عندي ذنبان ، لأنك أخطأت من وجهين ، الوجه الأول أنك ما أعلمتني بذلك والثاني أنك بلغت الشيخ إبراهيم مقصوده فإنه ما جاء إليك وقال لك هذا الكلام إلا تعريضاً بطلب شيء من المال يستعين به على مقصوده فلم تعطه شيئاً ولم تعلمني حتى أعطيه . فقال جعفر : يا أمير المؤمنين! نسيت . فقال الخليفة: وحق آبائي وأجدادي ما أنام بقية ليلتي إلا عنده فإنه رجل صالح يتردد على المشايخ ويحتفل بالفقراء ويواسي المساكين وأظن أن الجميع عنده في هذه الليلة فلا بد من الذهاب إليه لعل واحداً منهم يدعو لنا دعوة يحمل لنا بها خير الدنيا والآخرة وربما يحصل له نفع في هذا الأمر بحضوري ويفرح بذلك هو وأحبابه فقال جعفر : لا بد من الرواح عنده فسكت جعفر وتحير في نفسه وصار لا يدري فنهض الخليفة على قدميه وقام جعفر بين يديه ومعهما مسرور الخادم ومشى الثلاثة متنكرين ونزلوا من القصر وجعلوا يشقون في الأزقة وهم في زي التجار إلى أن وصلوا إلى البستان المذكور فتقدم الخليفة فرأى البستان مفتوحاً فتعجب وقال : انظر الشيخ إبراهيم كيف ترك الباب مفتوحاً إلى هذا الوقت وما هي عادته ثم أنهم دخلوا إلى أن انتهوا إلى آخر البستان ووقفوا تحت القصر . فقال الخليفة : يا جعفر! أريد أن أتسلل عليهم قبل أن أطلع عندهم حتى أنظر ما عليه المشايخ من النغمات وواردات الكرامات فإن لهم شؤوناً في الخلوات والجلوات لأننا الآن لم نسمع لهم صوتاً ولم نر لهم أثراً ثم إن الخليفة نظر فرأى شجرة جوز عالية فقال : يا جعفر أريد أن

أطلع على هذه الشجرة فإن فروعها قريبة من الشبابيك وأنظر إليهم . ثم إن الخليفة طلع فوق الشجرة ولم يزل يتعلق من فرع إلى فرع حتى وصل إلى الفرع الذي يقابل الشباك وقعد فوقه ونظر من شباك القصر فرأى صبية وصبياً كأنهما قمران سبحان من خلقهما ورأى الشيخ إبراهيم قاعداً وفي يده قدح وهو يقول : يا سيدة الملاح الشرب بلا طرب غير فلاح ألم تسمعي قول الشاعر :

أدرها بالكبير وبالصغير وخذها من يد القمر المنير

ولا تشرب بلا طرب فإني رأيت الخيل تشرب بالصفير

فلما عاين الخليفة من الشيخ إبراهيم هذا الفعال قام عرق الغضب بين عينيه ونزل وقال : يا جعفر! أنا ما رأيت شيئاً من كرامات الصالحين مثل ما رأيت هذه الليلة فاطلع أنت الآخر على هذه الشجرة وانظر لئلّا تفوتك بركات الصالحين! فلما سمع جعفر كلام أمير المؤمنين صار متحيراً في أمره وصعد إلى أعلى الشجرة وإذا به نظر فرأى علي نور الدين والشيخ إبراهيم والجارية وكان الشيخ إبراهيم في يده القدح . فلما عاين جعفر تلك الحالة أيقن بالهلاك ثم نزل فوقف بين يدي أمير المؤمنين فقال الخليفة : يا جعفر! الحمد لله الذي جعلنا من المتبعين لظاهر الشريعة المطهرة وكفانا شر تلبيات الطريقة المزورة فلم يقدر جعفر أن يتكلم من شدة الخجل ثم نظر الخليفة إلى جعفر وقال : يا هل ترى من أوصل هؤلاء إلى هذا المكان ومن أدخلهم قصري ، ولكن مثل هذا الصبي وهذه الصبية ما رأت عيني جمالاً وحسناً وقدًّا واعتدالاً مثلهما . فقال جعفر وقد استرجى رضا الخليفة : صدقت يا أمير المؤمنين فقال : يا جعفر! اطلع بنا على

هذا الفرع الذي هو مقابلهم لنتفرج عليهم . فطلع الاثنان على الشجرة ونظرا إليهم فسمع الشيخ إبراهيم يقول : يا سيدتي! قد تركت الوقار بشرب العقار ولا يلذ ذلك إلا بنغمات الأوتار . فقالت له أنيس الجليس : يا شيخ إبراهيم! والله لو كان عندنا شيء من آلات الطرب لكان سرورنا كاملاً . فلما سمع الشيخ إبراهيم كلام الجارية نهض قائماً على قدميه . فقال الخليفة لجعفر : يا ترى ماذا يريد أن يعمل ؟ فقال جعفر : لا أدري . فغاب الشيخ إبراهيم وعاد ومعه عوداً فتأمله الخليفة فإذا هو عود إسحاق النديم فقال الخليفة : والله إن غنت الجارية ولم تحسن غنائها صلبتكم كلكم وإن غنت وأحسنت الغناء فإني أعفو عنهم وأصلبك أنت . فقال جعفر : اللهم اجعلها لا تحسن الغناء . فقال الخليفة : لأي شيء ؟ فقال : لأجل أن تصلبنا كلنا فيؤنس بعضنا بعضاً فضحك الخليفة وإذا بالجارية أخذت العود وأصلحت أوتاره وضربت ضرباً يذيب الحديد ويفطن البليد وجعلت تنشد هذه الأبيات :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونـاب عن طيب دنيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

ما الخوف أن تقتلونا في منازلكم وإنما خوفنا أن تأثموا فينا

فقال الخليفة : والله يا جعفر عمري ما سمعت صوتاً مطرباً مثل هذا فقال جعفر : لعل الخليفة ذهب ما عنده من الغيظ ثم نزل من الشجرة هو وجعفر ثم التفت إلى جعفر وقال : أريد أن أطلع وأجلس عندهم وأسمع الصبية تغني قدامي . فقال : يا أمير المؤمنين! إذا طلعت عليهم ربما تكدروا وأما الشيخ

إبراهيم فإنه يموت من الخوف »[(١)].

مظاهر غريبة تتوافق مع ما أوردناه من خروج الخليفة من قصره في قصة الحمار القريب بأربع مئة خادم سوى الفراشين وهو ذاهب لسماع غناء ؟!! .

« ومن ذلك قصة العجوز التي توسطت بين الأميرة دينا ، وتاج الملوك وبينما تاج الملوك جالس وإذا هو بامرأة عجوز وخلفها جاريتان وما زالت ماشية حتى دخلت على تاج الملوك ، فرأت قدَّه واعتداله وحسنه وجماله ، ثم إن العجوز قالت : ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم ، ثم سألته عن قماش يصلح لبنات الملوك ، وبعد أن استبان ؛ وجدها تطلب قماشاً للست دينا بنت الملك شهرمان ، التي سافر الآفاق بحثاً عنها ، ثم أرسل معها قماشاً ولم يفاصلها في المبلغ ، ثم إن العجوز لم تزل ماشية حتى دخلت على الست دنيا ، وقالت لها : يا سيدتي! جئت لك بقماش مليح ما رأيت في مدينتنا أحسن منه ، وبائعاً أحسن منه ، اسمه تاج الملوك ، وكأن رضواناً فتح أبواب الجنان بها فخرج منها شاب هو الذي يبيع القماش فأنه أتى مدينتك بأقمشة مثمنة لأجل الفرجة وهو فتنة لمن يراه ، فضحكت الست دنيا من كلام العجوز ، وقالت : أخزاك الله يا عجوز النحس إنك خرفت وما بقي لك عقل ، ثم قالت لها : اذهبي واسألي صاحب القماش إن كان له حاجة فنقضيها . فذهبت العجوز إليه وبعد أن استراحت أخبرته ففرح وكتب لها كتاباً ، فنقلته إلى الست دنيا فلما قرأت الست دنيا

---

(١) ينظر «ألف ليلة وليلة» ١ / ١٥٤ ١٥٨ .

الكتاب غضبت وقالت : ويلك ما فيه . إلا إنه يريد أن يخطبني وهذا كله منك وإلا فمن هذا الشيطان كان يعرفني ، فقالت لها العجوز : يا سيدتي! أنت قاعدة في قصرك العالي وما يصل إليك أحد ولا الطير الطائر ، سلامتك وسلامة شبابك من اللوم والعقاب ، وما زالت الرسائل والأشعار بينهما »[1] .

ملامح هذه القصة تشابه بل ربما تطابق رواية مصنوعة يدخل فيها فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، يقول الأصفهاني : «أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال: حدثني أبو علي الأسدي وهو بشر بن موسى بن صالح قال : حدثني أبي موسى بن صالح عن أبي بكر القرشي قال : كان عمر بن أبي ربيعة جالسا بمنى في فناء مضربه وغلمانه حوله ، إذ أقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة، فسلمت ، فرد عليها عمر السلام ، فقالت له : أنت عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له : حياك الله وقربك ! هل لك في محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأتمهم خلقاً ، وأكملهم أدباً ، وأشرفهم حسباً ؟ قال : ما أحب إلى ذلك! قالت : على شرط . قال : قولي . قالت : تمكنني من عينيك حتى أشدهما وأقودك ، حتى إذا توسطت الموضع الذي أريد حللت الشد ، ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهي بك إلى مضربك . قال : شأنك ، ففعلت ذلك به . قال عمر : فلما انتهت بي إلى المضرب الذي أرادت كشفت عن وجهي، فإذا أنا بامرأة على كرسي لم أر مثلها قط جمالاً وكمالاً ، فسلمت وجلست . فقالت : أأنت عمر بن أبي ربيعة؟ قلت : أنا عمر . قالت : أنت الفاضح

(١) ينظر «ألف ليلة وليلة» ١ / ٣١٨٣٠٢ .

للحرائر ؟ قلت : وما ذاك جعلني الله فداءك ؟ قالت : ألست القائل :

قالت وعَيْشِ أخي ونعمةِ والدي ... لأُنبِّهنّ الحيَّ إن لم تَخْرُجِ

فخرجتُ خَوْفَ يمينِها فتبسَّمَتْ ... فعلِمتُ أن يمينَها لم تَحْرَجِ

فتناولتْ رأسي لِتعرِفَ مَسَّه ... بَمُخَضَّبِ الأطراف غيرِ مُشَنَّجِ

لَثمْتُ فاها آخِذاً بقُرونِها ... شُرْبَ النَّزِيف بِبَرْد ماء الحَشْرَجِ

الغناء لمعبد ثقيل أول بالبنصر عن يونس وعمرو .

ثم قالت : قم فاخرج عني ، ثم قامت من مجلسها . وجاءت المرأة فشدت عيني ، ثم أخرجتني حتى انتهت بي إلى مضربي . وانصرفت وتركتني . فحللت عيني وقد دخلني من الكآبة والحزن ما الله به أعلم . وبت ليلتي ، فلما أصبحت إذا أنا بها ؛ فقالت : هل لك في العود ؟ فقلت : شأنك . ففعلت بي مثل فعلها بالأمس ، حتى انتهت بي إلى الموضع . فلما دخلت إذا بتلك الفتاة على كرسي . فقالت : إيه يا فضّاح الحرائر ! قلت : بماذا جعلني الله فداءك ؟ قالت : بقولك :

ونَاهِدَةِ الثَّدْيَيْنِ قلتُ لها اتَّكِي ... على الرملِ من جَبَّانةٍ لم تَوَسَّدِ

فقالتْ على اسمِ الله أمرُك طاعةٌ ... وإن كنتُ قد كُلِّفتُ ما لم أُعَوَّدِ

فلمّا دنا الإِصباحُ قالت فضحتني ... فَقُم غيرَ مطرودٍ وإن شئتَ فازدَدِ

... ثم قالت قم فاخرج عني . فقمت فخرجت ثم رددت . فقالت لي : لولا وشك الرحيل. وخوف الفوت، ومحبتي لمناجاتك والاستكثار من محادثتك، لأقصيتك، هات الآن كلمني وحدثني وأنشدني . فكلمت آدب الناس وأعلمهم بكل شيء . ثم نهضت وأبطأت العجوز وخلا لي البيت ، فأخذت

أنظر ، فإذا أنا بتور فيه خلوق ، فأدخلت يدي فيه ثم خبأتها في ردني . وجاءت تلك العجوز فشدت عيني ونهضت بي تقودني ، حتى إذا صرت على باب المضرب أخرجت يدي فضربت بها على المضرب ، ثم صرت إلى مضربي ، فدعوت غلماني فقلت : أيكم يقفني على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كف فهو حر وله خمس مئة درهم . فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال : قم . فنهضت معه ، فإذا أنا بالكف طرية ، وإذا المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان . فأخذت في أهبة الرحيل، فلما نفرتْ نفرتُ معها، فبصرت في طريقها بقباب ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك ، فقيل لها : هذا عمر بن أبي ربيعة ؛ فساءها أمره وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إليه : قولي له نشدتك الله والرحم أن تصحبني ويحك ! ما شأنك ؟ وما الذي تريد ؟ انصرف ولا تفضحني وتشيط بدمك . فسارت العجوز إليه فأدت إليه ما قالت لها فاطمة . فقال : لست بمنصرف أو توجه إلي بقميصها الذي يلي جلدها ؛ فأخبرتها ففعلت ووجهت إليه بقميص من ثيابها ؛ فزاده ذلك شغفاً . ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم ، حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وقال في ذلك[1]:

ضاق الغَدَاةَ بحاجتي صَدْرِي ويئستُ بعد تَقَارُبِ الأمرِ
وذكرتُ فاطمةَ التي عُلِّقْتُها عَرَضاً فيا لِحَوَادث الدَّهْرِ

إنه خيال مريض مشوَّه ؛ ذاك الذي يصدر عن الأصفهاني ، فهو يأبى إلا أن يختار أشرف النساء وأطهرهن ، ففاطمة التي يذكرها في قصته المزعومة هي

---

(١) «الأغاني» أبو الفرج الأصفهاني ، ١ / ١٩٦ ١٩٩ .

فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وهي زوجة الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز -رضوان الله عليه-.

أما إذا عدنا إلى متن الرواية ، ففي القصة أكاذيب مكشوفة ، من بينها دخوله معصوب العينين إلى منزل هو منزل ابن خليفة ، فأين حرسها وأهلها ومن حولها ممن يحميها ، إن الصورة التي رسمها الأصفهاني توحي بشدة بسذاجة راسمها فهو لا يدرس أحداث قصصه بعناية وكأنما يروي لأطفال لا يرجعون إلى صواب أو عقل يحميهم ، ثم إنه في شعره يقول: (عُلِّقْتُها عَرَضاً) ووصفه هذا يتعارض مع القصة بكاملها .

ومما يلحظ أن القدامى انتبهوا إلى إسفاف وعبث الأصفهاني في رواياته ونقوله ، يقول الإمام الذهبي : « إن الأصفهاني متهم في أمانته الأدبية والتاريخية؛ لأن الأصفهاني في كتابه «الأغاني» كان يأتي بالأعاجيب يحدثنا وأخبرنا، فمن يقرأ «الأغاني» يرى حياة العباسيّين حياة لهو ، ومجون ، وغناء كلها ، وهذا يناسب المؤلف وخياله وحياته من حوله »[1] .

فهو يحيل حياته وما فيه من شذوذ نفسي إلى أن يصور المجتمع بأكمله بذلك، ولا يمكن إغفال تأثير قصص الخيال على رواياته ، ولكن وكما نبَّه الإمام الذهبي فإن الأغرب فيما يقول هو إضفاء الحقيقة على جو الكذب الذي يصفه فيقول: حدثني وأخبرني وكأنما هو يعيش بينهم ؛ مع أن ما بينه وبين الخبر قد يتجاوز الثلاث مئة سنة .

---

(١) «ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ٣/ ١٢٣ .

الخاتمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام الأتمّين الأكملين على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، ومن تبعهم بإحسان وسار على هديهم إلى يوم الدين .

نقول: إن الخاتمة ليست إلا برزخاً ، يفصل عملاً ؛ ندعي إنجازه ، ليوصل بقناعات تنفتح على مشاريع مستقبلية ؛ تتم وتكمل خطوات كانت قد بدأت ؛ فالبحث هو مسيرة متواصلة من لدن عصر التدوين إلى أن يشاء الله -تعالى-.

وندعي أن موضوع الكتاب مُلِحّ وضروري لوعي المتلقي ، فهناك بعد مفقود في كتابة تاريخ الأدب العربي ، نعتقد أن ذاك البعد هو وعي المتلقي ؛ الذي همش ، فلربما كتب البعض مؤلفاتهم وهم منفصلون عن ذاك الوعي ، فأضحت بعض الكتب غير منسجمة مع الواقع ، وإنما تسبح في عالم تصوري لا تنضج فيه المفاهيم والرؤى ، بل وتختفي فيه الحقيقة حتى لكأنها تتوشح بوشاح يخفيها عن وهج الحقيقة، بل وكأنها تتبهرج بزيف الاعتقاد المرتسم على شفاه الحقيقة الميتة .

ومن النتائج التي أفرزها البحث انشغال مؤلِّفَي «الأغاني» و«مروج الذهب» بمنهجية واعية نمطية ، لها حدود واضحة ، ومعالم بارزة ، تنقاد إلى أسلوب ملتو ، خفي ، يخلط السم بالدسم .

فكان الاختيار واعياً ، فقد حاولَا طمس ملامح الرمز في عقلية الإنسان العربي والمسلم ، فطعنَا بالقبيلة العربية ، وبالأنصار وقريش ، ثم آل البيت والصحابة ، ثم العلماء وأصحاب المذاهب المعتبرة ؛ واعين بحقيقة أن ذاك الطعن هو أسلوب يراد من ورائه سلب مفهوم القدوة ، فلم يدعَا قبيلة إلا وغرزوا في جبينها رمحاً غائراً شوه ملامحها الحقيقية الناصعة .

ولم يدعَا سيِّداً مهاباً ، أو خليفةً بارزاً إلا وتناوشاه بمعاول هدم .

وقد تعددت طرق الهجوم والتشويه والإقصاء عن واجهة الاقتداء ، ما بين إظهار المثالب ، أو وصف بالدموية والغدر والعنف ، أو إلباسهم لباس الشهوة من نساء وثراء ، وخمر ، ولهو ، وعبث ؛ فلم نعد نرى ملامح حقيقية للإنسان العربي أو المسلم ، بل غدا مشوهاً ساعياً نحو الشهوات، وغدت النساء عاريات لعوبات، يتمايلن بغنج ، ودلال ، يقارعن الكؤوس ، ويشتهين الغلمان .

فهما قد ألصقَا صورة «ألف ليلة وليلة» أو ألف خرافة بمجتمع النقاء العربي الإسلامي ؛ التي صقلتها أيدي السنون الطويلة في بيداء المحنة والعوز ؛ والإيثار والكرم ؛ التي عاشها العربي آباداً مديدة .

وهما لم يكتفيَا بالطعن في العربي والمسلم بل اختارَا النساء بوصفهن حرز العربي ، ومكمن فخره ، ورمز نقائه ، فنالَا من أشرف نساء المسلمين بأسلوب دعيّ رخيص واختارَا أشرف بقاع الأرض ، لتكتمل صورة التشويه ؛ فلم يكن يحلو الغزل والعبث والمجون إلّا في رحاب المشاعر المقدسة أو بين أكناف بيت الله الحرام .

وفي سعيهما الحثيث نحو الإيهام قد وقعًا في متاهات التناقض والاضطراب، فكان التناقض جليًّا في ذكر الأشخاص أو الحوادث ، أو الأعداد أو التواريخ، مما يشير بوضوح إلى الصنعة في تلك الروايات والأخبار .

ولتحقيق أهدافهما ؛ كان لا بد لهما من المبالغة بل الإيغال في المبالغة فذكرَا أعداداً لا تستقيم مع الحساب العددي الدقيق ، فالجواري آلاف في القصور ، والأموال تنثر بالملايين على غناء بيتين أو ثلاثة من شعر رخيص ، ليُظهرَا الخلفاء والأمراء والقادة بمظهر بعيد عن الورع والعفة، والتحري الدقيق في مصارف أموال المسلمين.

ولم يحترمَا -في الغالب الأعم من نقولهما- عقل المتلقي ووعيه ، فأوردَا الخرافات، واستقصيَا الأغلاط العلمية ، واندامَا في خيال غريب عن مجتمعنا العربي والإسلامي ، فارتميَا في أحضان خرافات «ألف ليلة وليلة»، حتى لكأن القصص تتطابق معنىً ولفظاً ومضموناً ، فلم تبق من حدود تفصل بينهما .

أخيراً ؛ نسأله -تعالى- التوفيق والسداد ، ولعل الذي أوردناه أن يمسح الغبار عن وجوه طاهرة سكنت التراب ، وما عاد لها لسان يذب عنها الإفك والافتراء.

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المؤلف



المصادر

١- أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر ، علي الطنطاوي، دار المنارة ، جدة، ط١٢، ٢٠٠١م .

٢- الإصابة في تمييز الصحابة ، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ضبطه صدقي جميل العطار ، ط١ ،٢٠٠١م .

٣- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط١٥،٢٠٠٢م .

٤- الأغاني ، أبو فرج الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٥، ٢٠٠٨م .

٥- ألف ليلة وليلة ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٤، ٢٠٠٥م .

٦- الإكمال لتهذيب الكمال ، علي بن هبة الله بن ماكولا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ.

٧- إكمال المُعلِم بفوائد مسلم ، الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى التحصبي (٥٤٤هـ)، تحقيق د.يحيى إسماعيل ، دار الوفاء ، مصر ، ط٣، ٢٠٠٥م .

٨- الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، تحقيق د. مرسل فالح العجمي ، دار سعد الدين ، دمشق ، ط١، ٢٠٠٥م .

٩- إنباه الرواة على أنباء النحاة ، جمال الدين القفطي (٦٢٤)هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (د.ط)، (د. ت) .

١٠- أهرام مصر قلاع لاقبور، زهير علي شاكر ، دار الهلال ، مصر ، (د.ط)، ١٩٩٣م.

١١- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م .

١٢- البحر الزخار المعروف بسند البزار ، الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار ، (٢٩٢هـ)، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ٢٠٠٩م .

١٣- البداية والنهاية ، ابن كثير ، حققه د. أحمد أبو ملحم و د. علي نجيب عطوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م .

١٤- البلاغة الاصطلاحية ، د. عبده عبد العزيز قلقيله ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٤ ، ٢٠٠١م .

١٥- تاج العروس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق أبو الفيض الزَّبيدي (١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، الرياض ، (د.ط) ، (د.ت) .

١٦- تاريخ ابن الوردي ، عمر بن مظفر بن عمر الكندي ، تحقيق علي شبري ، ط١، ١٩٨٨م .

١٧- تاريخ الأمم والرسل والملوك ، الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٤٠٧هـ .

١٨- تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط١ ، ١٩٥٢م .

١٩- تاريخ مدينة السلام ، الخطيب البغدادي (٤٦٣) هـ ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط١ ، ٢٠٠١م .

٢٠- تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل ، د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، مطبوعات نادي المدينة المنورة (رقم ٢٠٥) ، (د.ط) ، ١٩٩٤م.

٢١- تفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤١٨هـ .

٢٢- تهذيب سيرة ابن هشام ، عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٨هـ .

٢٣- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، جمال الدين المزي ، تحقيق بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢م .

٢٤- جامع الترمذي ، الترمذي ، بيت الافكار الدولية ، الرياض، (د.ت)، (د.ط) .

٢٥- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، تحقيق محمد التونجي ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ط٢ ،٢٠٠٤م .

٢٦- حقبة من التاريخ ما بين وفاة النبي ﷺ إلى مقتل الحسين رضي الله عنه، عثمان ابن محمد الخميس، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (٤٣٠هـ) دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

٢٨- الحيوان في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٩- ديوان أبي نواس، دار مكتبة الثقافة العربية، بغداد، (د.ط)، (د.ت).

٣٠- رجال التاريخ، علي طنطاوي، دار المنارة، جدة، ط١٠، ٢٠٠٨م.

٣١- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٣٢- سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٣٣- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مراجعة وتحقيق شعيب الأرنؤوط، ومأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي، دار الآفاق، بيروت، (د. ط)، (د، ت)

٣٥- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

٣٦- صحيح مسلم بشرح النووي، المسمى المنهاج، الإمام مسلم بن الحجاج (٦٧٦هـ)، اعتنى به مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط١٠،

٢٠٠٤م.

٣٧- طبقات ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨م .

٣٨- العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ط١٢ ، ١٩٩٣م .

٣٩- العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ط١٠ ، ١٩٩٦م .

٤٠- العقد الفريد ، ابن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق محمد التونجي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م .

٤١- الفهرست ، ابن النديم ، (٣٨٠) هـ ، تحقيق يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية بيروت ، (د.ط)، ٢٠١٠م .

٤٢- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٣٤ ، ٢٠٠٤م .

٤٣- القاموس الإسلامي ، أحمد عطية الله ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١١ ، ١٩٧٠م .

٤٤- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، تحقيق مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧ ، ٢٠٠٣م .

٤٥- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط١١ ،(د.ت) .

٤٦- مجلة كلية الإمام الأعظم ، العدد الاول ، السنة الأولى ، ٢٠٠٥م ، التجديد في أنساق البناء الشعري في العصر العباسي الأول ، د.يوسف طارق .

٤٧- مجمع الأمثال الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

٤٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، شرحه د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٤م .

٤٩- مسالك الأبصار في ممالك الأبصار ، شهاب الدين أحمد بن يحيى ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠م .

٥٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٨م .

٥١- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، شهاب الدين ياقوت الحموي (٦٢٦)هـ ، تحقيق عمر فاروق الطباع ، مؤسسة المعارف بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م.

٥٢- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م .

٥٣- المعجم الفلسفي ، د. جميل صليبا ، دارالكتاب اللبناني ، بيروت، (د.ط)(د.ت).

٥٤- معجم ما استعجم ، عبد الله بن عبد العزيز أبو عبيد ، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ،(د.ت) .

٥٥- المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، دار الأمواج ، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م

٥٦- مقدمة ابن خلدون ، العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، اعتنى به

مصطفى شيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥م .

٥٧- مهارات الإملاء والتلفظ والإلقاء ، د. يوسف طارق ، مطبعة هيئة استثمار الوقف السني ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٩م .

٥٨- موارد الظمآن لدروس الزمان ، عبد العزيز المحمد السلمان ، مطابع الخالد ، الرياض ، ط٣٠ ، ١٤٢٤هـ .

٥٩- الموطأ ، الإمام مالك بن أنس ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ م .

٦٠- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، الإمام الذهبي (٧٤٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .

٦١- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط٢، ٢٠٠٧م .

٦٢- يتيمة الدهر ، الثعالبي ، تحقيق إبراهيم صقر مكتبة مصر ، القاهرة، (د. ط) ،(د.ت) .



فهرس المحتويات

الموضــــوع | الصفحة

الإهداء.. هـ

المقدمة .... ز

التمهيد – سيرة أبي الفرج الأصفهاني والمسعودي .... ك

الباب الأول: الطعن في العرب والمسلمين .... ذ

الفصل الأول: الطعن في الإسلام والمسلمين ٣٣

الطعن في الأنصار وقريش ٣٩

الطعن في آل البيت.. ٤٦

الطعن في الصحابة.. ٦٧

الطعن في أبناء الصحابة ٧٨

الطعن في أصحاب المذاهب والعلماء ٩٢

الموضــوع الصفحة

الفصل الثاني: الطعن في العرب والعروبة........................ ١٠٣

الطعن في أخلاق العرب ١١٠

الطعن في القبيلة ١١١

أخبار السيئين ١٤٣

الطعن في الخُلفاء... ١٥٠

الطعن في حصافة الخلفاء... ١٥٦

الخلفاء والخمر ١٧٧

الخلفاء والغناء.. ١٨٦

نسبة الأصوات ١٩٢

مدح البرامكة.. ٢٠١

الطعن في النساء الشريفات.. ٢٠٨

الطعن في نساء آل البيت ٢١٨

الموضـــوع الصفحة

الطعن في بنات الصحابة ٢٢١
الطعن في نساء الخلفاء........................ ٢٢٦
النساء الشريفات والمشاعر المقدسة ٢٣٦
الباب الثاني: الاغراب........................ ٢٤١
الفصل الأول: التناقض ٢٤٣
التناقض في ذكر الأسماء........................ ٢٤٦
التناقض في رسم الشخصية ٢٦٠
التناقض في رسم شخصية الخلفاء والنساء الشريفات ٢٧٢
التناقض المنطقي ٢٨٠
التناقض في الأحداث........................ ٢٨٤
التناقض في التواريخ والأعداد ٢٩٥
الفصل الثاني: المبالغة........................ ٣١١

الموضوع	الصفحة

المبالغة في أموال العطاء ٣١٣
المبالغة في العطاء ٣١٧
المبالغة في ذكر الأعداد ٣٣٥
الإحالة ٣٣٥
الإيغال ٣٤٦
المبالغة في ذكر الأحداث ٣٥٠
المبالغة في العلاقة بالمشاعر المقدسة والعبادات ٣٥١
المبالغة في البعد عن المألوف ٣٦٠
الأغلاط العلمية ٣٧١
الخرافة ٣٨٥
الخرافة في ذكر الحيوان ٣٨٥
الخرافة في علاقة الإنسان بالحيوان ٣٩٤

الموضـــوع الصفحة

الخرافة في ذكر الجن ٣٩٩

الفصل الثالث: ألف ليلة وليلة في الأغاني والمروج ٤١١

تطابق القصص.. ٤١٤

تطابق المظاهر ٤٢٦

الخاتمة ٤٥٥

المصادر ٤٥٩

فهرس المحتويات ٤٦٧

